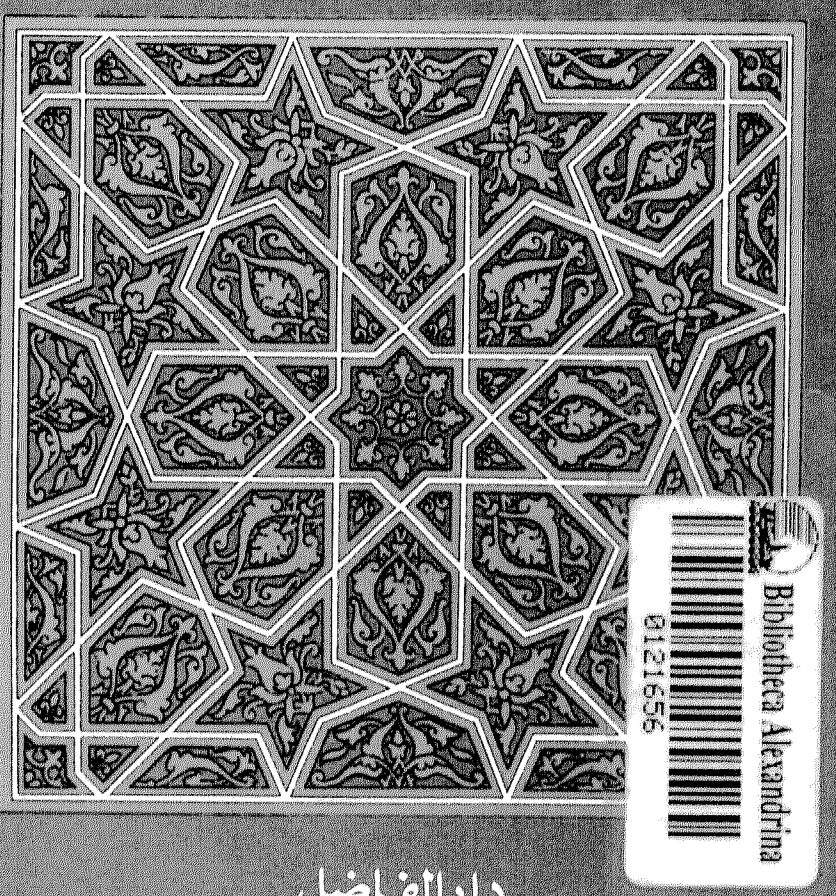
الإمام جعفر الصادق (ع)

في نظر علماء الغرب



دار الفاضل
للتأليف والترجمة والنشر



الإمام جعفر الصادق «ع»

في نظر علماء الغرب

نقله إلى العربية
الدكتور نور الدين آل علي

راجعه
الأستاذ وديع فلسطين



دمشق ١٩٩٥

دار الفاضل
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - شارع الحمراء - دخلة الحلواني - بناء الطيبي - ص.ب 3860
هاتف 223657 تلكس: فاديب 411201 برقياً: فاضلدار - دمشق

الإمام الصادق في نظر علماء العرب/ نقله إلى العربية نور الدين آل علي؛ راجعه وديع فلسطين . - دمشق. دار الفاضل، ١٩٩٥ . - ٤٥٣ ص؛ ٢٤ سم.

ع - ١٣٠٠/ ١٢ / ١٩٩٤

١ - ٢١٩,٨ آ ل ع إ   ٢ - العنوان   ٣ - آل علي

مكتبة الأسد

مقدّمة

تُعدُّ جامعة "استراسبورغ"من الجامعات الأوربية العريقة التي أُثر عنها اهتمامها بالدراسات الشرقية والإسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أهدت إلى المكتبة الشرقية مجموعة من الكتب والدراسات القيمة المتميزة بالعمق والموضوعية، وقد اعتادت هذه الجامعة على عقد الملتقيات العلمية العالمية المتعاقبة وفق نهج معين يتجلّى بدعوة كبار العلماء والباحثين من أنحاء العالم بعد تحديد موضوع جدير بالبحث، وقبل فترة لاتقل عن سنة أو سنتين من موعد انعقاد الملتقى، وذلك لإتاحة مهلة كافية لإعداد البحث العلمي.

ففي شهر أيار (مايو) من عام ١٩٦٨ نظّم مركز الدراسات العليا المتخصصة في تاريخ الأديان التابع لهذه الجامعة دورةً علمية جرياً على عادته، وقد تناولت هذه الدورة دراسة الشيعة الإمامية وتاريخها العلمي والحضاري، وخاصة حياة الإمام جعفر الصادق(ع)، وقد دعت الجامعة نخبة من علماء الاستشراق وأساتذة الجامعات في فرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا، وسويسرا، وبلجيكا، وأمريكا، إضافة إلى عدد من العلماء المتخصصين من جامعات الدول الإسلامية كلبنان وإيران، وكان عدد المشاركين في هذه الدورة (٢٥) مشاركاً منهم:

١ – البروفسور (أرمان آبل) (المولود عام ١٩٠٣) Armand ABEL

الأستاذ بجامعتي "بروكسل" و "كان" في بلجيكا.

٢ – البروفسور (جان أوبن) Jean AUBIN

الأستاذ بجامعة "السوربون" في باريس، وهو من المهتمين بدراسة اللغات الشرقية وخاصة الفارسية، من مؤلفاته: "تيمورلنك في بغداد"، "اللغة والقواعد الفارسية"، "دراسات عن إيران".

٣ – البروفسور (روبر برونشويك) (المولود عام ١٩٠١) Robert BRUNSHVIG

الأستاذ بجامعة "السوربون" في باريس سابقاً، وأستاذ اللغة العربية وحضارتها بجامعة "بوردو"، من مؤلفاته: "مظهر الأدب التاريخي والجغرافي في الإسلام"، "تاريخ الأسواق في الإسلام"، "أصول الفقه عند الإمامية".

٤ – البروفسور (كلود كاهن) (المولود عام ١٩٠٩) Claude CAHEN

رئيس قسم الدراسات التاريخية ومن الأساتذة بجامعة "السوربون" وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة "استراسبورغ". من مؤلفاته: "التاريخ الشيعي من عهد الصليبية"، "الإسلام والأقليات الطائفية خلال التاريخ"، " حفاوة نصارى الشرق بالإسلام".

٥ – البروفسور (أنريكو شيرولي) (المولود عام ١٨٩٨) Enrico CERULLI

أستاذ الدراسات الشرقية ونائب مدير المجمع العلمي الإيطالي بروما، ونائب رئيس معهد الدراسات الشرقية بروما، وعضو عدد من

المجامع العلمية الأوربية، من مؤلفاته: "تاريخ الأدب الأثيوبي والصومالي"، "علم الاجتماع الإسلامي"، "دانتي والإسلام".

٦ – البروفسور (هنري كوربن) (١٩٠٣ – ١٩٧٩) Henri CORBIN

رئيس كرسي الإسلاميات وأستاذ الدراسات الإسلامية بمدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس، وتلميذ المستشرق الكبير ماسينيون، نشر سلسلة كتب بعنوان "المكتبة الإيرانية" وهو أبرز من درس الشيعة والفلسفة، حتى بلغت مؤلفاته (٢٢٠) مؤلَّفاً منها: "حكمة الإشراق"، "الفصوص لابن عربي"، "الجهاد الروحي للشيعة".

٧ – البروفسور (توفيق فهد) Tufic FAHD

الأستاذ بجامعة "استراسبورغ" بفرنسا .

٨ – البروفسور (فرانشيسكو جبرائيلي) (المولود عام ١٩٠٤) Francesco GABRIELI

كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها بجامعة "روما" بإيطاليا، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، من مؤلفاته: "الشعر العربي وتأثره بنظرية أرسطو"، "تيار الأدب العربي المعاصر وصوره"، "تاريخ الأدب العربي وحضارة الإسلام".

٩ – البروفسور (ريتشارد جراملیون) Richard GRAMLION

الأستاذ بجامعة "هامبورغ" في ألمانيا .

١٠ – الأستاذة (آن لامبتون) (المولودة عام ١٩١٢) Ann M.S.LAMBTON

مديرة معهد الدراسات الشرقية والأستاذة فيه بجامعة "لندن" في إنكلترا، من مؤلفاتها: "قواعد اللغة الفارسية"، "المصطلحات الفارسية"، "تاريخ الإسلام".

١١ – البروفسورة (إيفون لينان دوبلفوند) Yvon L. de BELLEFONDS

مديرة معهد الأبحاث العلمية بباريس في فرنسا .

١٢ – البروفسور (ويلفريد مدلونك) Wilferd MADLUNG

الأستاذ بجامعة "شيكاغو" بالولايات المتحدة الأمريكية.

١٣ – البروفسور (هنري ماسه) (١٨٨٦ – ١٩٦٩) Henri MASSÉ

مدير قسم الدراسات الشرقية، وأستاذ هذه الدراسات بجامعة "استراسبورغ" في فرنسا، كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي الإيراني، من مؤلفاته: "حسن التصرف في تقاليد الشيعة"، "ملامح الحج إلى مكة في الشعر الفارسي"، "قصائد رثاء الأئمة عند الشيعة".

١٤ – الأستاذ الدكتور (سيد حسين نصر)

الأستاذ بجامعة "طهران" ورئيس الجمعية الفلسفية بإيران سابقاً.

١٥ – البروفسور (شارل بللا) (المولود عام ١٩١٤) Charles PELLAT

الأستاذ بجامعة "السوربون" في باريس بفرنسا، ومدير قسم الدراسات الإسلامية، ومدير دائرة المعارف الإسلامية في نشرتها الفرنسية، وهو من أخصب المستشرقين إنتاجاً، من مؤلفاته: "اللغة العربية وحضارتها"، "أدب البربر"، "الجاحظ وآثاره".

١٦ – البروفسور (روبر أرنالديز) Robert ARNALDEZ

الأستاذ بجامعة "ليون" في فرنسا، من مؤلفاته: "العقل وتعريف الحقيقة بحسب ابن حزم القرطبي"، "أوج الثقافة وانحطاطها في تاريخ الإسلام"، "القرآن وأصول الفقه".

١٧ – البروفسور (ألياش) ALIASH

الأستاذ بجامعة "كاليفورنيا" بلوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية.

١٨ – الأستاذة (دورن هينج كليف) Dorn HINGKELIF

الأستاذة بجامعة "لندن" في إنكلترا.

١٩ – البروفسور (فريتزيميير) FRAITZIMIER

الأستاذ بجامعة "بال" بسويسرا .

٢٠ – البروفسور (هانس مولر) Hence MOULER

الأستاذ بجامعة "فريبورغ" بألمانيا.

ثم قامت "**دار المطبوعات الجامعية الفرنسية**" في باريس عام ١٩٧٠ بنشر هذه الأبحاث الأكاديمية بالفرنسية، فتصدى العلامة الأستاذ "**ذبيح الله منصوري**" لترجمة النص الفرنسي إلى اللغة الفارسية بتصرف، وعندما رغب رجل الأعمال المحب للعلم الحاج "**محمد قبازرد**" في نشر هذه الدراسات باللغة العربية – وهو الذي يسجَل له اضطلاعه بنشر طائفة من الكتب الإسلامية والثقافية – عَهد بذلك إلى أستاذ متضلع من اللغات العربية والفارسية والفرنسية، ومتخصص في الدراسات الشرقية والإسلامية وفي

تاريخ الشرق الأوسط وحضارته من جامعة "السوربون"، هـو الدكتـور "**نـور الدين آل علي**" فقام بنقل هذا الكتاب مـن اللغتيـن الفارسية والفرنسية إلـى اللغة العربية بتصرف معززاً بإيضاحات وشروح مع الإحالة إلى مصادر عربية، ومن ثم قام بمراجعة هذه الترجمة أحد أعلامها في العالم العربي هـو الأستاذ "**وديع فلسطين**"، ودبـج مقدمتهـا الدكتـور "**محمـد عبـد المنعـم خفـاجي**" الأستاذ بجامعة "الأزهر" في القاهرة.

أما الإمام جعفر الصادق (ع) الذي تدور هـذه الأبحـاث جميعهـا فـي فلكه، وهو العَلَم الفقيه الثقة الصدوق الغنيّ عن التعريف، ويكفينا منه الإشارة إلى أنه الحفيد الرابع للرسول العربي الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وحفيد صاحبه الخليفة الراشدي الأول أبي بكـر الصديـق رضـي اللـه عنه من جهتين، مَنْ قال عنـه الإمـام أبـو حنيفـة: "مـا رأيت أحـداً أفقـه مـن جعفر بن محمد"، ومن قال فيه الإمام مالك: "اختلفت إليه زماناً فما كنـت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلٍّ، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته يحدّث إلاّ على طهارة"، ومن ذكره ابن حِبَّان صاحب "الثقات" فقال: "كان من سـادات أهـل البيـت فقهـاً وعلمـاً وفضـلاً"، والـذي لعلمـه كـان يقـول: "سلوني قبل أن تفقدوني؛ فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي".

وهكذا اجتمع للعناية بهذا السِّفر – فضلاً عن جلالـة الشـخصية التـي تناولها ببحوثه – عددٌ من الأساتذة الفضلاء، فاسـتحق لذلـك القيـام بنشـره وتعميم نفعه.

لذلك ولندرة هذا السِّفر في سوق الكتاب، وترفّعه عن أن يكون ذا صفةٍ تجارية، وتصدّره مكانة الكتب المهداة التي يهبها المرء لمحبّيه، رأت "**دار الفاضل**" أن تُشرك القارىء في جَنْي فائدته العلمية بإدراجه ضمن منشوراتها، كعادتها في اختيار الأجود من الكتب، والله من وراء القصد.



من هو الصّادق «ع»

وُلِدَ الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) في المدينة المنورة في يوم الإثنين السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين[1] أو سنة ثمانين للهجرة[2] . وأمّه هي فاطمة بنت قاسم بن محمد بن أبي بكر، المكنّاة بأم فروة، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، أي نسبها ينتهي إلى أبي بكر من ناحيتي الأب والأم.

وقام جده علي بن الحسين زين العابدين بتربيته ورعايته طوال مدة اثنتي عشرة سنة، فنهل منذ صباه من منهل جده زين العابدين (ع) في الأدب والفقه والمعارف الإسلامية والزهد والتقوى. أما والدة الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) فهي شهربانويه بنت يزدجرد بن شهريار بن كسرى، ويسمونها أيضاً شاه زنان، وقيل جهان بانويه، وقيل سلافة، وقيل خولة.

وكان أمير المؤمنين (ع) سمّاها مريم، وكانت تدعى سيدة النساء[3]. قضى الإمام زين العابدين (ع) بضع سنين في كنف جده الإمام علي أمير المؤمنين (ع)،

---

(١) أصول الكافي: للكليني ج١ ص ٤٧٢ .

مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب ج٤ ص ٢٨٠ .

(٢) الفصول المهمة : ص٢٠٨ ، ٢١٦ .

(٣) المناقب : ج٤ ص ١٧٦ .

ثم نشأ في مدرسة عمه الحسن وأبيه الحسين سبطي الرسول (ص) وتغذى من نمير علوم النبوة، واستقى من مصادر آبائه الطاهرين، فهو وارث علم جده علي (ع) وعمه الحسن (ع) وأبيه الحسين (ع)*.

وأما عن زهده وورعه ومواعظه، فهو إمام الزهاد وقدوة المتقين وهداية المتعظين، وقل أن تجد كتاب زهد وموعظة لم يرد فيه. "قال علي بن الحسين، أو قال زين العابدين (ع) ". وقد جاء في سيرة الإمام أنه كان يخطب الناس في كل جمعة ويعظهم، ويزهدهم في الدنيا، ويرغبهم في أعمال الآخرة، ويقرع أسماعهم بتلك المقاطع الفنية من ألوان الدعاء والحمد والثناء التي تمثل أروع صورة للعبودية المخلصة لله سبحانه وتعالى.

وقد ترك لنا زين العابدين (ع) هذه الأدعية والخطب في وثيقة سميت "بالصحيفة السجادية" تعتبر تراثاً ربانياً فريداً، يبقى على مرّ الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، فهذه الوثيقة هي حقاً ثمرة المدرسة المحمدية وتراثها الخالد، وقد قُدِّر للإمام زين العابدين (ع) أن يعاصر مرحلة من أدق المراحل التي مرت على الأمة الإسلامية في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

(*) ربيع الأبرار عن الزمخشري: روى عن النبي (ص) أنه قال: "لله من عباده خيرتان، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس". وكان علي بن الحسين يقول أنا ابن الخيرتين، لأن جده رسول الله (ص)، وأمه بنت يزدجرد، وقد قال فيه أبو الأسود الدؤلي:

وإن غلاماً بين كسرى وهاشم … لأكرم من نيطت عليه التمائم

المناقب ج٤ ص ١٦٧.

فقد شهد النصف الثاني من القرن الأول امتداداً للفتوح الإسلامية من الحجاز إلى أدنى الشرق وأقصى الغرب، فزعزع المسلمون عروش الأكاسرة والقياصرة، وضموا إليهم شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة، وأصبح المسلمون قادة القسم الأكبر من العالم المتمدن وقتئذ وخلال نصف قرن.

ومع أن هذه القيادة جعلت من المسلمين قوة كبرى على الصعيد العالمي من الناحيتين السياسية والعسكرية، إلا أنها عرضتهم لخطرين داهمين خارج النطاق السياسي والعسكري، وكان لابد من الإقدام على عمل حاسم للوقوف في وجههما:

أما الخطر الأول فهو الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات الأمم المتحضرة، وعلى أعراف تشريعية، وأوضاع اجتماعية مختلفة نتيجة لتفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً، وكان لابد من عمل على الصعيد العلمي يؤكد للمسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدة من الكتاب والسنة.

وكان لابد من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير، والممارس الذكي، الذي يستطيع أن يستنبط ما يفيده في كل ما يستجد له من حالات(٤)، فكان لابد إذن من تأصيل الشخصية الإسلامية، ومن بذر بذور الاجتهاد، وهو ما قام به زين العابدين علي بن الحسين (ع) الذي أنشأ حلقة للبحث والدرس في مسجد الرسول (ص) ليحدث الناس

---

(٤) الإمام محمد باقر الصدر: مقدمة "الصحيفة السجادية" ص ١٤ .

بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين ويمرّن النابهين منهم على الفقه والاستنباط.

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبير، منهم فقهاء المسلمين من الصحابة والتابعين الذين وردت أسماء بعضهم في كتب سير الصحابة من أمثال جابر بن عبد الله الأنصاري، وعامر بن واثلة الكناني، وسعيد بن جهان الكناني، وسعيد بن المسيب بن حزن. وقد قال زين العابدين (ع) عن الأخير: "سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار".

ومن التابعين سعيد بن جبير ومحمد بن جبير بن مطعم وأبو خالد الكابلي والقاسم بن عوف واسماعيل بن عبد الله بن جعفر وإبراهيم والحسن ابنا محمد بن الحنيفة وحبيب بن أبي ثابت وأبو يحيى الأسدي وأبو حازم الأعرج وسلمة بن دينار المدني وغيرهم(٥)، فجمع من حوله الفقهاء ورواة الحديث، وأقر المسلمون جميعاً بعلمه واستقامته وأفضليته، وانقاد الواعون منهم إلى زعامته وفقهه ومرجعيته، حتى لقد اعترف أعداؤه بفضله، واستنجدوا بعلمه وإرشاداته، فهذا عبد الملك بن مروان وقد اصطدم بملك الروم، الذي هدده باستغلال حاجة المسلمين إلى استعمال نقود بلاد الرومان في التعامل حيث أراد بذلك إذلال المسلمين وفرض شروطه عليهم، فوقف عبد الملك متحيراً، وضاقت به الأرض، وقال كما جاء في الرواية "أحسبني أشأم مولود وُلد في الإسلام".

---

(٥) المناقب ج٤ ص ١٣٦ .

وجمع أهل الرأي واستشارهم، فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل بـه، فقال له القوم: "إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر". فقال: "ويحكم، مَن؟ قالوا": "الباقي من أهل بيت النبي (ص) قال: "صدقتم"، وهكذا كان، فقد فزع إلى الإمام زين العابدين (ع)، الذي بعث ولده محمداً الباقر إلى الشام، وزوده بتعليماته الخاصة، فوضع خطة جديدة للنقد الإسلامي، وأنقذ الموقف عندئذ(٦) ولقد فصل الدميري في حياة الحيوان القول في هذه القضية وذكرها بالأرقام.

وإننا لو جمعنا ما قيل في علي بن الحسين زين العابدين (ع) وعلمه وفضله وزهده وعبادته لأصبح كتاباً مستقلاً، وروضة تسرّ الناظرين، ولكننا نخرج بذلك عن الهدف، وقصارى الأمر أن نسوق ما قاله بعض الأئمة فيه، فقد قال الزهري: "مارأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ولا أفقه منه". وقال سعيد بن المسيب: "ما رأيت قط مثل علي بن الحسين". وقال الإمام مالك: "إنما سمي زين العابدين لكثرة عبادته". وقال سفيان بن عيينة: "مارأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين زين العابدين، ولا أفقه منه". وعَدَّ الإمام الشافعي علياً بن الحسين " أفقه أهل المدينة".

وكانت مدرسة الإمام زين العابدين (ع) توطئة لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه، ودعامة لحركته الناشطة.

وقد استطاع الإمام بفضل هذا الأسلوب استقطاب الحركة الفكرية الإسلامية الأصيلة عند القراء وحملة الكتاب والسنة، حتى قال سعيد بن

---

(٦) المناقب : ج٤ ص ٣٠٣ – ومحمد باقر الصدر: مقدمة" الصحيفة السجادية" ص ٩٠.

المسيب: "إن القراء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب"(٧)

أما الخطر الثاني، فقد نجم عن موجة الرخاء التي عمّت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل وهيأت للمجتمع أسباب الانسياق مع ملذات الدنيا والإسراف في الزخرف وزينة الحياة، وقد وردت أخبار الترف والإسراف في كتب التاريخ والسيرة بكثرة، وحسبُنا في هذا المقام مراجعة كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني مثلاً، لنقف على أطراف ذلك.

وقد أدرك الإمام زين العابدين (ع) مدى هذا الخطر، وتصدى لعلاجه بدعوة المسلمين إلى التوجه إلى الله والدعاء له، واتخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج، واستطاع بما أوتي من بلاغة نبوية فريدة، وتمكن تام من أساليب التعبير العربي، وذهنية ربانية تتفتق عن أروع المعاني وأدقها في تصوير صلة الإنسان بربه ووجده بخالقه وتعلقه بمبدئه ومعاده، واستطاع بذلك وبما أوتي من المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جواً روحانياً يشد من عزيمة الإنسان المسلم أمام المغريات، ويشده إلى ربه.

هذه هي مدرسة الإمام زين العابدين (ع)، وهي المدرسة الأولى التي تعلم فيها الإمام جعفر الصادق (ع) منذ نعومة أظفاره برعاية جده واهتمامه به وحنانه الأبوي عليه.

---

(٧) المناقب ج٤ ص ١٣٦ .

وقد توفي الإمام زين العابدين (ع) سنة خمس وتسعين هجرية، وكان الصادق عندئذ في الخامسة عشرة أو في الثانية عشرة من عمره الشريف.

وآلت الإمامة والزعامة الروحية بعد الإمام زين العابدين (ع) إلى ابنه الإمام أبي جعفر محمد الباقر (ع).



الإمام أبو جعفر محمّد الباقر «ع»

ولد الإمام الباقر (ع) بالمدينة المنورة سنة سبع وخمسين من الهجرة النبوية، وكان أول مولود اجتمع بنسبه الإمامان الحسن والحسين (ع)، لأن أمه هي فاطمة أم عبد الله بنت الحسن بن علي، فهو هاشمي من هاشميين، وأول علوي من علويين، وأول فاطمي من فاطميين. أقام مع جده الحسين ثلاث سنين أو أربع وحضر واقعة كربلاء كما عاش مع أبيه زين العابدين أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر، أو تسعاً وثلاثين سنة، وبعد أبيه تسع عشرة سنة(٨) وعاصر من الخلفاء الأمويين وليداً بن يزيد، وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك وأخاه هشاماً والوليد بن يزيد وأخاه إبراهيم، وقُبض بالمدينة في ذي الحجة سنة أربع عشرة ومائة، وله يومئذ سبع وخمسون سنة مثل عمر أبيه وجده.

وهو ربيب مدرسة أبيه زين العابدين (ع)، وجامع علومه، ووارث فضائله ومكارمه، وقد قام بدوره بحمل عبء الإمامة الدينية والزعامة العلمية في عصره، فاجتذب إلى مدرسته الصديق والمعاند، والمحب والمبغض، واعترفوا جميعاً بفضله وعلمه.

---

(٨) المناقب ج٤ ص ٢١٠ .

سئل جابر الجعفي: "لِمَ سُمي الباقر باقراً؟" قال: "لأنه بقر العلم بقراً، أي شقّه شقّاً، وأظهره إظهاراً"(٩) ولم يكن اهتمامه منصباً على الفقه وعلوم القرآن فحسب، بل تعداهما إلى علوم أخرى كالحكمة والتاريخ والكيمياء واللغات وغيرها مما نرى أخباره أو إشارات عنه في تاريخ حياة الإمام، وفي طيات كتب السير والحديث.

ومما قاله موسى بن أكيل النميري: "جئنا إلى باب دار أبي جعفر (ع) نستأذن عليه، فسمعنا صوتاً حزيناً يقرأ بالعبرانية، فدخلنا عليه، وسألنا عن قارئه، فقال (ع): "ذكرت مناجاة إيليا فبكيت من ذلك"(١٠) . وروي عن سماعة بن مهران أنه قال: "جئنا نريد الدخول على أبي جعفر (ع)، فلما صرنا في الدهليز، سمعنا قراءة سريانية بصوت حزين، يقرأ ويبكي حتى أبكى بعضنا"(١١) .

وقد قيل إنه لم يظهر من أحد من أولاد الحسن والحسين عليهما السلام من العلوم ما ظهر منه من التفسير والكلام والفتيا. قال محمد بن مسلم: "سألته عن ثلاثين ألف حديث، وقد روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين"(١٢) . ووفد إليه كل طالب علم، واستقى من منهله العذب كل متعطش لمعرفة الحقيقة. فهذا الدهري

---

(٩) علل الشرايع ج١ ص ٢٣٣ وبحار الأنوار ج٤٦ ص ٢٣١ .

(١٠) المناقب ج٤ ص ١٩٥ .

(١١) المصدر السابق .

(١٢) المصدر السابق .

يسأله تارة، وهذا الخارجي يجادله أخرى، وهؤلاء أئمة المذاهب يأخذون عنه ويعترفون بعلمه وفضله وزهده.

فهذا الأبرش الكلبي يقول للإمام الباقر (ع): "يا ابن علي، هل قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان؟" . قال: "نعم"، قال" "فإني سائلك عن مسائل". قال:" فإن كنت مسترشداً فستنتفع بما تسأل عنه(١٣) .

وهذا عبد الله بن نافع الأزرق وهو من رؤساء الخوارج جاء ليسأل الباقر (ع) عن مسائل(١٤)، وتكلم رؤساء الكيسانية مع الباقر (ع) في حياة محمد بن الحنيفة وقد ردّ الإمام قولهم في ابن الحنيفة(١٥) .

وفي (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني): قال عبد الله بن عطاء المكي: ما رأينا العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر، يعني الباقر(ع)، ولقد رأيت الحكم ابن عيينة مع جلالته وسنّه عنده، كأنه صبي بين يدي معلم يتعلم منه".

عن محمد بن مسلم قال: "ماشجرني في قلبي شيء قط إلاّ سألت عنه أبا جعفر (ع) حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت أبا عبد الله (ع)* عن ستة عشر ألف حديث"(١٦) . وهناك أمور هامة في تاريخ حياة الإمام الباقر وسيرته (ع) تجدر الإشارة إليها؛ الأول، أن الإمام الباقر انصرف في مدرسته إلى إفادته النخبة الجليلة التي حملت لواء العمل ومشعل الهداية في كل قطر

---

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) المناقب ٤: ١٩٤ .

(١٥) المصدر السابق .

(١٦) الاختصاص ص٢٠١ ورجال الكشي ص ١٠٩ .

ومصر، وأن ابتعاد الإمام الباقر (ع) عن الزعامة السياسية وتفرغه للعلم كفاه أذى بعض الخلفاء الأمويين ويسر عليه أداء هذه الرسالة الروحية السامية، وقد كان حريصاً على نشر الرسالة العلمية في خفية عن الأعين واعتكاف عن الناس، نأياً بنفسه عن غضب السلطان، ودرءاً للعداوات والأحقاد.

عن أبي القاسم اللالكائي في "شرح حجج أهل السنة": قال أبو حنيفة لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (ع) : "أأجلس" وكان أبو جعفر قاعداً في المسجد، فقال أبو جعفر: "أنت رجل مشهور ولا أحب أن تجلس إلي". قال: "فلم يلتفت إلى أبي جعفر وجلس..."(١٧) وهذا جابر الجعفي يقول: "دخلت على أبي جعفر (ع) فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، فقال: ممن؟ قلت: من جعف. قال لِمَ قدمت إلي هاهنا؟ قلت: طلباً للعلم. قال: ممن؟ قلت: منك. قال: إذا سألك أحد من أين أنت فقل من أهل المدينة. قلت: أيحل لي أن أكذب؟ قال: ليس هذا كذباً. من كان في مدينة فهو من أهلها حتى يخرج"(١٨). .

ثانياً: إن الإمام الباقر (ع)، وهو زعيم المدرسة العلمية المحمدية بالمدينة، لم يمنعه اشتغاله بالإفادة والتدريس من العمل لكسب العيش، مهما كانت ظروف العمل وأوضاعه، فقد ضرب باضطلاعه بأعمال صعبه أروع الأمثلة على بذل الجهد والجد في طلب الحلال، ليكون بذلك إماماً وقدوة للعلماء العاملين، يقول محمد بن المنكدر: خرجت إلى بعض نواحي المدينة

---

(١٧) المناقب ج٤ ص ١٩٩ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

في ساعة حارة، فلقيت محمداً بن علي (الباقر)، وكان رجلاً بديناً، وهو متكىء على غلامين له موليين، فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا؟ فدنوت منه، فسلمت عليه، فسلم عليّ ببهر[19] وقد تصبب عرقاً، فقلت: أصلحك الله، لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟ فخلّى عن الغلاميين، ثم تساند وقال: لوجاءني والله الموت وأنا في هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله تعالى أكف بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله.

ثالثاً: كان الباقر (ع)، مع علمه وزهده، لا يحرم على نفسه ما أحل الله له من نِعَمِ الأكل والشرب واللباس. في "الكافي"، عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على أبي جعفر (ع)، فدعا بالغداء، فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أنظف منه ولا أطيب، فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد، كيف رأيت طعامك، أو قال: طعامنا؟ قلت: جُعلت فداك. ما رأيت أطيب منه قط، ولا أنظف. ولكني ذكرت الآية في كتاب الله عز وجل **﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾**[20] . فقال أبو جعفر (ع) : إنما تسألون عما أنتم عليه من الحق.

وفي "الكافي" عن زرارة قال: خرج أبو جعفر (ع) يصلي على بعض أطفالهم، وعليه جُبّة خَزّ صفراء، ومطرف خَزّ أصفر[21] .

---

(١٩) البهر بالضم: انقطاع النفس من الإعياء .

(٢٠) سورة التكاثر الآية (٨) .

(٢١) الكافي ج٦ ص ٢٨٠.

وأيضاً عن الحسن الزيات البصري قال: دخلت على أبـي جعفـر (ع) أنا وصاحب لي، فإذا هو في بيـت منجـد وعليـه ملحفـة ورديـة، وقـد حـفّ لحيته واكتحل، فسألناه عن مسائل....[٢٢] وأمـا عـن زهـده وورعـه وعبادتـه فحدّث ولا حرج، فهـو ربيـب زيـن العـابدين علـي بـن الحسـين (ع) . فـي "الكافي": عن ابن القداح عن أبي عبد الله جعفر (ع) قـال: كـان أبـي (ع) كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر اللـه، وآكـل معـه الطعـام وإنـه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم، وما يشغله ذلك عن ذكـر اللـه. وكنـت أرى لسانه لازقاً بحنكـه يقـول: لا إلـه إلا اللـه، ولقـد كـان يجمعنـا فيأمرنـا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كـان يقـرأ منـا، ومـن كـان لا يقرأ منا أمره بالذكر[٢٣] .

هذه هي بيئة الإمام الصادق (ع) وأسرته والمـدارس التـي تعلـم فيهـا وتخرج منها ممـا هيـأه لحمـل عـبء الإمامـة والزعامـة العلميـة الفريـدة فـي عصره.

وهـا نحـن مقبلـون علـى دراسـة حيـاة الإمـام الصـادق (ع) الحافلـة، والوقـوف علـى جوانـب علومـه وثقافتـه المتشـعبة. وقـد مـرّ أن الدراســات الإسلامية وكتابات علماء المسلمين عـن سيرة الرسـول (ص) وحيـاة الأئمـة (ع) انصبت، ومازالت، على جانب العبادة ومعرفة الحلال والحـرام، حتـى يومنـا هذا، في حين أن دراسة المستشرقين للإمام الصادق(ع) ومدرسـته العلميـة،

---

(٢٢) المصدر السابق ج٦ ص ٤٥٠ .

(٢٣) نفس المصدر ج٦ ص ٤٤٧ .

ركزت على الجوانب العلمية والتاريخية والاجتماعية. وفي هذه الدراسة يقف القارىء للمرة الأولى على نظريات الإمام الصادق (ع) العلمية في الكيمياء والفيزياء والنجوم والفلك وعلم الصحة والطب وغيرها، مع شروح ومقارنات تبين دقة النظرية وأهميتها وسبقها للاكتشافات العلمية التي تحققت في عصر النهضة في أوربا.

وقد تواتر القول بأن جابراً بن حيان، وهو أبو الكيمياء، قد تتلمذ على الصادق (ع)، وأنه جمع إفادات الصادق (ع) له في كتاب في ألف ورقة[٢٤] ولكن لم يتسنّ لأحد من الباحثين والمؤرخين أن يطرح مسألة علمية أفادها الإمام الصادق (ع)، أو أن يبرز أهمية تلك المسألة ويحللها ويشرحها.

على أن هذا الكتاب يطالعنا بأمثلة شتّى من القضايا والنظريات والنواميس العلمية التي أثارها الإمام الصادق (ع)، وقام بعض تلاميذه وأصحابه بإثباتها وتسجيلها، وهي في مجموعها تثير دهشة القارىء بسعة علم الإمام ودقة وصفه. فالقارىء يلقى نفسه تارة تلقاء عالم في الكيمياء، وكأنه خارج لتوّه من مختبره يحدّث طلابه بحصيلة تجاربه واختباراته، وهو تارة تلقاء عالم في الفلك، وكأنه تقدّم بالسبق والريادة على علماء الفلك في القرن العشرين في رصد حركات الفلك والمنظومات الشمسية، وهو تارة أمام طبيب حاذق يقوم بتشريح جسم الإنسان وتبيين الأمراض والأسقام وعللها وطرق معالجتها. فإذا انتقلنا من الجانب العلمي النظري إلى الجانب

---

(٢٤) الفهرست : ابن النديم .

الروحي، رأينا فيه ذلك العالم الرباني، والوجه الملائكي، والإمام القدوة لكل عالم وتقي، وقد قال عنه عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين(٢٥) .

ونودّ في هذه المقدمة أن نشير ولو بإيجاز إلى الجوانب غير المعروفة من ثقافة الإمام وعلومه لنثير شوق الطالب إلى مزيد من البحث والتنقيب اغترافاً من هذا البحر الزاخر.

من رأي الإمام علي (ع) أن الإمام ينبغي أن يكون عالماً بكل شيء، وأعلم الناس في كل علم وفن، فهو لسان ولغة، كما أنه يراعي ما يقتضيه حكم العقل، والإمامية ترى أن علم الإمام لايدخل فيه الرأي والاجتهاد، فيحاسب الإمام على المصدر والمسند، وإنما علمه إلهي موروث، ولدنيّ غير اكتسابي(٢٦) *.

فالإمام إذن في رأي الإمامية يعرف جميع العلوم والصنائع واللغات، وقد أفرد الشيخ المفيد (ق) فصلاً في كتابه "أوائل المقالات" سماه "القول في معرفة الأئمة بجميع الصنائع وسائر اللغات"، جاء فيه: (أقول إنه ليس يمتنع ذلك منهم، ولا واجب من جهة العقل والقياس، وقد جاءت أخبار عمن يجب تصديقه بأن أئمة آل محمد (ص) قد كانوا يعلمون ذلك...) وعلى قولي هذا جماعة من الإمامية. وقد خالف فيه بنو نوبخت، رحمهم

---

(٢٥) النووي: تهذيب الأسماء واللغات ١- ١٤٩ .

(٢٦) الإمام الصادق: محمد المظفر ١٣٩ - ١٨٥ .

(*) لدنيّ: من لدن العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿من لّدنّا علماً﴾.

ا لله، وأوجبوا ذلك عقلاً وقياساً، ووافقتهـم في المفوّضـة كافـة وسـائر الغـلاة(٢٧).

ولكـي نعطـي الطـالـب الـدارس مفتـاح عبقربـة الإمـام وشـخصيته الفـذة نشـير إلى أنـه (ع) كـان يتقـن لغـات الأمـم المتحضـرة فـي عصـره، واللغـة هـي المفتاح أو المنفذ إلى ثقافة أهلها كما هو معروف، وسنورد طرفاً من اللغات التي كان يعرفها الإمام الصادق (ع) ويتحدث بها*، ثم طرفـاً مـن اهتمامـه بالطب والفلك والكيمياء، وهي علوم يدور حولها معظم أبحاث هـذا السـفر النفيس.

(٢٧) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: الشيخ المفيد ص ٣٨ طبع قم، إيران .

(*) وقد مرّ بنا أن الإمام الباقر (ع) يقرأ بالعبرانية والسريانية.



جوانب من علومه وثقافته

١ – معرفته باللغات

مرّ في تاريخ حياة الإمام الباقر (ع) أنه كان يعرف العبرية والسريانية، وأن جدته، أي والدة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، كانت الأميرة الفارسية شهربانو بنت كسرى يزدجرد. فلا عجب أن يعرف الإمام جعفر الصادق (ع) هذه اللغات وثقافات أممها، وأن ينطلق في التحدث أو القراءة والكتابة فيها، وسيأتي أثناء عرضنا لبعض الروايات المأثورة عن الإمام أبي عبد الله (ع) ما يثبت ذلك، وفضلاً عن إتقانه لهذه اللغات، كان يعرف النبطية والصقلبية والحبشية ويتحدث بها أيضاً.

أ – الفارسية:

عن محمد بن أحمد عن أبي عبد الله قال: دخل عليه قوم من أهل خراسان، فقال ابتداء من غير مسألة: "من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر". فقالوا: "جُعلنا فداك، لانفهم هذا الكلام"، فقال عليه السلام: "أزباد آيد بدم بشود"[٢٨] (ماتأتي به الريح يذهب به).

---

(٢٨) بصائر الدرجات ج٧ باب ١١ ص ٩٦ .

وقال أحمد بن محمد بن الأهوازي عن النضر عن يحيى الحلبي عن أخي مليح عن فرقة: "كنت عند أبي عبد الله (ع) وقد بعث غلاماً أعجمياً، فرجع إليه، فجعل يغير الرسالة فلا يخبره، حتى ظننت أنه سيغضب. فقال له: تكلم بأي لسان شئت")(٢٩) .

وعن أبي بصير أنه قال: كنت عند أبي عبد الله (ع) وعنده رجل من أهل خراسان وهو يكلمه بلسان لا أفهمه(٣٠) .

وأيضاً في "بصائر الدرجات"، دخل على أبي عبد الله (ع) قوم من أهل خراسان فقال ابتداءً: "من جمع مالاً يحرسه، عذبه الله على مقداره". فقالوا بالفارسية: "لانفهم العربية". فقال (ع) لهم: "هركه درم اندوزد جزايش ذوزخ باشد".

وكان مجلسه ودرسه يجمع أحياناً بين العرب والعجم على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، فيحدث كلا منهم بلغته، ويفهمه بلسانه.

وعن أبان بن تغلب قال: غدوت من منزلي بالمدينة وأنا أريد أبا عبد الله (ع)، فلما صرت بالباب، وجدت قوماً عنده لم أعرفهم، ولم أر قوماً أحسن زياً منهم، ولا أحسن سيماء منهم، كأن الطير على رؤوسهم، فجعل أبو عبد الله (ع) يحدثنا بحديث، فخرجنا من عنده، وقد فهم خمسة عشر نفراً منها متفرقي الألسن، منها اللسان العربي والفارسي والنبطي والحبشي والصقلبي. فقال البعض: ماهذا الحديث الذي حدّثنا به؟ قال له آخر لسانه

---

(٢٩) المصدر السابق ج٧ باب ١٢ ص ٦٧ (وفيه فلا يخبرنا) .

(٣٠) الاختصاص ٣٢٥ .

عربي: حدّثني كذا بالعربية. وقال الفارسي: ما فهمت، إنما حدّثني كذا وكذا بالفارسية. وقال الحبشي: ماحدّثني إلاّ بالحبشية. وقال الصقلبي: ماحدّثني إلاّ بالصقلبية، فرجعوا إليه، فأخبروه، فقال (ع) : الحديث واحد، ولكنه فسر لكم بألسنتكم[٣١]

ب ـ العبرية:

وأما معرفته بالعبرية وتحدثه بها فممّا لاشك فيه أيضا. فقد جاء في ثنايا الأحاديث المروية عنه ما يثبت ذلك، وسنسوق حديثنا عنه (ع) استشهاداً لا استقراء.

في "بصائر الدرجات" : عن عامر بن علي الجامعي قال: قلت لأبي عبد الله (ع) جُعلت فداك، إنّا نأكل ذبائح أهل الكتاب، ولا ندري أيسمون عليها أم لا؟[٣٢]

فقال: إذا سمعتموهم قد سموا، فكلوا، أتدري ما يقولون على ذبائحهم؟

فقلت: لا.

فقرأ، كأنه شبه يهودي، قد عذها، ثم قال: بهذا أمروا.

---

(٣١) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٩٩ ، قال الجزري في "صفة الصحابة": كأنما على رؤوسهم الطير، وصفهم بالسكون والوقار وأنه لم يكن فيهم طيش ولا خفة لأن الطير لاتكاد تقع إلا على شيء ساكن " أسد الغابة ١/٣٦.

(٣٢) التسمية: النطق باسم الله عند الذبح، عملاً بالآية الكريمة ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه**﴾ الأنعام آية/١٢١.

فقلت: جُعلت فداك، إن رأيت أن أكتبها.

قال: اكتب: "نوح أيوا أدينوا يلهيز مالحوا عالم اشرسوا أو رصوبنوا (يوسعه) موسق ذعال اسطحوا"(٣٣) .

وفي حديث آخر جاء النص كالآتي: "باروح أنا أدوناي ايلوهنوا ملخ عولام اشرفدشنوا عبسوتا وسينوانوا على هشخيطا". يعني تباركت أنت الله إلهنا مالك العالمين الذي قدسنا بأوامره، وأمرنا على الذبح(٣٤)

ج - النبطية*

بدخول الإسلام بلاد الشام وفلسطين (بيزنطة الشرقية) ازداد الأنباط في حاضرة العالم الإسلامي، سواء الأحرار منهم أم الموالي، وكَثُر التزاوج بينهم وبين العرب، فتعلم البعض النبطية من هذا الاختلاط.

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يعرف النبطية ويتحدث بها. ولا شك أن أبناءه الكرام الذين تخرجوا من مدرسته وتخلقوا بأخلاقه هم حملة علمه ووارثو فضله*

فهذا أمير المؤمنين (ع) حين أتى أهل النهروان، نزل "قطفتا" فاجتمع

---

(٣٣) ج٧ باب ١١ ص ٩٥ وبحار الأنوار ج٤٧ ص ٨١ .

(٣٤) المناقب ٤: ٣١٨ والدمعة الساكبة أيضاً .

(*) ذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات عن علي عليه السلام أنه قال: وإن تسألوا عنا فأنا نبط من كوثى – انظر مادة كوثى (على وزن موسى).

(*) وفي عقيدة الشيعة أن النبي محمد (ص) والأئمة من بعده (ع) يعرفون جميع اللغات بالعلم اللدني من الله سبحانه، ولهم على ذلك أدلة ليس هنا مجال لذكرها.

إليه أهل "بادوريا"[٣٥] فشكوا إليه ثقل خراجهم، وكلّموه بالنبطية، وقالوا أن لهم جيراناً أوسع أرضاً وأقلّ خراجاً، فأجابهم بالنبطية "رعر روظا من عوديا"، أي ما معناه، رُبَّ رجز صغير خير من رجز كبير[٣٦] وهذا يونس بن ظبيان النبطي يحدّثه الإمام الصادق (ع) بالنبطية ويخبره عن أول خارجة خرجت على موسى بن عمران، وعلى المسيح، ثم على أمير المؤمنين بالنهروان. ثم قال لي: كيف "مالح دير بير ماكي مالح"، يعني عند قريتك، وهو بالنبطية[٣٧]

فمن خلال هذا العرض السريع والإشارات الواضحة، يبين أن الصادق (ع) كان على معرفة تامة بلغات أهل عصره وأبناء مجتمعه مهما بعدت أوطانهم واختلفت ثقافاتهم.

٢ – الطب

لاريب في أنَّ الإمام جعفراً الصادق (ع) كان على إلمام تام بالطب وما يتعلق به. وقد تحدث وأبان، في ما روي عنه، عن الطبائع والأمزجة، وعن الأشياء ومنافعها ومضارّها، مما يثبت وقوفه على هذا العلم.

وقد جمع بعض علماء السّلف شيئاً كثيراً من آراء الأئمة في الطب وسماه "طب الأئمة"، ويروي المجلسي (قد) الكثير عن هذا الكتاب في

---

(٣٥) بادوريا: طسوج من كورة الأستان بالجانب الغربي من بغداد (معجم البلدان).

(٣٦) بصائر الدرجات ج ٧ باب ١١ ص ٩٦ .

(٣٧) نفس المصدر ج ٧ باب ١١ ص ٩٧ .

كتابه "بحار الأنوار" وكذلك الشيخ الحرّ العاملي في "وسائل الشيعة"، إلاّ أن هذا الكتاب لا وجود له اليوم.

وقد خصّص الإمام الصادق (ع) في ما ألقاه على المفضّل بن عمر الجعفي فصلاً تحدث فيه عن الطبائع وفوائد الأدوية وتشريح الجسم ومعرفة وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا).

وفي ثنايا كتب الأحاديث وما إليها حديث مستفيض من كلام الإمام الصادق (ع) عن خواص الأشياء وفوائدها وعلاج الأمراض والأوجاع والحمية والوقاية. وسنورد بعض هذه الأحاديث للتدليل على هذا القول تدليلاً قاطعاً.

قال محمد بن مسلم سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: ما وَجَدْنا للحُمّى مثل الماء البارد. وفي حديث آخر: الحُمّى من فِيح جهنم. فأطفئوها بالماء البارد(٣٨) .

وفي وجوب غسل الفاكهة قبل الأكل قال (ع) : "إن لكل ثمرة سماً، فإذا أتيتم بها فأمسكوها واغسلوها بالماء"(٣٩) .

وفي "الكافي" عن أحمد بن محمد عن بعض أصحابه قال : كنت أجالس أبا عبد الله (ع) فلا والله ما رأيت مجلساً أنبل من مجالسه. قال: فقال لي ذات يوم: من أين تخرج العطسة؟.

فقلت : من الأنف.

---

(٣٨) وسائل الشيعة ٢ : ٦٤٧ .

(٣٩) المصدر السابق كتاب الأطعمة والأشربة ٣ : ٢٧٦ .

فقال لي: أصبت الخطأ.

فقلت: جُعلت فداك، من أين تخرج؟

فقال: من جميع البدن، كما وأن النطفة تخرج من جميع البدن... أما رأيت الإنسان إذا عطس نفض أعضاءه؟(٤٠)

وهذا ابن ماسويه، أشهر أطباء عصره، ينصت للإمام الصادق (ع) في شرحه وتوضيحه للطبائع وعلى الأمراض. وحدَّث أبو هفان في محضر ابن ماسوية* بأن جعفراً بن محمد (ع) قال: الطبائع أربع: الدَّم وهو عبد، وربما قتل العبد سيده، والرّيح، وهو عدو، إذا سددت له باباً أتاك من آخر. والبلغم وهو ملك يدارى، والمرة، وهي الأرض إذا رجفت رجفت بمن عليها. فقال ماسويه: أعد علي، فوالله ما يحسن جالينوس أن يصف هذا الوصف(٤١)

وقد فصّل (ع) الحديث عن الهيكل العظمي والأعصاب والجوارح في جسم الإنسان وشرحها شرحاً دقيقاً عندما سأله الطبيب النصراني عن ذلك. فقد روى سالم الضرير: أن نصرانياً سأل الصادق (ع) تفصيل الجسم، فقال (ع): إن الله تعالى خلق الإنسان على اثني عشر وصلاً، وعلى مئتين وستة وأربعين عظماً، وعلى ثلاث مئة وستين عرقاً. فالعروق هي التي تسقي الجسد كلّه، والعظام تمسكها، والشحم يمسك العظام، والعصب يمسك

---

(٤٠) الأصول من الكافي ٣ : ٦٥٧ .

(*) هو يوحنا بن ماسويه من أطباء العصر العباسي المشهورين وقد توفي عام ٢٣٤ هـ .

(٤١) المناقب ٤: ٢٥٩.

اللحم. وجعل في يديه اثنين وثمانين عظماً في كل يد واحد وأربعون عظماً، منها في كفّه خمسة وثلاثون عظماً، وفي ساعده اثنان، وفي عضده واحد، وفي كتفه ثلاثة، وكذلك الأخرى.

وفي رجله ثلاثة وأربعون عظماً، منها في قدمه خمسة وثلاثون عظماً، وفي ساقه إثنان، وفي ركبته ثلاثة، وفي فخذه واحد، وفي وركه اثنان، وكذلك في الأخرى.

وفي صلبه ثماني عشرة فقارة، وفي كل واحد من جنبيه تسعة أضلاع، وفي عنقه ثمانية، وفي رأسه ستة وثلاثون عظماً، وفي فيه ثمانية وعشرون واثنان وثلاثون(٤٢) .

ولا يتسنى تفصيل الجسم البشري والهيكل العظمي بهذه الدّقة إلاّ لمن أُتيحت له فرصة دراسة الطبّ والتّشريح. وقد أفاد الإمام (ع) غيره بهذا لعلم، وتخرج من مدرسته هذه عددٌ من أصحابه.

ومن خريجي مدرسة الإمام الصادق (ع) العلمية في مجال الطب والصيدلة جابر بن حيان الطرطوسي. فهو بالإضافة إلى تخصصه في الكيمياء صنّف مؤلفات في الطب أورد منها ابن النديم: "رسالة في الطب" و "كتاب السموم" و "كتاب المجسة" و "كتاب النبض" و "كتاب التشريح"(٤٣) .

---

(٤٢) المناقب ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٤٣) الفهرست ٣١٢ .

وكان جابر بن حيان أول من أشار إلى طبقات العين، فسبق بذلك يوحنا بن ماسويه المتوفى سنة (٢٤٣هـ)، وسبق حنين بن إسحاق المتوفى سنة (٢٦٤هـ)، وهما من أعلام الطب في هذا العصر.

ومن أبناء هذه المدرسة أبو علي الحسن بن فضل، وهو من أصحاب الإمام الرضا (ع) ومن علماء الشيعة العظام في عصره الذين برعوا في علم الطب وألّفوا فيه. ومن مؤلفاته "كتاب الطب" و "كتاب النجوم"(٤٤) .

٣ - الكيمياء

تتزايد أهمية الكيمياء يوماً بعد يوم، وتثبت التجارب العلمية الحديثة أن الحياة تتألف من عمليات كيميائية معقدة، كما ثبت أن الوراثة وليدة للتفاعلات الكيميائية.

بل أثبت العلم أن الكواكب والأرض تكونت نتيجة لعمليات كيميائية مستمرة، كما أن التغيرات التي تطرأ على الكون هي في كثير من الحالات ذات طبيعة كيميائية.

ومن الشائع الثابت أن الإمام الصادق (ع) كان على علم بخواص الأشياء منفردة ومركّبة، وأنه درّس علم الكيمياء في مدرسته قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن. واشتهر من تلامذته في هذا العلم هشام بن الحكم المتوفى حوالي سنة (١٩٩ هـ) وهو من أصحاب الصادق (ع) وتلامذته، وله نظرية

---

(٤٤) المرجع السابق .

في جسميّة الأعراض كاللون والطعم والرائحة، وقد أخذ إبراهيم بن سيّار النّظام المعتزلي هذه النظرية لمّا تتلمذ على هشام.

وقد أثبتت صحة هذا الرأي النظريات العلمية الحديثة القائلة: إن الضوء يتألف من جزئيات في منتهى الصغر، تجتاز الفراغ والأجسام الشفافة، وأن الرائحة أيضاً من جزئيات متبخرة من الأجسام تتأثر بها الغدد الأنفية، وأن المذاق جزئيات صغيرة تتأثر به الحليمات اللسانية.

ومن تلامذة الإمام الصادق (ع) الذين اشتهروا ببراعتهم في الكيمياء والعلوم الطبيعية جابر بن حيان الصوفي الطرطوسي، الذي دون وألف خمسمائة رسالة من تقريرات الإمام (ع) في علمي الكيمياء والطب في ألف ورقة(٤٥) .

وقد ذكره ابن النديم في الفهرست وأطال فيه الكلام، وذكر له كتباً ورسائل في مختلف العلوم ولاسيما في الكيمياء، والطب، والفلسفة والكلام.

وقد أكبر المؤلفون المسلمون منزلة جابر، وعدّوه مفخرةً من مفاخر الإسلام. ولابدع، فإن من تزيد مؤلفاته على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة في مختلف العلوم، وجلّها في العلوم النظرية والطبيعية التي تحتاج إلى زمن طويل في تجاربها وتطبيقاتها، لجدير بالتقدير والإكبار.

وقد تمكن جابر من تحقيق وتطبيق طائفة كبيرة من النظريات العلمية، أهمها تحضير (حامض الكبريتيك) بتقطيره من الشبّة. وسماه (زيت الزاج). كما حضر (حامض النتريك) و (ماء الذهب) و (الصودا الكاوية).

---

(٤٥) ابن حلكان في أحوال الصادق ١ : ١٥٠ وكتاب الفهرست .

وكان جابر أوّل من لاحظ ترسّب (كلورود الفضة) عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول (نترات الفضة).

وينسب إليه تحضير مركّبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم وغير ذلك مما له أهمية كبرى في صنع المفرقعات والأصباغ والسماد الصناعي والصابون وما إلى ذلك.

ولم تقف عبقرية جابر في الكيمياء عند حد تحضير هذه المواد فحسب، بل انبعث منها إلى ابتكار شيء جديد في الكيمياء هو ما سمّاه بعلم "الميزان"، أي معادلة ما في الأجساد والمعادن من طبائع، وقد جعل لكل جسدٍ من الأجساد موازين خاصة بطبائعه، وكان ذلك بداية لعلم المعادلات في طبائع كل جسم[٤٦] .

وقد امتدّ نشاط جابر إلى ناحية أخرى من الكيمياء هي التي يسمونها بالصنعة، أي تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة من ذهب وفضة. ويعد جابر رائداً لمن أتى بعده من العلماء الذي شُغفوا بهذه الناحية من الكيمياء، كالرازي وابن مسكويه والصغرائي والمجريطي والجلدكي.

وكانت نظرية تحويل المعادن إلى ذهب أو فضة نظرية يونانية قديمة فُتن بها المسلمون من بعدهم، فوضع جابر فيها رسائل كثيرة، وشرح قواعدها وأصولها في كتبه المتعددة.

يقول ابن النديم: "حدثني بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه (أي جابر) كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب، وقال

---

(٤٦) فلاسفة الشيعة ص ٦٣ .

لي هذا الرجل أن جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة، وبها كان يدير "الأكسير" لصحة هوائها، ولمّا أصيب الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب، في نحو مائتي رطل. كان من موضع دار جابر بن حيان، فإنه لم يصب في ذلك الأزج غير الهاون فقط"(٤٧) .

ويعتقد الدكتور محمد يحيى الهاشمي أن الذي يقصده جابر "بالأكاسير" هو "الراديوم" نفسه، أو أحد الأجسام المشعة فيقول: "ومما يزيد إعجابنا ادعاء جابر بأن هذا السر له دخل في جميع الأعمال، وأننا إذا أمعنا النظر في الوقت الحاضر، لوجدنا اكتشاف الأجسام المشعة التي تؤدي إلى قلب عنصر المادة وتحطيم الذرة لم يكن من نتائجها القنبلة الذرية فحسب بل إيجاد منابع قوى جديدة لم تكن تطرق على بال الإنسان"(٤٨) .

وصلت نظرية "الصنعة" ضرباً من ضروب الآمال والأحلام بل الأوهام، وكان من يشتغل بها يُرمى بالعته والهوس، حتى إن الكندي وابن خلدون نبذا هذه الفكرة، وأكدا عدم إمكان تحويل أي عنصر إلى عنصر آخر.

غير أن ما حدث في عام ١٩١٩ من تحطيم ذرات "النتروجين" وتحويلها إلى ذرّات "الأكسجين" و "الهيدروجين" قد بدّل مفهوم هذه الفكرة، وأثبت إمكان تحقيقها بالفعل.

---

(٤٧) الفهرست: ٤٩٩ .

(٤٨) الإمام الصادق ملهم الكيمياء: ١٥٦ للأستاذ محمد يحيى الهاشمي/مطبعة النجاح بغداد / ١٩٥٠م .

وقد توالت بعد ذلك تجارب شطر نواة الذرة، باستخدام قذائف من جُسيمات "ألفا" أي نوى "الهليوم"، ومن جسيمات أخف ولكن أكبر أثراً منها وهي البروتونات أي نُوى "الهيدروجين" بعد إطلاقها بسرعة فائقة، وأمكن بذلك شطر نواة الذرّة وتحويل عدد من العناصر إلى عناصر أخرى، كتحويل الهيدروجين إلى عنصر الهليوم، وتحويل الصوديوم إلى مغنسيوم، والليثيوم والبورون إلى هيليوم، فتحقق فعلاً أمر تحليل العناصر وتحويل بعضها إلى بعض.

وقد أفرد الأستاذ محمد يحيى الهاشمي لهذا الموضوع كتاباً سماه "الإمام الصادق ملهم الكيمياء"(٤٩)، نحيل إليه القارىء طلباً لمزيد من البحث.

وللمستشرق الفرنسي بول كراوس (٥٠) (Kraus) كتاب وبحث مستفيضان حول شخصية جابر بن حيان العلمية، وإن كان فيهما ما يدعو إلى التأمل والمناقشة، خاصة استبعاد، لبعض هذه النظريات العلمية في عصر الصادق (ع) . وقد قام الكاتب والعالم المصري إسماعيل مظهر بمناقشة آراء كراوس والرد على ما أورده، من شكوك واهية، في سلسلة مقالات نشرتها مجلة "المقتطف"(٥١) . كما أن الأستاذ أحمد زكي صالح نشر سلسلة أخرى من المقالات في نفس الموضوع في مجلة "الرسالة"

---

(٤٩) الإمام الصادق ملهم الكيمياء: مطبعة النجاح ، بغداد ١٩٥٠ .

(٥٠) P.Kraus: Jabir Ibn Hayan,
Contribution L'histoire des idées scientifiques dans l'Islam, Le Caire, 1943.

(٥١) مجلة المقتطف في أعدادها (٦٨ : ٥٤٤ – ٥٥١ – ومن ٦١٧ – ٦٢٥) .

المصرية[٥٢] . وللفيلسوف الفرنسي هنري كوربن بدوره مؤلف عن جابر بن حيان وكتابه الكيمياء[٥٣].

٤ – علم الهيئة والنجوم

كان الإمام الصادق (ع) من علماء الفلك والنجوم* ، وله آراء ونظريات في دوران الكرة الأرضية وحركتها، وفي مقدار أشعة النجوم، وحركة الضوء. وكان يلقي دروسه وإفاداته في هذا العلم على تلاميذه وطلاب العلم، ويناقش محترفي علم النجوم، ويصحح آراءهم، ويوضح لهم أخطاءهم.

دخل على الصادق (ع) منجم يماني،

فسأله الإمام: ما صناعتك ياسعد؟

قال: أنا من أهل بيت ننظر في النجوم.

فقال: كم ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟

قال: لا أدري.

قال: فكم ضوء القمر على ضوء الزهرة درجة؟

---

(٥٢) مجلة "الرسالة" (السنة الثامنة ص ١٢٠٤ – ١٢٠٦ ومن ١٢٣٥ – ١٢٣٧ ومن ١٢٦٨ – ١٢٧٠ ومن ١٢٩٩ – ١٣٠٢).

(٥٣) انظر المقدمة .

(*) قولنا إن الإمام عالم بالفلك والنجوم لا يعني أنه فلكي أو منجم .

قال: لا أدري.

قال: فكم للمشتري من ضوء عطارد؟

قال: لا أدري.

قال: فما اسم النجوم التي إذا طلعت هاجت البقر؟

قال: لاأدري.

قال: يا أخا أهل اليمن، عندكم علماء؟

قال: نعم. إن عالمهم ليزجر الطير ويقفو الأثر في الساعة الواحدة مسير سير الراكب المجد.

فقال (ع) : إن عالم المدينة* أعلم من عالم اليمن، لأن عالم المدينة ينتهي إلى حيث لايقفو الأثر ويزجر الطير، ويعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس.

قال: ما ظننت أن أحداً يعلم هذا ويدري(٥٤) .

كان هذا الفكلي من اليمن التي كانت من مراكز الاهتمام بالنجوم وعلم الفلك بين النهرين وواسط. وقد جاء فلكي من "واسط" ودخل على الإمام الصادق (ع)، فسأله الصادق (ع) عن المنظومة الشمسية وحركة الكرة الأرضية، وجرى بينهما حوار مفصل ورد في "الكافي" نجتزىء منه بما يهمنا في هذا المقام.

(*) يقصد الإمام بعالم المدينة نفسه.

(٥٤) بحار الأنوار: ٤٧ : ٣١٨ .

قال الفلكي: قلت ما خلفت بالعراق أبصر بالنجوم مني.

فقال الإمام (ع) : كيف دوران الفلك عندكم؟

قال: فأخذت قلنسوتي عن رأسي فأدرتها.

فقال الإمام (ع) : إن كان الأمر على ما تقول، فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوماً من الدهر في القبلة؟

قال: قلت: والله هذا شيء لا أعرفه، ولا سمعت أحداً من أهل الحساب يذكره.

فقال لي: كم السكينة من الزهرة جزءاً في ضوئها؟

قال قلت: هذا والله نجم ما سمعت به، ولا سمعت أحداً من الناس يذكره.

قال: سبحان الله، فأسقطتم نجماً بأسره، فعلى ما تحسبون؟

إلى أن قال (ع) : صدقت، أهل الحساب حق، ولكن لا يعمل ذلك إلاّ من علم مواليد الخلق كلهم[٥٥] .

وكان من تأثير توجيهات الإمام وإرشاداته في علوم الهيئة والفلك أن اهتم تلامذته بهذه العلوم، واشتغلوا بالأرصاد والأزياج والتقاويم والتنجيم والاختبارات وغير ذلك من فروع علم الفلك من أقدم الأزمنة.

كان أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري المتوفى عام (١٦١ هـ - ٧٧٧ م)، وهو من أصحاب الإمامين الصادق وموسى بن جعفر (ع)، أول

---

(٥٥) الكافي ٨ : ٣٥١ .

من عمل الاصطرلاب في الإسلام(٥٦) . وأول من ألّف فيه. وله في ذلك "كتاب العمل بالاصطرلابات ذوات الحلق"، وكتاب "العمل بالاسطرلاب المسطح"(٥٧) والاصطرلاب لفظة يونانية مأخوذة من كلمة "الاصطرلابون"، ومعناها مرآة النجم (اصطر: النجم، لابون: مرآة". وقيل أنها لفظة فارسية أصلها (ستارة باب) أي كاشف النجم.

وهذا أحمد بن الحسن بن أبي الحسن الفلكي الطوسي، تخصص في علم الفلك حتى اشتهر به، ووضع كتاب "المنار" وكتاب "شرح التهذيب في الإمامة" وله في النجوم والفلك كتاب "ريحان المجالس وتحفة المؤانس"، وقد نقل عنه السيد ابن طاووس. وقال عنه في كتابه "فرج المهموم" إن الكتاب عندي، وفيه ذكر أحاديث الكواكب وأسرارها واختيارها(٥٨) .

وهذا محمد بن مسعود العياشي التميمي، وصفه ابن النديم بقوله: من فقهاء الشيعة الإمامية. أوحد أهل دهره وزمانه في غزارة العلم، له كتاب "النجوم والفأر"، و "القيافة والزجر" و "كتاب الطب"(٥٩) .

---

(٥٦) فلاسفة الشيعة: ص٧٤ .

(٥٧) الاصطرلاب أنواع منها المسطح والمبطح والتام والهلالي، ومن أجهزة الرصد الأخرى التي صنعها علماء الشيعة اللبنة، والحلقة الاعتدالية ذات الأوتار، وذات الحلق، ودات الشعبتين، وذات الجيب، وذات السمت والارتفاع.

(٥٨) انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة .

(٥٩) الفهرست: ٢٧٤ – ٢٧٥ .

وهذا أبو علي الحسن بن فضال من أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وله كتاب "النجوم" وكتاب "الطب"(٦٠)

(٦٠) المصدر السابق : ٣١٢ .

تدوين العلوم في عصر الصادق (ع)

طالعنا في العرض الموجز غزارة علم الإمام وتشعب معارفه، فكان يحق له أن يكون مهوىً للأنظار وملاذاً فريداً للباحثين، وعوناً للعارفين والموالين، مهما بعدت أوطانهم، فكانوا يأتونه من كل بقعة وأرض، ويتوجهون إليه من كل ناحية وصوب، يستحضرون الدواة والقرطاس ليكتبوا ما يمليه عليهم الإمام، وقد كثر من استقى منه العلم، حتى بلغ من عرف منهم أربعة آلاف أو يزيدون، فهو منعطف هام في تاريخ الشيعة العلمي. أما الذين أخذوا عنه العلم من غير الإمامية، فكانوا يرون جلالته وسيادته وإمامته، وقد عدوا أخذهم عنه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها(٦١) . وفي "صواعق" ابن حجر؛ ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان.

ومما قاله النووي: "اتفقوا على إمامته (الصادق) وجلالته وسيادته".

قال عمرو بن أبي المقدام: "كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين"(٦٢) .

وهذا ابن أبي الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه في الفقه(٦٣) . ولنفاسة العلم وشرفه حض على طلبه وإن كلف غالياً فقال: "اطلبوا العلم ولو بخوض المهج وشق اللجج"(٦٤) .

---

(٦١) تهذيب الأسماء واللغات، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١ : ٦ .

(٦٢) تهذيب الأسماء واللغات: ١: ١٤٩ – ١٥٠ .

(٦٣) شرح النهج ١: ٦ .

(٦٤) بحار الأنوار ٤٦ : ٢٦٥.

وحثهم على كتابة العلم ونشره، فقال (ع) : "اكتبوا، فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا"(٦٥) ومما قاله لمفضل بن عمر: "اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مت فورث كتب بنيك، فإنه يأتي زمان هرج، ما يأنسون فيه إلا بكتبهم".

وقال (ع) : "احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها"(٦٦) .

وكان من تأثير توجيهه هذا أن جُمع شطر من الأحاديث التي رويت عنه وعن آبائه وأبنائه في الأخلاق والآداب والأحكام وحدها، فكانت الحصيلة أربعة كتب هي: "الكافي" و "من لايحضره الفقيه" و "التهذيب" و "الاستبصار".

هذا بالإضافة إلى من ألف في مختلف العلوم من الطب والكيمياء والنجوم والفلك مما مر ذكره. فمن عصر الإمام الصادق (ع) ابتدأ التأليف ونشط التدوين عند الشيعة.

فهذا جابر بن حيان يسجل تقريرات الإمام في خمسمئة رسالة وفي ألف ورقة(٦٧). وهذا إسماعيل بن مهران بن أبي نصر السكوني وهذا أبو جعفر أحمد بن خالد البرقي، وهذا أحمد بن الحسن بن أبي الحسن الفلكي الطوسي، وهذا أبو النضر محمد بن مسعود العياشي التميمي، وهذا أبو علي

---

(٦٥) المصدر السابق .

(٦٦) المصدر السابق .

(٦٧) الفهرست ٤٥٠ – ٤٩٨ .

الحسن بن فضال وغيرهم من أصحاب الصادق وابنه (ع)، لكل منهم تـأليف وتدوين في الحديث والطب والفلك والكيمياء.

ويطالعنا الكتاب بالجوانب غير المعروفة من حيـاة الإمـام (ع) العلميـة التي لم تنل حقها من عناية كتابنـا الإسـلاميين، إذ كـان جـل اهتمـام علمـاء المسلمين من الشيعة والسنة منصرفاً - كما نعلم - إلى دراسة الفقه والتفسير والأخلاق، وكل ما روي عن الرسـول الأعظـم فـي مـا يتعلـق بـأمور العبـادة والروح. فهذه إذن دراسة علمية وافية لجوانب أخرى مجهولة لنا من مدرسـة الإمام الصادق (ع)، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم التجريبية والنظرية كالطب والرياضيات والفلك والفيزيـاء والكيميـاء ومبـادىء علميـة أخـرى لـم تظهـر أهميتهـا إلاّ بعـد عصـر النهضـة فـي أوروبـا مـع ثـورة الاختراعـات الحديثـة والاكتشافات العلمية المذهلة في هذه الميادين.

موقف الإمام (ع) من الخلافة والخلفاء

وقد تفرغ الإمام الصادق (ع) لأداء الرسالة العلمية، واستغنى عن طلب الرئاسة والسلطة السياسية(٦٨)، في حيـن أنـه كـان يحمـل علـى عاتقـه عـبء الحفاظ على مكانة بني هاشم وعلى دمائهم، لأن الإمام (ع) كان أكـبرهـم منزلة. وفي سنة (١٢٥هـ ٧٤٣م) قتل عمه زيد بـن علـي بـن الحسـين (ع) في حرب بني أمية، وكان لها وقع شديد في نفـس الإمـام (ع)، وزاد موقفـه

---

(٦٨) يقول الشهرستاني: إنه (ع) ما تعرض للإمامة قط. ولا نازع أحداً الخلافـة، ومـن غـرق فـي بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط.

حرجاً. وزاد ثقل العبء على كاهله، غير أنه استطاع بمقدرته ولباقته اجتناب غضب بني أمية بزهده في دنياهم واعتزاله في بيته ومدرسته، حيناً في المدينة وحيناً في الكوفة، منصرفاً إلى إفادة طلاب العلم والعبادة.

ثم جاءت الدولة العباسية، فظنّ البعض أن الغمة قد انجابت، فإذا ببني العباس أشد إلحاحاً في تعقب آل علي (ع) من بني أميه، فاستمر الإمام (ع) في عزلته وانصرافه إلى التعليم والإفادة.

وكانت أيام السفاح (أول الخلفاء العباسيين) أربع سنين، وهي مدة غير كافية للقضاء على بني أمية قضاءاً مبرماً، ولا لبناء أسس الملك وترسيخ دعائمه. ولكنه مع ذلك لم يدع الصادق (ع) وشأنه، بل بعث إليه من يتعقبه من المدينة المنورة إلى الحيرة ليفتك به، وكان دافعه في الإقدام على هذا العمل الشائن ضد رجل اشتغل بالعبادة والتعليم والإرشاد، فضلاً عن كونه من أبناء عمومته، خوفه من أن يتجه القوم إلى الصادق (ع) ويعرفوا منزلته. وكانت الناس إلى ذلك العهد، ترى أن الخلافة جماع للسلطتين الروحية والزمنية، ولا تراها سلطاناً خالصاً مبتوت الصلة بالدين.

وبسبب هذه الخشية ترصد المنصور للصادق (ع)، فرأى الإمام (ع) منه ضروباً من الآلام والمكاره. قال ابن طاووس: إن المنصور دعا الصادق (ع) سبع مرات كان بعضها في المدينة والربذة حين حج المنصور، وبعضها يرسل إليه إلى الكوفة، وبعضها إلى بغداد، وما كان يرسل عليه مرة إلاّ ويريد فيها قتله(٦٩).

---

(٦٩) بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٥ .

وقال ابن حمدون: كتب المنصور إلى جعفر بن محمد (ع) : "لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا تراها نقمة فنعزيك بها، فما نصنع عندك؟"

قال: فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

فقال المنصور: "والله لقد ميز عندي منازل الناس، من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وإنه ممن يريد الآخرة"[٧٠] .

نعم إن الإمام الصادق، بزهده في دنياهم، وبحذره ولباقته ومقدرته استطاع أداء تلك الرسالة العلمية الخالدة، وقُدّر للشيعة أن ينتسبوا من بين الأئمة الاثني عشر إلى الإمام جعفر الصادق (ع)، وأن يشتهروا بالجعفرية بفضل ما ترك الصادق (ع) من التراث العلمي.

الصادق (ع) ونظرته الاقتصادية إلى الحياة

كان الإمام الصادق (ع) مهوى الأفئدة، ومرجعاً لكل طالب علم ومحب ومُوال، هذا من شيعته بخراسان يهديه الملابس البيضاء، وهذا من محبيه من أمراء الصين يرسل إليه بجارية[٧١]، وهذا من شيعته بالعراق يرسل إليه بما فرضه الله عليه.

---

(٧٠) بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٤ .

(٧١) الخرائج والجرائح: ٢٣٢ وبحار الأنوار ٤٧ : ٩٧ .

ولكن هذا كله ما كان يمنعه من طلب الرزق والكسب الحلال بجهده وعرقه ليستغني عما في أيدي الناس، ويستقل بأمور نفسه، فضرب بذلك أروع مثل للعلماء العاملين. وكان حقاً قدوة لمن يريد الاقتداء بسيرته والسير على منهاجه.

جاء في "الكافي": عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله (ع) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر، فقلت: جُعلت فداك، حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول لله (ص)، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: ياعبد الأعلى، خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك"(٧٢) .

أما العمل الشاق الذي كان يضطلع به في أحوال جوية عاتية وظروف شديدة الوطأة أحياناً، فهو العمل في التجارة حيناً وفي المضاربة أو الزراعة حيناً، يقوم به إما بنفسه وإما بالاستعانة بغيره، وهكذا يحتفظ بكبريائه واستقلاله.

وجاء في "الكافي": عن إسماعيل بن جابر قال: أتيت أبا عبد الله (ع) وإذا هو في حائط له (أي مزرعة مسورة)، بيده مسحاة وهو يفتح بها الماء (أي يسقي الزرع)، وعليه قميص شبه الكرابيس، كأنه مخيط عليه من ضيقه(٧٣) .

---

(٧٢) الكافي ٨ : ٨٧ .

(٧٣) الكافي : ٥ : ٧٦.

وفي حديث آخر: وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصبب عن ظهره، فقلت: جُعلت فداك، أعطني أكفك، فقال لي: "إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة"(٧٤) .

وكان عليه السلام يباشر بنفسه جميع أعمال الزراعة وجمع الثمار وكيلها وبيعها. جاء في "الكافي": عن داود بن سرحان قال: رأيت أبا عبد الله (ع) يكيل تمراً بيده، فقلت: جعلت فداك، لو أمرت بعض ولدك أو بعض مواليك، فيكفيك؟(٧٥) .

وكان عليه السلام إذا استأجر أو استعان بأجير بادره بدفع حقه قبل مطالبته إياه.

وجاء في "الكافي": عن حنان بن شعيب قال: تكارينا لأبي عبد لله (ع) قوماً يعملون في بستان له، وكان أجَّلهم إلى العصر، فلما فرغوا قال لمعتب: أعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم(٧٦) .

وكان الصادق (ع) يهتم بالتجارة إلى جانب الزراعة ويعطي ماله أحياناً بالمضاربة لمن يتجر به، ثم يحاسبه ويستوفي حقه وربحه منه، لا حُبّاً في الأرباح واستزادة من المال والثروة، بل رغبة منه في العمل وفي دفع عجلة الاقتصاد في الجماعة الإسلامية إلى الأمام.

---

(٧٤) المصدر السابق : ٥ : ٧٦ .

(٧٥) المصدر السابق ٥ : ٨٧ .

(٧٦) المصدر السابق ٥ : ٢٨٩ .

عن محمد بن عذافر قال: أعطى أبو عبد الله (ع) أبـي ألفـاً وسـبعمئة دينار فقال له: اتجر لي بها، ثم قال: أما إنه ليس لـي رغبة فـي ربحهـا، وإن كـان الربـح مرغوبـاً فيـه، ولكنـي أحببـت أن يرانـي اللـه عـز وجـل متعرضـاً لفوائده. قال أبي: فربحت له فيه مئة دينار، ثم لقيته فقلـت لـه: قـد ربحـت لك فيها مئة دينار، قال: ففرح أبو عبد الله (ع) بذلك فرحاً شديداً، ثـم قـال لي: أثبتها في رأس مالي. قال: فمات أبي والمال عنده. فأرسل إلي أبـو عبـد الله (ع) وكتب: عافانا الله وإياك، إن لي عند أبي محمـد ألفـاً وثمـاني مئـة دينار أعطيته يتجر بها فادفعها إلى عمر بن يزيد[٧٧] .

وكان الإمام الصادق (ع) ينهـى عـن الاحتكـار والاستغلال بمختلـف أشكاله وصوره وخاصة في ما يتعلق بالأرزاق العامة، ومـا تشـتد إليـه حاجـة الناس والمجتمع، فما كان يرضى أن يدّخر حاجته على المدى البعيـد لـيريح نفسه ما دام أهله والناس في حاجة أو مشقة.

عن جهم بن أبي جهم عن معتب[٧٨] قال: قال لي أبـو عبـد اللـه (ع) وقد تزيد السعر بالمدينة، كم عندنا من طعام؟

قال: قلت عندنا ما يكفينا أشهراً كثيرة.

قال: أخرجه وبعه.

---

(٧٧) الكافي ٥ : ٧٦ .

(٧٨) "معتب" كان مولى لأبي عبد الله (ع) ، وهو من أهل المعرفة والفضل ومن الموثوق بهم فـي الحديث، وقد عده الرجاليون في أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام، وعن الصـادق (ع) أن مواليه عشرة وأن خيرهم وأفضلهم معتب.

قال وقلت له: وليس بالمدينة طعام.

قال : بعه.

فلما بعته، قال: اشتر مع الناس يوماً بيوم [٧٩]. ومما يدلّ على عطف الإمام (ع) على الناس جميعاً سواء أكانوا من أهل مدينته أم من غيرها من المدن والأقاليم أنه (ع) دفع مبلغاً من المال لمولاه مصادف[٨٠] ليتجر به. وعاد مصادف من رحلة تجارية قام بها إلى مصر مع ربح مضاعف، فاستكثر الصادق (ع) الربح، وأنكر على مولاه فعله، وعدّه حراماً، فأخذ الأصل وترك الربح.

عن أبي جعفر الفزاري قال: دعا أبو عبد الله (ع) مولى له يقال له مصادف، فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر، فإن عيالي قد كثروا.

قال: فتجهز بمتاع، وخرج مع التجار إلى مصر. فلما دنوا من مصر، استقبلتهم قافلة خارجة من مصر فسألوهم عن المتاع الذي معهم، ماحاله في المدينة، وكان متاع العامة، فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء. فتحالفوا وتعاقدوا على ألا ينقصوا متاعهم من ربح دينار ديناراً، فلما قبضوا أموالهم، انصرفوا إلى المدينة.

---

(٧٩) الكافي ٥: ١٦٦.

(٨٠) مصادف من موالي الصادق (ع) وعدّه أرباب الرجال في أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام، وكان عارفاً بالحديث ، وثقة فيه.

فدخل مصادف على أبي عبد الله (ع) ومعه كيسان في كل منهما ألف دينار، فقال: جعلت فداك، هذا رأس المال، وهذا الآخر ربح.

فقال: إن هذا الربح كثير. ولكن ما صنعتم في المتاع؟

فحدّثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا، فقال: سبحان الله، تحلفون على قوم مسلمين ألا تبيعوهم إلاّ بربح دينار ديناراً؟ ثم أخذ أحد الكيسين فقال: "هذا رأس مالي، ولا حاجة لنا في هذا الربح". ثم قال: "يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال" (٨١) .

وكان الإمام يتابع بنفسه أعمال وكلائه ومواليه في البيع والشراء والتجارة، ويحاسبهم حساباً دقيقاً.

عن محمد بن مرازم عن أبيه قال : شهدت أبا عبد الله (ع) وهو يحاسب وكيلاً له، والوكيل يكثر من قول: "والله ما خنت".

فقال له أبو عبد الله (ع) : ياهذا، خيانتك وتضييعك علي مالي سواء، إلاّ أن الخيانة شرها عليك(٨٢) .

وهكذا كان الصادق (ع) يهتم بتنظيم أمر المعيشة، والتجارة ويعلق على الاقتصاد أهميّة قصوى، فكان مثالاً يقتدى به في أمر الدنيا والدين على السواء. دون أن يحرّم على نفسه وعلى أهله طيبات ما أحل الله له.

---

(٨١) الأصول من الكافي ٥ :١٦١ .

(٨٢) الكافي : ٥: ٢٠٤ .

فهذا سفيان بن عيينة يقول لأبي عبد الله (ع) أنه يروى أن علياً بن أبي طالب (ع) كان يلبس الخشن من الثياب، وأنت تلبس القوهي المروي[٨٣].

قال ويحك، إن علياً (ع) كان في زمان ضيق، فإذا اتسع الزمان، فأبرار الزمان أولى به[٨٤] . وفي حديث آخر: فخير لباس كل زمان لباس أهله[٨٥] .

(٨٣) القوهي: ضرب من الثياب البيض، يصنع في قوهستان أي بلاد الجبال (الديلم/جيلان الحالية). والمروي نسبة إلى مرو وهي في خراسان.

(٨٤) رجال الكشي ٢٤٨ .

(٨٥) الكافي ٦: ٤٤٤ .



مولد العبقريّ

ولد للإمام محمد الباقر (ع) – في دار والده الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) بالمدينة المنورة يوم السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٨٣ هجرية – ولدٌ سمي جعفراً، ولُقّب بالصادق.

وكان ضعيف البنية عند الولادة بحيث ظنت القابلة ألاّ أمل في حياة هذا الطفل طويلاً، ولكن هذا لا يحول دون طلب الجائزة والعطيّة لأن المولود ذكر.

بادرت القابلة بالخروج من الحجرة لإخبار الأهل والأسرة بأن المولود ذكر، وهو بُشرى تُدخل الفرحة في قلوب الآباء في شبه الجزيرة العربية، وتشجعهم على تقديم العطايا ونصب الموائد، مهما كانت ظروفهم المادية.

ولم ينس العرب بعد مرور ٨٢ سنة على ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية عاداتهم الجاهلية في إيثار الولد على البنت، ولم يكن أحد يخفي فرحته عند مولد الولد وتفضيله إياه.

فبحثت القابلة عن الوالد، فلم تجده في الدار. ولكن قيل لها: إن جدّ الطفل في الدار. فاستأذنت في الدخول على الإمام زين العابدين (ع) ، وزفت إليه البشرى. فسألها: هل أخبرت والده؟

قالت: لا، لأنه غائب عن البيت. فأدرك زين العابدين (ع) رغبة القابلة في أن يشاهد المولود، وقال: لكنني لا أحب أن تخرجوه من الحجرة خوفاً من البرد، ولكن أخبريني، هل الطفل يتمتع بصحة الجسم وكماله؟

لم تجرؤ القابلة على إبلاغ الإمام بأن الطفل ضعيف جداً، ولكنها قالت: إن له عينين زرقاوين جميلتين.

فقال الإمام زين العابدين: فعيناه إذن تشبهان عيني والدتي، رحمة الله عليها.

كانت للسيدة شهربانو بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية، وهي والدة الإمام زين العابدين. عينان زرقاوان، وها هو جعفر الصادق يرث حسب قانون مندل[٨٦] لون عينيه من جدّته.

وهناك رواية تقول: إن كيهان بانو، وهي شقيقة شهربانو بنت يزدجرد. وقعت في الأسر في فتح عاصمة الأكاسرة "المدائن"، حيث أتوا بها مع بقية الأسرى إلى المدينة، وكانت لها بدورها عينان زرقاوان. فإن صحت هذه الرواية، فالإمام الصادق قد ورث عينيه من أميرتين فارسيتين، لأن كيهان بانو بنت يزدجرد كانت جدة الإمام الصادق من ناحية الأم أيضاً.

وكان الإمام علي (ع) قد عطف على الأسرى من الأسرة المالكة، وزوج شهربانو بنت يزدجرد لابنه الحسين (ع)، وكذلك زوج كيهان بانو

---

(٨٦) يوحنا مندل (Mendel) ولد عام ١٨٢٢ وتوفي عام ١٨٨٤، وهو راهب وعالم نباتي نمسوي، قام بإجراء تجارب على الصفات المتوارثة في النبات والحيوان، واستنبط ناموس الوراثة المعروف باسمه (المترجم).

لمحمد بن أبي بكر (الخليفة الأول)، والذي كان يحبه ويرعاه كأحد أبنائه، وقد ولاه في ما بعد مصر، ولكنه قُتل في أثناء ولاية معاوية بن أبي سفيان.

وقد ولد لمحمد بن أبي بكر وكيهان بانو ولد سمي (القاسم)، وولدت للقاسم بنت سميت (أم فروة) تزوجها الإمام محمد باقر (ع)، فأنجبت له جعفراً الصادق (ع)، وبهذا ارتبط جعفر الصادق (ع) من ناحيتي الأب والأم بأميرتين فارسيتين كما سلف ذكره كما ارتبط بالخليفة أبي بكر من ناحيتين أيضاً.

وكانت العادة المرعيّة بين أهل المدينة المنورة الذين هاجروا إليها من مكة المكرمة جلب المرضعات من عرب البادية.

وعند مولد الصادق (ع)، كان قد مضى على بدء الهجرة النبوية ٨٣ سنة، وقد نسي الناس من هم المهاجرون ومن هم الأنصار. ولكن المكيين لم ينسوا عادة تسليم الرضيع إلى المرضعة، وحاول بيت الإمام زين العابدين (ع) الاهتداء إلى مرضعة للمولود الجديد، لولا أن أم فروة (أمه) قبلت أن تقوم بنفسها بإرضاع الطفل ورعايته، لاسيما وهو ضعيف واهن، ولا يسع أمه أن تدعه تحت رحمة المرضعة، مهما أبدت نحوه من العطف والحنان.

وفي كتب الشيعة مجموعة من الروايات عن أيام رضاعة جعفر الصادق (ع) وطفولته، منها ما تواترت روايته منسوباً إلى الرواة المختلفين، ومنها ما ذكر دون إيراد سند. ومن جملة الأخبار التي رُويت دون سند أن جعفراً الصادق (ع) ولد مختوناً، ومكتمل الأسنان، أما أن يكون جعفر الصادق (ع) ولد مختوناً فهذا أمر جائز، وربما أثبته الطب. وأما أن يكون مولوداً بكامل

أسنانه، فهي رواية تحتاج إلى وقفة وتأمل، لأنها لا تتفق مع علـم البيولوجيـا، وتتعارض مع طبيعة الطفل والرضاعة. إذ ثبت أن الطفل يهجر ثدي أمـه متى نبتت أسنانه، ناهيك عن الألم الذي تحدثه الأسنان للأم عند الرضاعة.

ومن هذه الروايات أن جعفراً الصادق (ع) ولد ذرب اللسان، وخـرج إلى الدنيا يتكلم. وروي عن أبي هريرة أنـه قـال: سـمعت رسـول اللـه (ص) يقول: سيولد من ولدي من اسمه جعفر ولقبه الصادق، ينطق لسانه بالحديث من يوم ولادته.

ولكن هناك أحاديث منسوبة إلى أبـي هريـرة ولـم تثبـت صحتهـا، وإن كان أبو هريرة عرف بالصلاح، ولم يكن يختلق الأحاديث، كما أنه صحـب الرسول (ص) فترة طويلة، وكان يحبه حباً عظيمـاً، ويقضـي سـاعات طويلـة من وقته في حضرة الرسول (ص). لذلـك كـان واضعو الحديـث ومختلقـوه ينسبون كل حديث موضوع إلى أبي هريرة ليصادف من الناس قبولاً. على أن بعض هؤلاء المزورين ندم على فعلته، وأقر بالإثم الذي اقترفه(٨٧).

وقد يتفق بعض هذه الروايات مع رأي الشـيعة فـي الإمـام بأنـه الطـاهر النقي من الزلات، وأن الله اختار الأئمة من بين العبـاد، وخصهـم بخصـائص دون غيرهم، وأن للإمام من القدرة في الصغر ما له في الكـبر إلا أن البـاحث أو المؤرخ مضطر إلى التماس الحقـائق التاريخيـة، لأنهـا أدعـى إلـى التعويـل عليها من روايات تدور حول الكرامات والمعجزات.

---

(٨٧) كان هذا رأي المؤلف في أبي هريرة. وأمـا آراء المسـلمين فـي الموضـوع فـيرجع إليهـا فـي كتاب "شيخ المضيرة أبو هريرة" للشيخ محمود أبو رية، طبع دار المعارف، القاهرة ١٣٢٥ هـ.

نعرف من طفولة الصادق (ع) أموراً توحي بأن الأقدار آثرته برعايتها، وخصته بها دون غيره من الصبيان، وأن الدنيا لم تتهجم له في حداثته.

وأول هذه الأمور أن الصادق (ع) الذي ولد ضعيف البنية هزيلاً وعانى من أمراض الرضاعة والطفولة عناءً شديداً، قد استقوى على هذه المتاعب التي كانت تحصد الأطفال، واشتد عوده وهو يستقبل الثالثة من عمره.

والأمر الثاني هو أن جعفراً الصادق (ع) ولد لأسرة عريقة تتمتع باحترام الجميع، وأفرادها من أواسط الناس مادياً.

والأمر الثالث هو أن أم فروة والدة الصادق كانت كغيرها من نساء بيت الخليفة الأول أبي بكر امرأة متعلمة مثقفة، وأن محمداً الباقر (ع) والد الصادق كان أعلم أهل عصره بلا منازع.

أما الأمر الرابع فهو أن والد الصادق وجده عليهما السلام اهتما برعايته وتعليمه وتربيته من السنة الثانية. ويعترف علماء التربية في هذا العصر بأن أفضل سني تعليم الطفل هي ما بين الثانية والخامسة، لأن قوة الذاكرة لدى الطفل تكون في هذه الفترة أقوى منها في غيرها.

ومن آراء علماء التربية أن الطفل بين الثانية والسادسة يستطيع أن يتعلم لغتين أخريين إلى جانب لغته الأم.

ومن مؤديات القاعدة العامة أن يكــون نصيــب الطفــل مــن التعليــم فــي الأسرة المتعلمة والمثقفة أكثر، وحظه في ارتقاء المــدارج العلميــة أوفــى مــن حظ غيره.

كان الإمام الباقر (ع) والد الصادق (ع) باعتراف الجميع، أعظــم العلماء في عصره، وكان جدُّه زين العــابدين (ع) أيضــاً مــن أكــابر العلمــاء والزهاد، وقد ذكر ابن النديم في كتابه "الفهرست" بعض مؤلفاته التــي لدينــا جزء منها.

وقد حظي جعفــر الصــادق باهتمــام والــده وجــدّه ووالدتــه "أم فــروة"، فعكفوا جميعاً على تعليمه دون غيره من إخوته، ولعــل السبب فــي ذلــك أن جعفراً (ع) كان قويّ الذاكرة وكان مقبلاً على العلم.

وفي رأي الشيعة أن قوة الذاكرة لــدى الصــادق (ع) وعمــق إدراكــه كانا من الصفات والخصائص التي منحها اللــه إيــاه لإمامتــه، ولــو بحثنــا فــي الشرق أو فــي الغــرب، لوقعنــا علــى أطفــال آخريــن يتمتعــون بدورهــم بقــوة الذاكرة والإدراك، ولكن دون أن يكونوا أئمة، ومن هذا القبيل مثلاً ابن سينا، وأبو العلاء المعري من الشرق، وثاسيت[٨٨] في الغرب، فقــد كــانوا يتمتعــون بذاكرة قوية تسجل كل ما سمعوه أو قرؤوه مرة واحدة، فلا ينسونه.

---

(٨٨) ثاسيت مؤرخ رومي ولد سنة ٥٥ ميلادية وتوفي ١١٨ م، وألف مــالايقل عــن مئتــي كتــاب ، بقي منها ثلاثة:

١ – جرمانيا: وهو تاريخ الشعوب الألمانية في مجلد واحد.

٢ – كتاب التاريخ في أربعة مجلدات.

٣ – تقويم الرزنامج في اثني عشر مجلداً.

إن القابلة التي زفت بشرى ميلاد جعفر الصادق (ع) إلى جدّه زين العابدين (ع) كانت سعيدة الحظ، لأن ميلاد الولد في أسرة من الأشراف كان يعتبر حدثاً هاماً.

وقد نظمت الأراجيز فرحاً بالمولود، منها هذه الأرجوزة:

"أبشروا حبابا * قدّه طال نما * وجهه بدر السما"

وقد حفظها جعفر الصادق (ع) وهو في الثانية من عمره. وكان جعفر يلعب مع بقية الصبيان لعبة الأسياف مستعيناً بسيف صغير، وهي لعبة متداولة عند العرب صغاراً كانوا أم كباراً.

وكانت دار الحسين بن علي (ع) جدّ جعفر الصادق (ع) التي ولد فيها الصادق (ع) تقع إلى جوار مسجد الرسول (ص)، ولكنها هدمت فيما بعد لتوسيع المسجد، واستخدم الذي دُفع فيها من بيت المال في شراء أرض في المسقى حيث بنيت دار أخرى بأيدي معماريين من الفرس شأنها شأن بيوت الأشراف في مكة والمدينة، وكان صحن الدار يتسع لجعفر الصادق(ع) وغيره من الصبيان حيث يلعبون ويمرحون.

دراساته الأولى:

لدينا روايتان مختلفتان عن بدء دراسة جعفر الصادق (ع)، تقول الأولى إنه بدأ الدراسة برعاية والده وهو في الثالثة من عمره، في حين أن الرواية الثانية تشير إلى أن بداية الدراسة كانت من السنة الخامسة.

يقول محمد بن أبي رندفة، وهو من مؤرخي المغرب الإسلامي (ولد ٤٥١ هـ وتوفي ٥٢٠ هـ) في كتابه "الاختصار" : إن جعفراً الصادق (ع) كان يحضر درس والده محمد الباقر وهو في سن العاشرة. وهذه رواية مقبولة معقولة.

ولا ريب في أن محمداً الباقر (ع) كان يعلّم ابنه جعفراً أشياء كثيرة قبل هذا الموعد ولكن لعله وهو في العاشرة من عمره انضم إلى حلقات درس الوالد، الذي كان مجمعاً ومدرسة علمية للطلبة والباحثين.

الدراسة في هذه الفترة:

مع كل ما ورد في أحاديث الرسول (ص) وخطب الإمام علي (ع) من توصيات تدعو إلى طلب العلم ولو في الصين، كانت الرغبة في التعليم ضئيلة جداً آنذاك، وذلك بسبب الأسلوب المتبع في التعليم، فضلاً عن أن العرف المتبع في ذلك الوقت هو الاعتماد أساساً على الاستظهار والحفظ. فلمّا جاء جعفر الصادق (ع) ، وانبرى بنفسه للنهوض بمهمة التعليم والإفادة، غيّر الأسلوب الدارج في التعليم، وحوّله من الحفظ والاستظهار إلى البحث والاستقراء.

وكانت دروس الإمام محمد الباقر (ع) تنعقد في رحاب المسجد الذي بناه الرسول محمد (ص) والذي اتسع فيما بعد في عهد الخلفاء.

أما المواد التي كانت تدرّس في مدرسة الإمام الباقر (ع) فهي شيء من التاريخ، وعلم النحو، وعلم الرجال والسنة و الفقه، والأدب المنظوم ولكن دون اهتمام بالنثر أو الخطب أو النصوص الأدبية، ولابد من الإشارة

إلى أن العرب، إلى عهد الإمام الباقر (ع)، كانوا يفتقرون إلى الأدب المنثور، ما عدا ما رُوي من خطب قصار من العهد الجاهلي، وما روي عن الإمام علي (ع) من الخطب والرسائل.

ولم يكن لدى الطلبة في مدرسة الإمام الباقر (ع) كتاب معين مقرر، ولا كان لدى الإمام نفسه كتاب أو مؤلّف خاص للتدريس، فكانت الدروس تلقى على الطلبة ارتجالاً وسليقةً، فإن كان الطالب متميزاً بذاكرة قوية، كان حظه في الاستفادة من درس الإمام أوفر، وإن كان غير ذلك، اقتصر على كتابة الدرس على لوحة تمكنه من استعادة فحواه في المدرسة وفي البيت، وربما دوّن موجزاً له على الجلد أو الورق الذي كان نادراً عزيزاً ليبقى مسجلاً محفوظاً. وكان اللوح يهيء للطالب الاحتفاظ بالدرس لفترة قصيرة معيّنة ولا يلبث أن يمحى، ليكتب عليه من جديد.

والطلبة في عصرنا هذا يتصورون أن دراسة المواد العلمية من غير كتاب أو نص مكتوب أمر مستحيل، في حين أن الدراسة في الماضي البعيد سواء في الشرق أو في الغرب كانت مركّزة على المشافهة دون الكتاب، فكان الطالب يسعى إلى استظهار درس أستاذه، فإن كان قليل الثقة في ذاكرته، استعان على ذلك بكتابة الدرس في منزله.

ونلاحظ اليوم أيضاً أن من الأساتذة من يثق في ذاكرته ويلقي المحاضرة دون مراجعة مذكرات أو كتاب، فقد تمكن البعض من مادتهم وتعمقوا فيها وهان عليهم أن يرتجلوا الحديث دون لجلجة أو تلعثم أو توقف.

ولم تتوسع مدرسة الإمام محمد الباقر (ع) في تدريس العلوم، ما عدا علوم الأدب. أما التاريخ، فاقتصر على ما ورد في القرآن الكريم والتوراة، ولم تكن الترجمة قد ازدهرت بعد، ولا كانت كتب اليونان وفارس قد نُقلت بعد إلى اللغة العربية، ولا كان المسلمون قد عرفوا بعد تاريخ أوربا والعالم.

وكان الإمام جعفر الصادق (ع) يحضر مجالس والده، ويتابعها بذكائه الوقّاد، ويأخذ عنه الدروس ويحفظها في سهولة ويسر.

وتقول الشيعة إن الإمام محمداً الباقر (ع) سُمّي باقراً لأنه كان يبقر العلم ، أي يشقّه ويوسعه(٨٩) . وأظن أنه سمّي باقراً لأنه عمد في القرن الأول من الهجرة، وفي السنوات العشر الأخيرة منه على وجه التحديد إلى إدخال دراسة الجغرافيا وسائر العلوم الغريبة عن ذلك المجتمع إلى مدرسته، إلى جانب دراسة الأدب والفقه، وكان جعفر الصادق (ع) وقتئذ في السابعة عشرة أو العشرين من عمره.

---

(٨٩) عن الطالقاني، عن الجلودي عن المغيرة بن محمد عن رجاء بن سلمة عن عمرو بن شمر قال: سألت جابراً الجعفي فقلت له: ولمَ سمي باقراً؟ قال: لأنه بقر العلم بقراً، أي شقه شقاً، وأظهره إظهاراً.

١ – علل الشرايع ج١ ص ٢٣٣.

٢ – معاني الأخبار ص ٦٥ .

٣ – عيون أخبار الرضا ج٢ ص ٥٦.

٤ – بحار الأنوار ج ٤٨ ص ٢٢١.

(المترجم).

ويعتقد البعض أن علم الجغرافيا دخل إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق ترجمة الكتب السريانية، في حين أن العرب عرفوا هذا العلم عن طريق مصر، ووقفوا في رحلاتهم إلى مصر على جغرافيا بطليموس، وجاء جعفر الصادق (ع) فأدخل تدريس هذه المادة في مدرسته في وقت لاحق.

ولبطليموس هذا دراسة في علم الهيئة (الفلك)، فضلاً عن دراسته علم الجغرافيا، وسنرى في ما بعد أن جعفراً الصادق (ع) كان ذا ضلع في علم النجوم، ولعله أخذ هذه العلوم جميعاً عن مدرسة أبيه الإمام الباقر (ع) وعن كتب بطليموس المصري* .

والحقيقة أن العرب عرفوا الصور الفلكية والنجوم، ووضعوا لها أسماء وتعاريف قبل أن يتصل بهم أمر بطليموس وجغرافيته وهيئته.

ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى وضعت تلك الأسماء، ومن هو واضعها؟ وإن كان من المؤكد أن العرب كانوا قبل دخولهم مصر ومعاشرتهم للقبط ووقوفهم على كتب بطليموس، يعرفون المنظومة الفلكية، كما كانت لديهم أسماء عربية للنجوم.

فليس صحيحاً إذن أن يكون جعفراً الصادق (ع) تعلم النجوم وأخذ علومها عن كتب بطليموس، ولكن الجائز أنه استعان بكتب بطليموس في دراسته للنجوم والفلك في مدرسة والده الإمام الباقر (ع) بجانب العلوم الأخرى.

(*) عند الشيعة أن الأئمة (ع) لا يأخذون العلوم عن أحد ولا يدرسون عند أحد لكون علمهم لدنياً إلهياً في مصدره كما سبق.

والمعروف أن الإمام الباقر (ع) أدخل في مدرسته دراسات عن الجغرافيا وغيرها من العلوم إلى جانب علوم زمانه. ولإن كنا نفتقر إلى سند تاريخي * يعزز هذا الرأي، فهناك من الشواهد والقرائن ما يؤكد هذا الرأي ويسانده. فمن المستبعد مثلاً أن يُلقّب الإمام محمد بن علي (ع) في عصره بالباقر لمجرد أنه أدخل دراسة علم الجغرافيا والهيئة في مدرسته آنذاك، ولكن الذي لا يكاد يعتوره شك، هو أن الباقر (ع) اكتشف بنفسه علوماً غريبة عن مجتمعه، أو لعله أحاط بها، ثم قام بتدريسها والترويج لها في مدرسته، فكان ذلك سبباً في تلقيبه بالباقر* .

ومن القرائن أيضاً أن الإمام جعفراً الصادق (ع) عندما انبرى لمنصب التدريس والإفادة في مدرسة والده الإمام الباقر (ع) كان يدرس بالاضافة إلى الجغرافيا والهيئة علوم الفيزياء والفلسفة الإغريقة، ومن الواضح بأن الفيزياء والفلسفة والعلوم الإغريقية الأخرى لم تكن في زمان الإمام الصادق قد نقلت بعد إلى اللغة العربية، وأن حركة النقل والترجمة بدأت ونشطت في وقتٍ تالٍ، وقام المترجمون بعد عصره (ع) بنقل تلك الكتب والمؤلفات من الفارسية والسريانية إلى اللغة العربية دون أن تكون لديهم في البداية معرفة دقيقة بالمصطلحات الفلسفية الإغريقية.

فأقوى الظنون أنه تعلم هذه العلوم بمدرسة والده الإمام الباقر (ع) فتمكن منها بنبوغه وذكائه، وتعمق في مباحثها ودراساتها، وصارت له فيها

(*) عدا كتب الأحاديث والأخبار عن آل البيت عليهم السلام.

(*) ترى الشيعة أن ألقاب الأئمة (ع) من عند الرسول (ص) بالوحي الإلهي وقد مرّ بك أن أبا هريرة روى عن الرسول (ص) حديثاً.

نظرات صائبة، ولو لم يأخذ هذه العلوم عن أبيه، لما كان مستطاعاً عقلاً أن يقوم بتدريسها في وقت لم تكن هذه العلوم قد نُقلت فيه بعد من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية .

والشيعة ترى أن إحاطة الإمام بهذه العلوم تنبع عن علم إلهي لدني* ، وتعتقد أن الشعور الداخلي في كل انسان هو على النقيض من شعوره الظاهري، كنز للمعرفة ومدخر للعلوم والمعارف البشرية في العالم.

ولهذه النظرية في عصرنا الحاضر ما يعززها من مكتشفات العلوم، فقد انتهى علم البيولوجيا الحديث إلى أن مجموعات الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان تدّخر في داخلها من المعارف والمشاعر الخاصة بها ما قد تحصّل منذ بدء الخليقة وإلى هذا اليوم.

وفي رأي الشيعة أنّ من اختاره الله نبياً أو جعله إماماً، يزال الحائل أو الستار الموجود بين شعوره الظاهري وشعوره الباطني، ولأنّ النبي أو الإمام متمكن من الشعور الباطني، فهو يستفيد من المعرفة والمعلومات التي تتعلّق بالإنسان أو غير الإنسان في دنياه هذه أو في العالم المحيط به.

وفي ضوء هذا الرأي تفسّر الشيعة بعثة النبي محمد بن عبد الله (ص) رسول الإسلام بأنها كانت من هذا النمط.

بمعنى أن الرسول (ص) كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، وفي ليلة البعثة وفي غار حراء بجبل قرب مكة، نزل عليه جبريل (ع) وخاطبه بقوله: اقرأ، فرد عليه الرسول (ص): ما أنا بقارىء، فقال له جبريل (ع) مرة ثانية جادّاً:

(*) كما أوردنا في حاشية سابقة.

اقرأ، فأزيل الحائل بين شعوره الظاهري وشعوره الباطني، وفي لحظة واحدة علم القراءة وأحاط بكل علوم الإنسان.

والشيعة ترى أن للشعور الباطني مرحلتين هما الشعور الباطني الاعتيادي والشعور الباطني النهائي أو العالي، وترى أن الانسان في منامه يرتبط بشعوره الباطني الاعتيادي، وأن ما يراه في المنام من الرؤيا هو عن طريق الشعور الباطني الاعتيادي، أما النبي أو الإمام فيحيط بكل معرفة وعلم عن طريق الشعور الباطني النهائي (العالي)، وفي ليلة البعثة، ارتبط الرسول (ص) وفي لحظة واحدة بشعوره الباطني النهائي.

وعلى أساس هذه العقيدة أو الرأي تذهب الشيعة إلى أن علم الإمام الصادق (ع) علم لدني، أي أنه نابع من ينبوع الشعور الباطني النهائي. والشيعة يسلمون بهذه العقيدة ولا يجادلون فيها أو يناقشون، أما الباحث أو المؤرخ فيبحث عن الدلائل المادية، والشواهد التاريخية التي تفسر له كيف أن رجلاً كجعفر الصادق، لم يخرج من شبه الجزيرة العربية طوال أيام دراسته وشبابه[٩٠] ، قد درّس الفلسفة والفيزياء والكيمياء وعلّمها، وكلها علوم لم يعهد أحد بتدريسها في شبه الجزيرة العربية إلى ذلك التاريخ.

---

(٩٠) ولكنه خرج إلى العراق بعد ما تولى الإمامة، عدة مرات، وأيضاً إلى الشام مع أبيه (ع) زمن الوليد بن عبد الملك حين طلب الإمام الباقر (ع) من المدينة المنورة، وقصة ذهاب الإمامين الباقر والصادق (ع) إلى الشام والمناظرات بينهما وبين العاقب أو الجاثليق (رئيس النصارى) مشهورة ومذكورة في عدد من كتب الروايات والأخبار. (المترجم).

وأغلب الظن أن هذه العلوم كغيرها من علوم الجغرافيا والهيئة انتقلت إلى العرب عن طريق القبط، وتدوول تدريسها في مدرسة الإمام الباقر (ع) ، وتوسع الإمام بنفسه في مباحثها وفروعها.

وفي سنة ٨٦ للهجرة، وكان جعفر الصادق في الثالثة من عمره، توفي عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك.

وكان أول حكم صدر عنه عزل هشام بن إسماعيل والي المدينة المنورة، وتولية عمر بن عبد العزيز[٩١] ، الذي كان يبلغ من العمر الرابعة والعشرين، وكان يتمتع بصباحة المنظر والوجه، حاكماً ووالياً على المدينة المنورة مكانه.

وكان مقر الخليفة في ذلك الوقت مدينة دمشق في الشام، وكانت التشريفات والمراسم الملكية البيزنطية تحكم القصر الأموي، وكان الوالي الوافد يقيم قصراً أو داراً في مقر ولايته (في أي من المدن الإسلامية يلي أمرها) ويطبق فيه مراسم دار الخلافة في الشام وتشريفاتها، وكان الحكام يعيشون بالتشريفات والمظاهر الملكية.

وكان هشام بن إسماعيل (الوالي المعزول) في المدينة يقلّد حياة الخليفة الأموي في الترف والمظاهر، ولكن الوالي الجديد عمر بن عبد

---

(٩١) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ – ١٠١ هـ) ابن عم الوليد بن عبد الملك وواليه على المدينة. تولى الخلافة بعد ذلك (٩٩هـ) واشتهر بتقواه وتمسكه بالسنّة. انصرف إلى الإصلاح الداخلي والمالي، وأظهر تسامحاً مع العلويين، فنهى عن سبّ علي (ع) على المنابر. كما كان متسامحاً مع النصارى والموالي.(المترجم).

العزيز وصل إلى المدينة المنـورة دون تشـريفات، واتجـه إلـى مسـجد النبـي (ص) فـور وصولـه ليلتقـي بالإمـام البـاقر (ع) وكـانت دروس الإمـام تنعقـد بالمسجد النبوي فسلّم على الإمام الباقر (ع) قائلاً: كنت أعلم أنك في مثل هذا المكان في مثل هذا الوقت، وكـان أجـدر بـي أن آتـي إلـى دارك، لـولا حرصي وشوقي للقائك والاستماع إلى حديثك، وأود أن أقول: إننـي سـأنفذ أوامرك وطلباتك، فَمُرْ بما تشاء تُجَبْ.

ولابد من الإشارة إلى أن العلويين أولاد الإمام أمير المؤمنين علي (ع) كانوا يعيشون في المدينة المنورة دون غيرها من المدن الإسلامية.

والمدينة المنورة، وهي التي اشتهرت بأنها مدينـة النبـي (ص)، كـانت مسقط رأس الإمامين، وبها من أهلهما ومحبيهما الجمع الكثير، بحيـث لم يجـرؤ الوالي أو الحاكم الأموي على إيذائهما أو منعهما من الحديـث أو التدريـس، ذكرنا هذا حتى يعلم القارىء كيف كـان الإمـام البـاقر (ع) يلقـي دروسـه بحرية وعلى مرأى من الناس، مع وجود حاكم أموي كهشام بن إسماعيل.

وقد عزم الوليد بن عبد الملك في السنة الثالثـة لحكمـه، أي فـي سـنة ٨٨ هجرية، على أن يوسع مسجد النبي (ص) ، وكان هذا الجـامع قـد بنـي على يد الرسول (ص)، وتاريخ بنائه معروف لا يحتاج إلى التكرار.

وكان المسجد قد وُسِّع قبل هذا التاريخ مرة دون هدم بيوت زوجـات الرسول (ص) التي بقيت بمبانيها في المسجد. وكان بعض زوجات الرسول (ص) قد ابتعن بيوتاً غيرها، وانتقلن إلى البيوت الحديثة بمساعدة الخلفاء الراشدين،

بينما آثر البعض الآخر حياة التقشف، وبقين في البيوت الصغيرة داخل الحرم النبوي الشريف.

وفي سنة ٨٨ هجرية، انتقلت آخر زوجات الرسول (ص) إلى رحمة الله، فخلا المسجد منهن نهائياً.

وأمر الخليفة الأموي واليه في المدينة آنذاك (عمر بن عبد العزيز) بأن يهدم بيوت زوجات الرسول (ص)، ويضم إلى المسجد البيوت المجاورة حتى تتسع رقعة المسجد إلى مئتي ذراع طولاً ومئتين عرضاً (أي ما مساحته أربعون ألف ذراع).

وقد أمر عمر بن عبد العزيز معماراً فارسياً بأن يخطط لتوسيع المسجد، بحيث لا يحول البناء دون مواصلة الإمام الباقر (ع) إلقاء درسه وبحثه، وقال له: إنني أحب هذا الرجل، ولا أريد أن يلحقه أذى من عمالك وصنائعك أثناء عملهم.

وعندما بدأ العمل في توسيع المسجد النبوي، كان جعفر الصادق (ع) قد بلغ الثامنة، أو الخامسة (لاختلاف الرواية حول مولده، كما أسلفنا) فطلب من أبيه الإمام الباقر (ع) السماح له بالعمل والمشاركة مع الصناع في بناء المسجد.

فقال له أبوه (ع) : إنك طفل لا تُطيق مثل هذا العمل.

فقال الصادق (ع) : إنني أحب أن أشارك في بناء المسجد كجدي رسول الله (ص).

فلم يسعه إلا الموافقة على اشتراكه في العمل.

ويرى البعض أن رغبة الصادق (ع) في المشاركة في بناء المسجد إنما انبعثت عن رغبة كل طفل في اللعب بالماء والطين، ولكن الواقع أن رغبته كانت تختلف عن رغبة الأطفال الآخرين في اللعب، بالنظر إلى ما كان يبذله من جهد كبير بالنسبة لجسمه الصغير، وكان يأبى تلبية دعوة الأطفال الذين هم في مثل سنه للعب في شارع المسقى أثناء عمله في المسجد، وإن كان قد شارك أطفالاً في مثل عمره بعض اللعب المتداولة في المدينة المنورة آنذاك.

ولعب الأطفال تتشابه في العالم كله، ولكن كانت في المدينة المنورة لعبتان متداولتان، تختلفان عن لعب الأطفال في العالم.

أما اللعبة الأولى، فهي لعبة يراد منها شحذ الذهن وإعمال الفكر لحل اللغز واكتشاف المجهول. ومن مؤدى هذه اللعبة أن يجلس جعفر الصادق (ع) في مكان الأستاذ. والأطفال من حوله ملتفون، ثم يلقي عليهم أسئلة عن خصائص شيء ما وأوصافه، ويطلب منهم الاستدلال بذكائهم على هذا الشيء، ومن ذلك مثلاً أنه كان يسألهم : ما اسم الفاكهة التي تنبت في منطقة كذا ولونها كذا وطعمها كذا وتقطف في فصل كذا؟ (وبديهي أن الأمثلة التي نسوقها هنا تختلف عما كان يطرحه (ع) فعلاً من الأسئلة على الأطفال) . وكان على الأطفال الجالسين كالتلامذة من حول الصادق (ع) أن يحلوا اللغز، ومن سَبَقَ إلى حله، اتخذ مكان الأستاذ، وأخذ على عاتقه أن يطرح الأسئلة على الآخرين، ولكن الصادق لم يكن يطيل مجلسه في موضع التلاميذ، إذ إنه سرعان ما كان يحل اللغز مرة وأخرى، ويعود بذلك إلى مكانه العتيد كأستاذ.

وكان جعفر الصادق (ع) قد تلقى أدبه وتربيته في أسرة من أشراف المدينة، ولم يكن الأطفال الآخرون في شارع المسقى من نفس المستوى أو من نفس التربية والتعليم، ولم يكن أحد منهم ينعم برعاية والد وجد ووالدة كالرعاية التي نعم بها جعفر الصادق.

ومعروف أن للأسرة تأثيراً عميقاً في تربية الأولاد وتوجيه الطفل. وبسبب اختلاف أساليب التربية، ينشأ الأطفال مختلفين في الطباع والعادات حتى وإن تجاوروا في المسكن أو كانوا من أسرتين متقاربتين.

ومن آثار التربية في نفس جعفر الصادق أنه (ع) كان لا يقول إلا صدقاً، ولعله ورث هذا عن أسرته، أو تلقاه منها بفضل التنشئة والتربية. ولم يكن الصادق يجيز الكذب، حتى وإن أنجاه ذلك من عواقب وحيمة.

أما أترابه من الأطفال، فإن كثرتهم الكاثرة لم تكن على هذه الشاكلة من حيث التربية الأصلية، وما أكثر ما كانوا يكذبون إذا رأوا في ذلك مصلحة أو منفعة.

وعندما كان واحد من هؤلاء الأطفال يقعد مقعد الأستاذ في هذه اللعبة، ثم يشرع في طرح الأسئلة الملغزة على زملائه، كان الصادق يجيب إجابة صحيحة بعد سؤال أو اثنين، ولكن الطفل الجالس في مكان الأستاذ، حرصاً منه على الاحتفاظ بهذه الرئاسة، كان يزعم بأن رد الصادق بعيد عن الصواب، وهو أمر كان الصادق يتألم منه تألماً شديداً يحدوه أحياناً إلى اعتزال اللعبة، وبغيابه تفقد اللعبة جديتها وطرافتها، فيوافيه الأطفال معتذرين طالبين عودته إليهم. وعندئذ يقبل عذرهم مشترطاً ألا يكذب أحد منهم.

أما اللعبة الثانية فهي لعبة خاصة بالمدينة المنورة، وإن عرفت في غيرها، ومن مؤداها أن الأطفال كانوا يختارون من بينهم أستاذاً وعدداً من التلاميذ، ثم يأخذون كلمة "معينة" على وزن معين، مثل كلمة (الشراعية)، وكان على التلميذ أن يعيد هذه الكلمة ويكررها كلما سئل. ورغبة من الأستاذ في اختبار مقدرة التلميذ على الحفظ، كان يسوق على مسامعه ألفاظاً على وزن الكلمة المنتقاة، مثل الدراعية والذراعية والصناعية والكفائية والزراعية وما إلى ذلك، فيردد الطالب الكلمة المنتقاة، أي "الشراعية" في كل مرة، ولم يكن يشترط أن تكون للكلمات الجارية على وزن الشراعية أي دلالة أو معنى، لأن الهدف من هذه اللعبة هو محاولة إيقاع التلميذ في خطأ بذكره لفظة وزنها مخالف لوزن الكلمة (الشراعية) ، وفي هذه الحال يخرج التلميذ من اللعبة، ويحل محله آخر.

وهاتان اللعبتان كانتا تفرضان على الأطفال الجلوس والتحدث، بينما تتطلب الألعاب الصبيانية الأخرى حركات بدنية أو مسابقات في العدو، وكان جعفر الصادق يشارك في هذه الألعاب أيضاً.

وفي سنة ٦٠ هجرية ، انتشر مرض الجدري في المدينة المنورة، فأصاب من أصاب من الأطفال، وكان الصادق في السابعة أو العاشرة من عمره (على اختلاف الرواية) ، فقررت أم فروة الابتعاد عن المدينة المنورة بطفلها احترازاً من الأوبئة، وسافرت ومعها جعفر الصادق إلى الطنفسة[٩٢] وهي من القرى الريفية القريبة من المدينة.

---

(٩٢) الطنفسة، ج طنافس: البساط، الحصير، الثوب (فارسية)، القاموس.

ومعروف أن أسماء كثير من المدن والقرى مأخوذة من أسماء منتجاتها الصناعية أو غلتها الزراعية، الظاهر أن قرية الطنفسة اشتهرت بصنع نوع من الحصير الجميل من الألياف النباتية، فاشتهر الموضع باسم هذا المنتج وهو "الطنفسة".

وقد تغير اليوم اسم هذه المدينة أو استبدل به اسم آخر، كما هو الشأن بالنسبة لأسماء المدن الإسلامية في القرنين الأول والثاني، كيثرب مثلا التي سميت بالمدينة المنورة.

واستقرت أم فروة مع أبنائها في الطنفسة نأياً بهم عن أخطار هذا المرض الساري، ومع ذلك أصيبت هي به دون أن تشعر في بادىء الأمر إلى أن ظهرت أعراض المرض على جلدها. فتنبهت بذكائها وثقافتها إلى خطورة الموقف، وعوضاً عن الاهتمام بعلاج نفسها، طلبت إبعاد الأطفال عنها إلى مكان آخر بعيداً عن هذا الموضع، فأخذوهم إلى قرية أخرى والأم تصارع آلام المرض وسريانه في جسمها.

فاضطر الإمام محمد الباقر (ع) ، بعد وقوفه على النبأ، أن يكف عن درسه بعض الوقت ويقرر الذهاب إلى الطنفسة، وكعادة الهاشميين عند الملمات والأخطار، زار قبر جده رسول الله (ص) في المسجد الشريف، داعياً الله لإنقاذ زوجته من هذا المرض.

فلما رأت أم فروة زوجها الحنون، خافت عليه من العدوى وقالت له:
أو ما تعلم أن هذا المرض مُعْدٍ، وأن السلامة تقضي بعدم لقاء المصابين به؟

فقال الإمام الباقر (ع) : لقد دعوت الله عز وجل عند قبر جدي رسول الله (ص) أن ينجيك من هذا المرض، وإنني لواثق من أن جدي لا يردني، وهو سيقضي لي حاجتي ومطلبي، فثقي بأنك ستشفين من هذا المرض، وأنا أيضاً مصون منه إن شاء الله.

وقد تحقق ما قاله الإمام الباقر (ع) ، وشفيت أم فروة، وزال عنها المرض الوبيل، بل إن هذا المرض لم يخلف فيها أي آثار سيئة، مع أن هذا نادر الحدوث، ومن خصائص هذا المرض أنه لا يصيب الكبار في السن إلا نادراً، فإن أصابهم، فقل من ينجو منه.

وفي رأي الشيعة أن الإمام يتمتع بقدرة غيبية غير محدودة، وأن أم فروة شفيت من المرض لزيارة الإمام ودعائه لها، أي إنها شفيت بقدرة الإمامة، وهذا رأي لا يسع المؤرخ تقبله على علاته خاصة أن الأطباء كانوا آنذاك عاجزين عن معالجة هذا المرض، وشفاؤها منه هو حالة استثنائية.

عادت أم فروة إلى المدينة المنورة بمفردها بعد شفائها، ولم تستصحب أولادها معها لأن المرض كان مازال متفشياً هناك.

جعفر الصادق في مدرسة الإمام الباقر:

منذ سنة ٩٠ هجرية وجعفر الصادق (ع) يحضر درس أبيه الإمام الباقر (ع) ، والمؤرخون متفقون على أن جعفراً الصادق (ع) كان يحضر درس أبيه (الدروس العامة) وهو في العاشرة من عمره.

وكانت دروس الإمام الباقر (ع) في مدرسته تعتبر آخر مرحلة من مراحل الدراسة، أو هي من قبيل الدراسات المتقدمة في مدينة الرسول

(ص). وكان معظم طلابه من الفقهاء والعلماء أو الباحثين. فمن سديد الرأي أن نقول إن جعفراً الصادق (ع) بدأ دراساته العليا من العاشرة، وهو أمر غير مستبعد بالنسبة لمن كان كالصادق (ع) قوة ذاكرة وذكاء.

والمعروف في الغرب أن كثيراً من مشاهير العلماء بدؤوا دراساتهم الجامعية في سن مبكرة.

وقد أشرنا في ما مر إلى المواد والدروس التي كان الإمام الباقر (ع) يدرسها في مدرسته، وعندما حضر جعفر الصادق (ع) درس والده لأول مرة، بدأ الإمام الباقر يدرس جغرافية بطليموس، وفي هذه الجلسة سمع الصادق (ع) للمرة الأولى عن كتاب المجسطي لبطليموس، وعن رأي هذا العملاق الجغرافي في شأن كروية الأرض، وهو الرأي الذي قال به بطليموس في القرن الثاني الميلادي.

ويعتقد البعض أن كوبرنيكوس المنجم البولوني الشهير الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي هو الذي اكتشف نظرية كروية الأرض[٩٣] ، ولكن الواقع أن معظم المنجمين والعلماء في مصر القديمة أيام الفراعنة قد قالوا بكروية الأرض.

وفي مكتبة الفاتيكان بروما مخطوطات علمية يرجع تاريخ تأليفها إلى أكثر من ألف سنة قد تناولت موضوع كروية الأرض، بالإضافة إلى أن

---

(٩٣) كوبرنيكس (Copernic) فلكي بولوني ولد عام ١٤٧٢ م وتوفي ١٥٤٣م. وقد أقام البرهان على دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس.

كريستوف كولمبس[٩٤] بدأ رحلته البحرية (استناداً إلى نظرية كروية الأرض) ووجهته الوصول إلى جزر الأعشاب الطبية في الشرق عن طريق الغرب، وذلك قبل أن يدعو كوبرنيكوس إلى نظرية كروية الأرض ودورانها حول الشمس ، وقبل أن يدون هذه النظرية.

وقبل ذلك أيضاً، بدأ ماجلان البرتغالي رحلته البحرية ليطوف حول العالم ويعود إلى إسبانيا بعد ثلاث سنين. وقد ضم في رحلته البحرية هذه عدداً من البحارة بمساعدة ملك إسبانيا، الذي كان يعمل في خدمة بلاطه، ولكن الحظ لم يواته، وقتل في إحدى الجزر الفلبينية، بينما أتم زملاؤه الرحلة. وعادوا إلى إسبانيا بعد سفر طويل حقّقوا فيه نظرية كروية الأرض بصورة عملية[٩٥].

فالقول بكروية الأرض كان سابقاً إذن على نظرية كوبرنيكوس، بل قد دعا إليه المصريون والإغريق القدماء، وأكده بطليموس في كتابه المجسطي[٩٦] ، ولكن بطليموس كان يقول بأن الأرض هي مركز العالم، وأن الشمس والقمر والنجوم الأخرى تدور حولها، في حين أن كوبرنيكوس

---

(٩٤) كريستوف كولمبس (C.Colombos) ١٤٥١م – ١٥٠٦م بحار رائد، ولد في جنوب إيطاليا وتوفي بإسبانيا وهو مكتشف أمريكا، أبحر من بالوس في ٣ آب ١٤٩٢ ووجهته بلاد الهند عن طريق الغرب، فوصل إلى شواطيء سان سالفادور (أمريكا الجنوبية) في ١٢ تشرين الأول ١٤٩٢ (المترجم).

(٩٥) فردنان دي ماجلان (Magellan) ١٤٨٠ – ١٥٢١م رائد برتغالي ، اكتشف المضيق المعروف باسمه في عام ١٥٢٠ وقام بأول رحلة حول العالم، ولكنه قتل في إحدى جزر الفلبين (المترجم).

(٩٦) بطليموس القلوذي (بطولوميوس كلوذيوس) صاحب (المجسطي) أشهر كتب الفلك في العصور الأولى، ثم اقليدس صاحب كتاب الهندسة المشهور(المترجم).

يقول إن الأرض كروية، وإنها تدور حول الشمس وحول نفسها. وإن الشمس هي مركز العالم.

واتفق في سنة ٩١ هـ ، وجعفر الصادق (ع) مازال طالباً في مدرسة أبيه، أن حدث حدثان كان لهما أثر كبير في الإبانة عن مواهبه وقدراته العلمية. أولهما أن محمداً بن فتى، وهو من تلامذة الإمام الباقر (ع) ، عاد من مصر حاملاً معه هدية إلى الإمام الباقر (ع) قوامها كرة أرضية مصغرة مصنوعة من دقيق الخشب. وكان صنّاع مصر يستخدمون نشارة الخشب أو الخشب نفسه في صنع كثير من التماثيل والنماذج الزخرفية التي تنقل إلى خارج مصر لتقدم كهدايا أو تذكارات. وكانت الكرة الأرضية المصغرة التي حملها محمد بن فتى من مصر، مركبة على قاعدة مستديرة في سمائها مجموعة من النجوم كما تصورها بطليموس في كتابه "المجسطي" في القرن الثاني الميلادي.

وكان بطليموس قد قسم النجوم التي تُرى بالعين المجردة إلى ثمان وأربعين صورة، وكان هذا هو التقسيم الشائع لدى علماء الفلك قبل بطليموس، غير أنه أتمّه ووضّحه.

أما المجموعات الفلكية الثابتة – حسب رأي بطليموس – فهي ثمان وأربعون، ولكل منها صورتها الخاصة وشكلها المعين. وقد صوّر هذه المجموعات حول الكرة، ودون عليها أسماءها باللغة المصرية القديمة.

وصور على الكرة نفسها اثنتي عشرة مجموعة من النجوم، من برج الحمل حتى برج الحوت، على هيئة حزام يطوّق الكرة. وكانت صورة

الشمس تقع خلف الكرة بحيث تكشف عن دورانها حول الأرض، ومن على منطقة البروج مرة كل سنة.

وصور على الكرة أيضاً القمر والسيارات الأخرى وهي تدور حول الأرض.

كانت هذه الكرة أول نموذج مصغر للكرة الأرضية والسيارات الأخرى يراه جعفر الصادق (ع) ، ومع أنه كان آنذاك في الحادية عشرة من عمره ليس إلا، فقد انتبه بذكائه الوقّاد إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه بطليموس. وفي هذا قال: إذا كانت الشمس تدور حول الأرض، وتنتقل من برج إلى آخر في ثلاثين يوماً لتتم دورتها مرة كل سنة، فما هو السر إذن في غياب الشمس كل ليلة لتظهر في صباح اليوم الثاني؟

وإذا كانت الشمس تستقر في كل برج شهراً واحداً، فلا بد إذن أن نراها بصورة مستمرة، فلا تغيب عنا كل مساء.

كان نقد جعفر الصادق (ع) نقداً علمياً دقيقاً، فقام بتخطئة بطليموس في رأيه القائل بوجود حركتين للشمس، حركة في البروج الاثني عشر حول الأرض مرة كل سنة، وحركة حول الأرض مرة في كل يوم وليلة، ومن هنا نرى الشمس، حسب رأي بطليموس، تغيب عنا كل ليلة في المغرب لتظهر صباحاً من المشرق، وهي حركة يومية نسبها إلى الشمس.

ورأى الصادق (ع) أن هناك استحالة في التقاء هاتين الحركتين في آن واحد، لأن الشمس إذ تسير في منطقة البروج لا يسعها أن تترك هذا المسار لتدور حول الأرض مرة كل يوم.

وفي ذلك الوقت، كان قد مرّ على وفاة بطليموس ٥٦٠ سنة، ولم يكن أحد قد تنبه في هذه الفترة الطويلة إلى هذا المشكل، ولا كان أحد ليجرؤ على انتقاد رأي بطليموس أو تخطئته.

ولم يكن رأي بطليموس رأيا يمتنع على النقد أو المناقشة، كما كان شأن الآراء الفلسفية والدينية إذ ذاك، ولكننا نعتقد أنه كان هناك سببان أساسيان وراء انتشار هذا الرأي وذيوعه دون نقد أو اعتراض.

الأول: ماكان يتمتع به الأستاذ في القديم من منزلة عليا واحترام كبير، مما كان يورث التلاميذ اعتقاداً بأن الأستاذ على حق دائماً في كل ما يذهب إليه ويقول به من آراء.

والسبب الثاني هو قلة حفاوة الطلبة بالمسائل العلمية المعقدة التي تحتاج إلى إمعان الفكر وإجراء التجارب العملية.

ومن الغريب أن جامعات الغرب لم تطرح بدورها رأي بطليموس على بساط البحث والنقد، شأنها شأن الجامعات والمدارس العلمية في الشرق. وكان جعفر الصادق أول من التفت إلى الخطأ أو الفساد في هذه النظرية وهو آنذاك في سن مبكرة يدرس في مدرسة والده الإمام محمد الباقر(ع).

ومن هذا اليوم بدأ جعفر الصادق يفكر في مكمن الخطأ في نظرية بطليموس، وكيف أن الشمس تغيب في كل ليلة وفي نفس الوقت تقول: إنها تدور حول الأرض في منطقة البروج لتكمل الرحلة في سنة كاملة.

أشرنا قبلاً إلى أن مدرسة الإمام محمد الباقر (ع) كانت تدرس علوم الجغرافيا والهندسة والهيئة إلى جانب الفقه والتفسير، وأن الإمام الباقر (ع) كان يقوم بنفسه بتدريس هذه المواد العلمية، ويبدو أن علمي الهندسة والهيئة وصلا إلى المدينة المنورة عن طريق أقباط مصر، وأن الإمام الباقر (ع) كان واقفاً على القواعد الهندسية التي وضعها اقليدس اليوناني، لأن اقليدس عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وكان يقول بكروية الأرض، ورغم براعة اقليدس في الهندسة، فقد أخفق في تحديد حجم الكرة الأرضية أو مساحتها.

وكان الاعتقاد السائد وفقاً للأساطير اليونانية القديمة، وقبل تدوين تاريخ اليونان العتيقة لإلقاء الضوء على التفكير الإغريقي حول توالي الليل والنهار، أن هناك آلافاً من الأجرام الشمسية، وأن الشمس التي تغيب ليلاً تغوص في وادٍ مجهول لتشرق في مكانها شمس أخرى في اليوم التالي، وأن شمس هذا اليوم تختلف عن الشمس التي غربت في الليلة الفائتة، ومن مؤدى رأي الإغريق القدماء – بذلك – أن لكل يوم شمساً مستقلة تشرق من المشرق، خلاف الشمس التي غربت في اليوم السابق، وأن زيوس (Zeus) رب الآلهة (ويقال له في اللاتينية جوبيتر Jupiter)* يملك كثيراً من الأنوار والمصابيح التي يطلق منها في كل فجر مصباحاً يَسبَحُ في السماء ليضيء الأرض ويدفئها، ومتى استنفد وقود المصباح، أو صارت النار رماداً، حل الغروب، أما المصابيح والأنوار المستهلكة، فتسقط في مكان مجهول لا سبيل إلى الاهتداء إليه.

(*) يقابلها في العربية لفظ (المشتري) .Jupiter .

وثمة سؤال هو: هل كان زيوس (رب الآلهة) يُعيد تزويد المصابيح بالوقود ليطلقها من جديد إلى السماء مرة أخرى؟

لم يكن الرد على هذا السؤال مؤكداً، إذ إن البعض كان يعتقد بأن لزيوس مثل هذه القدرة بل أكثر، في حين أن البعض الآخر كان يرى أن شمس كل يوم غير شمس اليوم السابق.

وكان الإغريق في القديم يفسرون المسائل الفلكية في ضوء ما يقرره "زيوس" العالم، وما ينسبه إليه.

وابتداء من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، الذي يعتبر عصر النهضة العلمية في اليونان، وتحت أيدينا التاريخ العلمي لهذه الفترة، أخذ اهتمام اليونان بمسائل الفلك يتضاءل، وظهرت الفلسفة وعلوم الاجتماع على المسرح، واستأثرنا باهتمام معظم علماء اليونان، فاهتم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهم من أشهر فلاسفة اليونان، بعلوم الاجتماع والفلسفة دون سواها من أبواب المعرفة، وإن كان أرسطو اهتم بالفيزياء والأرصاد الجوية والفلك، وألف في هذه العلوم، ولكن معظم اهتمامه انصب على الفلسفة أيضاً، واشتهرت مدرسته بالفلسفة المشائية، وقد عالجت موضوعات علم الاجتماع أيضاً.

في مثل هذا المجتمع، ظهرت محاولات أخرى من بعض علماء الفلك والنجوم، منهم اقليدس الذي كان رياضياً مهندساً أكثر منه منجماً أو فلكياً، وهو الذي فنّد الرأي القائل بأن زيوس هو الذي يرسل في فجر كل يوم شمساً إلى السماء لتذوب ويخبو ضياؤها عند الغروب.

وقد عاش اقليدس أربعة قرون ونصف قرن قبل بطليموس في الاسكندرية، وكان يرى أن الشمس التي تغرب عن أعيننا عند الغروب هي نفسها التي تشرق مرة أخرى في فجر اليوم التالي، وذلك لأنها تدور حول الأرض الكروية في كل يوم وليلة.

وقد اكتشف هذا الرأي في مؤلفات اقليدس بعد موته بسنين، والغريب في الأمر، أن اقليدس لم يجرؤ على إبراز هذه النظرية طيلة حياته، مع أن عصره أي القرن الثالث قبل الميلاد، كان عصر العلم وعصر انطلاقة حركة البحث العلمي والتحقيق. وكان "بيرون"* ، المعاصر لإقليدس (في اليونان) يناقش آراء أرسطو وأفلاطون ويعارضها بل ينفي وجود آلهة للإغريق قائلاً : إن ذلك خرافة، مع العلم بأن هذا الموقف كان معارضة منه للمذهب الرسمي في اليونان.

ولكن بيرون كان يعيش في مدينة "أليس". وقضى حياته في غير الاسكندرية، وتوفي سنة ٢٧٠ ق.م. وكانت المدن اليونانية في ذلك الوقت شبه مستقلة، يحكمها حكام وأمراء يختلفون من حيث منهج التفكير وأسلوب الحكم والنظرة إلى الحياة والكون وما إلى ذلك.

عاش اقليدس في الاسكندرية أيام حكم بطليموس الأول، وهو مؤسس أسرة البطالسة ورأسها وكان ينادي بحرية الرأي ويحترم العلماء ماداموا لا يتعرضون لموضوع الآلهة ونقد الدين، وهو الذي أسس مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي ذاع صيتها في ما بعد.

(*) هو رئيس الشكاكين من الفلاسفة.

وكان من توجيهات بطليموس الأول ألا تتعرض المباحث العلمية للمسائل الدينية، فإن تعارضت نظرية علمية مع رأي ديني، وجب على العالم التراجع، فلا يتصدى للعقيدة[١٠] والرأي الديني.

لهذا فقد تعذر على إقليدس في حياته أن يعارض العقيدة الدينية القائلة بأن زيوس يرسل شمساً في إشراقة كل يوم إلى السماء، وأن يصحح هذه العقيدة بقوله إن الشمس هي التي تدور حول الأرض، وقد عثر على هذا الرأي مدوّناً في مذكرات إقليدس ومؤلفاته بعد وفاته.

ولما جاء العالم الجغرافي بطليموس بعد حوالي قرن من اقليدس، أخرج هذه النظرية إلى النور، ولا يستبعد أن يكون قد نقلها عن مؤلفات اقليدس ومذكراته الموجودة في مكتبة الاسكندرية، فقام بتدوينها وإعلانها حتى اقترنت هذه النظرية باسمه.

أما "بيرون" اليوناني، الذي كان ينفي وجود آلهة الإغريق، فلم يتحدث عن توالي الليل والنهار أبداً، ولكنه اشتهر في تاريخ العلوم الإغريقية بأنه (أبو الشكاكين) لمعارضته للعقائد الدينية وتفنيده لها، وكان من مذهبه أننا نفتقر إلى دليل علمي دقيق يهدينا إلى معرفة كنه الوجود، وكان يقول إن الآراء والنظريات الفلسفية المتعلقة بالوجود يتعارض بعضها مع البعض الآخر، أو يمكن الرد عليها بآراء ونظريات أخرى* وللمثال ففي كل سنة تتساقط على الأرض ملايين من ثمرات التفاح الناضجة على مرأى من الآلاف ومسمع، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد أن يسأل عن سبب سقوطها،

(*) وعليه فيتعين الشك في هذه الآراء والنظريات كلها جملة واحدة.

ولمَ لا تطير في الهواء. أو تنحرف شرقاً أو غرباً، أو تقع في مكان آخر خلاف الأرض. وظل هذا التساؤل غائباً، إلى أن جاء نيوتن في القرن السابع عشر الميلادي واكتشف قانون جاذبية الأرض عندما سقطت تفاحة على رأسه.

صحيح أنه كان هناك الآلاف من العلماء والفلاسفة في الشرق والغرب، الذين أتيح لهم في مطلع القرن الثامن الميلادي أن يقفوا على نظرية بطليموس بشأن دوران الشمس حول الأرض، ولكن أحداً منهم لم يسأل عن الشمس، وكيف أنها تدور حول الأرض في منطقة البروج، ثم تترك هذ المسار (في منطقة البروج) لتدور في نهار وليل حول الأرض أيضاً.

وكانت مدينة الاسكندرية الواقعة في شمال مصر مركزاً للفلسفة والعلوم منذ أن أسست فيها المكتبة الشهيرة على يدي رأس أسرة البطالسة (بطليموس الأول)، وظلت تتمتع بهذه المنزلة إلى يوم سقوطها في أيدي الجيش العربي عند الفتح الاسلامي وعند إحراق مكتبتها[٩٧]، أي ما يقرب من تسعمئة عام. وقد اشتهر علماء مدرسة الاسكندرية بآرائهم الفلسفية، وكانوا على قدر وافر من النشاط والعمل العلمي الدائب، ومع ذلك فلم ينبر أحد من المفكرين والعلماء في هذه المدرسة العلمية لمناقشة نظرية بطليموس بشأن دوران الشمس في منطقة البروج. ودورانها في نفس الوقت

---

(٩٧) قضية إحراق مكتبة الإسكندرية أو مكتبة جنديسابور بأيدي جيوش الفتح الإسلامي هي من القضايا الملفّقة ضد المسلمين، ولا دليل عليها في أي مرجع تاريخي يعتد به، وأما ما قيل من أن الخليفة عمر بن الخطاب قال لقائد جيوش المسلمين في أرض فارس عندما سأله عما ينبغي عمله بالنسبة للمكتبة : "احرقوها، كفانا كتاب الله". فرواية ضعيفة. (المترجم).

حول الأرض مرة في كل يوم وليلة، كما لم ينتبه أحد إلى فساد هـذا الـرأي، إلى أن جاء جعفر الصادق (ع) وتنبه إلى استحالة اجتماع هاتين الحركتيـن معاً، مع أنه كان آنذاك في مطلع شبابه، وكـان يعيش فـي مدينـة بعيـدة عـن الاسـكندرية وليسـت مركـزاً علمياً مشـهوراً مثلهـا، ومـا ذلـك إلاّ لأن هـذا الشاب اليافع كان ذا عقلية علميـة تفـوق بكثير العقليات التي وجـدت فـي مدرسة الاسكندرية والتي عاشت في قرون متوالية بعد ذلك.

ولـم يكـن لجعفـر الصـادق (ع) اهتمـام فـي أيامـه هـذه بالشـؤون الاقتصادية، ولا عقلية تجارية أو مالية، وهذا أمر طبيعـي بالنسبة للصبيـة فـي مثل سنّه، إذ إنهم لا يتحملون تبعـة كسـب القوت ولا يعولـون أسرهم، ولكنـه (ع) كان يملك القدرة على التفكير السليم، وكانت له عقلية علمية منظمـة فذة تساعده على اكتناه الأمور والوصول إلى النتـائج الصحيحـة فـي أبحـاث العلوم، ولا سيما أبحاث النجوم والفلك التي قصـرت عـن إدراكهـا عقليـات غيره من معاصريه.

وعندما أعلن جعفر الصادق (ع) رأيه في اسـتحالة اجتمـاع حـركتـي الشمس (١ – فـي منطقـة الـبروج و ٢– حـول الأرض) لـم تسـتطع العقليـة العلمية لغيره من معاصريه أن تدرك أهمية هذا الرأي وتستوعب حقيقة مداه، لأن هذه العقلية كانت من الضعف بحيث استعصى عليها هذا الفهم، وتعـذر عليها بالتالي أن تولـي آراء الصـادق مـا هـي أهـل لـه وجديـرة مـن الاهتمـام والعناية.

وهذا هو حال كل عبقري أم مفكر يرتفع بتفكيره عن الوسط الذي يعيش فيه، فهو يرى الأمور بعين ومنظار يختلفان عن مقاييس رؤية عامة الناس لها، وهي رؤية لا تتجاوز الأمور المحسوسة والحاجات اليومية الدارجة.

فمثلاً هذا التقدم الذي أحرزه الطيران في عصرنا هذا، والرحلات الفضائية أو المكوكية التي يسرت على الإنسان أن يضع قدميه لأول مرة على سطح القمر، لا ريب في أنه يعود الفضل فيها إلى نظرية نيوتن الخاصة بجاذبية الأرض. والغريب أن اكتشاف نيوتن لقانون جاذبية الأرض، الذي هو قطعاً من أهم القوانين الطبيعية التي اهتدى إليها الانسان، لم يصادف من عامة الناس في عصره اهتماماً يُذكر، بل أن جريدة "الديلي نيوز"، وهي أولى الصحف البريطانية في ذلك الوقت، وكانت تصدر أسبوعياً، لم تحفل بنشر نبأ هذا الكشف العلمي في حينه، وطبيعي أن الصحف الأخرى لم تهتم بدورها بهذا الكشف، ولم تورد النبأ إلا بعد ثلاث سنين أو أربع، هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الصحف مشغولة بأنباء السرقات وجرائم النهب والسلب والقتل والأحداث اليومية، لأن في عرفها أن لهذه الأخبار – دون غيرها – أهمية قصوى للقراء لارتباطها بحياة الناس.

أما العلماء والباحثون الذين وقفوا على هذا الكشف العلمي، فلم يشيروا إليه لكونهم لم يشتركوا في الاهتداء إلى ناموس الجاذبية، ولأن الحسد هو من طبيعة البشر، ولكن العالم عرف هذه النظرية العلمية في ما بعد، واهتمت بها بريطانيا، وكرمت صاحبها نيوتن بمنحه لقب سر (Sir).

فإذا كان القوم في القرن السابع عشر لم يهتموا في الغرب باكتشاف نيوتن لناموس الجاذبية، فلا عجب أن يكون أهل المدينة المنورة في القرن الثامن قد نظروا بقلة اهتمام إلى ما كشف عنه جعفر الصادق (ع) ، ولكن الفرق بين عامة الناس في المجتمع البريطاني في القرن السابع عشر وبين الذين كانوا يحضرون مدرسة الإمام الباقر (ع) في القرن الثامن، فرق شاسع ، إذ إن رواد مدرسة الإمام الباقر (ع) كانوا من العلماء والباحثين، ولم يكن مقبولاً منهم أن يمروا بالمسائل العلمية دون التفات واهتمام، فإن كان قد فاتهم من قبل أن يهتدوا إلى ما اهتدى إليه جعفر الصادق (ع) من استحالة الجمع بين حركتي الشمس (في دائرة البروج ودورانها حول الأرض)، وهو الرأي الذي ذهب إليه بطليموس، فقد كان منتظراً منهم أن يستقبلوا رأي الصادق (ع) بالاهتمام والمدارسة، وأن يبحثوا عن سبب آخر لتعاقب الليل والنهار، ولكن تفكيرهم العلمي كان محدوداً جداً، ولم يسعهم مناقشة هذه النظرية مع منشئها جعفر الصادق (ع) نفسه. ولعل من أسباب تقاعسهم أن جعفراً الصادق (ع) كان في ذلك الوقت طري العود، وعمره لا يزيد على اثني عشر ربيعاً، بينما أصحاب الإمام الباقر (ع) وطلاب مدرسته كانوا في غالبيتهم رجالاً متوسطي العمر أو متقدمين في السن، ولعل هؤلاء كانوا يرون في أقوال الصادق (ع) كلام صبية، ولو أنهم دققوا النظر فيها، لاستبان لهم وجه الحقيقة ناصعاً مجلواً.

لقد كان جعفر الصادق (ع) يرى حول الأرض دائرة واسعة مقسمة إلى اثني عشر برجاً، وكان يرى صورة الشمس وهي تدور في هذه الدائرة من برج إلى برج، فسأل نفسه قائلاً: إذا كان لابد للشمس أن تدور في هذه

الدائرة مرة واحدة في كل سنة، فكيف لها أن تغادر هذه الدائرة لتدور حول الأرض مرة واحدة كل نهار ومساء؟ إن اجتماع هاتين الحركتين معاً غير مستطاع عقلاً.

وقد تكون هذه النظرية واضحة ومفهومة للناس جميعاً في يومنا هذا، ولكنها لم تكن واضحة أو مفهومة لطلاب مدرسة الباقر (ع) فكيف لعامة الناس آنذاك؟

وفي القرن السابع عشر الميلادي وحين نادى كوبرنيكوس البولوني بنظرية دوران الأرض حول الشمس ، لم تصادف هذه النظرية اهتماماً أو قبولاً في مجتمعه، بل إن الموت كان يترصد له لدعوته إلى رأي مخالف للعقيدة الدينية القائمة عندئذ، ولم ينقذه منه إلا أنه كان يعيش في بولونيا، وليس في روما أو ألمانيا أو في إسبانيا مثلاً حيث كانت محاكم التفتيش العقائدية Inquisition تلاحق الخارجين على الدين والمعارضين والمناوئين للمسيحيين المتشددين المسيحيين (التوركفادا) Turquevada، وتحكم عليهم في الأغلب بالسجن أو التعذيب حتى في أتفه مسائل الخلاف، وقد كانت نظرية كوبرنيكوس هذه دخيلة على التفكير المسيحي السائد، لقوله بأن الأرض وسيارات أخرى هي التي تدور حول الشمس، وهو ما يكون جزاء صاحبه الإعدام بلا ريب، ولقد سبق لهذه المحاكم أن عاقبت جاليليو Galilé e وحرمته من مزاولة الطقوس الدينية وطردته من الكنيسة.

ولكن بولونيا كانت خارجة عن دائرة نفوذ هذه المحاكم ولذلك أبدى كوبرنيكوس رأيه هذا في دوران الأرض حول الشمس، دون أن يمسه

أذى هذه المحاكم وعقابها المنتظر، في حين أن جاليليو، الذي اخترع منظار المراصد (التلسكوب) وبرهن على رأي "كوبرنيكوس" علمياً وعملياً، لم يستطع النجاة من سطوة هذه المحاكم القاسية، فأُلقي القبض عليه، وأودع السجن، وكان من المنتظر أن يُحكم بإحراقه لولا تدخل بعض أصحاب النفوذ وحمايتهم له، ورغم تدخل هؤلاء السياسيين أو أصحاب السلطة ، فإن المحكمة لم تفرج عنه بل فرضت عليه أن يسحب قوله بأن الأرض تدور حول الشمس وأن يتوب عن هذه الهرطقات ، ويتعهد بعدم تكرار مثل هذا القول من أقوال الكفار والملاحدة.

وبين أيدينا رسالة جاليليو في التوبة وطلب العفو والاعتذار، وهي تثبت أن نظرية دوران الأرض حول الشمس لم تكن من ابتداع جاليليو بل نقلها عن كوبرنيكوس البولوني.



حرية البحث العلمي في الإسلام

لاريب في أن المدينة المنورة في عام ٩١ للهجرة ومدرسة الإمام الباقر (ع) بها كانتا تتمتعان بحرية لم تتمتع بها معظم المدارس والجامعات الأوروبية في القرون الوسطى، بل في القرنين الأول والثاني من عصر النهضة أيضاً(٩٨) .

وقد رأينا كيف أن جعفراً الصادق (ع) انتقد وفند نظرية بطليموس في دوران الشمس حول الأرض في يوم وليلة، بعدما وقعت في يده الكرة الأرضية التي جيء بها من مصر، في حين أن العلماء والباحثين في بداية عصر النهضة لم يتمكنوا من المجاهرة بالاعتراض على هذه النظرية.

وفي الوسع القول بأن المسلمين عامة كانوا أكثر حرية في دراسة المسائل العلمية ومناقشتها، حتى لو تعارضت مع مذهب أو رأي ديني، وحتى في أحلك فترات الحكم في التاريخ الإسلامي، كأيام بعض الخلفاء العباسيين، وأن الباحث المسلم كان أكثر حرية من الباحث الأوروبي في الإتيان بالنظريات العلمية.

---

(٩٨) عصر النهضة أو التجديد (Renaissance) عند الأوربيين هو عصر العلم والصنعة واكتشاف البخار، وهو يبدأ من سنة ١٤٥٣ ميلادية أي من تاريخ سقوط القسطنطينية وفتحها على يدي السلطان محمد الفاتح . (المترجم).

وأما الفترات العصيبة التي مرت بالتاريخ الإسلامي في أيام بعض الخلفاء العباسيين والتي حُجر فيها على البحث في بعض الموضوعات الفلسفية أوالمذهبية، كالبحث مثلاً في موضوع خلق القرآن وهل هو قديم أم حادث، فقد كانت دواعيها هي خوف الخليفة من أن يفقد احترام الناس له ولمنزلته التي تقترب من القداسة، وبالتالي نفوذه وسلطانه.

ولو أن النقد الذي وجهه جعفر الصادق (ع) إلى نظرية بطليموس ساق مثله باحث في أوربا، لأصابه على أقل تقدير جزاء التكفير والطرد من المجتمع الديني. ولو أن باحثاً أبدى هذا الرأي في أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي والقرن الذي بعده، لكانت عقباه الإعدام والإحراق بالنار، وقد نص القانون الصادر عن المجمع الديني المنعقد عام ١١٨٣ ميلادية في مدينة "وورن" على أن جزاء الخارج على الدين الإعدام بالمقصلة (La Guillotine) ثم جاء البابا جورجيس التاسع، ووضع قواعد محاكم التفتيش العقائدية (Inquisition) في سنة ١٢٣٣ للميلاد. ومنذ ذلك التاريخ، نفذت الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم بإحراق كل من يدان بالاعتقاد بعقيدة تخالف المسيحية واعتباره خارجاً على الدين.

وكانت لهذه المحاكم سلطة واسعة في التحري والتفتيش، حتى في حرم المدارس والجامعات، وكانت عقوباتها الصارمة في انتظار أي طالب يجرؤ على توجيه سؤال غير مألوف أو خارج عن قواعد الدين إلى الأستاذ، حتى ولو كان ذلك في قاعة الدرس وفي حرم الجامعة.

واستمرت هذه المحاكم تزاول نشاطها إلى سنة ١٨٠٨ ميلادية عندما تولى نابليون الأول السلطة، كامبراطور لفرنسا، فأمر بحلها وإلغائهـا، ولكن هذا الإلغاء لم يستمر طويلاً ، إذ أنها أعيدت في إسبانيا اعتباراً من سنة ١٨١٤ ميلادية، وظلت تزاول نشاطها إلى ما بعد عام ١٨٣٤ للميلاد.

وتكمن أسباب الجمود والتأخر وما يسمى بظلمة القرون الوسطى في أوربا في انعدام حرية الرأي والبحث، بينما تقدمت الحركة العلمية وتوسعت في العالم الإسلامي في هذه الفترة، فقد كان محظوراً على الباحث أو العالم الأوروبي أن يدلي بأي رأي أو نظرية تخالف نظرية الكنائس المسيحية، وكانت العقوبة شديدة لمن تسوّل له نفسه معارضة الآراء الدينية النصرانية، في حين أن الحرية في البحث وفي العكوف على نفس العلوم والنظريات العلمية*، وقبولها أو مناقشتها أو ردها، كانت سائدة في المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى.

ومع أن إشعاعاً من العلوم والفنون الشرقية كان يصل إلى الغرب، إلاّ أن الجو الحاكم المهيمن على ذلك المجتمع كان غارقاً في ظلام حالك، ولم تتمكن علوم الشرق وثقافته من النفاذ إلى الوسط العلمي هناك، اللهم إلاّ بالنسبة لبعض فروعها كالطب والصيدلة.

فقد انتقلت إلى الغرب أرجوزة ابن سينا في الطب، ووضعت لها ترجمة باللاتينية، وقل من لم يحفظ أو يقرأ الترجمة اللاتينية بهذا المرجع بين

(*) بما فيها تلك النظريات المخالفة للآراء الدينية والمذهبية.

أطباء الغرب في تلك الفترة، أما علوم الهيئة والنجوم فلم يكن يسمح بنقلها إلى الغرب.

الخليفة الأموي ومدرسة الإمام الباقر (ع)

أشرنا إلى أنه قد وقع للصادق في سنة ٩١ هجرية حدثان هامان كانا من الأهمية بمكان، الأول وصول نموذج الكرة الجغرافية من مصر، أما الثاني فكان قيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك برحلة إلى الحجاز، وزيارته للمدينة المنورة.

وكانت رحلة الخليفة من عاصمة الأمويين في الشام إلى الحجاز، من قبيل الزيارات الرسمية التي تقترن بالتشريفات والأبهة والمراسم الملكية المنقولة عن التشريفات الامبراطورية البيزنطية (بلاد الروم الشرقية). ومن مقتضى هذه التشريفات أن تسبق الخليفة طلائع من الحرس والخدم، ليهيئوا له أسباب الراحة في كل منزل وموقع.

خرج والي المدينة عمر بن عبد العزيز مسافة خمسين فرسخاً ليستقبل الخليفة بعدما أعد أوسع بيوت المدينة ودورها لنزول الخليفة وحاشيته.

ووصل الوليد بن عبد الملك إلى المدينة، وأذن للناس بالدخول عليه في اليوم التالي، وكان عمر بن عبد العزيز يحثّ الأشراف والتابعين من الصحابة على أن يكونوا في مقدمة الزائرين والمرحّبين بالخليفة، وكان يعلم أن الإمام الباقر (ع) ليس ممّن يسعى إلى الخلفاء والملوك، فتدارك الأمر، وجاء بنفسه إلى الإمام الباقر (ع) وسأله: هل تزور الخليفة غداً؟

فرد عليه الإمام بالنفي.

فلم يستفسر عمر بن عبد العزيز عن سبب ذلك، لأنه كان يعلم أن الإمام الباقر (ع) لايرى للخليفة بيعة في عنقه، ولا ولاء أو حباً له في قلبه يدعوه إلى زيارته.

ولكنه قال للإمام الباقر (ع) : إن هذه المدينة مدينة جدك، والزائر لها أينما نزل نزل بدارك، وهو ضيف عليك، وهذا هو الوليد بن عبد الملك إن لم يكن خليفة فهو مسلم زائر نزل بدارك. أَوَمَا تكرّمه؟

فأجاب الباقر (ع) : من نزل علينا كزائر وضيف وجب حقه علينا، ولكن الوليد بن عبد الملك نزل هنا. ويرى نفسه صاحب الحق والخلافة، فهو إذن صاحب الدار وليس ضيفاً علينا.

فقال عمر بن عبد العزيز: إنني أعلم سبب امتناعك عن لقاء الوليد، حتى لايقول الناس إنك بايعته وأعطيته يدك.

فوافقه الإمام الباقر (ع) على قوله.

وعاد عمر بن عبد العزيز يقول: إن جدك بايع على غير رغبة الخليفة الأموي، وكانت في تلك البيعة مصلحة للمسلمين، فزيارتك للوليد غداً ليست بيعة، وإنما هي لمنع الفساد ولمصلحة المسلمين، وامتناعك عن زيارته سيجلب عليّ المشاكل.

قال الإمام الباقر (ع) : وكيف يكون ذلك؟

قال عمر بن عبد العزيز: أنت تعلم أن للوليد أعيناً في كل مكان يخبرونه عن كل ما يجري (وكان للدولة الأموية - بالفعل - جهاز للأمن أسسه معاوية بن أبي سفيان لأول مرة في التاريخ الإسلامي، واستمر نشاطه مع الخلافة)، والخليفة يعلم ما أكنُّ لك من ودٍ واحترام، فإذا امتنعت عن لقائه، فقد يظن أن هذا من صنعي أنا، وسيقول: لولا احترامك له ما حدث هذا، وقد ينتهي الأمر بعزلي من منصبي ومسؤوليتي هذه، وأنا أحب أن أحظى بلقائك والاستماع إلى حديثك دوماً .

. فقال الإمام الباقر (ع) : ما كان ذلك غروراً أو كبرياء مني، ولكنني آثرت العزلة على مخالطة السلاطين، وما دام الأمر كما تقول، فسآتيه غداً لأمنع الغدر عن المسلم.

ففرح عمر بن عبد العزيز عندئذ، واستأذن الإمام في أن يخبر الخليفة بذلك، فأذن له.

وفي اليوم التالي دخل الإمام الباقر (ع) على الوليد بن عبد الملك. فقام الخليفة من مكانه وأجلسه بجانبه، وهذا تعبير عن الاحترام الفائق عند العرب، وخاصة لرؤساء القبائل والأشراف، والإمام الباقر (ع) كان زعيم بني هاشم، وسيد قريش في زمانه، وكان الخليفة الأموي يعترف بعلمه وتقواه، فجرى حديث ودّي بين الخليفة والإمام الباقر (ع) .

وسأل الوليد الإمام الباقر (ع) عما يملك في المدينة؟

فأجاب: إن لي مزرعة يكفيني وأهلي زرعها، ولم يبق لي ما يمكن بيعه.

قال الوليد: إن شئت أعطيناك أرضاً ومزرعة في أية بقعة من الدولة الإسلامية الشاسعة لتعيش مع أبنائك وأهلك وذويك في يسر ٍوراحة.
فأجابه الإمام الباقر (ع) : إن هذه المزرعة تكفيني وأهلي، وإن أولادي سوف يعملون، وإن الله يرزقهم جميعا، ثم قام من مجلسه وودّع الخليفة وخرج.

كان الغرض الأول من زيارة الوليد للمدينة المنورة هو تفقد ما أنجز في توسيع مسجد النبي (ص)، ومتابعة أعمال الترميم والتوسيع بنفسه.

وكانت مدرسة الإمام الباقر (ع) وحلقات دروسه تنعقد في مسجد النبي (ص) أيضاً، ودخل الوليد المسجد النبوي، فشاهد ما أنجز من أعمال التعمير والتوسيع، فسره ذلك، ثم أتى إلى رواق الإمام الباقر (ع) ، وسلم على الإمام، فتوقف الإمام (ع) عن التدريس، ولكن الوليد طلب منه المضي فيه، وكان موضوع الدرس الجغرافيا، فاستمع الخليفة إلى حديث الإمام، وكان غريباً على مسمعه.

فسأل الإمام: ماهذا العلم؟

فأجابه: إنه علم يتحدث عن الأرض والسماء والشمس والنجوم، فوقع نظر الخليفة على جعفر الصادق (ع) بين الحاضرين، ولم يكن قد رآه من قبل، فسأل عمّن يكون هذا الصبي بين الرجال؟

فقال عمر بن عبد العزيز: هو جعفر بن محمد الباقر (ع) .

فأعجبه ذلك، وسأل: وهل هو قادر على فهم الدرس واستيعابه؟

فقال عمر بن عبد العزيز: إنه أذكى من يحضر درس الإمام، وأكثرهم سؤالاً و نقاشاً.

فاستدعاه الوليد وسأله: ما اسمك؟

قال : اسمي جعفر.

فسأله الخليفة: أتعلم من كان صاحب المنطق؟

أجاب جعفر: كان أرسطو ملقّباً بصاحب المنطق، لقّبه إياه تلامذته وأتباعه.

قال الخليفة: ومن صاحب المعز؟

قال جعفر: ليس هذا اسماً لأحد، ولكنه اسم لمجموعة من النجوم، وتسمى أيضا "ذو الأعنّة"[٩٩] فاستولت الحيرة على الخليفة، وعاد يسأله: هل تعلم من صاحب السواك؟.

أجاب جعفر: هو لقب عبد الله بن مسعود صاحب جدي رسول الله (ص).

فقال الوليد: مرحباً ومرحباً بك، وخاطب الإمام الباقر (ع) قائلاً: إن ولدك هذا سيكون علاّمة عصره.

وصدق الوليد، وتحقق ما توسم في جعفر الصادق (ع) ، لأنه أصبح من أعلم العلماء، بل أعلمهم على الإطلاق.

وكان الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٧٥ للهجرة يقول: لم يظهر في الإسلام بعد وفاة رسول الله (ص) شخصية علمية بعظمة جعفر الصادق(ع)،

---

(٩٩) هذه المجموعة من النجوم تسمى في مصطلح علم النجوم الحديث "أوربيكا" أو أوريجا.

ومن كان كالصاحب بن عباد علماً ومنزلة سياسية لايقول إلا حقاً، ولايجامل في حكمه ورأيه، فهو وزير البويهيين والشخصية العلمية الفريدة في عصره، وكانت مكتبته في مدينة "الري" تضم ما يزيد على مئة ألف كتاب.

العلوم التجريبية في مدرسة الإمام الباقر (ع)

مرَّ بنا أن الإمام الباقر (ع) كان يُعنى في مدرسته بتدريس علوم أخرى عدا القرآن والحديث، كالتاريخ والجغرافيا والطب. أما في ما يتعلق بالطب، فهناك روايتان مختلفتان، تذهب الأولى إلى تأكيد تدريسه له، في حين أن الثانية تنسب تدريسه إلى الإمام جعفر الصادق(ع).

وأياً كان الأمر، فليس ثمة شك في أن الإمام جعفراً الصادق(ع) كان ملماً بالطب، وكان يلقي دروساً فيه، أفاد منها كثير من الأطباء والباحثين والمرضى في القرنين الثالث والرابع.

ومن نظرياته التي انتفع بها الأطباء في عصره وبعد وفاته، رأيه في إمكان تنشيط الدورة الدموية عند حدوث سكتة مفاجئة أو توقف مؤقت، حتى ولوظهرت على المريض إمارات الموت أو علامات شبيهة بعلامات الموتى. وقد يُعيد الحياة إلى مريض بقطع وريد بين أصابع يده اليسرى إسالة للدم منه(١٠٠) .

---

(١٠٠) قال أبو هفان: قلت لابن ماسويه (الطبيب): إن جعفراً بن محمد (ع) قال: الطبائع أربع: الدم وهو عبد وربما قتل العبد سيده، والريح وهو عدو إذا سددت له باباً أتاك من باب آخر، والبلغم وهو ملك يدارى، والمرة وهي الأرض إذا رجفت رجفت بمن عليها، فقال ابن ماسويه: أعد علي، فوالله ما يحسن جالينوس أن يصف هذا الوصف.

سبق القول بأننا نفتقر إلى شواهد تؤكد أن الإمام محمداً الباقر(ع) كان يدرس الطب، ولكننا واثقون من أن جعفراً الصادق (ع) درس علوم الطب في مدرسته، وكانت له فيها آراء ونظريات لم يسبقه إليها أحد في الشرق، ولايقصد بالشرق هنا شبه الجزيرة العربية، إذ هي لم تعرف مدارس الطب، اللهم إلاّ الذي عرف عن العرب في هذا الميدان قبل الإسلام، من أن بعضاً منهم درس الطب أو غيره من العلوم في جنديسابور بفارس ومنهم النضر بن الحارث الذي عاصر الرسول (ص)، وكان له موقف في معارضة الدعوة الإسلامية.

فإن قيل: إن جعفراً الصادق(ع) تعلم في مدرسة أبيه محمد الباقر(ع)، وأخذ الطب وسائر العلوم عن أبيه، فمن أين استقى الإمام الباقر (ع) هذه العلوم؟

مر بنا أن الهندسة والجغرافيا انتقلا من مصر إلى المدينة المنورة، على أيدي أقباط مصر، أما الطب فلم تكن له عند العرب مدرسة قبل الإسلام، في حين أن مصر وفارس عرفتا مدارس شهيرة للطب[١٠١]

- مناقب آل أبي طالب: لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب المتوفى سنة ٥٨٨ هـ طبع قم إيران ج٤ ص ٢٥٩.

وقد عين علم الطب الحديث بأن المرة أو الصفراء هي اليوريا (urée) وأن البلغم أو السوداء البلغي : هو حامض اليوريا (Acide urique) (المترجم).

(١٠١) أشهر مدارس الطب في مصر مدرسة سائيس، أما فارس، فأشهر مدارسها مدرسة جنديسابور في القطاع الجنوبي لفارس، وقد كانت على درجة كبيرة من التقدم، واحتضنت عدداً كبيراً من طلبة الفرس وغيرهم. وكانت الدولة الساسانية معنية بالعلوم والفنون عناية كبيرة، ولكن العقبة التي

ولا يستبعد أن يكون هذا العلم قد انتقل بدوره من الفرس أو القبط، يؤكد ذلك أن في طب الصادق آراء ومسائل وردت في تاريخ الطب عند الفرس. فالطب في القديم لم يكن حكراً لقوم دون آخرين، وإنما كانت هناك شعوب كثيرة كالإغريق والقبط والفرس تعنى بتطور أساليب العلاج والتطبيب بالعقاقير.

وكانت مدرسة الإمام الصادق (ع) في الطب أول مدرسة تؤسّس في الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ولم تكن للعرب يومذاك عناية بالعلاج

= اعترضت سبيلها هي وجود طبقي سائد يقصر الدراسة على أبناء طبقة معينة، ويمنع عنها من لا ينتمي إلى هذه الطبقة مهما كان ذكاؤه أو رغبته في العلم. وكانت هذه التفرقة الطبقية عاملاً من العوامل التي أدت إلى قيام الثورة المانوية في أيام الدولة الساسانية، إذ كان "ماني" يعارض النظام الطبقي السائد ويقول إن العلم للجميع وإن من الواجب على الدولة أن تهيء أسباب العلم لجميع أبناء الوطن. ولكن "ماني" لم ينجح في نشر أفكاره الثورية، فقبض عليه وقتل، وأغمد السيف في أنصاره وأتباعه وفرّ من نجا منهم إلى الصين، وهناك استوطنوا في إقليم طورفان (تركستان الصينية) وأبقوا على لغتهم الفارسية، ولقنوها لأبنائهم، وأسسوا مدرسة للطب، وكان إقليم طورفان من المراكز الهامة التي حافظت على ثقافة فارس وحضارتها وعلى الخط البهلوي. وهناك طائفة كبيرة من العلوم والكتب التي دونت بالخط الساساني. وتعطينا الآثار الباقية من حضارة طورفان التركية المغولية صورة جلية عن مستوى العلم والحضارة الفارسية فيها، وقد حرص الفرس في هذه المنطقة على الاحتفاظ عبر القرون باللغة والعادات والتقاليد الفارسية القديمة، وبقيت اللغة البهلوية على ما كانت عليه، ولم تبتل بالتغيير (هزوارش) الذي أدخله الكتبة الآراميون على الكتابة البهلوية، فقد كان من عادة الآراميين أن يكتبوا اللفظة بالآرامية وينطقونها بالبهلوية. فمن ذلك مثلاً أن الفرس يقال لهم في الآرامية (كتل)، فكان الآراميون يكتبون لفظة (كتل) وينطقونها(اسب)، أي الفرس بالبهلوية. فأصبح نطق الألفاظ يختلف عما كان عليه، وجاء الجيل الجديد وهو لا يعرف أصول لغته، فهجرت البهلوية في عقر دارها، ولكنها على قيد الحياة في مناطق أخرى منها منطقة طورفان. (المترجم).

أوالوقاية، فمن اجتاز منهم أمراض الطفولة(١٠٢) قلّ أن يمرض طول حياته، نظراً لصلابة أجسامهم وقوة احتمالهم لقساوة البيئة في البادية، فإن مرض في كبره، تركوه عند الآلهة حتى يشفى أو يموت.

والقواعد العامة لعلم الطب التي كانت تتداول وتُدَرّس في مختلف المدارس هي قواعد متشابهة، غير أننا نرى في مدرسة جعفر الصادق مالا نراه في مدرسةٍ قبلها، مما يدل على أنه هو المستنبط لهذه القواعد والواضع لهذه النظريات*

المذكرات اليومية

قلنا إن الطلبة في مدرسة الإمام الباقر (ع) كانوا يكتبون الدرس على لوحة خشبية ليسهل نقله على الجلد أو الورق إن وجد في ما بعد. ولا ريب في أن هذه الطريقة، أي طريقة استنساخ الدرس أو الكتب، كانت متبعة في المعاهد العلمية كجنديسابور والاسكندرية والرها وغيرها.

والمعروف أن جزءاً كبيراً من كتب حكماء اليونان وصل الينا بفضل المذكرات والتسجيلات اليومية للدروس التي كانوا يلقونها على تلاميذهم.

---

(١٠٢) كانت أمراض الأطفال المعدية واسعة الانتشار في شبه الجزيرة العربية (المترجم) يقول لورانس الانجليزي في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" إن عدد سكان شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر لم يختلف عنه في صدر الإسلام، بسبب تفشي الأوبئة وأمراض الأطفال.

(*) سبق القول بأن بعض قواعد الطب قد وردت في أحاديث الرسول (ص) التي جمع بعضها في كتب الطب النبوي المتداولة والمشهورة.

وكان الاهتمام بالكتب العلمية لحفظها واستنساخها منحصراً في الطلبة والباحثين، أما عامة الناس أو الجمهور فلم يكونوا يهتمون إلا بالكتب الأدبية وبدواوين الشعراء الخاصة، فكان نصيب هذه الكتب من الحفظ والاستنساخ والشيوع أوفى وأكبر من الكتب العلمية.

يضاف إلى هذا أن العلماء والحكماء لم يجدوا من الوقت ما يكفي لتسجيل آرائهم أو لتدوين الكتب، فكيف باستنساخها وتناقلها؟ وكان الواحد منهم يقضي أحياناً نصف عمره أو يزيد في تأليف كتاب أو تدوين نسخة منه

وبصورة عامة، فهناك كثير من الآراء والنظريات العلمية لعلماء أفذاذ تناهت إلينا بفضل المذكرات أو التسجيلات التي دوّنها تلميذ من تلامذتهم بخط يده.

وكان لتشجيع الحكام والسلاطين دور كبير في نشر العلوم واستنساخ الكتب. فمن ذلك مثلاً أنه لولا تشجيع الملك الساساني شابور وابنه واهتمامهما بجمع "الأوفستا" (كتاب زردشت المقدس) وتدوينه، لما وصلت إلينا نسخة من هذا الكتاب الديني المقدس.

ومن المؤسف أننا لا نجد في النصوص البهلوية القديمة التي وصلت إلينا، نصاً في الطب، وليس معنى هذا أن المدارس والمعاهد العلمية القديمة كجنديسابور وإصطخر وبلخ وغيرها في فارس لم تخلّف إنتاجاً علمياً ولاسيما في الطب، فالمؤكد أن الحوادث والحروب المتلاحقة أتت على الكثير من هذه الآثار.

يقول البرفسور إدوارد براون: إن كثيراً من أبناء الفرس (الزردشتيين) الذين توجهوا إلى الهند وأقاموا بها، كانوا يتدارسون الكتب العلمية الفارسية في الطب والصيدلة والعقاقير.

ومن المعروف أيضاً أن كتب الطب والصيدلة في العالم تحمل كثيراً من أسماء النباتات والحشائش والعقاقير الفارسية، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الكتب والمؤلفات القديمة في هذا الباب قد دمّرت أو أحرقت، أو أتت عليها الحروب والزلازل وأسباب الخراب، ولا يستبعد أيضاً أن يكون الإمام جعفر الصادق (ع) قد تناول بعض هذه الكتب واطلع على فنون الطب عند الفرس[١٠٣]

العناصر الأربعة

لئن كنّا نفتقر إلى مصادر ومعلومات وافية عن دراسة الطب ومستواه في مدرسة الإمام الباقر (ع) . فإن الوضع بالنسبة إلى الفيزياء والهندسة يختلف عن ذلك.

كانت الفيزياء من العلوم التي تُدرس في مدرسة الإمام الباقر(ع)، ولدينا معلومات وافية عن الأبواب التي كانت تُدرس في الفيزياء والهندسة في هذه المدرسة.

---

(١٠٣) وقد مرَّ أن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان يعرف الفارسية ويتحدث بها (المترجم).

أما الفيزياء والأبواب العلمية التي كانت تدرس في مدرسة الإمام الباقر(ع)، فكانت تدور حول فيزياء أرسطو، والفيزياء عند أرسطو تضم علوماً شتى كالميكانيكا، وعلم الحيوان وعلم النبات والجيولوجيا، وإن كان العلماء في يومنا هذا لا يعدّون علم الحيوان وعلم النبات من علوم الفيزياء.

ولكن، إذا كان مدلول الفيزياء يعني علم الأشياء، فقد كان أرسطو محقاً في اعتبار هذه العلوم جميعاً جزءاً من الفيزياء.

وأغلب الظن أن هذا العلم وصل إلى شبه الجزيرة العربية بنفس الأسلوب الذي وصلت به علوم الهندسة والجغرافيا، أي عن طريق أقباط مصر، وهناك من يعتقد بأن الطب انتقل من مدرسة الإسكندرية إلى مدرسة الإمام الباقر، على أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أنه بحلول هذا الوقت لم يعد باقياً أي أثر من آثار مدرسة الإسكندرية أو الحركة العلمية بهذه المدينة أو مكتبتها العامرة الشهيرة، وقُصارى ما بقي في متناول الناس هو بعض الكتب المستنسخة من مكتبة الإسكندرية، أو بعض ما بقي على قيد الحياة من تلاميذ هذه المدرسة، ولاسيما دعاة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وقد انتهى إلينا فعلاً ما سجلوه عن هذه الفلسفة ونقلوه جيلاً بعد جيل.

تعلم جعفر الصادق (ع) الفيزياء والجغرافيا في مدرسة والده الإمام الباقر (ع) . وقد أوردنا في ما تقدم نقده لنظرية بطليموس بشأن دوران الشمس حول الأرض، ولملاحظاته عليها، وخروجه بنظرية علمية أخرى قلبت النظرية السابقة.

وكان مما سمعه من والده الإمام الباقر (ع) في درس الفيزياء رأي أرسطو في أصل الكون، وأنه يتألف من عناصر أربعة هي: التراب، والماء، والهواء، والنار(١٠٤) فأبدى جعفر الصادق (ع) استغرابه لأن أرسطو لم ينتبه إلى أن العناصر الأربعة ومنها التراب ليست عناصر بسيطة غير قابلة للتجزئة، وقال إن التراب مركب من أجزاء وعناصر كثيرة، منها الحديد وهو بدوره مركب من أجزاء كل جزء منها يعتبر عنصراً مستقلاً.

---

(١٠٤) القول بالعناصر الأربعة، أو جوهر الكون يرجع تاريخه إلى المذاهب الفلسفية الأولى في اليونان، أي مع ظهور المذهب الأيوني.

وقد حاول الأيونيون أن يردوا الأجسام المختلفة في الكون إلى أصل جوهري أو عنصر واحد، فزعم أولهم طاليس المالطي (٦٢٤ – ٥٤٥ ق.م) الذي تعلم الهندسة في مصر، والفلك في بابل، واشترك مع قومه اليونانيين في قتال الفرس، زعم أن أصل الكون هو المادة، وأكد خلفه اناكسمندر أن هذا العنصر غير معين ولا محدود، وزعم أناكسمانس بعدهما أنه الهواء، وظن هراقليطس أنه النار.

وأجمعوا أنه لا ينشأ شيء من العدم، ولا ينعدم شيء موجود، وأن كل ما نراه حولنا كان موجوداً منذ الأزل – بمادته لا بصورته – وسيظل موجوداً إلى الأبد (بمادته أيضاً وإن تغيرت صورته).

بهذا الرأي عدهم متفلسفو الإسلام في "الدهريين" الذين جحدوا الصانع المدبر للكون. كما قال الأيونيون: إن العناصر الأولى يستحيل بعضها إلى بعض، فيصبح الماء تراباً والهواء ناراً الخ (ومن الملاحظ أن ما سموه "عناصر" إنما هو مركبات).

ثم يأتي بعد الأيونيين دور الفلاسفة الطبيعيين المحدثين، ومن هذه الطبقة أنبإذوقلس الصقلي (٤٨٣ – ٤٢٤ ق.م) وكان مولده بصقلية ثم انتقل إلى جنوبي اليونان. وقد قال: إن العالم مركب من الاسطقسات (العناصر) الأربعة، وهي الماء والهواء والتراب والنار، ولهذه العناصر صفات خاصة ثابتة لا تتبدل ولا تندثر، ولا يستحيل بعضها إلى بعض. ومن هذه العناصر الأربعة تتكون الأجسام كلها بالتحليل أو بالتركيب. ولمزيد من البحث يراجع كتاب : "تاريخ الفكر العربي" للدكتور عمر فروخ، ص ٥٩ ، ٧٨، ٧٩. (المترجم).

وكان الاعتقاد بوجود عناصر أربعة سائداً منذ عصر أرسطو وإلى أيام الإمام الباقر (ع) ، أي ما يقرب من ألف سنة، والناس تذهب إلى ما ذهب إليه فلاسفة اليونان حول أصل الكون، وكانت العناصر الأربعة تعتبر ركناً هاماً في علم الأشياء، ولم يشكك أحد في صحة هذه النظرية طوال هذه الفترة الممتدة.

ولكن، ظهر بعد ألف سنة من قال بعدم صحة هذه النظرية، وبأن التراب إنما يتألف من عناصر متباينة وليس قوامه عنصراً بسيطاً. أما صاحب هذا الرأي فهو أصغر الطلبة سناً وأعمقهم تفكيراً في مدرسة الباقر(ع) ألاوهو جعفر الصادق، بل إن هذا الدارس الشاب ذهب إلى أبعد من هذا عندما أصبح مدرّساً وزعيماً لمدرسة أبيه الإمام الباقر (ع) ، ففنّد رأياً آخر لأرسطو بخصوص الهواء، وقال: إن الهواء بدوره ليس عنصراً بسيطاً، بل هو مركب من أجزاء وعناصر شتى.

والواقع أن أبرز العلماء والفلاسفة منذ أيام أرسطو وإلى القرن الثامن عشر الميلادي الذي يعد قرن التقدم والازدهار في ميادين العلوم، لم يكتشفوا أن الهواء ليس من العناصر البسيطة، ولم يقل أحد بهذا الرأي حتى جاء العالم الفرنسي لافوازييه(١٠٥) فحلل الهواء، واستخرج منه الأوكسجين، وبرهن على أثره الحيوي الفعّال في التنفس وفي حياة الإنسان وفي عمليات الاحتراق.

---

(١٠٥) انطون لافوازيه Lavoisier ١٧٤٣ - ١٧٩٤ م كيميائي فرنسي يعتبر من مؤسسي الكيمياء الحديثة، وله كشوفات عدة منها تركيب الهواء، ودور الأوكسجين في الاحتراق، وقائمة الأجسام الكيميائية، وقد مات مقتولاً في الثورة الفرنسية الكبرى. (المترجم).

فأقبل جمهور العلماء والباحثين على رأي لافوازييه باهتمام، وسلّموا بأن الهواء مركب من عناصر مختلفة، ولم يمض وقت طويل حتى فوجيء المجتمع العلمي في يوم من أيام سنة ١٧٩٤ بنبأ إعدام لافوازييه بالمقصلة في الثورة الفرنسية، وهكذا انتهت حياة أبي الكيمياء الحديثة، ولو قد مُدّ في عُمره، لحقق بلا ريب إنجازات أخرى، ولأجرى تجارب علمية جديدة لها أهميتها أيضاً.

فلا بد إذن من الاعتراف بأن جعفراً الصادق، بذهابه إلى أن الهواء مركّب من عناصر مختلفة، قد سبق عصر العلم والاكتشافات الحديثة بألف سنة.

وعند الشيعة أن جعفراً الصادق (ع) كان يعلم المجهول ويكشف أسراره بقوة الإمامة، وهو قوة إلهية لدنية لا تتوافر إلاّ للإمام المعصوم وحده، ولكننا نرى أن جعفراً الصادق (ع) قد توصل إلى هذا الكشف بنقاء تفكيره وذكائه (١٠٦) ولو كان عالماً بالغيب، لكشف قانون تحويل المادة إلى طاقة، وهو ما اهتدى إليه آينشتين، وغيره من القوانين والكشوف العلمية التي تحققت بعد هذه الفترة. ولكن الصادق (ع) لم يُشر إلى أنه يتمتع بقوى خفيّة، وإنما هو قد اجتهد في إثبات حقيقة علمية عزّ على علماء القرن الثامن عشر الميلادي فهمها، فقد ذهب هؤلاء العلماء – بعد اكتشاف لافوازييه – إلى أن الأوكسجين هو وحده المادة الحيوية في الهواء، وأن الأجزاء الأخرى

---

(١٠٦) هذا الكلام – بالطبع – منقول عن مستشرق فرنسي يأخذ في دراسته بالظواهر ولا يدين بالإسلام أو النبوة أو الإمامة. (المترجم).

في الهواء منعدمة النفع أو ضارة، في حين أن جعفراً الصادق قال إن الهواء مركب من عناصر، وإن عناصره ضرورية للتنفس ولبقاء الحياة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، صحح العلماء رأيهم في الأوكسجين، بعد ما تبيّنوا أن هذا العنصر الهام اللازم لتنقية الدم واستمرار الحياة عند الإنسان ليس على هذه الدرجة من الفائدة والنفع للكائنات الأخرى، إذ تبين أن هناك كائنات حيّة لا تقوى على استنشاق الأوكسجين الخالص فترة طويلة، لأن خلايا أجهزتها التنفسية تتأكسد وتتآكل بتفاعلها مع الأوكسجين، أي أن هذه الخلايا تحترق بفعل الأوكسجين الخالص.

والأوكسجين في حدّ ذاته لا يحرق، ولكنه يساعد على الاحتراق، فإذا تعرّض له جسم أو مادة، وكان هذا الجسم أو المادة مما يقبل الاحتراق، كانت النتيجة احتراقه فعلاً، وإذا تنفّست الخلايا الموجودة داخل رئة الإنسان أو الحيوان الأكسجين الخالص فترة طويلة، احترقت هذه الخلايا، ومات الإنسان أو الحيوان، ولهذا يوجد الأوكسجين في الهواء مختلطاً بغازات أخرى كفيلة بمنع أثره السيء والضار على حياة الإنسان والحيوان. وبالوصول إلى هذه الحقيقة العلمية صحّ ما ذهب إليه جعفر الصادق (ع) من أن الهواء مفيد للإنسان بمجموع أجزائه بما في ذلك أجزاؤه من الغازات الأخرى التي يوجد منها مقدار ضئيل فيه.

ومن قبيل المثـال، نذكـر أن لغـاز "أوزون" L'ozone خواصاً كيميائيـة مشابهة لخواص الأوكسجين. وقوام جزيء[١٠٧] هذا الغاز ثـلاث مـن ذرات الأوكسجين.

وإذا كان الظاهر أن غاز الأوزون لا يقوم بدور هام في التنفس، فواقـع الأمر أن له أثراً فعّالاً في تثبيت الأوكسجين عند دخولـه الـدورة الدمويـة، أي أنـه يحافظ على الأوكسجين في الدم ولا يدعه يذهب هباء، وهذا يؤيـد مـاذهب إليه جعفر الصادق (ع) من أن الهـواء – بكـل أجزائـه – ضـروري للحيـاة، وهي حقيقة أُميط عنها اللثام منذ منتصف القرن التاسع عشر.

ومن خواص الجسيمات الموجودة في الهواء، أنها تمنـع الأوكسـجين من أن يؤثر تأثيراً سلبياً في الكائنات، ومن أن يحرق الرئتين والجهاز التنفسي ، وقد برهنت التجارب العلمية على أن غاز الأوكسـجين هـو أثقـل الغـازات والجسيمات الموجودة في الهواء، ولـولا أن الأوكسـجين مختلـط بالغـازات والجسيمات الأخرى في الهواء، لثقل وزنه ورسب إلى الطبقة السفلى، وهـو أمر لو حـدث لجعـل الأوكسـجين يمـلأ سـطح الأرض إلـى ارتفـاع معيـن، ولاتخذت الغازات الأخرى مكانها فوق الأوكسجين، كل غاز منها بحسـب وزنـه وثقلـه، ولأدى هـذا الخلـل إلـى الإضـرار بالجهـاز التنفسي للإنسـان

(١٠٧) الجزيء (Le Moliécule) هو أصغر وحـدات العنصر أو المركّـب ويتـألف عـادة مـن ذرة أو ذرتين، لكل منهما نفس خواص المادة، ولكن الجزيء يفقد بعضاً من خواص المادة متـى قسّـم إلـى أقسام أصغر. وتتجلى في الجزيء الحالات الثلاث للمـادة، وهـي الحالـة الجامدة، والحالـة السـائلة والحالة الغازية، فإذا اقتربت الجزيئات بعضها من بعض، تكونت الحالة الجامدة، وإذا ابتعـدت بفعـل الحرارة، تكونت الحالة السائلة، فإن ازداد ابتعادها تكونت الحالة الغازية أو البخار. (المترجم).

والحيوان والنبات أيضاً، لأن النبات يحتاج بدوره إلى الأوكسجين ومعه الكربون، ولو حدث هذا الخلل لباتت حياة الإنسان والحيوان والنبات مهددة بأشد المخاطر، غير أن وجود غازات أخرى مختلطة بالأوكسجين في الهواء، يحول دون انفصال الأوكسجين ورسوبه ويمدّ بالتالي في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

وقد كان جعفر الصادق (ع) أول من فنّد القول بأن هناك عناصر أربعة، فقوّض هذه النظرية من أساسها بعدما عاشت قرابة ألف سنة، وكان جعفر آنذاك في مستهل حياته العلمية الحافلة.

وربما تبادر إلى أذهاننا اليوم أن نظرية جعفر الصادق (ع) هي من البديهيات اليسيرة، وذلك بعد أن تم معرفة ١٠٢ من العناصر والمواد الموجودة حولنا، غير أننا إذا رجعنا القهقرى إلى القرن السابع الميلادي، لعرفنا أن نظرية جعفر الصادق (ع) كانت نظرية ثورية بجميع المقاييس، وإن لم تفطن العقول في وقته إلى حقيقة كون الهواء مركّباً من عناصر متمازجة ومركّبة. ولا بد هنا من أن نكرر أن أوروبا كانت في هذا العصر وإلى القرن الثامن عشر الميلادي عاجزة عن التذرع برحابة الصدر لقبول هذه النظرية أو غيرها من النظريات التي طلع بها جعفر الصادق (ع)، وسنقوم بإبراز هذه النظريات في فصول أخرى من هذا البحث. صحيح أن العواصم العلمية في الشرق، كالمدينة المنورة مثلاً، كانت تتدارس نظريات جعفر الصادق (ع) وتنشرها دون أن يُرمَى عالم بالكفر، ولكن الصحيح أيضاً أن أوروبا المسيحية كانت في ذلك الوقت تحكم بالكفر والزندقة على كل من يسوق رأياً يخالف الرأي الديني التقليدي بشأن الكون.

الأكسجين وأول من اكتشفه:

اشتهر العالم الإنجليزي جوزيف بريستلي (١٧٣٣ – ١٨٠٤) في تاريخ الكيمياء بأنه أول من اكتشف الأكسجين، وإن كان لم يهتد إلى تعريف خصائصه وتركيبه. فلما جاء العالم الفرنسي لافوازييه، هداه البحث إلى خصائص هذا الغاز وصفاته.

والأوكسجين لفظة يونانية مركبة من مقطعين، يعني أولهما الحموضة، ويعني الثاني المولد، أي أن الأوكسجين "مولد الحموضة"، وإلى بريستلي يُعزى اختيار هذا الاسم للغاز، برغم أن المدلول العلمي له كان مستعملاً فعلاً. ولانقول هذا للإقلال من شأن الراهب الانجليزي بريستلي الذي هجر الدير والرداء الديني، واستقر في المدرسة والمختبر، يُجري تجاربه العلمية حول هذا الغاز، ولا ريب في أنه لو استمر في بحوثه العلمية لاستطاع الاهتداء إلى نتائج هامة أخرى، غير أنه انضم إلى حركة الثورة الفرنسية، وأيد المناضلين الفرنسيين فجلب على نفسه سخط الانجليز وبغضهم، واضطر إلى مغادرة وطنه بريطانيا إلى أمريكا حيث قضى بقية عمره، وهناك ألّف ثلاثة كتب، ولكنها مبتوتة الصلة بالهواء أو بالمسائل العلمية التي كانت شغله الشاغل قبل ذلك.

والحقيقة التاريخية هي أن جعفراً الصادق (ع) هو أول من اهتدى إلى الأوكسجين أو مولد الحموضة، وأغلب الظن أنه اهتدى إليه وهو ما زال في مدرسة أبيه الباقر (ع) . ولما شرع بعد ذلك في إلقاء دروسه المتصلة في حلقاته، أعمل فكره، وانتهى إلى أن الهواء ليس عنصراً بسيطاً بل هو

مركب من عناصر مختلفة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جعفراً الصادق (ع) لم يطلق على الأكسجين اسم مولد الحموضة، ولكنه سبق غيره في الإشارة إلى أن الهواء هو مزيج من عناصر شتى يساعد بعضها على تنفس الكائنات الحية كما يساعد على الاحتراق.

ومضى الصادق (ع)في سبيله، فتوصل إلى أن محتويات الهواء لو جُزِّئت، لكان من فعلها النفاذ في الأجسام وتذويب الحديد.

إذن، فقد كان جعفر الصادق (ع) سابقاً بألف سنة على بريستلي ولافوازييه في اكتشاف الأوكسجين ، وإن كان لم يطلق عليه اسم الأوكسجين ولا اسم مولد الحموضة كما ذكرنا آنفاً. ثم إن لافوازييه الذي عيّن خصائص الأوكسجين ، لم يوفق إلى تجربة ذوبان الحديد بفعل الأوكسجين ، وهي التجربة التي اضطلع بها جعفر الصادق (ع) قبله بألف عام.

وقد برهن العلم الحديث على أنه متى حُمّي الحديد بالنار إلى درجة الاحمرار، ثم وُضع في أوكسجين خالص، اشتعل وانبعث منه شعلة مضيئة شبيهة بالفتيل الذي كان يُغمس في الزيت في المصابيح القديمة، وإن تكن الشعلة أقوى وأشد ضوءاً ، وهذه هي النظرية التي يستند إليها في صنع المصابيح الكهربائية الحديثة التي تضيء مناطق شاسعة في الليالي الظلماء، وتظل مضيئة بصورة مستمرة ما دام سلك الحديد فيها مشتعلاً بفعل الأوكسجين المحبوس داخل المصباح.

وقد جاء في روايةٍ أن الإمام الباقر (ع) قال: (إن الماء الذي يطفىء النار يستطيع أن يوقدها بفضل العلم) فحسب البعض أن هذا القول ملقى

على عواهنه، أو أنه من قبيل الفكاهة أو خيالات الشعراء، ولكن الذي تحقق فعلاً منذ القرن الثامن عشر أن الماء يزيد النار اشتعالاً، ويولد قوة محرقة أشد بكثير من نار الحطب، لأن لغاز الهيدروجين (وهو أحد العنصرين الهامين في تركيب الماء) قوة إحراق إذا أضيفت إلى قوة الأوكسجين بلغت درجة حرارتهما ٦٦٦٤ درجة. ويطلق على هذه العملية اسم العملية الأوكسجينية الهيدروجينية (OXYDROGENE)، وهي تستخدم في لحام الحديد والفولاذ، أوفي تقطيع الفولاذ وتثقيبه.

وقد طلع الإمام الباقر (ع) بهذه النظرية قبل اكتشاف الهيدروجين، ولادليل لدينا على أن الصادق (ع) تمكن من فصل الهيدروجين أو الأوكسجين من الماء، ولكن الذي لاريب فيه أنه توصل بفضل تجاربه وأبحاثه إلى تحديد خواص الأوكسجين ، ومن هنا يصح القول بأنه استفاد من هذا العنصر الهام في تحاليله، وأنه استخلصه من الهواء ممتزجاً بمواد وعناصر أخرى، أي دون أن يكون خالصاً نقياً .

ومن النتائج المؤكدة التي انتهى إليها جعفر الصادق (ع)، وما هي بنظرية مجردة، الحقيقتان التاليتان:

١ – حقيقة أن في الهواء عنصراً يفوق العناصر الأخرى في أهميته، وهو العنصر الأساسي في الحياة والتنفس.

٢ – إن هذا العنصر قادر بمرور الوقت على تغيير شكل الأشياء والتأثير فيها بإفسادها وتحللها وتآكلها.

ولا ننسى أن هذا العنصر الهوائي يقوم بدور الوسيط في هذه العمليات، ومن هنا استطاع جعفر الصادق (ع) معرفة الأوكسجين.

ظن العلماء والباحثون بعد اكتشاف الأوكسجين على يدي "بريستلي" وبعد تحديد خواصه وآثاره وتغيير شكلها أن ذلك يعزى إليه، فلما جاء العالم الفرنسي لويس (باستور) واكتشف الجراثيم، قال: إن التغيير الذي يطرأ على شكل بعض المواد، كالأغذية ويؤدي إلى فسادها، إنما يُعزى إلى الجراثيم وليس إلى الأوكسجين ، كما قال: إن الجراثيم تهاجم المواد الغذائية وتحللها، فيدب فيها الفساد. غير أن (باستور) لم يبين نوع العلاقة بين الجراثيم و الأوكسجين، ولا توصل إلى أن الفساد الذي تحدثه الجراثيم، إنما يتم في وجود الأوكسجين، ولولا هذا الغاز، لما تمكنت الجراثيم من البقاء على قيد الحياة أو التأثير في المواد. أما جعفر الصادق (ع)، فقد قال إن الهواء جزء (يعني الأوكسجين) يؤثر أحياناً بالواسطة في تغيير شكل المواد، ويؤثر أحياناً بغير واسطة متى تعرض لها الحديد بصورة مباشرة، فيحدث ما يسمى بالتأكسد (Oxydé) أوالصدأ.

ولئن كانت هذه النظرية الدقيقة تستعصي على الكشف إلا في المختبرات وإلا بالتحليل العلمي، فقد توصل إليها جعفر الصادق (ع) بفرط ذكائه ونبوغه، وإن كان الصادق لم يتوافر على إبراز ما للهواء أو الأوكسجين من خاصيات أخرى، فإنه اهتدى إلى أن الأوكسجين، الذي يعتبر عنصراً أساسياً في الهواء، والذي يغير أشكال المواد، والذي هو مناط الحياة، هو أثقل جميع العناصر الموجودة في الهواء.

وبعد ألف سنة، جاء لافوازييه، فأكد هذه النظرية، وزاد عليها بتعيينه وزن الأوكسجين ومقداره ٨/٩ الماء، أي أن في كل تسعة كيلو غرامات من الماء ثمانية كيلو غرامات من الأوكسجين. هذا من حيث الوزن، أما من حيث الحجم، فالهيدروجين الموجود في الماء يساوي ضعفي الأوكسجين، لأن الماء مركب من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين.

ومع أن لافوازييه توصل إلى نتائج هامة في تحليله للهواء ومعرفة خواص الأوكسجين ، إلا أنه لم يستطع تحويل هذا الغاز إلى سائل (أي إسالته)، وإنْ كانت الفكرة بقيت تراوده، وكادت تتحقق لولا أن الصناعة في أوروبا وقتئذ كانت ماتزال في بدايتها، ولم تكن قد قطعت أشواطاً تتيح للافوازييه تحقيق أمنيته حالاً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ أصدرت المحاكم الثورية في فرنسا حكمها المفاجىء القاسي بإعدام لافوازييه، فمات بالمقصلة.

وكان من رأي الكيميائيين بعد لافوازييه، وإلى وقت متأخر، أن هناك استحالة لإسالة غاز الأوكسجين ، فلما جاء القرن العشرون بإنجازاته العلمية والتكنولوجية ومفاجآته الكثيرة، نجح العلماء في إيجاد برودة مفرطة (صناعياً) واستطاعوا بذلك أن يُسيّلوا غاز الأوكسجين بكميات غير محددة، وسخروا الأوكسجين السائل في أغراض كثيرة من طبية وصناعية وما إليها.

وقد تسنى هذا كله بفضل الوصول صناعياً بدرجة البرودة إلى ما تحت الصفر بـ ١٨٣ درجة، وهكذا سال الأوكسجين في الجو العادي دون

حاجة إلى ضغط قوي، وأمكن إنتاج كميات كبيرة من غاز الأوكسجين السائل.

والواقع أن هذه الدرجة من البرودة هي درجة مفرطة، ويقول العلماء إن الفرق بينها وبين البرودة المطلقة التي تشل الحركة الحيوية في المادة هو ٩٠ درجة لاغير (٢٧٣,١٦ - ١٨٣).

ولئن لم يسمح عصر جعفر الصادق (ع) لهذا العالم بأن يُتابع البحث إلى أن يحدد عناصر الهواء بأسمائها، ويعين الأوكسجين (أو مولد الحموضة)، فواقع الأمر أنه سبق بآرائه العلمية الفذة جميع العلماء والمكتشفين بألف سنة.

جعفر الصّادق «ع» مؤسّس العلوم العرفانيّة في الإسلام

تقول بعض الصوفية العارفين إن الإمام جعفراً الصادق (ع) تعلّم العرفان من أبيه الإمام الباقر (ع) وأخذه عنه، وهم يعدّونه حلقة هامة في سلسلة الصوفية والعرفان.

ومن هؤلاء الشيخ فريد الدين العطّار النيسابوري(١٠٨) صاحب كتاب "تذكرة الأولياء" وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرفان بمدلوله الحالي وبالمعنى الذي نعرفه عنه لم يكن له وجود في القرن الأول الهجري. فإن وجد آنذاك شيء من مبادىء هذا العلم، فإن مدلوله يختلف عما هو عليه اليوم.

وليس ثمة ريب في أن التفكير العرفاني موجود لدى بعض علماء المسلمين، دون أن يشتهر به أحد منهم. ودون أن يُعرف أي مكتب من مكاتب العرفان الموجودة في هذا العصر، ولم نر من القادة أو المفكرين من تزعم مجموعة من المُريدين أو سمى نفسه قطباً أو غوثاً أو ما إلى ذلك.

ثم إن العرفان في الإسلام كان ينبوعاً فياضاً في الباطن والقلب. ولم تكن بين العرفان والدراسات التقليدية علاقة. ولم يكن المريد أو القطب يدرّس

(١٠٨) فريد الدين محمد العطار النيسابوري الذي اشتهر بالشيخ فريد الدين ولد سنة ٥٤٠ هجرية واستشهد في هجوم المغول على نيسابور سنة ٦١٨ هـ. وهو من أشهر شعراء الصوفية والعرفاء في تاريخ إيران. له من المؤلفات: منطق الطير، وإلهي نامه، وأسرار نامه وغيرها من الدواوين. وكتابه "تذكرة الأولياء" ألّفه في تاريخ العرفاء والصوفية العظام، وهو من أشهر الكتب وأقدمها في هذا الميدان. (المترجم).

ويعلّم المريدين العرفان، بل كان العرفان أسلوباً للحياة وطريقة للعمل الجاد في جو من الحب والعشق.

وكان العارف يقول: امح الأوراق إذا كنت تصحبنا في الدروس والرحيل، لأن حديث الغرام والعشق غير موجود في الدفاتر(١٠٩)

ومنذ القرن الثاني للهجرة بدأ العرفاء والزهاد يتوزعون حول الأقطاب والمرشدين، فأبدعوا وأسسوا مكاتب عرفانية.

ويقول صاحب "تذكرة الأولياء" وهو من الكتب المشهورة في أحوال العرفاء والصوفية وقد جمع فيه مؤلفه الروايات الموثوق بها والضعيفة يقول إن أبايزيد البسطامي العارف الشهير كان من تلامذة جعفر الصادق (ع) . أخذ عنه العرفان. وساق الحديث عنه على النحو التالي: إن أبايزيد البسطامي، بعدما تعلم العلوم المتداولة، اتجه إلى العرفان، وطاف حول العالم بحثاً عن العرفاء العظام، وتحمل المشاق والحرمان ثلاثين سنة، وحضر مجلس مائة وثلاثة عشر عارفاً كان آخرهم الإمام الصادق (ع) . وكان يحضر درسه كل يوم معداً نفسه للاغتراف من منهله ما أمكن، فسأله الصادق يوماً : ناولني الكتاب الذي في الرف فوق رأسك.

فسأل أبو يزيد: وأي رفٍ هذا؟

فقال له الصادق: تسألني عن الرف وأنت تحضر كل يوم هنا من زمن بعيد؟

---

(١٠٩) أصل الحديث بيت شعر بالفارسية هو: بشوي أوراق أكر همدرس مائي... كه درس عشق در دفتر نباشد.

فقال أبو يزيد: إنني لم أشاهد غيرك هنا، لأنني أتيت للقائك والاستماع إلى حديثك.

فقال له الصادق: يا أبا يزيد، أنت كملت الدرس والرحلة، فَعُدْ إلى بلادك وعلّم الناس ما تعلّمت. فقام وعاد إلى بسطام في يومه.

ولعل صاحب "تذكرة الأولياء" كان يعتقد بصحة هذا الحديث. ولكنه لم يراع التسلسل الزمني وتتابع الحوادث، ولولا ذلك لقلنا اختلق هذه الرواية أو أن غيره اختلقها ونقلها هو عنه، لأن الإمام الصادق (ع) كان مشتغلاً بالتعليم والتدريس في المدينة في النصف الأول من القرن الثاني، وتوفي سنة ١٤٨ هجرية، في حين أن أبايزيد البسطامي كان يعيش في القرن الثالث وتوفي سنة ٢٦١ هجرية.

إن مبادىء العرفان ومكاتبه في القرن الثامن الهجري لم تكن تزيد على سلوك العارف وقوة تخيله وتأمله، ومن هنا يمكن القول بأن جعفراً الصادق(ع) كان له خيال وتفكير عرفاني عميق، وإذا كان من آثار العرفان على العارف تغيير أسلوب حياته والتأثير في خلقه وسلوكه وأدبه، فلسنا نشك في أن جعفراً الصادق (ع) كان بهذا رائداً وإماماً للغير، ولكن لا علاقة لهذا السلوك المعنوي بالعلوم التجريبية والمادية في الإسلام. وكان الصادق (ع) أول عالم وخبير في العلوم التجريبية في الإسلام، وهو أول عالم جمع بين النظرية العلمية والتجربة العملية، ولم يكن يقبل أو يؤيد نظرية في الفيزياء أو الكيمياء إلاّ بعد التحقق منها بنفسه في التجربة العملية والاختبار، وعالم كهذا، لا يهتم بعلوم نظرية بحتة اهتمامه بالعلوم التجريبية.

وفي التاريخ الإسلامي أن الإمام الصادق (ع) كان أول عالم تحدث عن الفيزياء والكيمياء، وهو في نفس الوقت يعد في طليعة العرفاء والزهاد. حتى إن الإمام الزمخشري (١١٠) بعد ما أثنى عليه في كتابه "ربيع الأبرار" ثناءً كريماً ، عده من طلائع العرفاء وزعمائهم.

وكان العطار النيسابوري صاحب "تذكرة الأولياء" يرى بدوره أن الصادق (ع) رائد للعرفاء، ولكن شتان بين ما سجله الزمخشري وهو عالم مدقق، وبين ما أورده العطار، وهو صوفي جماعة، يجمع بدافع من المحبة كل ماسمع وقرأ، ومؤلفه يثبت أنه كان مغرماً ومتيماً بحب العرفاء والصوفية العظام، فهو يكتب عنهم بعين الرضا والقبول، وبالمغالاة أحياناً، ولولا حبه هنا لما وقع في هفوات.

ويمكن القول: إن القلم في يد الزمخشري يتحكم فيه العقل والدقة، أما القلم في يد العطار فيتحكم فيه الحب والعشق، وأياً كان الأمر، فالصادق (ع) يعد في تاريخ العلوم الإسلامية من مؤسسي علم العرفان.

ولاشك في أن دروسه في العرفان كان يحضرها عدد من غير المسلمين، فقد قيل إن نفراً من الصابئة(١١١) قرؤوا عليه، والصابئة بآرائهم

---

(١١٠) هو الإمام جار الله محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري، ولد في زمخشر عام ٤٦٧ وتوفي ٥٣٨ هـ (١١٤٤م)، وهو إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير، سموه جار الله لأنه جاور بمكة. كان معتزلي الاعتقاد، ومن مؤلفاته: المفصل في النحو، والكشاف عن حقائق التنزيل في التفسير وقد عرف به فهو صاحب الكشاف وكفى، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، وأطواق الذهب، ونوابغ الكلم، وربيع الأبرار في التراجم.

(١١١) الصابئة ملة تؤله الكواكب، ومنهم من يرى نفسه موصوفاً في القرآن بالصابئة.

الدينية هم وسط بين المسيحية واليهود، وكانوا يعدون من الموحدين في الإسلام، وكان بعضهم يتظاهر بالإسلام دفاعاً عن النفس أو حرصاً على المال، وكان مركزهم "حران" غرب بلاد ما بين النهرين "العراق"، وكان هذا المركز يسمى قديماً عند الأوروبيين بـ "كارة"، ومن عادات الصابئة تعميد الطفل بعد ولادته وتسميته. جاء في دائرة المعارف الإسلامية(١١٢) إن كلمة صابئي مأخوذة من صب الماء وغسله، لأن الصابئة تغسل الطفل بعد الولادة بتعميده في الماء، وكانت الصابئة تقول بنبوّة يحيى المعمدان (يوحنا) بن زكريا.

ويقول العطار النيسابوري إن أناساً من جميع القرى كانت تحضر درس الإمام الصادق (ع) وتنهل من معينه، ويقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني(١١٣): إن المسلم والكافر استفاد كلاهما من فضل الصادق (ع) وعلمه.

ولا ندري هل كان تسامح الصادق (ع) مع غير المسلم راجعاً إلى عرفانه وزهده، أو أنه كان ينظر إلى الأمور بمنظار شامل، وكان يريد الخير والعلم للجميع ولهذا فهو يسمح لمن حضر درسه بأن يستمع إليه ولو كان غير مسلم، وفي دائرة المعارف الإسلامية أن هناك من يقول أن جابراً بن حيان – وهو من أشهر أصحاب الصادق (ع) – كان من الصابئة أيضاً.

---

(١١٢) الأصل الفرنسي Encyclopaedia Islamica.

(١١٣) الشيخ أبو الحسن الخرقاني من أئمة العرفاء والصوفية، ولد سنة ٣٥٢ للهجرة في قرية خرقان من توابع بسطام، وأخذ العلم والتصوف والسلسلة من الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد القصاب الآملي. توفي بخرقان ودفن بها سنة ٤٢٥ للهجرة.

وكان الصابئة في درس الإمام مولعين بتحصيل العلم، وكانوا يبذلون قُصارى جهدهم لاستيعاب الدروس وفهمها، وبهذا استطاعوا وضع أسس علمية ثقافية للصابئة، وبمقارنة ثقافة الصابئة قبل عهد الصادق (ع) وبعده نرى فرقاً شاسعاً كالفرق بين النور والظلمة.

وكان الصابئة قبل الصادق (ع) فئة منطوية على نفسها، لا يُعرف عنها شيء كثير كما أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون الكثير ولم يكن علمهم يتجاوز علم البدوي من العرب، ولكن اشتهر بعد الصادق (ع) كثير منهم في ميادين الكيمياء والطب والنجوم، وأصبحوا أمة ذات ثقافة وشهرة. ويقع الباحث في دوريات المعارف والمعاجم على أسماء كثير منهم.

وإلى الصادق (ع) يُعزى الفضل في أن الصابئة الغارقة في الجهل والحرمان قد أصبحت طائفة متقدمة متمدنة اشتهر كثير من أبنائها في ميادين العلوم المتباينة، كما انتفع العالم بثقافتهم وعلمهم، وبفضل إشعاع مدرسة الصادق (ع) بقيت لهؤلاء القوم شخصيتهم الخاصة وكيانهم المستقل واشتهر بعضهم وذاع صيته، ومازال البعض منهم يعيش في المنطقة نفسها "حران"، وإن كان عددهم قد تواضع عما كان عليه قبلاً.

وكما أسلفنا بيانه، هناك إجماع بين الشيخ أبي الحسن الخرقاني والزمخشري والعطار النيسابوري على أن جعفراً الصادق (ع) هو قدوة العرفاء في التاريخ الإسلامي، ولا غرو أن يذكروه بعظيم الإجلال والاحترام والود.

والخرقاني عالم معدود مشهور من علماء التصوف والعرفان، وقد تناول في مباحثه أصول العرفان في الهند والشرق قبل الإسلام، ولكن غابت عنه معالم التصوف والعرفان في فارس قبل الإسلام إمّا لعدم إلمامه بمبادىء الزردشتية، أو لعدم توافر المراجع والمؤلفات الزردشتية لديه.

وفي هذه الفترة، أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، كانت اللغة البهلوية شائعة في كل مكان، وكان الخرقاني مطلعاً على مبادىء اليهودية والمسيحية.

وبفضل البحوث التي أجرتها نخبة من المستشرقين الفرنسيين من القرن السابع عشر الميلادي وإلى يومنا هذا، وبفضل النصوص الهندية القديمة التي تُرجمت إلى اللغات الحية، وأهمها كتاب "فيداس" المقدس، هان علينا أن نعرف عمق الصلة بين ثقافة الهند القديمة وثقافة فارس القديمة، كما عرفنا أن هذين البلدين كانا ينهلان من معين مشترك وأن التفكير الزردشتي قد تأثر بالفكر الهندي، ولا ريب في أن الزردشتيين قد استفادوا في آرائهم العرفانية والصوفية من عرفان الهنود وتصوفهم وتأثروا بهما أكثر مما تأثروا أو استفادوا من أي مصدر آخر.

إن مذهب زردشت القائل بمبدأين(١١٤) هما مبدأ الخير ومبدأ الشر، يختلف اختلافاً جذرياً عن الهندوكية القائلة بالتثليث، فإن مذهب زردشت

---

(١١٤) في رأي البعض أن الزردشتية وثنيون لقولهم بمبدأ الخير والشر. والشيطان في عرفهم (واسمه أهريمن) يمثل مبدأ الشر، وينبغي على الناس اجتناب وساوسه واندفاعاته، فالخوف من الشيطان (أهريمن) أو اتقاء شره ليس دليلاً على أن الزردشت جعلوا منه إلهاً ثانياً أو نسبوا إليه القدرة

قد بنى تعاليمه على الثنائية، وكان يدين بأن العالم مبني على الأضداد وأن لكل شيء قطبين هما القطب المثبت والقطب المنفي.

ولو أن الشيخ الخرقاني حالفه النجاح في التفرقة بين العرفان والتصوف في فارس والعرفان في مدرسة الإسكندرية، لأدرك أن العرفان عند زردشت نابع من ثنائية التفكير، في حين أن العرفان الذي أرسى الصادق (ع) معالمه وأوضح سبله في مدرسته هو عرفان توحيدي لا أثر للثنائية ولا للتثليث فيه، فعرفان الصادق (ع) هو أسمى ما وصل إليه الفكر البشري لبلوغ الصفاء والتكامل النفسي والروحي. وكان مذهبه من السمو والرفعة بحيث تقاصر عن فهمه وتحليله وتبنّيه كثير من الناس سواء في عصره أو في العصور التي تلته عندما تشعب العرفان وأصبحت له مكاتب وفرق متعددة.

تميز عرفان الصادق (ع) عند ظهوره بالتوحيد، وسيظل هذا ديدنه نابذاً الثنائية والتثليث، تاركاً العلو والسرف في تعريف صفات الخالق أوالمخلوق كما حدث للعرفان الإسلامي أحياناً في أدوار متأخرة.

وسنرى في ما بعد أن الغلو قد دفع ببعض المشايخ والعرفاء إلى الانحراف، ففاه بعضهم بعبارات وأقوال انبعث منها الشرك والكفر، حتى انفض عنهم كثير من أنصارهم وأتباعهم، أو هم قد وقعوا في شطحات

- في التصرف في هذا الكون وفي تاريخ الفتوحات الإسلامية أن المسلمين عدوا الزردشتية من أهل الكتاب وفرضوا عليهم الجزية وتركوهم على حريتهم الدينية.

وطامات كبرى(١١٥) انتهت ببعضهم إلى القول: "سبحاني سبحاني ما أعظم شأني، ليس في جبتي سوى الله"(١١٦) ، ولهذا رأينا أن العلامة الزمخشري ينفر منهم وينتقدهم – أي الطبقة المغالية – ولكن عرفان الصادق (ع) كان بعيداً عن المبالغات والترهات، وكان مبنياً على أساس توحيدي في تنزيه الخالق عن صفات المخلوق، والمخلوق عن الخالق، ولهذا تبعته الشيعة بأسرها وكثير من أهل السنة أيضاً .

يرتكز العرفان عند الصادق (ع) على التوكل على الله تعالى وتنفيذ أحكامه وأوامره، والامتثال لنواهيه دون إهمال شؤون الدنيا أو تركها لئلا تضطرب الحياة اليومية وتفقد صفاءها وسعادتها، فهو لايوصي بترك الدنيا للوصول إلى السعادة بل يرى أن السعادة هي في التوكل على الله والتقوى، وتقبل حظوظ الدنيا المشروعة(١١٧) .

---

(١١٥) جمعت هذه الكلمات والمصطلحات في كتاب يعرف بـ "شطحات الصوفية".

(١١٦) ينسب هذا الكلام وغيره من هذا القبيل إلى أبي يزيد البسطامي.

(١١٧) وكان هذا منهج الأئمة قبله، فقد ذكر الإمام محمد عبده في شرحه على نهج البلاغة: أن علاء بن زياد الحارثي – وهو من أغنياء البصرة – جاء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام يشكو أخاه عاصماً بن زياد:

فقال: علي (ع) : وما له؟

قال : لبس العباءة وتخلى عن الدنيا.

قال علي (ع) : عليَّ به، عليَّ به، فلما جاء به قال له : ياعُدَيّ نفسه. (عدي تصغير عدو) لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك، أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك.

قال : ياأمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وحشوبة مأكلك؟

وليس في عرفان الصادق (ع) كلام عن وصول العارف إلى الله وهو التفكير الأساسي الذي دان به كثير من الصوفية والعرفاء في القرون التي تعاقبت بعد عصر الصادق (ع) فالوصول إلى الله عند الصادق (ع) يطابق تماماً ما صوره القرآن الكريم أي أن الإنسان هو صنيع الله ومخلوقه وهو منه وإليه يرجع. وليس معنى هذا أن الإنسان يلتحق بالذات الإلهية ويصبح جزءاً منها، ولكن معناه أن الإنسان مخلوق ومصنوع ويظل هذا وضعه دائماً ويستحيل عليه أن يكون خالقاً ، ومتى مات رجع إلى الله وبرجوعه إليه تعالى يكون شديد القرب من الخالق.

على أن التفكير العرفاني انجرف عن هذا الاتجاه بعد الصادق (ع)، وفسر العرفاء الآية القرآنية "إنا لله وإنا إليه راجعون" بمعنى أن الإنسان سيلحق بربه بعد موته، وقالوا لا يلحق الإنسان به سبحانه وتعالى في حياته؟ وانطلقوا من هذه العقيدة يقولون: إن الإنسان في مذهبهم يلتحق بعد موته بالقدرة الأزلية الأبدية، فيبقى حياً، ويشاهد الأمور الجارية في الدنيا، ويرى أهله وأصحابه، وتكون له قدرة على مساعدتهم في حل مشكلاتهم* .

= قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض أئمة على العدل أن قدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقيره (يقدروا: أي يقيسوا. ولا يتبيغ: أي لا يهيج).

راجع "نهج البلاغة" شرح الإمام محمد عبده، ج٣ ص ٤٠٠ - ٤٠١، طبع دار الأندلس بيروت لبنان.

(*) كان من المفروض أن يورد مصدر هذا الكلام، فهو ليس عقيدة لكل صوفي أو عارف.

ولا يقتصر الاعتقاد بحياة الإنسان بعد الموت على المسلمين وحدهم، وإنما ذهبت إلى هذا الاعتقـاد الأديـان السـابقة علـى الإسـلام، وإذا اسـتثنينا المانوية والباطنية، لم نجد في الأديان القديمـة كلهـا مـا يقـول بعـدم وجـود حياة بعد الموت، فحتى الأديان الهندية والبوذية التـي تحـرق جسـد الميـت، تؤمن بأن هناك عالماً آخر بعد الموت سيبقى فيه الإنسان حيـاً. أمـا المانويـة والباطنية فلا تؤمنان بيوم المعاد على هـذه الصـورة، وإن كـان دعـاة الباطنيـة تبينوا بعد وفاة حسن الصباح أن الإيمان بالمعاد وفكرة العقاب يلعبـان دوراً كبيراً في نهي الإنسان عـن ارتكـاب المعصيـة وإتيـان السـيء مـن الأعمـال، وعلى هذا شرعوا ينادون بصورة ما من صور يوم المعاد.

وفي بعض الأديـان الأخـرى كالأديـان التـي كـانت سـائدة فـي مصـر القديمة، ارتبطت فكرة الثواب والعقاب بحياة الإنسان في هذا العـالم، أي أن الإنسان بمجرد موته يكون قد نال ثوابه أو عقابه.

ولكن من عقائد بعض الأديان الأخرى أن الثواب والعقاب يجيئان بعـد الموت بفترة، فيجوز إذن القول بأن فكرة المعـاد واردة علـى نحـو أو آخـر في معظم الأديان باعتبارها عنصراً أساسياً فعـالاً فـي نهـي الإنسـان عـن الخطأ أو اقتراف المعاصي وفي القيام بدور الوازع الداخلي الأمين الذي يكبـح جمـاح الإنسان.

وللدكتور "لاي وينك أستون"، الذي كان أول من اكتشف منابع النيل في أفريقيا السوداء في القرن التاسع عشر، مذكرات نفيسـة عـن رحلاتـه فـي أواسط أفريقيا، وقد أهداها إلى الجمعيـة الجغرافيـة الملكيـة البريطانيـة، وقـد

ذكر أستون في هذه المذكرات أنه لاحظ طوال مدة إقامته بين مختلف القبائل الأفريقية أن هذه القبائل تؤمن بحياة أجدادها، وفي رأي بعضها أن لآباء المتوفين يتمتعون بمقدرة خاصة في التأثير في حياة الأحياء من الأبناء وسواهم، كما لاحظ أن السحرة في أفريقيا كانوا يصورون لأهل الميت صورة واضحة لتفكيره وإرادته.

وذهب البعض إلى القول بأن عقيدة المعاد أو الحياة بعد الموت هي من العقائد الفطرية لدى البشر، وأنها وجدت مع الإنسان من أقدم العصور وفي جميع الأديان السماوية. صحيح أن هذه العقيدة ليست من أصول البيولوجيا أو وظائف الأعضاء كالجوع أو العطش، فيحس بها الإنسان بحكم طبيعته المادية، ولكنها قد لازمت المجتمع الإنساني عامة في أدواره المختلفة حتى ليمكن القول بأن الفكرة لم تنفصل عن الإنسان الاجتماعي، فإن فقدها إنسان كان كمن فقد الحياة في المجتمع البشري بغض النظر عن مستواه.

وتستند فكرة المعاد عند جميع المذاهب إلى الاعتقاد بأن هناك حياة ثانية بعد الموت، وقد لعبت هذه العقيدة الفطرية دوراً هاماً في نفس الإنسان فكانت وازعاً داخلياً أو شرطياً سرياً ينهاه عن اقتراف السيئات.

كان السارق في مصر القديمة يعاقب حسب القوانين السارية، أما في العالم الغربي[١١٨] ، أي العالم الثاني، فكان يبقى في الظلام دون أن يستضيء بنور الشمس أو بالمصابيح.

---

(١١٨) في مصر القديمة، كانت المدن مبنية على ضفاف النيل، والمقابر في الضفة الغربية من النيل، فإن أرادوا الحديث عن الآخرة، أشاروا إلى الجانب الغربي من النيل.

وعند زردشت أن الإنسان في عالم الآخرة يمر على جسر "جنوند" (Chanvand) ، فإن كان مرتكباً للمعاصي في هذه الدنيا، تعذر عليه اجتياز الجسر وسقط* .

ثم إن المكاتب العرفانية في الشرق استفادت من عقيدة المعاد عند المسلمين فأوجدت هذه العقيدة أرضية صالحة للتربية النفسية عند العرفاء، لأن الحياة الأفضل بعد الموت تتوقف على سيرة الإنسان في هذه الدنيا* . بل إن العرفاء في نهاية القرن الثاني الهجري تجاوزوا هذا الحد، وذهبوا إلى القول بأن في وسع الإنسان بسلوكه وعرفانه أن يصل إلى أعلى المراتب والدرجات في هذه الدنيا، وكانت الفكرة قائمة على فكرة المعاد، إذ إن من رأيهم أن الموت هو مجرد تغيير للمجلس، وأن الحياة مستمرة بعد الموت ، فإذا كانت الحياة مستمرة، فلم لا يرتقي الإنسان إلى أعلى مراتب الكمال والوجود في هذه الدنيا، مترقباً بلوغ هذه المراتب بعد الموت؟ فأصبح الهدف الأساسي عند كثير من العرفاء هو الوصول إلى الملكوت الأعلى أو إلى المراتب الإلهية، أو إن شئت فقل المكانة الإلهية.

ولكن الصادق (ع) لم يقل أن الإنسان سيصل إلى مرتبة الإله في هذه الدنيا أو في غيرها، وكان في تفكيره هذا مستنداً إلى أصلين:

أولهما، الاعتقاد بحياة الإنسان بعد الموت.

(*) عند المسلمين الصراط الممدود بين الجنة وبين النار.

(*) باعتبار أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).

ثانيهما، اشتراك الوجود لا وحدة الوجود.

ونظرية وحدة الوجود التي تعتبر أهم عنصر وأقوى أساس يستند إليها التفكير العرفاني والصوفي لها جذورها في الشرق، وتنبع من عرفان الهند وفارس، ومنهما انتقلت إلى أوروبا بعدئذ، ولكن جعفراً الصادق (ع) لم يقل بوحدة الوجود أبداً ، وكان يرى أن الإنسان المخلوق، هو شيء، والخالق (الله سبحانه) شيء آخر. أما القائلون بوحدة الوجود فلم يعينوا حداً فاصلاً بين وجود الإنسان وغيره من الموجودات وبين وجود الله، وفي زعمهم أن الوجود يشبه الشمس التي أطلقت ضوءها من خلال زجاج ملون فانعكس بألوان شتى، فلئن اختلفت ألوان ضوء الشمس، فكلها صادرة من منبع واحد، وفي زعمهم أيضاً أن الموت لايعدو أن يكون رجعة إلى الأصل، كماء المطر أو قطر الندى إذ يلتحق بالبحر، وهو منه.

خطط الإمام الصّادق (ع) لإنقاذ الشّيعة

١ – النهي عن المغالاة وتأليه العباد

اتخذ الإمام الصادق (ع) خطوات هامة ليحول دون انحراف الشيعة وسقوطها، وتمثلت الخطوة الأولى في منع تلامذته وأتباعه من المغالاة في حق الأئمة.

وفكرة التأليه أو المغالاة في حق الإمام تسربت إلى الشيعة في وقت سابق على عهد الصادق (ع)، وكان البعض يرى بأن في الرسول (ص) وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر (عليهم السلام) وأئمة الشيعة عنصراً ملكوتياً يميّزهم عن سائر البشر تمييزاً جوهرياً، وبعبارة أخرى، كانوا يرون في الأئمة عنصرين أو وجودين، الوجود البشري والوجود الإلهي، وقالوا بأن النبي والأئمة تختلف عن سائر البشر.

وكان جعفر الصادق (ع) يدحض هذه الفكرة ويعارضها منذ ما بدأ بالإفادة والتدريس، وكفّر القائلين بها مؤكداً " إن جدي وآبائي خلقوا كغيرهم من الناس، وإن القرآن يقول عن رسوله "قُل إنما أنا بشر مثلكم"(١١٩) .

---

(١١٩) آية ١١٠ سورة الكهف.

وكان الصادق (ع) يرى بأن هذه العقيدة خطيرة، وأنها تعارض فكرة التوحيد في الإسلام، وأنها ستفضي في آخر الأمر إلى انقسام الشيعة على نفسها وضعفها وزوالها[١٢٠] .

---

(١٢٠) ظهرت فرقة دينية في الكوفة أيام خالد القسري، انشقت على زيد بن علي بن الحسين (ع)، وأخذت تدعو إلى الإمام محمد الباقر (ع) وبعده إلى ابنه جعفر الصادق (ع) على أنهما الإمامان. وكانت دعوتهما هذه يعتريها شيء من الغموض وتثير الشبهة.

فقد جاء في تاريخ الطبري ما يلي:

"خرج مغيرة بن سعيد الرجل العجوز، وكان يقال: إنه ساحر، ومعه سبعة من الموالي، ينادون ويصيحون: لبيك جعفر. وذلك في أيام خالد القسري، فأمر لهم، فلما أتى بهم موثقين إليه أمر بإحراقهم بطريقة هي الغاية في القسوة (الطبري : ج٢ ص ١٦٢٠) وجاء في الأغاني:

إن بعض مجانين الشيعة ثاروا في ولاية خالد القسري، وكانوا يصيحون: "لبيك جعفر" (الأغاني ج١٥ ص ١٢١ ج ١٩ ص ٥٨). ومهما تكن أسباب هذه الصيحة أو دواعيها، فهي تتضمن تأليه الإمام، وهو كفر وشرك. وكان موقف الإمام صارماً وصريحاً في هذا الأمر. عن زيد النرسي قال: لما ظهر أبو الخطاب بالكوفة وادعى في أبي عبد الله (ع) ما ادعاه، دخلت على أبي عبد الله (ع) ومعي عبيدة بن زرارة، فقلت له: جُعلت فداك، لقد ادعى أبو الخطاب وأصحابه فيك أمراً عظيماً، إنه لبى "بلبيك جعفر"، لبيك معراج. وزعم أصحابه أن أبا الخطاب أسرى به إليك، فلما هبط إلى الأرض دعا إليك، ولذا لبى بك.

قال: فرأيت أبا عبد الله (ع) قد أرسل دمعته من حماليق عينيه وهو يقول: يارب برئت إليك مما ادعى فيّ الأجدع عبد بني أسد، خشع لك شعري وبشري، عبد لك ابن عبدك، خاضع ذليل، ثم أطرق ساعة في الأرض كأنه يناجي شيئاً، ثم رفع رأسه وهو يقول: أجل أجل عبد خاضع خاشع ذليل لربه، صاغر راغم من ربه، خائف وجل، لي والله رب أعبده لا أشرك به شيئاً ، ما له أخزاه الله وأرغبه ولا آمن روعته يوم القيامة، ما كانت تلبية الأنبياء هكذا، ولا تلبيتي ولا تلبية الرسل، إنما لبيك بلبيك الله لبيك، لبيك لا شريك لك، ثم قمنا من عنده فقال: يازيد، إنما قلت لك هذا لأستقر في قبري يازيد. (البحار ج٤٧ ص ٣٧٨).

وحسب "الكافي": أرسل الإمام بمنشور إلى شيعته في العراق هذا نصه: عن إسحاق بن يعقوب قال: ورد التوقيع على يد محمد بن عثمان العمري: "وأما أبو الخطاب محمد بن أبي زينبة الأجدع ملعون

ولعله كان يعرف ما أصاب المسيحية من شقاق وفتن بسبب فكرة تأليه المسيح، وأنها انقسمت على نفسها وأصبحت عشرين مذهباً أو كنيسة، وكانت الأرثوذكسية أول مذهب مسيحي أسس لنفسه كنيسة في أنطاكية، وانقسمت الأرثوذكسية فيما بعد على نفسها إلى مذاهب وكنائس أخرى، فتأسست كنيسة في أورشليم (القدس) وأخرى في الإسكندرية، وتزعمت كل منهما مذاهب وكنائس أخرى.

كانت أنطاكية في القرن الثاني الميلادي عاصمة المسيحية تتبعها إحدى عشرة مملكة من مصر إلى إيران، وكان مئة وخمسون أسقفاً ينتمون إلى أنطاكية يبشرون بالمسيحية في المنطقة، وكانت ظاهرة الخلاف قد دبت بين الأساقفة بسبب اختلاف القول والرأي في مدى مرتبة الألوهية عند السيد المسيح (ع).

واليوم وقد مر ثمانية عشر قرناً من هذه الحقبة الزمنية، ونحن في نهاية القرن العشرين، وعدد الكنائس في المذهب الأرثوذكسي، وهو أول المذاهب المسيحية، يتجاوز العشرين وأهمها:

كنيسة أنطاكية، وكنيسة أورشليم، وكنيسة الإسكندرية أو الأقباط، وكنيسة روسية، وكنيسة أكرانيا (في روسية)، وكنيسة اسطنبول، والكنيسة اليونانية، وكنيسة مونتيجرو (في يوغسلافيا)، وكنيسة البوسنة والهرسك (في

= وأصحابه ملعونون، فلا تجالس أهل مقالتهم، فإني منهم بريء، وآبائي منهم براء". (الكافي ص ٢٦٣ - ٢٦٤).

يوغسلافيا)، وكنيسة بلاد الصرب (في يوغسلافيا) وكنيسة دالماسيا (في يوغسلافيا)، وكنيسة بلغاريا وكنيسة رومانيا، وكنيسة بسارابي (في رومانيا)، وكنيسة البانيا، وكنيسة أستونيا، وكنيسة فنلندا، وكنيسة بولونيا، وكنيسة تشيكوسلوفاكيا، والكنيسة الأرمنية.

لم تورد في هذه القائمة الكنائس الأرثوذكسية في أمريكا لأنها تفرعت وتشعبت من الكنائس الأرثوذكسية الروسية أو اليونانية أو البولونية وغيرها.

والخلاف كبير والفرق شاسع بين كل هذه الكنائس مع أنها أرثوذكسية، والخلاف نابع حول الاعتقاد بالمسيح، وأي جزء منه هو عنصر إلهي وأي جزء منه هو عنصر بشري، وهل العنصر الإلهي مركب مع عنصره البشري أو أنهما مختلطان، وهل يمكن فصل العنصر الإلهي عن العنصر البشري أو أنهما اختلطا كاختلاط الماء والخل، ولا سبيل إلى تجزئتهما وتفكيكهما. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف رفع المسيح إلى السماء والتحق بربه، وهل المعراج كان مع جزئه وعنصره البشري؟ وكيف للعنصر الأرضي (البشري) أن يرقى ويرتفع إلى العليين ويلتحق بالرب؟

نعم ، كانت فكرة التأليه منذ القرن الأول الميلادي، وبقيت إلى يومنا هذا، سبب الخلاف والنقاش بين المسيحيين، فأدت إلى قيام مذاهب جديدة ضمن المذاهب الرئيسية الثلاثة وهي الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية.

كان الصادق (ع) علامة عصره وخبير دهره، وكان على إلمام تام بالإضافة إلى العلوم التي تدوولت في مدرسته، بتاريخ المسيحية ومبادئها

ومواطن الخلاف بين أتباعها، واليوم، وفي عصرنا هذا، لا يسع أحداً بمفرده الوقوف على تاريخ جميع المذاهب المسيحية، فهي كعلم الطب الذي توسع وتشعب حتى لم يعد في وسع طبيب واحد أن يلم في عصره بجميع شعب الطب ويتخصص فيها.

ومن العلماء الذين تخصصوا في تاريخ الأديان "دانيس روبز" الفرنسي المتوفى سنة ١٩٦٧، وقد كتب عن المسيحية أدق الكتب وأجمعها، ووقف حياته بأسرها على الموضوع فأخرج: "المسيح وعصره"، و "المسيحيون الأولون"، وكان متخصصاً في الجانب التاريخي من الموضوع دون سواه من الجوانب.

ولكن يبدو في عصر الصادق (ع) أن الاضطلاع بمعرفة تاريخ المسيحية كان أيسر، لأنها لم تكن قد تفرقت وتشعبت بصورتها الحالية، وليس ثمة ريب في أن الصادق (ع) كان من القلائل، إن لم يكن وحيد عصره، الذي ألمّ إلماماً تاماً بالمسيحية، تاريخها ومذاهبها، ومن هنا اجتهد في منع الشيعة من التورّط في ما تورطت فيه المسيحية من حيث مغالاتها في خصوص المسيح حتى لا تقع فريسة لانقسامات خطيرة تنتهي بالقضاء عليها في آخر الأمر[١٢١] فوقف بجد وحزم، وتصدى لمن كان يغالي في حق

(١٢١) يبدو أن قصة المغالاة في تعظيم الأئمة بين بعض الشيعة من العرب والموالي اتخذت أبعاداً أوسع وأخطر، ودفعت بالإمام الصادق (ع) إلى أن يتخذ موقفاً حازماً من هؤلاء المتطرفين والمغالين، وأن يوضح بكل صراحة ما للإمام وما عليه. جاء في "المناقب": عن المفضل بن عمر قال: كنت أنا وخالد الجوان ونجم الحطيم وسليمان بن خالد على باب الصادق (ع) فتكلمنا في ما يتكلم فيه أهل الغلو، فخرج علينا الصادق (ع) بلا حذاء ولا رداء وهو ينتفض ويقول: يا خالد

الإمام أو الرسول، ونفى نفياً باتاً أن يكون في الرسول (ص) أو الإمام عنصر إلهي، وكان يقول: إن الرسول والأئمة من ولده بشر مثل غيرهم، وإنما الرسول (ص) يتميز عن الخلق بأن الله اختاره ليكون حاملاً للوحي ومبلغاً

- يا مفضل يا سليمان يا نجم، لا "بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون" سورة الأنبياء ٢٧ كتاب المناقب ج٣ ص ٣٤٧).

وعن صالح بن سهل قال: كنت أقول في الصادق (ع) ما تقول الغلاة، فنظر إلي فقال: ويحك ياصالح، إنا والله عبيد مخلوقون، لنا رب نعبده، وإن لم نعبده، عذبنا (المصدر السابق).

والحديث الآتي يوضح مدى الغلو عند هؤلاء المتطرفين: عن أحمد بن محمد الأهوازي عن الحسين بن بردة عن جعفر بن بشير الخراز عن إسماعيل بن عبد العزيز قال: قال أبو عبد الله (ع) : يا إسماعيل ضع لي في المتوضأ ماء. قال فقمت فوضعت له، فقال: فدخل، قال: فقلت في نفسي أنا أقول فيه كذا وكذا ويدخل المتوضأ يتوضأ، قال: فلم يلبث أن خرج فقال: يا إسماعيل لاترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين، وقولوا فينا ما شئتم، فلن تبلغوا. قال إسماعيل: وكنت أقول إنه وأقول وأقول.. ("بصائر الدرجات" ج٥ الباب العاشر ص ٦٣ و "بحار الأنوار" ج ٤٧ ص ٦٨) . وأضاف المجلسي (إنه) أي إنه الرب تعالى الله عن ذلك، و (أقول وأقول) معناه: إني لم أرجع بعد عن هذا القول أو المعنى، وإني كنت مصراً على هذا القول).

والحديث الآتي يبين أيضاً بكل وضوح مدى المغالاة، وكيف نهى الإمام الصادق (ع) عنها. روي عن الحسن بن سعيد عن عبد العزيز قال: كنت أقول بالربوبية فيهم. فدخلت على أبي عبد الله (ع) فقال: يا عبد العزيز ضع ماءً أتوضأ، ففعلت، فلما دخل يتوضأ قلت عند نفسي: هذا الذي قلت فيه ما قلت يتوضأ؟ فلما خرج قال: يا عبد العزيز، لاتحمل على البناء فوق ما يطيق فيهدم، فوالله إنا عبيد مخلوقون (الخرائج والجرائح ص ٢٣٤).

وعن سليمان بن خالد قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وهو يكتب كتبا إلى بغداد وأنا أريد أن أودعه، فقال: تجيء إلى بغداد؟ قلت: بلى. قال: تعين مولاي هذا بدفع كتبه. ففكرت وأنا في صحن الدار أمشي، فقلت: هذا حجة الله على خلقه يكتب إلى أبي أيوب الجزري وفلان وفلان يسألهم حوائجه؟ فلما صرنا إلى باب الدار صاح بي، يا سليمان، ارجع أنت وحدك، فرجعت فقال: كتبت إليهم لأخبرهم أبي عبد ولي إليهم حاجة ("بحار الأنوار" ج ٤٧ ص ١٠٧).

الرسالة، والأئمة أوصياؤه، وهم عباد الله مخلصون، ومن قال بوجـود عنصر إلهي في الرسول (ص) أو الأئمة واعتقد بذلك، فكأنه قد أشرك مع اللـه إلهاً آخر، فهو مشرك ونجس، فإن كان كلامه هـذا دون اعتقـاد وإيمـان بذلـك، وجب نهيه وردعه حتى لا ينحرف أحد أو يقع خلاف بين المسلمين.

٢ - النهي عن المجابهة والخلاف والعزلة عن الناس

الظاهرة الثانية من التفرقة والخلاف في المذاهب المسيحية، التي نتجت عن الناسوت واللاهوت(١٢٢) وهي وضعية الصوامع في جبل آتوس الواقع في اليونان.

ففي ولاية سلانيك اليونانية في الجانب الشرقي منها تقع ثلاث جزر: أولها شبه جزيرة أو جبل آتوس، وقد بنيت عليه عشرون صومعة من الدرجة الأولى واثنتا عشرة صومعة من الدرجة الثانية، ومئتان وأربع من الدرجة الثالثة، وأربع مئة وخمس وستون من الدرجة الرابعة(١٢٣) .

---

(١٢٢) الناسوت: الفطرة أو الطبيعة البشرية. واللاهوت: العنصر الغيبي أو الإلهي.

(١٢٣) الصومعة وجمعها صوامع: الدير في الجبل أو المكان المرتفع يلجأ إليه الراهب للعبادة والانفراد. وقد انقسمت الصومعة عند الفرنسيين وفي فرنسا إلى درجات أو طبقات وهي : الأولى: مانوستر (Monastere) الثاني: كوون (Couvent) الثالثة : اسكيت (Squite) الرابعة: هرميتاج (Hermitage) والصومعة يسكنها الراهب وهو الذي حرّم على نفسه الزواج، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد الآية ٢٧).

- وفي دائرة المعارف لمحمد فريد وجدي: الرهبنة ليست أصلاً من أصول المسيحية الأولى، ولم تنشأ إلا بعد القرن الثالث، لما ظهر الامبراطور الروماني ديسيوس ، واضطهد المسيحيين ، واضطر بعضهم للهرب إلى الجبال والمكث بالصوامع. وفي دائرة المعارف الفرنسية "لاروس" عن القس تيرتوليان (١٦٠ - ٢٤٠ م): إننا لسنا من البراهمة، ولا من معتزلة الهنود، فلا نعتزل الناس إلى الغابات، بل نساكنكم هذه الدنيا.

وفي الوقت نفسه نشأ ميل في المسيحيين إلى حياة الاعتزال، ثم طرأت صنوف الاخشيشان والتقشف التي اختارها المسيحيون طلباً للزلفى من ربهم. واعتبروا الرهبانية حالة من الكمال الإنساني، فرفضوا الزواج والحياة البيتية حباً لله. ثم دارت الدائرة، ولم يرع الرهبان حق الرهبنة وفي القرن الحادي عشر كان الرهبان الشرقيون الذين آلوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لايجسرون على أن يدخلوا إلى بيوتهم الإناث من الحيوانات خشية أن يكون في ذلك خطر على أرواحهم، ومع هذا، لا يخفى اليوم أنهم لم يفوا بما تعهدوا به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين في القرون الوسطى. فقد قال "دوبوتر" بعد أن زار الأديرة في النمسا وفي الممالك الأخرى التابعة للملك فرديناند الأول سنة ١٥٦٣م، إنه رأى مئة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٦ راهباً و ١٦٠ راهبة و ١٩٩ سرّية و ١٥٥ امرأة متزوجة و ٤٤٣ طفلاً . وقال: إنه يخشى أن يتكلم عن راهبات زمانه لئلا يُظن أنه يتكلم بإسهاب عن مجون محلات الفسق والعهر لبنات الهوى بدل أن يتكلم عن ديار الطهر التي تعيش فيها العذارى الناذرات أنفسهن لعبادة الله. لأن الأديرة الدينية لم تعد معابد مخصصة لعبادة الله بل صارت بيوت دعارة للشبان الذين لا هم لهم إلا قضاء شهواتهم البهيمية. وقال: ليست هذه الأمور من الحالات الفردية ولا الخاصة بزمن دون زمن، ففي الأزمنة القديمة لام القديس "سيريابن" والقديس "بازيل" عذارى زمانهما اللواتي وقفن حياتهم لله على ما ظهر من عدم عفتهن. ورأى "جان كريزوستوم " أنه لا يكفي قتل الراهبة التي تفرط في عفتها بل ينبغي أن تشطر شطرين أو تدفن حية مع شريكها في الإثم.

وقالت دائرة المعارف: أما الأديرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فلا يخفى ما هي عليه من قصور من الوجهة الأدبية.

وتاريخ دير "دورياك" الذي تكلم عنه المسيو "دولور" في تاريخ باريز سنة ١٨٢٢ م يعطي فكرة عن الأديرة الفرنسية في القرن السادس عشر وفي الآية الكريمة إشارة إلى هذه كلها : "فما رعوها حق رعايتها".

وكان جبل آتوس من أقدم الأزمنة في تاريخ المسيحية مأمناً للرهبان الأرثوذكس، ولمن طاوعته نفسه على الاعتكاف وترك الحياة الاجتماعية.

وصوامع جبل آتوس كلها أرثوذكسية، وقد عني بها كثير من ملوك المسيحيين وأثريائهم، ووقفوا عليها الأملاك والأموال، ولكنها خسرت خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية كثيراً من موقوفاتها لأن معظم هذه الموقوفات كان في دول أوروبا الشرقية، وسكانها في غالبيتهم من المسيحيين الأرثوذكس.

وفي روسيا صادرت الحكومة موقوفات صوامع "آتوس" بعد الحرب العالمية الأولى وإقامة النظام الشيوعي فيها، فلم تبق لهذه الصوامع إلاّ الموقوفات الواقعة في اليونان وتركيا وقسم من أوروبا.

ومع كل ما فقدته صوامع آتوس من موقوفاتها في روسيا، فقد كانت تتمتع بوضع مالي مستقر متين، إذ ظل خمسة عشر ألف راهب معتكفين فيها، وكان يخدمهم ألف وسبعمئة شخص من غير الرهبان، يخيطون لهم الملابس ويصنعون الأحذية ويطبخون ويعدون الموائد، واليوم قل عدد الرهبان في صوامع آتوس، ولم يبق فيها إلاّ القليل.

وكان من خصائص صوامع آتوس أنها بقيت محظورة على الناس وخاصة المرأة سواء أكانت شابة أم عجوزاً مهما تذرعت بالذرائع.

وإذا حضرت الوفاة أحد الرهبان، لم يسمح لوالدته بأن تودّعه الوداع الأخير داخل الصومعة، ولكن كان يُسمح لها بحضور الجنازة ومراسم الدفن خارج الصومعة.

وإلى قبيل الحرب العالمية الثانية، كانت الحياة في صوامع آتوس شبيهة إلى حد ما بحياة القرون المسيحية الأولى، ولكن تبدل الحال بعد دخول الكهرباء إلى الصوامع وإن بقي الرهبان في صوامع آتوس بعد انقضاء عشرين قرناً من ميلاد المسيح لا يهتمون بمجريات الأحداث خارج هذه الصوامع، ولا يقتنون أجهزة الراديو أو التليفزيون.

قلنا: إن صوامع الدرجة الأولى في هذا الجبل عددها عشرون صومعة، سبع عشرة منها تابعة للروم الأرثوذكس، أي لمذهب ديني واحد. ومع ذلك فلم تستطع تحقيق اتحاد أو اندماج في ما بينها بسبب الخلاف الناشب حول الناسوت واللاهوت، بل: إن من المستحيل أن تجد صومعتين يونانيتين تتفقان في الرأي حول ناسوت المسيح ولاهوته، أي عنصره البشري وعنصره الإلهي.

ويلاحظ هذا الخلاف نفسه في صوامع الدرجة الثانية وعددها اثنتا عشرة صومعة، ولأن هذه الصوامع ظلت منطوية على نفسها ومنقطعة عن العالم الخارجي طوال أربعة عشر قرناً، فقد أجرت التلفزة الفرنسية أخيراً مسابقة حول المعلومات العامة شارك فيها عدد من العلماء، فلم يستطع أحد منهم أن يسمي خمساً من صوامع آتوس، فكيف بأسماء جميع صوامع الدرجة الأولى والثانية.

وقد بنيت أول صومعة أرثوذكسية في القرن السادس الميلادي في جبل آتوس، وكانت تابعة للروم الأرثوذكس، وكان اختيار جبل آتوس لأسباب منها أنه بعيد عن العمران، وأنه جبل صخري شديد الانحدار يشرف

على البحر فاختير لأنه أليق مكان لمن يريد الانقطاع عن الناس والمجتمع. ثم بنيت صوامع أخرى بعضها حول بعض للمسيحيين الأرثوذكس وكانت الصومعة العشرون من الطبقة الأولى للأرثوذكس الروس وبنيت في القرن الثامن عشر الميلادي.

واليوم، وبعد انقضاء أربعة عشر قرناً على تأسيس أول الصوامع في آتوس، لم تنته الخلافات حول الناسوت واللاهوت، بل لعلها قد زادت.

وقد روي أن السلطان محمداً الملقب بالفاتح عندما حاصر القسطنطينية، لم يستنجد به أحد من الرهبان لإنقاذ الكنيسة، بل: إن الرهبان لم يجتمعوا حتى ولا مرة واحدة للدفاع عن عاصمة البيزنطيين (رومية الصغرى) فيما انصبت اجتماعاتهم على مناقشة اللاهوت والناسوت.

وكل الخلافات التي دارت بين المسيحيين في صوامع آتوس، كان محورها الخلاف حول الناسوت واللاهوت.

وهناك أمر آخر أيضاً دفع بالإمام الصادق (ع) إلى اتخاذ موقف واضح حازم للحيلولة دون سقوط الشيعة وزوالها، ألا وهو موضوع العزلة عن المجتمع أو حياة الرهبانية، وقد ظهر لدى المسلمين منذ القرن الثاني الهجري ميل إلى الاعتكاف عن الدنيا والزهد في ملذاتها، وظهرت فرق كثيرة عند المسلمين يدعو بعضها إلى الرهبانية، وترك الدنيا، وكانوا يختلفون حول ما الذي يتعين على العارف أو الزاهد أن يفعله، فمنهم من قال: إن الصلاة هي أفضل عبادة للمعتكف، ومنهم من قال بالصوم لما فيه من حرمان

النفس عما تشتهيه، ومنهم من رأى للمعتكف أو المتعبد أن يفكر في الله، ومنهم من قال "بالذكر" أي أن يذكر الله.

ولم تهتم الفرق الصوفية التي حبذت الاعتكاف والزهد بأمور المعيشة الخاصة بأتباعها.

والشيعة بدورها اندفعت في هذا الاتجاه، أي الزهد أو الاعتكاف، وكان من أهم الأسباب في هذا عداء الحكام للأئمة وأتباعهم وشيعتهم وملاحقتهم لهم.

وكان موقف الصادق (ع) من هذه الظاهرة واضحاً وحازماً، إذ نهى عن العزلة وترك الحياة الاجتماعية نهياً باتاً، كما نهى كذلك عن تأليه الرسول(ص) أو الأئمة (ع) أو الشطط في تقديرهم. وكان بنو أمية وبعدهم العباسيون يتطيرون من حركات الشيعة وتطلعاتهم، فجنحت الدولة إلى تحبيذ انزوائهم واعتكافهم اعتقاداً منها بأن انطواءهم على ذواتهم يمنع الناس من الاتصال بهم، فيخفت صوتهم وتنسى دعوتهم.

وكان الصادق (ع) يرى هذه المخاطر جميعاً، بل لقد رأى بنفسه كيف عاداه الأمويون هم والعباسيون من بعدهم الذين ساروا على نفس النهج بل أشده وكان يردد: لا رهبانية في الإسلام. وهو نفسه كان يعمل في مزرعة له بالمدينة[١٢٤] وكان جاهداً في منع هذا التيار تفادياً لانهيار الشيعة وزوالها.

---

(١٢٤) في "الكافي" في باب "مكارم سيره ومحاسن أخلاقه" (ع) ثلاثة أحاديث تبين سيرة الإمام ومنهاجه في الحياة.

وقد تعلم تلامذة الصادق (ع) في مدرسته عن تاريخ المسيحية مسألة عامة أخرى، فقد قال لهم الصادق (ع) إن القس "نسطوريوس" الذي عاش قبل نبينا محمد (ص) بمئة وثلاث وتسعين سنة (أي في سنة ٤٢٩م) في القسطنطينية ساق رأياً عن وجود المسيح (ع) يختلف عن الآراء السابقة، فأحدث شقاقاً وخلافاً بين المسيحيين. فقد ذهب نسطوريوس إلى أن للمسيح (ع) الماهية والفطره البشرية ككل إنسان، وليس في وجوده أي عنصر إلهي، ولكن الله ينزل ويقيم فيه كما ينزل المسافر ويقيم في محط سفره، أو كما يزور المؤمن الكنيسة ثم يذهب عنها.

وبعد ما شاعت هذه النظرية في القسطنطينية والمنطقة ، ثارت عليها المذاهب المسيحية القائلة بأن لله حلولاً في جسد المسيح (ع) ، وأن فيه

---

١ - عن سهل عن الدهقان عن درست عن عبد الأعلى مولى آل سالم قال: استقبلت أبا عبد الله (ع) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر. فقلت: جعلت فداك. حالك عندالله عز وجل وقرابتك من رسول لله (ص)، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: ياعبد الأعلى، خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك (الكافي ج٥ ص ٧٤).

٢ - عن أبي عمر الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله (ع) وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصاب عن ظهره فقلت: جُعلت فداك، أعطني أكفك. فقال: إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة (الكافي ج٥ ص ٧٧).

٣ - عن حماد بن عثمان قال: حضرت أبا عبد الله (ع) وقال له رجل: أصلحك الله، ذكرت أن علياً بن أبي طالب (ع) كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك التباس الجديد؟ فقال له: إن علياً بن أبي طالب (ع) كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس اليوم مثل ذلك شُهّر به. فخير لباس كل زمان لباس أهله...(الكافي ج٦ ص ٤٤٤ وبحار الأنوار ج٤٧ ص ٥٥).

عنصراً إلهياً، ونقموا على "نسطوريوس" واتهموه بالزندقة والكفر وحكموا عليه بالقتل.

ومع ذلك شاعت نظرية نسطوريوس حول المسيح (ع) ، وانتشرت في كل مكان، وهي النظرية القائلة إن للمسيح ماهية البشر، وإن الله أشرق في جسده بوجوده وأنواره.

وحمل هذا المذهب اسم نسطوريوس، فصار يعرف بمذهب النساطرة، وكانت المذاهب الأخرى، ما اعتقد منها بحلول الله في جسد المسيح، وما اعتقد بأن قوام المسيح عنصران أحدهما بشري والآخر إلهي، ترى في النسطورية هرطقة وكفراً.

وكان الصادق (ع) يقول لتلاميذه إن المسيحيين في الحبشة يعتقدون بأن المسيح والله متحدان، وإن العنصر البشري في المسيح قد ذاب وفني في الله. وهم يشبهون ذلك بقطرة الماء إذ تذوب في البحر، أو بذرّة الشمع إذ تنصهر في النار الحامية الموقدة.

ومن العادات المسيحية الأخرى التي انتقلت إلى المسلمين الرهبانية والنسك، أي اعتزال الدنيا بعيداً عن الجماعة والأسرة، وذهب بعض المسلمين إلى حد الامتناع عن الزواج وعن الملذات المشروعة اقتداءاً بالرهبان، قائلين إن هذا أدعى إلى التزكية وطاعة الله.

وكان أول اتصال تم بين المسلمين والمسيحيين هو اتصالهم بأتباع المذهب الأرثوذكسي، لا الكاثوليكي ولا سواه. فلما اتصلوا بالمذاهب الأخرى، ولا سيما الكثلكة، وجدوا أن القساوسة من كاثوليك ولاتين يأبون

الزواج، سواء عملوا في الكنيسة أو اختاروا الرهبنة والإقامة في الأديرة والصوامع، في حين أن قساوسة الأرثوذكس في أنطاكية كانوا يجيزون الزواج.

وظهرت هذه العادة عند بعض الزهاد والمنشقين من المسلمين، فنهاهم الصادق (ع) عنها، وأمر أتباعه وتلامذته باتباع السنة الإسلامية في الزواج، قائلاً: إن الامتناع عن الزواج ينافي سُنّة الله التي خلق الناس عليها، كما أنه يضرّ بالمسلم معنوياً وجسدياً، ثم إن العزلة والزهد في حياة الجماعة تنتهي بإقلال عدد المسلمين، في حين أن الكفّار يتزايد عددهم يوماً بعد يوم بسبب تزاوجهم، فعلى المسلم أن يتزوج، وأن يستزيد من الأولاد ليكثّر عدد المسلمين.

نهى الصادق (ع) عن العزلة والزهد، فكان مصير هذه العادة الزوال بعدما شاع أمرها بين المسلمين، وإن كانت قد عاودت الظهور في القرنين الثالث والرابع الهجريين عند بعض العرفاء والصوفية، وأسماء المرموقين منهم معروفة مشهورة.

وإلى القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن أحد يعرف الحكمة الصحية الكامنة وراء نهي الإمام الصادق (ع) عن العُزلة والزهد، إذ كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن النهي مقصود لدفع الأضرار المعنوية للعزلة، أو لأنها تخالف الشريعة الإسلامية، أما الجانب الصحي لنهي الإمام فقد كان خافياً، حتى أثبت الطب الحديث في القرن التاسع عشر أن الامتناع عن الزواج يؤدي إلى خلل شديد في الجهاز العصبي للإنسان رجلاً كان أو امرأة

كما يسبب مضاعفات أخرى في الغدد الداخلية وفي وظائف الجوارح والأعضاء.

جعفر الصّادق «ع» وانبعاث عصر التّجديد في تاريخ العلوم

رأينا في ما تقدم أن جعفراً الصادق (ع) انبرى وهو بعد تلميذ في مدرسة أبيه إلى انتقاد نظرية بطليموس الخاصة بدوران الشمس، وقال باستحالة دورانها في منطقة البروج وحول الأرض في وقت واحد، كما ذهب إلى ذلك بطليموس.

كان هذا وهو لم يزل تلميذاً في مدرسة الإمام الباقر (ع) ، وسنرى في ما يلي كيف أن جعفراً الصادق تزعم مدرسة أبيه بعد وفاته، وأتى بآراء ونظريات جريئة جديدة، حتى ليصح لنا القول بأن الصادق (ع) ، إنْ لم يكن هو الرائد المجدد في جميع العلوم فهو دون أدنى ريب في طليعة أولئك المجددين ولا سيما في علمي الهيئة والنجوم، وهما منطلق الإشعاع العلمي في أوروبا منذ سقوط القسطنطينية على يدي السلطان محمد الفاتح.

ومن المسلم به أن العالم الإسلامي كان سابقاً على أوروبا بكثير من التأهب لاستقبال النهضة العلمية والفكرية وأن الإسلام قد تقبل الحقائق العلمية برحابة صدر، وحث على طلب العلم من جميع مصادره، أما أوروبا فكانت منذ القرون الوسطى وإلى القرن السابع عشر الميلادي غير متأهبة لتقبل الحقائق العلمية وهضمها.

ومن الحقائق التي تعذر على أوروبا هضمها حقيقة حركة الشمس ودوران الأرض حولها، ولم تعارض أوروبا حقيقة علمية معارضتها لهذه الحقيقة، ولمسائل النجوم بصورة عامة.

ولو أن أحداً تحدث في أوروبا عن الماء أو التراب أو النار بما يتعارض مع المعتقدات الدينية السائدة، لتعرض لأشد المخاطر، شأنه في ذلك شأن مَنْ يتحدث عن النجوم دون مراعاة للمعتقدات القائمة. وكان جزاء الواحد منهم الحكم بهرطقته ثم سجنه وقتله لاجترائه على الحقائق الدينية المسلم بها.

وهذا الموقف المتشدد أمام الأبحاث الفلكية في أوروبا شبيه إلى حد كبير بموقف اليونان والروم قديماً تجاه هذه المباحث.

فمع ما عُرف عن اليونان من أنها عاصمة العلم قديماً، نرى "بلينوس"(١٢٥) المؤرخ يسجل ملاحظة هامة تدل على الاتجاه السائد في الوسط العلمي في اليونان قديماً، إذ قال: كان انكساغوراس(١٢٦) اليوناني ماضياً في تدريس علم الفلك الفارسي، فاتّهم بالخيانة لليونان ونفي منها.

---

(١٢٥) كاتيوس بلينوس زكوندوس عالم ومؤرخ يوناني ولد في بلاد الروم عام ٢٣ بعد الميلاد وتوفي بها عام ٧٩م ، خلف كتباً ومؤلفات منها: التاريخ العام، وتاريخ العلوم الطبيعية في سبع مجلدات وهو يعد من الكتب الهامة في تاريخ العلوم الطبيعية.

(١٢٦) انكساغوراس العالم والفيلسوف اليوناني ولد قبل المسيح بحوالي ٥٠٠ سنة وتوفي سنة ٤٢٣ قبل الميلاد. كان يقول بأن الأشياء كلها خلقت من أصل "نوس" أي العقل، وأن النوس أوجد الحركة وأوجد الذرات ووضعها في الأجسام.

ويبدو أن أقواماً كالإغريق وغيرهم كانوا يقفون مثل هذه المواقف المتشددة أمام الحقائق العلمية، لأن الناس كانوا يشاهدون حركات النجوم وتنقلاتها بأنفسهم فلا يخامر أحداً شك في أن ما يشاهده هو حقيقة واقعة.

وكان الشرق أو الغرب آنذاك يطلع بآراء في المسائل العلمية تناقض سنن الطبيعة ومن ذلك مثلاً موضوع "الحركة" و "الوجود" ، وهو موضوع أثار خلافات وتناقضات كثيرة. فقالت جماعة بأن الحركة وُجدت أولاً ووجد العالم بعدها، بينما رأت جماعة أخرى أن العالم خلق أولاً ثم جاءت الحركة في أثره.

وكذلك الشأن في موضوع الجسم والروح وأيهما سبق الآخر في الوجود، فقد اختلفت الآراء حول هذا الموضوع، وتناقضت أحياناً.

ولكن لم يتعرض أحد من أصحاب هذه النظريات المتعارضة للاتهام أوللرمي بالزندقة والكفر، لأن هذه الموضوعات لم تكن محسوسة ملموسة أو مرئية للناس.

فإن خالفت نظريةٌ ما سُنن الكون، لم يُرم صاحبها بالكفر، أما إذا خالفت مبادىء الدين كالتوحيد أو النبوة، فالرمي بالزندقة هو المصير الحتمي.

وقد ذهب العالم والفيلسوف اليوناني "انكسيمانس" (الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد) إلى أن الكرة الشمسية عنصر مذاب، وأنها أكبر من الكرة الأرضية، ولكننا نراها صغيرة لبعدها عنا، ولولا ذلك لما أنارت الأرض كلها، ولما شعرنا بحرارتها.

وهذا الرأي ، الـذي طلع بـه هـذا الفيلسـوف فـي القـرن السـابع قبـل الميلاد، شبيه إلى حد بعيد برأي العلماء في الشمس في القـرن العشـرين إذ نعلم في يومنا هذا أن الشمس قرص محترق كالغاز.

وقد انتقلت هذه النظرية من اليونان إلى بـابل، ولكـن أحـداً لـم يجـرؤ على إبرازها خشية التكفير، لأن من عقيدة بابل أن الشمس هي مصباح الإلـه الأكبر لبابل، وهو يضيئها صباحاً ويطفئها ليلاً.

فالرأي الذي ذهب إليه (انكسيمانس) كان معارضـاً للعقيـدة البابليـة، وإن قال به أحد أو صدقه عُدّ كافراً، ومنع من دخول معبد إلـه بـابل الكبـير، وحرّمت عليه وظائف الدواوين الحكومية.

ومما ذهب إليه (انكسيمانس) أيضـاً أن نشـأة الكـون بـدأت بـالهواء، والهواء هو أصل جميع الموجودات والخلائق.

وقـد روى المـؤرخ أومستيد(١٢٧) فـي كتابـه (المسـيح مـن الوجهـة التاريخية) أن اثنين من علماء بابل قبلا نظرية (انكسيمانس) فطردا من العمـل الحكومي، وضاقت بهما الحال حتى اضطرا إلى النزوح من بابل.

وهناك فيلسوف يونـاني آخـر، هـو (انكسـيماندس)(١٢٨) "كـانت لـه نظرية في نشأة الكون تختلف بدورها عن عقيدة البابليين، ومؤداها أن العـالم كان في البدء لا متناهياً في المكان ولا متناهياً في الزمان، بحيث لا يسـتطاع

---

(١٢٧) أومستيد عالم ومؤرخ أمريكي، وكان أستاذاً لتاريخ ايران في معهـد الدراسـات الشـرقية فـي جامعة شيكاغو، وله مؤلف نفيس بعنوان (تاريخ الامبراطورية الإيرانية) توفي عام ١٩٤٥ م.

(١٢٨) انكسيماندس فيلسوف يوناني ولد سنة ٦١١ قبل الميلاد وتوفي سنة ٥٤٧ ق.م.

وصفه على وجه التحديد، ثم أخذت أشياء وأجزاء من هذا اللامتناهي تتجمع وتتراكم، فنشأ الجرم ثم الأجسام.

وأضاف (أنكسيماندس) أن تراكم الأجزاء لم يتم بنسبة واحدة، فمنها ما تراكم بكثافة فتكونت المواد الصلبة كالحجارة، ومنها ما تراكم بليونة فتكون الشجر والنبات والحيوان والإنسان.

ولئن عاش هذا الفيلسوف في القرن السادس قبل الميلاد، فإن آراءه تتفق مع آراء العلماء في القرن العشرين هذا الذي نعيش فيه.

فنظريات علماء الفيزياء في عصرنا الحاضر شبيهة إلى حد بعيد بنظرية انكسيماندس، ولو سئل علماؤنا عن نشأة الكون لقالوا: إنه بدأ بالهيدروجين، وإن سئلوا: مم وجد الهيدروجين؟ لجاء جوابهم مشابهاً لنظرية (انكسيماندس) ولكن لا يسع أحداً منهم أن يوضح لنا ما هو هذا الشيء اللامحدود واللامتناهي الذي خلق منه الهيدروجين لأن هذا الشيء وإن تعذر وصفه أو تحديده فهو موجود وهو يولد الهيدروجين ويوجده، ولئن وجد هذا الشيء في منظومتنا الشمسية وتوابعها، فهو موجود أيضاً في منظومات فلكية أخرى.

ومن هنا يصح القول إنه بعد انقضاء ٢٦ قرناً على النظرية الفيزيائية التي طلع بها فيلسوف القرن السادس قبل الميلاد (انكسيماندس) ومع التقدم المدهش الذي أحرزه الإنسان في عصرنا الحالي، ولا سيما في ميادين الفيزياء والفيزياء الفلكية، فإن معارفنا عن نشأة الكون من خلال علم الفيزياء لم تتقدم خطوة واحدة على معارف القرن السادس قبل الميلاد.

وبفضل الفيزياء، عرفنا أن ذرة الهيدروجين هـي أخـف ذرات العناصر في هذا الكـون، وإن لهـا (إلكترونـاً) واحـداً و (بروتونـا) واحـداً، وأن هـذا الإلكترون يدور في فلك حول البروتون.

وحتى هذا اليوم ليست هناك مسلمة فيزيائية أو علمية توضح لنا كيـف جاء إلى الوجود هذا الشيء الذي لايوصف، والذي وصف باللانهاية، وما الـذي بدّله إلى إلكترون وبروتـون عنـد نشأة الكـون؟ وبعبـارة أخـرى، إن القـانون العلمي لهذا التغيير والتبديل لـم يكتشـف حتـى الآن ولا نعـرف أيهمـا وجـد أولا: البروتون أو الإلكترون، وهل أولهما هو الذي يحتوي على قوة الجذب الكهربائي؟ وثانيهما: هو المحتوي على قوة الطرد الكهربائي؟ وهو ما يسمى في المصطلح العلمي بالقوة (+) والقـوة (−)؟ أو أن هذيـن العنصريـن وجـدا معاً؟ وكيف وجدا من الشيء الذي لايوصف؟

ووصلت نظرية (انكسيماندس) إلى بابل، كما وصلت مـن قبـل نظريـة سلفه اليوناني "انكسيمانس" فلقيت قبولاً وتـأييداً مـن البعـض دون أن توجـه إلى أي منهم تهمة الكفر، ودون أن يُطـرد أحـد مـن عملـه الحكومـي نتيجـة لقبوله هذه النظرية. وعلّة ذلك أن أحداً في بابل لم ير بأمّ عينيـه مـا يُثبـت أو يدحض نظرية "أنكسيماندس" ولا عرف أحد كيف نشأ الكون، ولكن هؤلاء القوم كانوا يرون بأم العينين شروق الشمس كل صباح وغيابهـا كـل مسـاء، فكان عسيراً عليهم قبول نظرية "انكسيماندس" القائلة إن الشمس كـرة أكـبر من الكرة الأرضية، وإنها كتلة ذائبة من الأشعة التي لا ينطفيء لهيبهـا، وإنمـا كانوا يرون الشمس تشرق في الصباح وتغيب أو تنطفيء – في رأيهم – فـي

المساء فكانوا يعتقدون أن إله بابل يضيء هذا المصباح في النهار ويطفئه في الليل.

وأما "انكساغوراس"، الذي طرد من اليونان، فكان ذنبه أنه بدأ بتدريس التقويم الفارسي وترويجه في اليونان، وهو التقويم الشمسي الذي يعتبر السنة ٣٦٥ يوماً وبضع ساعات، وقد سجّل أسامي أشهر السنة الفارسية في كتيبة على سفح جبل بيستون في غرب إيران، ولا توجد من عهد الأكمينيين كتيبة بهذا التفصيل في كلّ أرض فارس، فقد كتبت هذه الكتيبة بثلاث لغات هي البهلوية الأكمينيّة، والبابلية، والعيلاميّة.

وقد سجل التاريخ أن المصريين القدماء وضعوا بدورهم تقويماً، وكانوا يعتبرون السنة ٣٦٥ يوماً قبل ميلاد المسيح (ع) بألفي سنة، ولكننا لا نعرف هل سبق البابليون المصريين في وضع التقويم ومعرفة أيام السنة أم لا؟

ولا يستبعد أن يكون علم الفلك قد انتقل من قوم إلى قوم كغيره من العلوم، وأن هناك أقواماً أبيدوا بفعل كارثة طبيعية، كما قال أفلاطون.

وعلى كل حال، فعندما بدأ الإمام الصادق (ع) يلقي دروسه على تلامذته في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، لم تكن معارف البشر عن الشمس تتجاوز ما أسلفنا إيراده، وكان كل صاحب رأي أو نظرية جديدة في العالم الغربي في ذلك الحين معرّضاً لخطر التكفير والزندقة، ولا سيما إذا تعارضت نظريته مع العقيدة السائدة، أما الوضع في العالم الإسلامي فكان مختلفاً عن ذلك، إذ أن البحث حول الشمس والأرض وحركاتها كان يدور بحرية كاملة دون خوف من توجيه تهمة الارتداد أو التكفير إلى أي

باحث. فلما قال الصادق (ع): إن الأرض تدور، وإن توالي الليل والنهار يحدث بفعل دورانها، لم يرمه أحد بتهمة ما وقد رأينا في ما سبق أن إقليدس اليوناني هو أول من تعرض لنظرية حركة الأرض، ولكنه لم ينتبه إلى أن الأرض تدور حول نفسها، وإنما قال: إن الأرض تدور حول الشمس، وأياً كان الأمر، فإن النظرية التي ابتدعها إقليدس تقيم البرهان على نبوغه وعلى قدرته على التفكير العلمي الجاد.

أما كروية الأرض، فقد اهتم الإنسان بموضوعها قبل ميلاد المسيح بألف سنة، وكان قدماء المصريين يقولون بكروية الأرض، وقد انتقل هذا الرأي منهم إلى العرب، وقام الجغرافي العربي الشريف الإدريسي(١٢٩) برسم خرائط جغرافية تثبت رأيه في كروية الأرض.

ولكن العلماء الذين سبقوا الصادق (ع) لم يقل منهم أحد بأن الكرة الأرضية تدور حول الشمس، فكان الصادق (ع) أسبق العلماء إلى إيراد هذه النظرية العلمية الهامة، وقد اهتدى إليها بفضل ما وهبه الله من قدرة عقلية فائقة ونبوغ خارق قليل النظير، واستطاع جعفر الصادق (ع) بتفكيره العقلي المجرد، ودون استعانة بأي أجهزة علمية، أن يثبت ما كان الناس يرون خلافه في الواقع آنذاك.

---

(١٢٩) الإدريسي أبو عبد الله المعروف بالشريف وهو من أحفاد إدريس الحسيني (٤٦١ - ٥٦١ هـ - ١١٠٠ - ١١٦٥ م) رحالة ولد في سبتة ودرس في قرطبة، وبرع في علم الهيئة والجغرافيا والطب والحكمة والشعر، وطاف ببلاد الروم واليونان ومصر والمغرب وفرنسا وجزيرة بريطانيا، ودعاه روجيه الثاني ملك النورمانديين إلى زيارة صقلية فرسم له الإدريسي هناك ما عاينه من البلدان على كرة من الفضة. من مؤلفاته (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) و (الجامع لصفات أشتات النبات).

نظرية الصادق بشأن الأرض

مر بنا أن الإنسان اهتدى إلى أن الأرض كروية منذ القديم، وأن جميع البحارة البرتغاليين والإسبان الذين بدأوا رحلاتهم البحرية من منتصف القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السادس عشر لكشف العالم انطلقوا من هذا المبدأ (أي كروية الأرض)، ولا بد من الإقرار في هذه المناسبة بأن القرن السادس عشر كان زاخراً بالمفاجآت واكتشاف المجهول، ومتى قرأنا أخبار رحلة البعثة البرتغالية بقيادة (فاسكودوجاما) الذي اكتشف الطريق البحري إلى الهند، صغرت في أعيننا رحلة أبولو إلى القمر في القرن العشرين.

وإذا ما قرأنا عن رحلة "ماجلان"(١٣٠) ورفاقه (٢٦٨ شخصاً) حول الأرض والتي استغرقت ثلاث سنين، وما عانوا من المتاعب وأسباب الحرمان والمخاطر بحيث لم يبق على قيد الحياة من أعضاء هذه البعثة الضخمة إلاّ ١٨ شخصاً فقط، لم يعد لقصة رحلات أبولو الفضائية ورحلات الأقمار الصناعية الضخمة لون فتّان.

---

(١٣٠) ماجلان (Magellan) ١٤٨٠ – ١٥٢١ م رائد برتغالي اكتشف المضيق الذي أطلق عليه اسمه في جنوب أمريكا اللاتينية عندما عبره في طوافة حول العالم عبر المحيط الهادي من الشرق إلى الغرب في مئة وعشرة أيام، دون أن يواجه متاعب في البحر أو أمواجاً عاتية. فسمي هذا البحر بالمحيط الهادي، ثم وصل إلى جزر سمّاها باسم ملك إسبانيا الذي كان في خدمته "فليلين"، وقتل ماجلان في مصادمة مع سكان الجزر، فخلفه البحّار "سباستيانو- انكانو" الذي قاد السفينة ومَنْ عليها (١٨ شخصاً) إلى إسبانيا وتسلّم نيشان الكانو الذهبي من ملك إسبانيا، وبقيت أسرته تحظى بالاحترام طوال قرون، ولكن ماجلان لم يخلّف أحداً من بعده. ومضيق ماجلان هو ذراع بحرية بين طرفي أمريكا الجنوبي وأرض النار.

فالبحّار فاسكودوجاما الذي اكتشف الطريق البحري إلى الهند، وكريستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا، وماجلان هو أول من طاف حول الأرض عن طريق البحر، كانوا يعلمون أن الأرض كروية، ولم يخرج أحد منهم في رحلته بقصد اكتشاف كروية الأرض، بل كانت رحلاتهم لأهداف مادية.

فقد بدأ فاسكودوجاما وكريستوف كولمبس وماجلان رحلاتهم للحصول على الأعشاب الطبية التي كانت تباع بأسعار خيالية في أوربا. فإذا كان كريستوف كولمبس وماجلان اتخذا وجهة الغرب في رحلتهما تلك، لأن السفن الإسبانية لم يكن مسموحاً لها بأن تتجه نحو الشرق بسبب أن البابا قسّم العالم إلى جزئين شرقي وغربي، وأهدى النصف الشرقي إلى ملك البرتغال والجزء الغربي إلى ملك إسبانيا، فكان من نبوغ كريستوف كولمبس وماجلان وذكائهما أن خططا للوصول إلى القسم الشرقي وجزر الملوك (وهي منبت الأعشاب الطبية) بعد اجتياز الجزء الغربي من العالم آنذاك، فكانت أهداف جميع هؤلاء الرحّالة العظام تجارية ومادية بحتة.

ولم يحفل أحد منهم لا بأن الأرض كروية ولا بأن لها حركة أو أنها تدور حول نفسها.

وليس لدينا ما يثبت أن جاليليو، وهو العالم الإيطالي الذي كان أول من اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس، قد اهتدى أيضاً إلى أن الأرض تدور حول نفسها. ويلوح أن هذا الباحث الفيزيائي والمنجّم، الذي يدين له التقدم العلمي في العالم بفضل القوانين العلمية التي وضعها لأول مرة، والذي

مات بعد اكتشاف أمريكا بقرن ونصف قرن، كان يقول بدوران الأرض حول الشمس فقط، وأن محكمة التفتيش العقائدية "انكيزيسيون" حاكمت جاليليو، لمجرد أنه قال: إن الأرض تدور حول الشمس، وأكرهته على التوبة والاستغفار.

وبدأ البحار البريطاني (فرانسيس دريك) رحلة حول الأرض في سنة ١٥٧٧، أي بعد ماجلان بخمس وسبعين سنة، واستمرت رحلته إلى عام ١٥٨٠، وكان ذلك بعد ما اشتهرت نظرية كروية الأرض وشاعت في مختلف الأوساط ولكنه لم يكن يعلم بدوره ما إذا كانت الأرض تدور حول نفسها أو لا؟

ولكي نفطن إلى أن نظرية دوران الأرض حول نفسها كانت من النظريات البعيدة عن الإدراك والفهم، تتعين الإشارة إلى أن عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكاره (Henri Poincarré) الذي توفي عام ١٩١٢ م عن عمر ناهز السابعة والخمسين وكان يُعد ألمع عالم في الرياضيات في هذا العصر، كان يمزح ويقول: إنني غير متأكد من أن الأرض تدور حول نفسها. فإن صح بأن عالماً فذّاً كهنري بوانكاره تشكك، ولو على سبيل الفكاهة في مطلع القرن العشرين بأن الأرض تدور حول نفسها، فمن اليسير علينا أن ندرك ماذا كان الناس يتصورون أو يقولون بشأن هذه النظرية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (النصف الأول من القرن الثاني الهجري) إذ كان قبول هذه النظرية شبه مستحيل.

ودوران الأرض حول نفسها لم يثبت عملياً إلاّ بعد ما وضع الإنسان قدميه على سطح القمر، وشاهد الكرة الأرضية من هناك وسجّل حركتها أما قائدو

المكوكات الفضائية فلم يتمكنوا من تسجيل حركة الأرض حول نفسها قبل وصول البشر إلى القمر، لأن مراكب الفضاء كانت تنطلق بسرعة فائقة وتدور حول الأرض مرة في كل ٩٠ دقيقة، ولم تثبت أقدام رواد الفضاء في نقطة ما ليشاهدوا منها حركة الأرض، ولكن هذا تحقق من سطح القمر ومع أجهزة التصوير الدقيقة فشاهدوا عندئذ حركة الأرض وصوّروها أيضاً .

وبفضل التقدم العلمي والصناعي الذي تحقق للإنسان في القرن العشرين، عرفنا أن كل نجم في منظومتنا الشمسية يدور حول نفسه، وأن حركة النجوم في المنظومة الشمسية تخضع لقوانين ميكانيكية دقيقة، وأن كرة الشمس التي تدور حولها الكرات الأخرى، والتي تمثّل القطب أو المركز، تدور بدورها حول نفسها وتتصل حركتها حول نفسها في منطقة خط الاستواء فتمتد إلى مرّة في كل ٢٥ يوماً .

وعندما اخترع جاليليو المنظار الفلكي، استطاع بمساعدته رصد المنظومة الشمسية والأجرام، وأيقن أن هذه الأجرام تدور كذلك حول نفسها.

صحيح أن جاليليو رأى الكرة الأرضية تدور حول الشمس كغيرها من الكواكب، ولا يستبعد أبداً أن يكون قد انتهى إلى أن الأرض تدور بدورها حول نفسها، ولكننا لانقع في مؤلفاته على أثر لهذا الكشف، ولعله وهو الذي اضطر – في ما بعد – إلى إنكار نظريته في شأن دوران الأرض حول الشمس، خوفاً من محكمة التفتيش العقائدية قد آثر أن يحجب رأيه المتعلق بدوران الأرض حول نفسها لئلا توقع عليه العقوبة الصارمة المؤكدة وهي

الإحراق بالنار، إن عرف عنه – بعد تراجعه وتوبته – أنه يدعو إلى رأي جديد هو أن الأرض تدور حول نفسها. وليس في مذكرات جاليليو التي تركها بعد وفاته ما يدل على أنه عرف أن الأرض تدور حول نفسها.

وفي القرن السادس عشر الميلادي ظهر في الدانمرك عالم فلكي آخر هو "تيخو براهة" أو "تيكو براهة" وكان ينتمي إلى طبقة الأشراف المترفة في بلاده على النقيض من كوبرنيكوس البولوني الذي كان رقيق الحال لا يجد ما يسد به جوعه.

وقد مهدت أبحاث تيخو في علم الفلك طريق الكشف أمام العالم الألماني كبلر، فوضع هذا الأخير قوانينه الفلكية الثلاثة المشهورة الخاصة بحركة السيارات – ومنها الكرة الأرضية – حول الشمس.

ولكن تيخو براهة لم يهتد بدوره إلى أن الأرض تدور حول نفسها، وقد كان يعيش في الدانمرك بعيداً عن سلطة محاكم التفتيش ونفوذها، فلو اهتدى إلى هذه النتيجة، لبادر إلى إعلانها غير متطير من احتمال العقاب شأنه في هذا شأن كوبرنيكوس البولوني وكبلر الألماني اللذين كانا يعيشان خارج نفوذ محاكم التفتيش.

والغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه محاكم التفتيش مشغولة بتعقب القائلين بنظرية دوران الأرض حول الشمس وإنزال أشد العقوبات صرامة بالداعين إلى هذه النظرية، كانت الكتب والملاهي الخليعة واسعة الانتشار ولاتتعرض لها محاكم التفتيش على أي نحو كان.

وقد توفي تيخو براهة في سنة ١٦٠١ م وتوفي كبلر في سنة ١٦٣٠م، وظلت القوانين الثلاثة التي وضعها كبلر عن حركة السيارات تظفر بإعجاب الأوساط العلمية في ذلك الوقت إلى يومنا هذا، وكان مما ذهب إليه في حركة النجوم أن السيارات ومنها الكرة الأرضية تدور حول الشمس في مسار بيضاوي الشكل وليس دائرياً كما ذهب كوبرنيكوس (١٣١) . ولسنا هنا في مقام التحديد بالتفصيل عن قوانين كبلر الفلسفية وحسبنا أننا أشرنا إليها بالإيجاز الذي يقتضيه السياق.

وصحيح أن كبلر باكتشافه القوانين الثلاثة بأن الكرة الأرضية تدور حول نفسها قد أثبت للعالم نبوغه العلمي، ولكن الإمام جعفراً الصادق (ع) اكتشف هذه الحقيقة العلمية قبله باثني عشر قرناً ، وقال: إن الأرض تدور حول نفسها، وإن تعاقب الليل والنهار ليس سببه حركة الشمس حول الأرض. ثم قال: إن مثل هذه الحركة مستحيلة مع دوران الشمس في منطقة البروج، وإن الليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها. فيصبح نصف الكرة الأرضية في نهار مشرق، ونصفها الآخر في ليل مظلم(١٣٢) .

---

(١٣١) للدائرة مركز واحد يسمى القطب، أما الشكل البيضاوي فله قاعدتان.

(١٣٢) ظهرت نظرية الإمام الصادق (ع) هذه من خلال ما كان يُلقيه على تلاميذه ومن خلال أحاديثه مع أصحابه ومواليه في مناسبات شتى. ومن ذلك ما رواه "الكافي" عن أحمد بن محمد وعلي بن محمد جميعاً عن علي بن الحسن التيمي عن محمد بن الخطاب الواسطي عن يونس بن عبد الرحمن عن أحمد بن عمر الحلبي عن حماد والأزدي عن هشام الخفاف، قال: قال لي أبو عبد الله (جعفر الصادق) (ع) : كيف بصرت بالنجوم؟ قال، قلت: ما خلفت بالعراق أبصر بالنجوم مني. فقال: كيف دوران الفلك عندكم؟ قال: فأخذت قلنسوتي عن رأسي فأدرتها. فقال: فإن كان الأمر على ما تقول، فما بال بنات نعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوما من الدهر في القبلة؟

فما الذي جعل الإمام جعفراً الصادق (ع) يكتشف أن الأرض تدور حول نفسها فيتعاقب الليل والنهار بسبب ذلك. سابقاً العلماء جميعاً، ومنذ اثني عشر قرناً؟

في حين أن علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين الذين أشرنا إلى أسماء بعضهم، قد اهتدوا إلى القوانين الميكانيكية للنجوم دون أن يتوصلوا إلى حقيقة دوران الأرض حول نفسها، وفي حين أن الإمام الصادق (ع) يعيش في منطقة بعيدة كل البعد عن عواصم العلوم في روما واليونان، فكيف اكتشف هذه الحقيقة؟

لقد كانت هناك عواصم علمية في عصر الإمام الصادق (ع) هي أنطاكية والقسطنطينية وجنديسابور وبغداد، ولكنها لم تكن قد برزت بعد، ولا وُجد فيها من اكتشف هذه النظرية.

هنا يثور السؤال: هل كان الإمام الصادق (ع) الذي اهتدى إلى هذه الحقيقة العلمية، على علمٍ بقوانين ميكانيكية النجوم، وهل كان يعرف أن

- (وفي "المناقب": لاتدور يوماً من الدهر في القبلة؟) قال، قلت: والله هذا شيء لا أعرفه، ولا سمعت أحداً من أهل الحساب يذكره. فقال لي: كم السكينة من الزهرة جزءاً في ضوئها؟ قال، قلت: هذا والله نجم ما سمعت به ، ولا سمعت أحداً من الناس يذكره. فقال: سبحان الله، أسقطتم نجماً بأسره، فعلى ما تحسبون؟...إلى آخره. ("من الكافي" ج ٨ ص ٣٥١. المناقب "ج٤ ص ٢٦٥) وهنا يسقط الإمام نظرية دوران الشمس حول الأرض لأنها إن صحت، فكيف نهتدي بالجدي ونراه (والجدي نجم في القطب يهتدى به إلى القبلة). وبنات نعش والفرقدان لا تترك مواقعها، وإنما الأرض التي تتحرك حول نفسها ثم تتحرك في دائرة أوسع حول الشمس (المترجم).

هذه الأجرام تدور حول نفسها وحول الشمس وفقاً لقانون الجاذبية بجانبيه الموجب والسالب، الجاذب والطارد، الصادر من القاعدة أو المركز والعائد إليها؟

ولا يُستبعد أبداً أن يكون الإمام العالم جعفر الصادق (ع) الذي اكتشف نظرية دوران الأرض حول نفسها، قد توصل قبل ذلك إلى قانون الجاذبية. فهذا القانون هو أساس تلك النظرية، ومن المنطقي أن يكون اهتداؤه إلى قانون الجاذبية قد هوّن عليه الاهتداء إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها.

الإمام جعفر الصادق (ع)
ونظرية نشأة الكون

أتينا في ما سبق على نظرية الإمام الصادق (ع) بشأن حركة الأرض ودورانها حول نفسها. وربما تراءى للمرء أن يقول: إن الإمام جعفراً الصادق (ع) قد اهتدى إلى هذه النظرية بقوة حدسه أو بمحض الصدفة، إذ كثيراً ما يحدس الإنسان بأمرٍ أو يرجم به، فيصادف حدسه الواقع في ما بعد. ولكن يبقى دائماً سؤال هام هو: لِمّ لَمْ يهتدِ أحد إلى أن الأرض تدور حول نفسها طوال هذه القرون، وكان الصادق (ع) وحده صاحب هذا الكشف؟

وأرجح الآراء أن الإمام جعفراً الصادق (ع) توصل إلى معرفة القوانين الميكانيكية لحركة النجوم من خلال معرفته لحركة الأرض ودورانها، فلولا معرفته بتلك القوانين لما استطاع التوصل إلى هذه النتيجة، فمثل هذه المعرفة

لاتتحصّل مصادفة ولا يحدس بها المرء، وإنما تتحصّل بمعرفة العلة والمعلول، حتى وإنْ لم تذكر العلة التي أفضت إلى المعلول، أي النتيجة.

وللإمام آراء علميّة جريئة في الفيزياء وغيرها من العلوم لاتختلف أبداً عن النظريات العلمية في عصرنا الحديث. ولو قرأ عالم فيزيائي اليوم نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) في موضوع نشأة الكون، في إطار القوانين الكونية لَما وجدها بعيدة، وكل ما قيل في هذا الصدد هو نظريات وآراء تحتمل الصواب والخطأ.

على أن نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) قد تميّزت بكونها انطلقت قبل اثني عشر قرناً ، وأنها مع ذلك تطابق النظريات الفيزيائية الحديثة بشأن نشأة الكون.

أما نظرية الإمام الصادق (ع) الخاصة بنشأة الكون، فلا تختلف عن النظرية العصرية الخاصة بالذرة وأصل الكون. وقد أشار الإمام (ع) إلى وجود قطبين متضادّين، وهو ما يماثل القوّتين الإيجابية والسلبية داخل الذّرة، ومنهما تتألف الذّرة نفسها، وتتولد المادة من الذّرة.

وقد مرّ بنا أن بعض فلاسفة اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد قد طلعوا بآراء حول نشأة الكون وأصل العالم، منهم دميقريطس الذي قال بنظرية شبيهة إلى حدٍّ بعيد بنظرية الذّرة في العصر الحديث. ولا يُستبعد أن يكون الإمام الصادق (ع) قد وقف على نظريات هؤلاء الفلاسفة، وأن نظريته المتعلقة بنشأة الكون قائمة على هذا الأساس.

وليس ثمة ريب في أن الإمام جعفراً الصادق (ع) قد ألمّ بآراء فلاسفة اليونان ونظرياتهم، وأن هذه الآراء والنظريات كانت تنتقل إلى المدينة عن طريق أقباط مصر، تماماً كما انتقل نموذج الكرة الأرضية من مصر إلى المدينة(١٣٣).

ولا يستبعد أبداً أن يكون الإمام الصادق (ع) قد وقف أيضاً على نظريات فلاسفة الإغريق الذين عاشوا قبله بثلاثة عشر قرناً ، وهي النظريات المتعلقة بأصل الكون، إلاّ أن الإمام أضاف إليها ما هدته إليه بديهته الذكية، فأخرج نظرية علمية دقيقة تتفق مع نظرية علماء الفيزياء في هذا القرن، بل إن العلماء المعاصرين لم يضيفوا إليها إضافة جديدة ذات بال.

والنقطة المحورية في نظرية الإمام الصادق (ع) هي موضوع القطبين المتضادين. أما فلاسفة الإغريق من قبله، فلم يتحرّوا هذه النقطة بمثل

---

(١٣٣) القول بأن الإمام جعفراً الصادق (ع) أخذ نظرياته العلمية من مصادر إغريقية، لا يستند إلى دليل تاريخي مقنع، فضلاً عن أن تاريخ الإمام وسيرته يثبتان خلاف ذلك. وعلى سبيل المثال، نورد مناظرة للإمام جعفر الصادق (ع) في مجلس الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، مع طبيب هندي كان يقرأ على المنصور كتب الطب، فأخذ الإمام الصادق (ع) ينصت لقراءته، فلما فرغ، قال: ياأبا عبد الله، أتريد مما معي شيئاً؟ قال :لا ، لأن ما معي خير ممّا معك. قال: ماهو؟ قال: أداوي الحارّ بالبارد، والبارد بالحارّ، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وأردّ الأمر كله إلى الله، وأستعمل ما قاله رسول الله(ص)، وأعلم أن المعدة بيت الأدواء، وأن الحمية هي الدواء، وأعوّد البدن ما اعتاد. قال: وهل الطب إلا هذا؟ قال الصادق (ع): أفتراني عن كتب الطب أخذت؟ قال: نعم. قال: لا والله ما أخذت إلا عن الله سبحانه وتعالى: واستمر الحديث والمناظرة بأسئلة ألقاها الإمام على الطبيب الهندي عجز عن إجابتها. المناقب ج٤ ص ٢٦٠.

ماوضّحها الإمام، واقتصروا على القول بأن في الوجود أضداداً ، وقال بعضهم بأن الشيء يتميز بضده ويعرف به.

وتتجلى بوضوح في نظرية نشأة الكون عند الإمام نظريته الخاصة بالأضداد، بما لا يتضح في نظريات فلاسفة الإغريق القدامى أو فلاسفة الإسكندرية، ناهيك عن أن هؤلاء الفلاسفة قد ساقوا نظرية الأضداد في غير اطمئنان إلى صحتها، وأفسحوا المجال أمام الباحثين في إثباتها أو دحضها، وطبيعي أن النظرية كانت غير مكتملة الدقة، وكانت تحتمل الطعن في سلامتها.

فإذا انتقلنا إلى نظرية الإمام الصادق (ع) ، ألفيناها واضحة العرض والتعليل. فقد جزم بها واستغنى بذلك عن استخدام أي عبارة توحي بمعنى التحفظ أو الاحتياط، فهو قد كان واثقاً من سلامة رأيه ولا يعتوره أدنى شك في صحة نظريته.

وكما سبق القول، فإن الشيعة ترى أن اهتداء الإمام إلى أسرار الكون والنجوم وعلوم الفيزياء والرياضيات وما إليها إنما هو من خصائص الإمامة، أي من مقتضيات العلم اللدني الباطني الذي يهبه الله لأئمته، ولا يكتسبه المرء بالتجربة والاختبار.

أما المؤرخ الباحث عن الحقيقة المجردة، فلابد له من متابعة مجريات الأحداث وتعليلها واستقصاء الأسباب والوصول إلى النتائج، وليس من ديدنه القول باللدنية أو العلم الباطني. وقد عرف المؤرخ وغير المؤرخ أن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان يحصّل العلم بحضوره درس أبيه الباقر، وكان

يشتغل بالتدريس والتعليم، فلا سبيل إذن إلى القول بأن علمه لدني، نالـه دون دراسة أو اجتهاد أو إمعان فكر* .

والعلماء الذين سطّروا تاريخ الإمام الصادق (ع) قد رأوا فيه عالماً فذّاً يأخذ بمنهاج العلماء الأفذاذ، وكانت قدرته الفكرية الألمعية تفوق قدرة جميع معاصريه من العلماء والباحثين، وقد استطاع باستثمار هذه القدرة الإتيان بماتحقق له من نظريات علمية وكشوف لم يسبقه إليها أحد(١٣٤) .

وإن نظرية القطبين المتضادين التي طلع بها الإمام الصادق (ع) قد ظهرت أهميتها في القرن السابع عشر الميلادي، عندما أثبت علم الفيزياء وجود هذين القطبين. والذين عاصروا الإمام ظنوه قائلاً بما قالت به الفلاسفة من قبله من أن الشيء يعرف بضده، ولهذا لم يعوا كلامه، ولا احتفوا به الحفاوة الخليقة به، ولكن ما نعرفه اليوم من علوم الذرّة والكهرباء والإلكترونيات قد قطع بسلامة هذه النظرية، وأكد أن هناك قطبين متضادين

(*) إن حضور الإمام الصادق (ع) درس أبيه الإمام الباقر (ع) دون سواه، واختصاص الإمام الباقر (ع) وحده بإفاضته العلم إلى الإمام الصادق (ع) خير دليل على أن علم الصادق (ع) ليس علماً اكتسابياً لأن الباقر (ع) نفسه لم يأخذ العلم قبل ذلك من الآخرين.

(١٣٤) للمجمع العلمي للدراسات الإسلامية بجامعة استراسبورغ دراسات تاريخية حول الشخصيات الإسلامية تتناول الوجهة التاريخية وحدها بتجرد وموضوعية، بالإضافة إلى أن معظم الباحثين فيه هم من غير المسلمين أو الشيعة، فلا يتنظر منهم أن يعترفوا بالأئمة أو الرسول الأعظم (ص) شأن المسلم. وعندنا أن الإمام فضله الله وكرمه بمنبته الطيب الطاهر، وأخذ العلم عن أبيه وعن جده الرسول (ص) وهو المعلم الأول لهم، وهم أعلم الناس بأقوال الرسول (ص) وسُنته، والعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فهم مواطن العلم وأهله (المترجم).

في المغناطيس وفي الكهرباء وفي نواة الذرّة وفي غير ذلك من ميادين العلوم.

وقد استوفينا القول في علم الإمام الصادق (ع) بالجغرافيا وعلم الهيئة والنجوم، وها نحن نفيض الآن في الحديث عن إسهامه في موضوع نشأة الكون وأصل العالم، وننتقل بعد ذلك إلى دوره في علوم الفيزياء وغيرها من العلوم وسنرى أن الإمام جعفراً (ع) قد تعرض في مباحث الفيزياء لمسائل لم يتعرض لها أحد، لا قبله ولا بعده إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ومن ذلك مثلاً قانون الأجسام الصلبة، فقد صنّف تلك الأجسام إلى أجسام كدرة وأخرى مصقولة شفافة، إذ قال: كل جسم صلب جامد يكون كدراً، وكل جسم جامد دافع يكون لمّاعاً وشفافاً. وقال في الرد على سؤال: ما الذي يجذب؟ إن الحرارة هي التي تجذب.

وقد أصبحت هذه النظرية في يومنا الحاضر قانوناً علميّاً في الكهرباء والفيزياء. أفليس مما يدهش أن يكون القائل بهذه النظرية منتمياً إلى منتصف القرن السابع الميلادي؟ ولعلّنا في يومنا هذا، لو سألنا مئة شخص كيف أن من الأجسام الصلبة ما هو لمّاع وما هو كدر؟ لما استطاع أحد منهم أن يجيء بالجواب الصحيح، أي أن يقول لنا سبب كون الحديد كدراً والبلور أو الألماس لمّاعاً وشفافاً؟

ونعرف في قوانين الفيزياء الحديثة أن كلّ جسم كدر تصدر عنه أمواج وأشعة حرارية، فيكون موصّلاً جيّداً للحرارة وللأمواج الإلكترونية. وإن الأجسام التي لا تنقل الحرارة منها بسهولة، أي غير الموصلة للحرارة

الجاذبة لها أو الناقلة للأمواج الإلكترونية، تعتبر أجساماً عائقة، وتكون شفافة لماعة(١٣٥).

والإمام الصادق (ع) لم يتحدث عن أمواج كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) ، ولكنه تحدّث عن الحرارة، وجاءت أقواله مطابقة لقوانين الفيزياء في يومنا هذا. وبعبارة أخرى، ان الأجسام الكدرة كالحديد تنقل الأمواج الكهرطيسية وتنقل الحرارة وتجذب في حين أن الأجسام التي لا توصل الحرارة أو توصلها ببطء وتحول دون انتقال الأمواج الكهرطيسية تعتبر أجساماً عائقة، وتكون لمّاعة شفافة.

وتقوم نظرية الإمام الصادق (ع) في كدر الأجسام أو صفائها على أساس الجاذبية والقدرة على الشدّ والقبض.

ولما سئل عن سبب كدر الأجسام أو صفائها قال: إن الجسم القابض للحرارة كدر، والأجسام التي لا تمتص الحرارة شفافة على اختلاف مراتبها.

ولا تقل نظرية الجاذبية عند الإمام الصادق (ع) في أهميتها عن نظريته القائلة بوجود قطبين متضادين، وهي تطابق قوانين الفيزياء الحديثة من حيث تعليل أسباب كدر الأجسام الصلبة أو صفائها.

---

(١٣٥) الأمواج الكهرطيسية هي الأمواج التي بواسطتها نسمع أصوات الإذاعة (الراديو) ونرى صور التلفزيون. وتقول المجلات العلمية الأوروبية والأمريكية: إنه إن قدر للبشر ذات يوم أن يتراسلوا ويتحادثوا مع سكان الكواكب الأخرى، فأكبر الاحتمالات أن ذلك سيتم عن طريق الموجات الكهرطيسية (الكهربية المغنطيسية).

ولا ريب في أن العقلية التي اكتشفت الأسباب الكامنة وراء صفاء الأجسام الصلبة أو كدرها منذ اثني عشر قرناً هي عقليّة سبقت جميع معاصريها، وليس من الغلو في شيء القول بأنها عقلية عبقرية فريدة في ميادين العلوم. ولم ينته علم الإمام الصادق (ع) عند هذه النظرية وما سبق له كشفه من نظريات، بل إنّ له في العلوم نظريات أخرى لا تقلّ أهمية عمّا أوردناه.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى ناحية هامة، وهي أن الصادق (ع) يشرح نظرياته شرحاً مُبيناً واضحاً ، و يعرضها عرضاً علمياً سهل الفهم والإدراك، بحيث تستطيع الأذهان تقبله واستيعابه. فالقوانين العلمية التي أتى بها قد ساقها بأسلوب واضح، وصاغها بعبارات لا تحتمل اللبس، إدراكاً منه لحقيقتين، هما أن انتشار العلم رهن بالقدرة على فهمه، وأن قوانين العلوم تبقى الدهر، ولا تنتهي بوفاة واضعيها.

وهذا القول يصدق أيضاً على الحكم والأمثال السائرة، ولابد لسهولة تقبلها من الناس وسريانها على الألسنة من أن تكون سلسة العبارة سهلة المأتى بليغة التعبير. وهكذا تدخل الأمثال إلى المعاجم، وتبقى جزءاً من الثقافة العامة للناس جميعاً ، يستشهدون بها ويتناقلونها.

وللإمام الصادق (ع) حِكَمٌ وكلمات قصار شاعت بين الناس، وتقبلتها أقوال كثيرة قبولاً حسناً بل منهم من رواها دون أن يفطن إلى واضعها ومنشئها.

ومن الحِكَم التي ساقها الإمام الصادق (ع) قوله مثلاً: (الإنسان إذا مرض أو وجع عرف نفسه). ولئن قال الصادق (ع) هذه الحكمة في المدينة، فقد شاعت عند أمم كثيرة في آسيا وإفريقيا وأوروبا ثم أمريكا، ومن سمعها عرف أن قائلها أصاب كبد الحقيقة. وهانحن في عصرنا هذا نرى العالم النفسي الكندي (مارشال ماك لوهان) يعد هذه الحكمة من قوانين علم النفس، فيقول: إن الإنسان لا ينسى نفسه فقط عندما يحل به ألم، إذ أنه كثيراً ما ينسى نفسه ووجوده في غياب الألم وتوافر الصحة.

ومما ساعد على انتشار هذه الحكمة الجعفرية في العالم وحمل الأقوام على تقبلها، أنها حكمة صحيحة وسهلة الفهم في آن واحد. وفي وسع كلٍّ منا أن يتحقق من صدقها، فيعرف أن الإنسان لا ينسى نفسه أو ينسى أنه حي إذا ما أصابه ألم أو مرض.

فمهما تكن قدرة الإنسان على الصبر والتحمل، فلا يسعه في حالة المرض أن ينسى نفسه، لأن الألم يشعره طول الوقت بأنه حي، ويصدق هذا أيضاً في حالة إصابة الإنسان بألم روحي يزيد من شعوره بأنه حي يتأمل.

الإمام جعفر الصّادق «ع» والمعارف الجعفريّة الشّيعيّة

أسدى الإمام جعفر الصادق (ع) خدمةً للشيعة من ناحيتين، أولاهما أنه اهتم بتعليم أتباعه اهتماماً كبيراً، ولم يقتصر على العلوم القرآنية، بل أضاف إليها علوماً زمنية مثل الرياضيات والفيزياء والجغرافيا والنجوم والهيئة والتاريخ والحكمة. وتخرّج على يديه ومن مدرسته عدد غير قليل من أفذاذ العلماء. ومن هنا يصح القول بأن الإمام جعفراً الصادق (ع) بنى الثقافة الشيعية وأوضح معالمها.

وبفضل المعارف الشيعية أو الجعفرية ساد المذهب الشيعي وعاش، وهذه بديهية، لأن الثقافة هي أساس المجتمعات البشرية وسرّ بقائها واستمرارها، والمجتمع اليوناني بقي إلى يومنا هذا لأنه كان ذا ثقافةٍ رصينة منذ القديم، في حين أن أقواماً كثيرة اختفت ولم تترك أثراً يُذكر لافتقارها إلى ثقافةٍ متينة أصيلة.

ولم تُتح للأئمة قبل الإمام الصادق (ع) أن يؤسسوا مدرسةً علمية كمدرسته، وذلك لأسباب شتى، أهمها الضغوط السياسية من جانب الخلفاء والسلطة الحاكمة واسترابة السلطة في تحركاتهم وأنشطتهم.

أما الصادق (ع) فقد كان يعرف أن الشيعة تحتاج إلى مدرسة علمية قوية تكفل لها الصمود أمام التيارات المنحرفة، وتجعلها بمنأى عن التأثر بوفاة هذا أو مجيء ذاك. ومنذ اليوم الأول لقيام الصادق (ع) بالتدريس، وضع لنفسه أهدافاً معينة يتوخاها، أهمها تأسيس مدرسة علمية وإقامة ثقافة شيعية رصينة تتمثل في "المعارف الجعفرية"، لثقته من أن بقاء الشيعة رهن بما يتوافر لها من علم وثقافة.

وهذا يدل على أن الإمام جعفراً الصادق (ع) لم يكن عبقرياً في العلم وحده، بل كان أيضاً عبقرياً في السياسة، وكان يدرك أن إيجاد مدرسة علمية شيعية من شأنه الحفاظ على الكيان الشيعي أكثر من أي قوة عسكرية. فالقوة العسكرية وإن عزَّت عُرضة لأن تدمرها قوة أكبر منها، أما المدرسة العلمية التي تنشر الثقافة المتعمقة فتبقى ما بقي الدهر وكان يرى أن من تمام الصواب الإسراع بإنشاء هذه المدرسة لمواجهة الإنحرافات المذهبية والتيارات الفكرية غير الإسلامية التي بدأت منذ عصر الإمام تهدد العالم الإسلامي وتهزه هزاً. ولئن كانت الشيعة فقدت المنهل الرئيسي لاغتراف المعارف بعد الإمام الثاني عشر، فقد بقيت تواصل حياتها الثقافية دون أن تكون لها مراكز دينية يُشرف عليها عالم ديني، كما هو الشأن في كنائس الغرب. وإنما الفضل في هذا راجع إلى مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) العلمية، والإشعاع الفكري الذي تركته لدى الشيعة.

واليوم، وقد انقضى نحو ثلاثة عشر قرناً على عصر الإمام الصادق (ع)،لم تعد للشيعة أجهزة نظامية دينية تُشرف على التعليم والأنشطة الدينية ، شأن

الكنيسة الكاثوليكية مثلاً* ، ولكنها مع ذلك استطاعت بفضل مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) أن تطاول الدهر وتنهض بنشاط علمي ملموس، ولها من الآثار العلمية ما يكفل لها البقاء دهراً طويلاً.

صحيح أن العلماء الذين جاؤوا بعد الإمام الصادق (ع) اضطلعوا بدورٍ كبير في توسيع المعارف الجعفرية ونشرها، بما صنّفوه من أبحاثٍ ودراسات ومؤلفات نفيسة، ولكن الفضل في تأسيس هذه المدرسة وإرساء قواعدها ومعالمها يرجع دائماً إلى الإمام الصادق (ع) الذي حثّ الشيعة على الاغتراف من المعارف والثقافة الشيعية، وأمرهم بنشر هذه الثقافة وإذاعتها قائلاً لهم: إن لم تكونوا حملةَ العلم وناشريه بين الناس، فكونوا حفظةً له.

وفي الوسع القول بأن الاهتمام بالمذهب الديني أمر مألوف عند جميع رجال الدين من مختلف الديانات والمذاهب، ولا يقتصر على الشيعة وحدهم، ولكن هناك فارقاً جوهرياً بين هؤلاء وأولئك، فرجال الدين الآخرون ينصبُّ اهتمامهم على حفظ الأصول والسنن المذهبية وصونها، في حين أن الشيعة يهتمون بتوسيع ثقافة المذهب.

وبعد ألف وخمسمئة سنة من إنشاء أول دير أرثوذكسي في جبل آتوس اليوناني، مازال الرهبان يرددون نفس الأناشيد والتراتيل الدينية ويقومون بنفس الطقوس عند العبادة، دون أن يطرأ عليها أدنى تغيير طوال هذه السنوات الألف والخمسمئة.

(*) وذلك صحيح بالرغم من وجود دولة شيعية تعتمد الإسلام والتشيع نظام إدارة ومنهج تنظيم.

يقابل هذا أن الثقافة والمعارف الجعفرية ما انفكت في نشاط متصل وتوسع مستمر، حتى وإن مرت بالتاريخ الشيعي فترات كساد عارضة كانت لا تلبث أن تزول، وتعود هذه المعارف إلى النشاط بسرعة أكبر، وتاريخ هذا المذهب يشهد لعلماء الشيعة العظام بأنهم اجتهدوا بمؤلفاتهم وأبحاثهم النفيسة في أن يثروا المعارف والثقافة الشيعية* .

وقد عرفت الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكية عصوراً ذهبية في القرن الثاني الميلادي، إلاّ أنها أصيبت بعد ذلك وإلى يومنا الحاضر، أي قرابة ألف وثمانمئة عام، بجمود في ثقافتها وافتقار إلى إمارات التحديد فيها، مع أن هذا المذهب من أقدم المذاهب المسيحية ومن أكثرها أصالة.

فلِمَ اختلفت الكنيسة الأرثوذكسية اليوم عمّا كانت عليه قبل ألف وثمانمئة عام في أنطاكية؟

لقد عقد أساقفة الأرثوذكس المرة بعد المرة مؤتمرات عالمية لتبادل الرأي في أمور الكنيسة شهدها أساقفة من جميع أنحاء العالم، ومع ذلك لم يخرج أي مؤتمر منها بقوانين جديدة أو أنظمةٍ حديثة تُثري هذا المذهب.

أما عن الكاثوليك، فقد قال الباحث الفرنسي الشهير دانييل روبز(١٣٦) صاحب كتابي (يسوع في عصره) و (تاريخ كنيسة المسيح)، إن الثقافة

(*) والثقافة عامة .

(١٣٦) دانييل روبز (Daniel Rops) ١٩٠١ – ١٩٦٥ م أديب فرنسي، اسمه الحقيقي هنري بينو. كتب في القصة، ثم انصرف إلى تأليف الكتب التاريخية والدينية ومن أشهرها: "يسوع في عصره" الذي صدر عام ١٩٤٥ و "تاريخ كنيسة المسيح".

الكاثوليكية ظلت طوال ألف سنة في ركود شامل، ولم يُضف إليها أي جديد، واقتصر قساوستها على حفظ الشعائر والإبقاء على التقاليد المتواترة.

وقد تحقق هذا الباحث من أن الثقافة الدينية للكاثوليك في القرن السادس عشر كانت هي نفس ثقافتهم الدينية في القرن السادس الميلادي، وهي فترة طويلة ظهر فيها رهبان وراهبات وقسيسون عظام سجل التاريخ لنا أسماءهم وسيرهم، ولكن أحداً منهم لم يضف إلى الثقافة الكاثوليكية شيئاً يُذكر. في حين أن عصر النهضة (الرينسانس) كان عصراً لنهضة العلوم والثقافة والفنون في أوروبا، كما كان عصر نهضة للكنيسة الكاثوليكية التي ظهر فيها رجال عظام صنّفوا الكتب ووضعوا البحوث فاغتنت الثقافة الكاثوليكية، وحرصت على نشرها وإذاعتها على نطاق واسع.

ولم يقتصر دور التأليف على رجال الدين وحدهم، بل اضطلع بالتأليف الديني أساتذة وباحثون آخرون تناولوا المذهب الكاثوليكي بالدراسة والشرح، ومنهم دانييل روبز الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو باحث ومؤرخ فرنسي من غير رجال الدين أو القساوسة، وقد ألّف طائفةً من الكتب حول تاريخ المسيح والمسيحية وعمل جاهداً على نشر الثقافة الكاثوليكية.

وقلَّ أن تجد بيتاً في أوروبا اللاتينية (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا) دون أن تجد فيه ولو كتاباً واحداً لروبز مترجماً إلى لغة هذه الدولة الأوروبية أو تلك.

ومن أولئك الباحثين أيضاً الفيلسوف الفرنسي المعروف (أرنست رينان)(١٣٧) الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي، وألّف كتابه الشهير عن حياة المسيح الذي يعد من أهم الكتب الدينية في العالم الكاثوليكي، وهو بدوره لم يكن من رجال الدين أو القساوسة، كما أن تفكيره الفلسفي أفقده عطف قساوسة الكاثوليك، ومع ذلك، يعتبر كتابه هذا مساهمة جليلة في نشر المذهب الكاثوليكي.

وجدير بالذكر أن الكنائس التي كانت تابعة للمذهبين الأرثوذكسي والكاثوليكي كانت تتمتع بثروة طائلة منذ القديم. وبمضي الوقت، تناقصت ثروة الكنيسة الأرثوذكسية، بينما تعاظمت ثروة الكنيسة الكاثوليكية حتى أصبحت اليوم من أغنى الأنظمة الدينية العالمية. ويقال إن ثروة الكنيسة الكاثوليكية، وعاصمتها "الفاتيكان" في روما تقدّر اليوم بمئة ألف مليون دولار، وهو رقم تتواضع أمامه رؤوس أموال كثير من المؤسسات الاقتصادية والبنوك العالمية.

ومع أنّ هذه الثروة المتعاظمة كانت رهن الكنيسة الكاثوليكية منذ عصور خلت، إلاّ أنها لم تستخدمها هي والإمكانيات المادية الضخمة المتوافرة لديها في النهوض بنشر المعارف الكاثوليكية طوال ألف سنة.

---

(١٣٧) أرنست رينان (Renan) ١٨٢٣ – ١٨٩٢ فيلسوف وعالم آثار فرنسي عمل في التنقيب عن الآثار في لبنان وفلسطين. أهم كتبه "حياة يسوع" وله نظريات هامة في الأنثروبولوجيا والتاريخ الطبيعي وفلسفة التاريخ.

أما الشيعة، فلئنْ لم يكن لديهم مركزٌ ديني رئيسي أو تنظيم سياسي اجتماعي يساعد على نشر المعارف الشيعية، فقد اضطلع علماؤهم وباحثوهم مع جزء يسير أو حتى دون إمكانيات مادية بدور كبير في نشر هذه المعارف، باستثناء فترات الاضطراب السياسي، ولابد من التوضيح هنا بأن رجال الدين في المذاهب المختلفة لم يكونوا في ما مضى ناشطين واحداً واحداً في نشر الثقافة الدينية وإذاعتها، وإنما نشط البعض وقعد البعض الآخر.

أما في القرن العشرين الحالي، فنحن تلقاء نشاط ملموس لدى مختلف الأديان والمذاهب للدعاية والنشر، وإن كان المذهبان المسيحيان الرئيسيان، وهما الأرثوذكسي والكاثوليكي قد قعدا في الماضي عن دعم الثقافة المسيحية ونشرها، إن تشجيع النشاط الفكري الديني قد يفتح الباب أمام دخول البدعة إلى المذهب.

ثم إن التزام زعماء المذهب الكاثوليكي بسياسة التحفّظ في نشر الثقافة الدينية أو الامتناع الباتّ عن نشرها على مدى ألف عام، أصبح أساساً مذهبياً عندهم يستحيل التخلّص منه.

وإذا كان عصر النهضة الكاثوليكي قد بدأ منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، فإن نهضة الشيعة قد بدأت بعصر الإمام جعفر الصادق (ع) في القرن السابع الميلادي (الثاني الهجري)، إذ إن الإمام (ع) أيقظ في مفكري الشيعة روح الاهتمام بنشر المعارف بعامة والجعفرية بخاصة، كل

حسب طاقته الفكرية وقدراته العلمية، ثقةً منه بأنّ الضمان الوحيد لبقاء الشيعة هو انتشار معارفها.

ومعروف أن الشيعة في عصر الإمام جعفر الصادق (ع) لم تكن تستند إلى قوة مادية أو نفوذ سياسي يكفلان لها البقاء.

فلم يكن المجتمع الشيعي في شبه الجزيرة العربية يخرج في اهتمامه عن الأسرة أو المجتمعات الصغيرة التي ينتمي إليها، وهي مجتمعات ليس لها من التنظيم السياسي أو النفوذ الأدبي ما يستطيع بها مواجهة الحكم الأموي.

وكان من رأي الإمام أنه ما لم تتوافر للشيعة قوّة سياسية وسلطة مقيمة كافية، فلن تستطيع أن تحقق لنفسها موقعاً سياسياً ممتازاً، وارتأى أن أفضل طريق تسلكه هو نشر الثقافة وعلوم أهل البيت النبوي (ع)، وتمكين الناس من الاغتراف من هذا المنبع والارتواء منه، فسبق الصادق (ع) بذلك علماء الديانات الأخرى الذين قعدوا عن إنشاء مراكز ثقافية أو فكرية لها ولم يحفلوا بنشر ثقافتهم الدينية أو دعمها.

صحيح أن الإمام جعفراً الصادق (ع) لم يؤسس للشيعة بابوية دينية كالكنيسة، فمثل هذا التنظيم كان بعيداً عن تفكير العرب في تلك الفترة ولكنّه أرسى أسساً أكاديمية* علمية عجزت المسيحية طوال القرون وعبر أجهزتها وتنظيماتها العظيمة عن أن تصنع مثلها.

(*) الأكاديمية لفظة تعني منهجاً تعليمياً منتظماً - كما هو الحال في الدراسة الجامعية - وقد أخذت اللفظة من أصل يوناني نسبة إلى الأكاديمية Académic مدرسة فلسفية أسسها أفلاطون في بساتين أكاديمس بالقرب من أثينا، وكان تلامذته يواصلون البحث والتدريس في هذه المدرسة التي

فضلاً عن أن المسيحية بمذهبها الأرثوذكسي والكـاثوليكي قـد نقلـت التنظيم الكنسي عن الأنظمة الرومانية القديمة.

أما التنظيم الثقافي الذي أبدعه الإمام الصـادق (ع) ، فقـد كـان بحـق أكاديمية للبحث العلمي الحر، ولاسيما في الأمور الفكرية، كما ولا بـد مـن التأكيد هنا بأن حرية البحث والفكر في مدرسة الإمام الصادق (ع) لم تتوافر في أي مدرسة دينية سواها.

- ظلت من سنة ٣٨٧ ق.م إلى سنة ٥٩٢ ميلادية – أي طوال ٩٧٩ سنة – مدرسة علمية نشطة. فلما جاء جستينيان امبراطور بيزنطة (رومية الصغرى) احتل اليونان وعطل هـذه المدرسـة، "والامبراطور جستنيان هو الذي أسس كنيسة أياصوفيا وهو الذي جمع القوانين المدنية ودونها فاشتهرت باسـمه، وقد نقل الفقيه المصري الدكتور عبد العزيز فهمي باشا "مدونة جستينيان" إلى اللغة العربيـة بتكليـف من الدكتور طه حسين" ومنذ ذلك الحين، صار اسم الأكاديمية يطلـق علـى بعـض المجـامع العلميـة والمعاهد الأدبية، ومنه الأكاديمية الفرنسية التي أسسها ريشيليو فـي عـام ١٦٣٥ م وعهـد إليهـا فـي وضع قاموس للغة الفرنسية، ومنها الأكاديميـة البريطانيـة فـي لنـدن المعنيـة بتشـجيع دراسـة التـاريخ والفلسفة. (المترجم).



مكانة حرّية الرأي في مدرسة الإمام جعفر الصّادق «ع»

تميّزت مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) على المذاهب الأخرى في عصره بحرية الرأي والبحث فكان ذلك من أهم أسباب انتشار المعارف الجعفرية وذيوعها.

وقد رأينا في ما تقدم أن المذهب الكاثوليكي بقي طوال ألف سنة في حالة من الركود والافتقار إلى النشاط الفكري، وأن المذهب الأرثوذكسي لا يختلف اليوم عما كان عليه في القرن الثاني الميلادي في أنطاكية.

ولكن الإمام جعفراً الصادق (ع) أرسى للثقافة والمعارف الشيعية* أساساً هيأ لها أسباب الذيوع والانتشار قبل نهاية القرن الثاني الهجري، بل لقد أصبحت هذه الثقافة نموذجاً لحرية الرأي والبحث، فافتقدت الفرق الإسلامية الأخرى بالشيعة في المباحث الكلامية والعلمية.

ويتوهم البعض بأن حرية البحث عند الشيعة مقتبسة من مدرسة الإسكندرية، في حين أن الواقع يختلف عن ذلك، ففي مدرسة الإسكندرية التي امتد نشاطها إلى القرن السابع الميلادي، وانهارت عند غزو العرب لهذه المدينة، كانت حرية البحث تقتصر على المباحث الفلسفية دون

(*) وبالتالي المعارف العامة.

سواها، ولا تتعرض للمسائل الدينية، وأحياناً لمسائل علوم الفلك والفيزياء والطب والصيدلة.

وكانت أمور الدنيا محظورة فيها حظراً باتاً ، صحيح أن بعض علماء مدرسة الإسكندرية كانوا من اليهود أو من المسيحيين ، ولكنهم كانوا مُعرِضين عن تناول المسائل الدينية في مباحثهم الفلسفية والعلمية، ومن هنا صارت مدرسة الإسكندرية مدرسة علمانية مجردة.

ولسنا في حاجة إلى سرد تاريخ مدرسة الإسكندرية، فالمعروف أن النشاط العلمي في الإسكندرية بدأ مع تأسيس مكتبتها الشهيرة على يدي بطليموس الأول ملك مصر الذي توفي سنة ٢٥٨ قبل الميلاد وهو رأس أسرة ملوك البطالسة الذين حكموا مصر قرابة قرنين ونصف قرن، وهؤلاء على الرغم من أنهم من أصل يوناني، وكانوا يعبدون آلهة اليونان فإنهم لم يحاولوا حمل مدرسة الإسكندرية على قبول عقيدتهم الدينية وهم ملوك مصر.

وكان بيرون[١٣٨] من أوائل علماء مدرسة الإسكندرية وفلاسفتها الذين اشتهروا باسم (الشكاكين) . ولئن لم يُقم في الإسكندرية طوال الوقت، إلا أنه يُعدُّ من فلاسفة هذه المدرسة ومن الآراء التي ذهب إليها قوله إنه ليست في العالم حقيقة مجردة، لأنه ما من نظرية علمية إلاّ جاءت نظرية غيرها تفندها وتدحضها.

---

(١٣٨) بيرون (Pyrhon) (٣٦٠ – ٢٧٠ ق.م) هو رأس الشكاكين من فلاسفة اليونان، وقد أنكر على الإنسان قدرته على معرفة الحقيقة لكثرة اختلاف البشر حولها.

ويقال إن حالة الشك والتردد التي اعترت بيرون لم تكن وليدة مدرسة الإسكندرية، وإنما كان سببها أن لديه استعداداً نفسياً لذلك، ثـم إن حرية البحث والـرأي فـي مدرسـة الإسـكندرية شـجعته على انتهـاج هـذا السـبيل والمجـاهرة برأيـه فـي إنكـار الحقيقـة. ولـو أن البطالسـة أثّـروا فـي مدرسـة الإسكندرية تأثيراً دينياً أو كان لهم فيها نفوذ ديني، لما جرؤ بيرون وأنصاره على المجاهرة بمثل هذه النظرية، لاسيما والبطالسة كانوا يؤمنـون بـأن آلهـة اليونان حقيقة لاتقبل الشك. وأياً كان الأمر، فهذا بحث لا نريد التوسع فيـه، وحسبنا أننا أثبتنا أن مدرسة الإسكندرية كانت مدرسة علمانية.

أما حرية البحث في أمور الدين، فقد بدأت في الإسـلام بعصـر الإمـام جعفر الصادق (ع) وبعد انتشار المذهب الجعفري.

وكانت المدرسة الجعفرية تتناول المسائل الدينية جنباً إلى جنب مـع المسائل العلمية (الدنيويـة)، ومـع الوقـت، أصبـح علمـاء الجعفريـة يناقشـون المسائل الدينية والفكرية ويثبتونها بقوانين العلم ومبادئه.

وانتقلت هذه الطريقة في ما بعد من المذهب الجعفري إلى المذاهـب الأخرى التي اجتهدت في إثبات قضاياها بالدلائل العلمية.

ومعروف أن الأديان السماوية كالإسلام والمسيحية واليهودية لم تكـن في بادىء الأمر تعلن مبادئها وتحاول إثباتها بالدلائل العلمية والنواميس الثابتة وحتى اليوم وبعد انقضاء أربعة عشر قرناً علـى الإسـلام وعشـرين قرنـاً علـى المسيحية وثلاثين قرناً علـى اليهوديـة فإن كثيرين مـن أتبـاع هـذه الأديـان

يعتقدون بأن الدين لا يحتاج إلى براهين علمية لإثباته، لأن الدين يرتبط بالإنسان عن طريق القلب والعواطف، لا عن طريق الاستدلال العلمي.

وتتفق هذه النظرة مع نظرة الآباء الأرثوذكس، كما أن كثيراً من الآباء الكاثوليك يؤيدون الرأي القائل بفصل الدين عن العلم، وليس معنى هذا عندهم أن الدين ليس نظرية يمكن إقامة الحجج عليها بالعلم، ولكن معناه أن الأحكام والمبادىء الدينية تظل محتفظة بصحتها وقدسيتها حتى ولو برهنت عليها الأدلة العلمية، فجوهر المسيحية هو المحبة والنقاء، ولا حاجة إلى العقل أو المنطق للبرهنة على هذين الأمرين.

وهذا يعلل لنا سبب عزوف المدارس الدينية المسيحية التي تسمى "بالسيمنار" عن تدريس العلوم على مدى قرون طويلة، تسليماً منها بأن الدين شيء والعلم شيء آخر.

ودرجت المدارس الدينية في العصور الوسطى على تدريس الشريعة المسيحية ـ أو القانون (كانون)[139] – إلى جانب المواد الدينية التقليدية، وهو عُرف ما زال مُتّبعاً في المدارس الكاثوليكية. أما علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والهندسة والميكانيكا والطب والصيدلة، فكانت غريبة عن المدارس الدينية المسيحية، وظلت مجهولة منها طوال العصور الوسطى.

وكانت الفلسفة محظورة لشدة خطورتها – في رأي هذه المدارس – على العقيدة الدينية. وقد سبق الإمام جعفر الصادق (ع) جميع المدارس

---

(١٣٩) "كانون" لفظة يونانية معناها الناموس أو الدستور. و "القانون الكنسي" هو مجموعة الشرائع الكنسية.

الدينية عندما قرر، ولأول مرة في تاريخ الأديان والأمـم تدريس هـذه العلـوم جميعـاً، إضافـة إلـى الفلسـفة، جنبـاً إلـى جنـب مـع العلـوم القرآنيـة والفقـه الإسلامي.

وقد تولى الإمام الصادق (ع) بنفسه تدريس هذه العلـوم، ولـم يسـتبعد منها الفلسفة أو الحكمة أو العرفان، لأن هذه العلوم كـانت تمثـل المبـادىء والمجادلات التي يستعان بها في إثبـات حقيقـة اللـه والكـون، وهـي علـوم كانت قد وصلت فعلاً إلى المدينة.

ولكن هذا كله حدث قبل ابتداء حركة الترجمة والنقل، وقبل أن تنقـل كتب اليونان من السريانية إلى العربية، ولا يستبعد أن تكون فلسفة اليونان قد انتقلت إلى المدينة عن طريق أقباط مصر من تلامـذة مدرسـة الإسـكندرية أو من المعجبيـن بهـا وبـالبحث الحـر، وقـد خصصنـا هنـا المعجبيـن بمدرسـة الإسكندرية، لأن رجال الدين الأقباط عموماً لم يولوا الفلسفة اهتمامـاً كبـيراً لانتمائهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية التي تعد الفلسفة شديدة الضرر.

وأياً كان الأمر، فقد نهض هؤلاء الأقباط بدور هـام فـي نقـل الفلسـفة وبعض العلوم الأخرى إلى المدينة. ولانعرف في تاريخ العلوم في الإسلام مَنْ تناول الفلسفة قبل الإمام جعفر الصادق (ع)، وإن كانت الشيعة اهتمت في ما بعد بالفلسفة والمنطق، وأدخلتهما ضمن دروس المدرسة الشـيعية، ومنهـا انتقلت هذه العلوم إلى المذاهب الأخرى.

وقد ابتدأ الإمام جعفر الصادق (ع) بتدريس مبادىء الفلسفة أو أسلوب الاستدلال والجدل المنطقي، وكانت مباحث الفلسفة في مدرسته تتناول في بادىء الأمر آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو ونظريتهم.

ومنذ أن أرسى الإمام الصادق (ع) مبادىء الفلسفة في مدرسته وقام بنفسه بتعليمها، فإن هذه المبادىء تُعد من الدروس التقليدية في المدرسة الشيعية، وهكذا أصبحت الفلسفة باباً متميزاً من تراث الشيعة وثقافتهم، وهي تنفرد به عن سائر الفرق والمذاهب الإسلامية، وتضيف إليه (العرفان) الذي تحدثنا عنه في ما مرّ من كلام.

وقد عرفنا أن (العرفان) انحدر في بادىء الأمر من الشرق ومن الإسكندرية أيضاً ، ولكن الإمام الصادق (ع) استطاع أن يخرج من هاتين المدرستين بنظرية عرفانية تتفق مع أصول الإسلام ومبادىء الفكر الشيعي، وكما سبق القول، فالعرفان الجعفري له شخصيته المستقلة عن عرفان المتصوفة في الشرق أو في الإسكندرية، فهو يقول بأن أمور الحياة الدنيا ينبغي أن ينصرف إليها من الاهتمام ما لايقل عن الاهتمام المنصرف إلى أمور الأخلاق وتزكية النفس(+) . وصفوة رأيه في هذا الصدد أن الدنيا مزرعة الآخرة، ومن حق من زرعها أن يجني ثمارها، ولن يجني المرء إلاّ ما زرعت يداه، فمن التزم بدينه وزكى نفسه وخلقه، فلا خوف عليه في العالم الثاني.

(+) وفي ذلك الآية الكريمة ﴿وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

ولا محل أيضاً في عرفان الإمام الصادق (ع) للمغالاة التي تجد مثلها عند العرفاء أو المتصوفة الآخرين، ولا محل أيضاً للقول بوحدة الخالق والمخلوق.

والحق أن مجلس الإمام الصادق (ع) ومدرسته كانا يمثلان منبراً حراً لتلامذته ومريديه، لهم أن يسألوا، ولهم أن يعترضوا، ولهم أن يعبّروا عن آرائهم وإحساساتهم بحرية تامة، كما أن من حقهم أن ينتقدوا آراء أساتذتهم، ولم يكن الإمام يفرض على تلامذته رأياً معيناً، ولا كان يطلب منهم الإذعان لرأيه، ومع ذلك، فقد كان الأمر ينتهي دائماً بإذعانهم، بالنظر إلى الأسلوب العلمي الذي كان الإمام يتوسل به للتدليل على رأيه بالحجة الناصعة والمنطق السليم والبيان الرائق.

وكان المترددون على دروس الإمام الصادق (ع) يعرفون أن الإمام لن ينفعهم مادياً، بل لعل غشيان مجلسه يعرضهم لتهديدات السلطة الأموية خارج المدينة في أيام الأمويين. فإن عُرف عن أحدٍ ولاؤه للإمام الصادق (ع)، لم يأمن على حياته من أعوان الخليفة، ذلك بأن الخليفة كان يعتبر الإمام وأنصاره من خصوم الخلافة، ومع أنه كان يعلم جيد العلم بأن الشيعة وأنصار الإمام لا يملكون من القوة ما يستطيعون به مقارعة حكمه، فقد كان يعدّهم خصوماً ألدّاء له(١٤٠) .

---

(١٤٠) مما يؤيد رأي المؤلف ما رواه ابن شهر آشوب في "المناقب" عن "الترغيب والترهيب" عن أبي القاسم الأصفهاني أنه دخل عليه (أي على الإمام جعفر الصادق (ع)) سفيان الثوري فقال (ع) : أنت رجل مطلوب، وللسلطان علينا عيون، فاخرج عنا غير مطرود. (ج٤ ص ٢٤٨ المناقب) ومع ذلك كله توافد الناس من كل جانب بحيث يقول: ينقل عنه من العلوم ما لاينقل عن أحد، وقد جمع

وهكذا كانت المخاطر تحيط بمدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) والمترددين عليها، وكان طلاب المدرسة يعلمون علم اليقين بأن الإمام لا يملك مالاً أو مناصب فيوزعها عليهم، فلم يجتذبهم إلى مدرسته، برغم هذه المخاطر وبرغم انعدام المنفعة المادية إلاّ إخلاص مستقر في النفس، وإيمان عميق في القلوب، وانجذاب لشخصية الإمام (ع)، وإعجاب بدروسه التي يلقيها ببيانه العذب ويستهدف بها الحقائق وجوهر المعرفة.

وكان الإمام الصادق (ع) يؤمن بما يقول، ويأخذ بالواقع لا بالمثاليات، ولهذا لم يتوسل أبداً في دروسه بأسلوب "اليوتوبيا"(١٤١) الذي

- أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، وكانوا أربعة آلاف رجل (ج٤ ص ٢٤٧ المناقب) وهذا عدد من اجتمع عليه لأخذ العلم في مدينة صغيرة من حواضر العالم الإسلامي في ذلك العصر.

وأورد أبو نعيم في "الحلية" أسماء أعلام الأئمة الذين أخذوا عن الصادق (ع) فقال: حدث عنه من الأئمة والأعلام: مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وابن جريج، وعبد الله بن عمرو، وروح بن المختار، ووهب بن خالد، وإبراهيم بن الطحان، ونقل عنه مسلم في صحيحه محتجاً بحديثه، وروى عنه مالك والشافعي والحسن بن صالح وأبو أيوب السجستاني وعمرو بن دينار وأحمد بن حنبل.

(١٤١) اليوتوبيا لفظة يونانية مركبة من مقطعين هما "يو" بمعنى "لا" و "توبوس" بمعنى "مكان". أي "اللامكان" وقد أطلق هذا الاسم على بلد خيالي نظام الحكم فيه مثالي. وقد جاء الفيلسوف الانجليزي توماس مور، الوزير الأول لهنري الثامن ملك بريطانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وأخرج كتاباً عنوانه "اليوتوبيا" صور فيه مجتمعاً مثالياً يعيش جميع أفراده على مستوى واحد من حيث الإمكانيات المادية والحياة المرفهة.

ومن المفارقات العجيبة أن توماس مور هذا حُكم عليه بالإعدام في بريطانيا العظمى وهو في الخامسة والتسعين من عمره، وفصل رأسه عن جسمه في سنة ١٥٣٥ م*.

سيطر على تفكير المجتمع الأوروبي منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، ومن هنا انتفت من دروس الإمام الصادق (ع) أي دعوة إلى قيام حكومة مثالية لا تتفق مع واقع الحياة في المجتمع البشري.

وإذا كان بعض من الطلاب الذين أخذوا العلم عن الإمام محمد الباقر(ع) طمعوا في الظفر ببعض الوظائف كمناصب القضاء في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي كان يسمح بتعيينهم، فإن المترددين على مدرسة الإمام الصادق (ع) لم يداعبهم الأمل في الحصول على مثل هذه الوظائف، ولا على أي نفوذ سياسي، وإنما كانوا يغشون مجلسه للاغتراف من علمه فحسب.

وقد قلنا قبلاً أن مدرسة الإمام الصادق (ع) كانت متمتعة بحرية البحث أسوة بمدرسة الإسكندرية، ولكن هناك بوناً شاسعاً بين المدرستين في هذا الأمر. ففي حين أن مدرسة الإسكندرية أوصدت الباب دون مناقشة المسائل الدينية كما ذكرنا آنفاً، أباح الإمام الصادق (ع) في مدرسته حرية البحث في جميع الموضوعات، ومنها الدينية ، ولم يكن ثمة حرج في أن ينتقد الطالب آراء أستاذه، أو أن يطرح عليه الأسئلة في ما يعن له.

- ويوتوبيا كذلك ترجمة لكلمة "طوبى" الواردة مراراً في القرآن الكريم، وقد انتشر اليوم مصطلح "الطوباوية" بمعنى "المثالية" أو "الخيالية" أو (غير الواقعية) أما لفظة (لامكان) فهي مستعملة في العرفان والأدب الفارسيين بمعنى (المكان المجرد) أو (حيث لا حدود) وكثيراً ما تعني أن التجرد من كلِ العلائق في طريق السير إلى الله يلزمه تجرد الإنسان من فكرة المكان، فالله لا يحده مكان ولا يحيط به مكان وليس في مكان دون مكان.

وقد اغتذت الثقافة الشيعية من هـذه الحرية التي هيأت لهـذه الثقافـة أسباب الذيوع والانتشار الواسعين، وأقبل عليها الراغبـون فـي حرية البحـث والاستدلال، كما أقبـل عليهـا الموالـون للشيعة مدفوعين إلـى ذلـك برغبـة باطنية.

ومن يتصفح التاريخ قبل قيام الدولة الصفويـة، يلاحـظ أن الحكومـات الشيعية التـي قـامت فـي البـلاد الشرقية كـانت معـدودة، وأشـهرها حكومـة البويهيين، كما يلاحظ أن هذه الدول لـم تتوسـل بـالقوة أو النفـوذ السياسـي لنشر المذهب الشـيعي، وإنمـا اقتصـرت علـى التمسـك بالتقـاليد والأعـراف والمبـادىء الشـيعية، وفـي مقدمتهـا الاحتفـالات الدينيـة فـي أيـام التعزيـــة ، وبصورة خاصة يوم عاشوراء عام ٦١ للهجرة الذي استشهد فيه الإمام الحسين بـن علي (ع) في كربلاء، ولـم يكتب لدولـة شيعية أن تستقر طويـلاً فـي بـلاد الشرق بعد البويهيين، باستثناء دولة الفاطميين فـي غـرب العـالم الإسـلامي، إلى أن قـامت الدولـة الصفويـة في القـرن العاشـر الهجـري (١٥٠٢ - ١٧٣٦م).

ومع ذلك ، أخذ التشيّع ينتشر في ربوع الشرق بثقافته العلمية المنطقية المبسطة، بإصرار وثبات في مقاومـة التيـار الحكومـي المعـادي لـه، وإن لـم ينجح في إنشاء مركز سياسـي أو نظـام حكومـي يسـتند إليـه، أي أنـه نجـح بالفكر لا بالسلطان، وبالروح لابالقدرة المادية.

وفي التاريخ أقوام وطوائف أخرى عاشـت دون أن تكـون لهـا دول أو حكومات، ولكنها استندت إلى مكانة مستمدة من القـدرة الماديـة، كـاليهود

مثلاً الذين عاشوا في أوروبا منذ العصور الوسطى. وبسبب غناهم، كان الناس يقترضون المال منهم ويردونه بأبهظ الفوائد الربوية. بل لقد وصل الأمر إلى حدّ أن بعض الملوك والأمراء استقرضوا منهم المال، وحظّروا على الناس التعرّض لهم بسوء نظراً لحاجتهم إليهم. فعاش اليهود مع المسيحيين في أوروبا في العصور الوسطى متمتعين بحرية تامة، وإن كانت مجموعات منهم آثرت الانطواء على نفسها، واستقلت بأحياء خاصة باليهود انزوت فيها مع أبناء العقيدة في بعض مدن أوروبا.

وبعد ما تخلصت القارة الأوروبية من متاعب العصور الوسطى وظلمات الجهل، عاشت ألف سنة بعد الإمام الصادق (ع) وهي لا تملك حرية الاعتراض في مسائل الدين، أو حتى التساؤل حولها، فإن حدث في دولة من دول أوروبا اللاتينية (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال) أن سولت لأحد نفسه أن ينتقد موضوعاً من موضوعات المذهب الكاثوليكي، لنزلت به العقوبات الصارمة، فكيف به إذا جرؤ على انتقاد أصل من أصول الدين المسيحي؟ لقد قُضي على القس الإيطالي "برونو" بالموت حرقاً، ولم يكن ذنبه إلاّ قوله: إن الإنسان متى بلغ سن الرشد، تكونت لديه آراء تتفق مع عقله واستنباطه في شأن الحياة والدنيا، وعلى بساطة هذه النظرية وواقعيتها، انقض عليه المتزمتون والتقليديون، فرموه بالهرطقة والكُفر، ثم قتلوه بإلقائه في النار حياً.

ومما يُذكر أن القس برونو هنا – واسمه الكامل جيوردانو برونو – عاش في أواخر القرن السابع عشر، وكان عمره عند إحراقه في عام ١٦٠٠ ميلادية ٥٢ سنة. وقد أنفق حياته كلها في إغاثة الملهوفين ومساعدة الفقراء

والمعوزين ومعالجة المرضى المعدمين، وكانت لذته الوحيدة إرهاق نفسه إسعاداً للآخرين وتخفيفاً لآلام المحتاجين، شأنه في ذلك شأن النحلة "العاملة" التي تكد وتتعب في جمع الطعام لأترابها من النحل.

ويقال: إنه كان يدع بابه مفتوحاً حيثما حلّ، ليطرقه من يشاء من السائلين ليلاً ونهاراً، وإنه كان يلبّي كل حاجة معقولة للآخرين، ولم يكن يرفض لأحد طلباً أو سؤالاً، ولكن كل هذا لم يشفع لهذا القسيس المنتمي إلى الكنيسة الدومينيكية، فقتل شرّ قتلة.

وقد رسم الشاعر الفرنسي الأشهر "فيكتور هيجو" (١٤٢) في كتابه المعروف "البؤساء" صورة قسّيس من خيار رجال الدين، أطلق عليه اسم "بين ونو" رامزاً بذلك إلى "برونو".

وفي اليوم المحدد لتنفيذ حكم الإحراق في برونو في السآحة الكبيرة لمدينة البندقية ، جنّدت السلطة قوة عسكرية ضخمة لتحول بين المشاهدين وبين مكان تنفيذ الحكم.

وعندما عُلّق "برونو" مصلوباً على خشبة الإعدام، وتحته كميات كبيرة من الحطب والمواد المحرقة، تعالى نحيب الواقفين وعويلهم، وانبعث صراخهم تلقاء هذا المنظر، فعجّل الجلاد بإشعال النّار للانتهاء من تنفيذ

---

(١٤٢) فيكتور هيجو (Victor Hugo) ١٨٠٢ – ١٨٨٥ م شاعر وكاتب فرنسي من أعلام الحركة الرومنطيقية، امتازت مؤلفاته بقوة الخيال وتنوع الألفاظ وغنى الوصف ومن مؤلفاته الشعرية: الشرقيات وأوراق الخريف وأغاني الغسق وملحمة الأجيال، وله في النثر: سيدة باريس والبؤساء وهرناني.

الحكم قبل أن تنفجر ثـورة الفقـراء والمعوزيـن احتجاجـاً علـى هـذا الحكـم الفظيع، ووسط اللهب المتصاعد اختنق صوت برونو وانطفأت شـعلة حياتـه، ولـم ينقـذه مـن هـذا المصـير المـروع رصيـده البـاذخ فـي خدمـة الإنسـان والإنسانية.

كان هذا الحكم صادراً من محاكم التفتيش العقائدية(١٤٣) القاسية التي اعتبرت برونو خارجاً على الدين لقوله: إن الإنسان متى بلغ سن الرشد، كوّن لنفسه عقيدة حول الدّنيا والحياة تتفق مـع عقلـه واسـتنباطه. وفـي رأي هـذه المحاكم أن المسيحي متى بلغ سن الرشد، تقبّـل دون نقـاش مـا تصـوره لـه الكتب المقدسة بعهديها القديم والحديد، ورفض كل ما يخالف ذلـك مـن نوازع عقله وتفكيره.

وقيل في حكم المحكمة: إن برونـو خـارج علـى الديـن لأن الشـيطان حلّ فيه، ولابد من إحراقه لإخراج الشيطان منه.

أما في الإسلام، فقد بلغت حرية الرأي والبحث في جميع أمور الدين والعلوم حداً أتاح لرجل مثل (ابن الراوندي) أن يظهر وأن يُطالع الناس بآرائـه الجريئة التي نتناولها في الفصل التالي.

---

(١٤٣) سبق الحديث عن محكمة التفتيش luquisition وهي محكمة دينية أنشئت فـي القـرن الثـالث عشر لملاحقة الخارجين على الدين وتعاليم الكنيسة ومعاقبتهم.



ابن الراونـدي وآراؤه الجريئـة

من هو ابن الراوندي؟

هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان وكاشان في فارس. وكانت في قريته هذه مدرسة إسلامية، فالتحق بها ودرس مقدّمات العلوم حتى اعتزم النزوح عنها إلى مدينة "الري".

وذهاب ابن الراوندي إلى مدينة الري بدلاً من أصفهان – المدينة العظيمة التي هي أقرب منها إلى موطنه – طالباً للعلم فيها إنّما يدل على أن الري كانت من العواصم العلمية في الشرق.

ولا نعرف من أيام دراسته هناك إلا أنه كان طالباً مجداً، أظفره اجتهاده بإعجاب أساتذته والمحيطين به في مدرسة الري. كما أننا لانعرف شيئاً عن أساتذته والدروس التي تلقّاها في الري والمدة التي قضاها في هذه المدينة على وجه التحديد، وإن كنا نعرف عنه أنه كان في تلك الفترة طيّب السيرة، نقيّ السريرة، محافظاً على الفرائض الدينية، لا يقصّر في شيء منها، مقيماً على السنن المرعيّة والآداب العامة. وفي هذه المدينة ألّف كتابه "الابتداء والإعادة".

ويعتبر هذا الكتاب وكتابه الثاني الموسوم بـ"الأسماء والأحكام" دليلاً على صدق انتمائه إلى الإسلام وعمق إيمانه. ولكنه لم يلبث أن وضع كتباً

أخرى حفلت بالانتقادات الموجهة إلى الشريعة الإسلامية والفرائض الدينية، ولم تسلم من مطاعنه حتى عقيدة التوحيد.

وهكذا انتهى الأمر بابن الراوندي المسلم المتشيع الذي يكن للإمام الصادق (ع) كل مودة واحترام، إلى الإلحاد، وتوالت مؤلفاته في التشكيك في عقيدة التوحيد وفي يوم المعاد وفي العدل.

وتطرق في انتقاده للتوحيد إلى التشكيك في صفات الله مرة، وفي نفيها مرة أخرى، مع أن المسلمين وجميع الموحدين من أتباع الديانات السماوية الأخرى، لا يجرّدون الله سبحانه وتعالى من صفاته، لأن هذه الصفات جزء لا يتجزأ من ذاته الوسطى، وكانت هذه الآراء كفيلة بإنفاذ حكم الإعدام فيه فوراً، إما على أعواد المشانق أو في المحرقات.

ولكن ابن الراوندي لم يتعرض لشيء من هذا من معاصريه في القرن الثالث للهجرة، ولا حُرقت كتبه ومصنفاته، وقُصارى ما حدث يومذاك هو نهوض أهل العلم والاختصاص بالرد عليه في كتب ورسائل كثيرة.

والفضل الأول في إيجاد هذا الجو العلمي إنما يعزى إلى مدرسة الصادق (ع) التي كانت حفيظة على حرية الرأي والبحث، ومن هنا اعتبرت آراء ابن الراوندي من قبيل المباحث الفلسفية فلم تُلصق به تهمة الإلحاد والارتداد.

وذهب ابن الراوندي في تشكيكه إلى أبعد من هذا، فأنكر وجود الله وأزلية العالم، فلم يبق شك في كفره وإلحاده.

ومع أن الشريعة الإسلامية تقضي على المرتد بالقتل، فإن أحداً لم يتعرض لابن الراوندي بسوء، واكتفى العلماء بالرد على آرائه المعلنة.

ويُنسب إلى ابن الراوندي كتاب طعن فيه في نبوءة الأنبياء وأنكرها، مما غلّظ في موقفه الإلحادي، وإن كان إنكار وجود الله كافياً وحده لإثبات إلحاده، وكان ينبغي تلقاء تماديه في الإلحاد، أن تُنفذ فيه أحكام الشريعة الإسلامية بالقتل، ولكن المجتمع المعاصر له اكتفى بالرد عليه وتسفيه آرائه.

وكانت بغداد في ذلك الوقت، أي في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، العاصمة الجديدة ودار الخلافة، وكانت تتهيأ لأن تصبح المركز العلمي والثقافي للعالم الإسلامي بأسره.

ولم يكن يمر يوم على بغداد دون أن يصدر فيها كتاب جديد أو رسالة علمية، إذ كان العلماء من جميع الأقطار يتوافدون عليها ويعرضون آثارهم وكتبهم على الوسط العلمي. وكان الناس من ناحيتهم متلهفين على قراءة كل جديد، وعلى اقتناء الكتب الجديدة التي يقوم الوراقون باستنساخها، حتى أصبح في بغداد أكثر من ألف وراق ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ملاحقة الطلب المشتد على استنساخ الكتب. فكان الوراق منهم يستعين بغيره للنهوض بهذه المهمة وكثيراً ما كان الوراقون يقتسمون الكتاب الواحد، فيقوم كل منهم بنسخ جزء منه للإسراع في إخراجه.

فإن كان الكتاب لمؤلف ذي شهرة علمية، أو كان موضوعه مثيراً للجدل والنقاش، اشتد الطلب على استنساخ الكتاب، حتى إن الناسخ كان

يكتب في اليوم الواحد بين خمسين إلى مئة صفحة، وتتم بعد ذلك عملية تجميع أجزاء كل كتاب على حدة.

وهكذا ازدهرت مهنة الوراقة في بغداد، وازدهرت بالتالي حركة الثقافة والتعلم. وإذا كان الناس ينظرون في يومنا هذا إلى الناسخين نظرة استخفاف، لأن هذه المهنة قليلة الجزاء المادي، حتى لقد أطلقوا في الافرنسية اسم "جرات بابييه" gratte - papier على القائمين بهذا العمل من قبيل الاستهزاء بهم لأنهم "يحكّون الورق"، وأطلقوا بالانجليزية اسماً مماثلاً هو "سكراتش scratch"، فإن مهنة الوراقة كانت محترمة في بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين، وكانت تدرّ على أصحابها آنذاك مالاً وفيراً.

واعتباراً من النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، ظهرت في أوروبا جماعة أخرى، إلى جانب جماعة الوراقين التقليديين صناعتها تحرير النوتة الموسيقية. ومن الذين اشتغلوا بهذا العمل الكاتب الفرنسي الأشهر "جان جاك روسو" الذي كان في فترة من حياته يعيش على كسبه من كتابة النوتة الموسيقية. فلما ظهرت المطابع الحديثة، وشرعت تطبع الكتب والمذكرات والنوتة الموسيقية بسرعة أكبر وإتقان أفضل، بارت صناعة الكتابة اليدوية للنوتة الموسيقية، وانصرف عنها المشتغلون بها، ومنهم روسو.

ولكن ظهر نوع آخر من الوراقين أو المحررين العصريين، وهؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً عن الوراقين القدامى الذين كان كل همهم نسخ الكتب دون تعديل مادتها. أما الوراقون الجدد، فيطلقون عليهم بالانجليزية

اسم "غوست رايتر" أي الكاتب الشبح. فإن أراد ذو ثـراء أن "يؤلـف" كتاباً دون أن يكون ذا موهبة في التـأليف، عهـد إلـى هـؤلاء الأشـباح فـي تـأليف الكتب، وأجزل لهم العطاء في مقابل انزوائهـم، وظهـر الكتـاب وعليـه اسـم المُثري باعتباره مؤلفه منشئه ومصنفه، وإن لم يقم بشيء من هذا قط*.

ويطلق الفرنسيون على المشتغلين بهذا العمل اسم "نيجرو" أي الزنجي أو الملون، اعتقاداً منهم بأن من يُسخِّر قلمه لآخر لا يختلـف فـي شـيء عـن العبد أو الخادم الذي يبيع جهده لسيده.

وقبل المطبعـة، كـانت مهنـة الوراقـة مهنـة شـريفة محترمـة تـدرّ علـى أصاحبها بدر المال، وكان هذا الاحترام – ولاسيما عند العرب – نابعـاً مـن احـترامهم للكـلام المكتـوب والكتـاب المحـرر، إذ أنّ عـرب الباديـة كـانوا ينظرون نظرة إجلال إلى كل كلام مكتوب باعتباره جامعاً لكل شيء وأن لـه تأثيراً في كـل شـيء حتـى فـي الأصنـام والآلهـة التـي يعبدونهـا، وكـان مـن تقاليدهم المرعية تعليق المحررات على الكعبة، كمـا عُلِّقـت الصحيفـة التـي كتبها العرب ودعوا فيها إلى مقاطعة رسول الإسلام هو وأهله وأسرته من بني هاشم وقد علقوها على الكعبة.

ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن عصر الخلفاء العباسـيين فـي بغـداد كـان العصر الذهبي للوراقيـن الذيـن ظفـروا بـالاحترام العـام والتقديـر الكـامل مـن الخلفاء والعلماء وطلاب العلم على حد سواء.

(*) يقابل هؤلاء اليـوم، المسـتكتبون فـي الصحـف الذيـن يكتبـون بالنيابـة عـن رئيـس التحريـر أو صاحب الصحيفة.

وفي هذا العصر الذهبي للوراقة، وصل ابن الراوندي إلى بغداد، وغايته من ذلك أمران:

أولهما أن بغداد كانت المركزالعلمي الأول في العالم الإسلامي، فكان طبيعياً أن يتوجه ابن الراوندي إلى هذا المركز طلباً للمزيد من الفائدة، ولعرض بضاعته من الثقافة والفكر.

وثانيهما: أن الخليفة العباسي كان مهتماً بالعلم مشجعاً للمؤلفين والمترجمين، وكان ينفحهم بعطايا وجوائز سخية، كما كان يستقدم العلماء ويجزل لهم العطاء لكي يعملوا على نشر العلوم. فتوجه ابن الراوندي إلى مقر الخلافة أملاً في أن يكون له نصيب من هذه العطايا.

وكانت شهرة ابن الراوندي قد سبقته إلى الأوساط العلمية في بغداد بفضل كتابيه الأولين " الابتداء والإعادة" و "الأسماء والأحكام" اللذين وصلت مخطوطات منهما إلى بغداد قبل وصوله هو، وكما سبق قوله فإن هذين الكتابين كان قد ألفهما ابن الراوندي بروح المسلم الملتزم الطيب السيرة والسريرة، قبل أن ينحرف به التفكير إلى شطط الزندقة والكفر.

ولكن شهرته في بغداد لم تكن تقاس بشهرته في الري وبلاد فارس حيث أقام مدة طويلة، وشغل الدوائر العلمية بآرائه وشطحاته، فسعى إلى الذين لهم صلات بالأوساط العلمية في بغداد لكي يزكوه لدى من يعرفون في عاصمة الخلافة، فحمله واحد منهم رسالة إلى وراق يدعى عباس الصرم. ولما استقر في أحد الفيروانات العديدة المخصصة للمسافرين في

بغداد في ذلك الوقت * ، أخذ يبحث عن الوراق ومعه نسخة من كتابه الموسوم بـ"الفرند"، فلما اهتدى إليه، رجاه أن يستنسخ له عدداً من النسخ من هذا الكتاب.

فشرع الوراق يتصفح الكتاب، ودقق النظر في عناوين فصوله، وكانت حيرته تزداد كلما ازداد وقوفاً على محتويات الكتاب وجرأة صاحبه.

فقال له: ياأبا الحسن (ابن الراوندي) ، هل طالع أحدٌ هذا الكتاب؟

فأجاب: نعم، هناك نسخ منه في متناول المهتمين بموضوعه في الرأي.

فقال الوراق: يدهشني أنك مازلت على قيد الحياة ناعماً بحريتك في الذهاب والإياب، على الرغم من هذا الكفر الذي تبثه في ثنايا الكتاب.

فقال ابن الراوندي : ما سجلته في هذا الكتاب حقائق وليس بكفر.

فعاد الوراق عباس الصرم يقول له: لقد أنكرت الأصول الثلاثة للإسلام، وهي التوحيد والنبوة والمعاد.

فقال ابن الراوندي : ليس الأمر كما تتصور، فلو دققت النظر لعرفت أنني لم أنكر التوحيد، وإنما رغبت في تنزيه الخالق عن الخرافات التي تنسب إليه.

ثم طلب من الوراق أن يكلف أحد كتّابه من المعروفين بجمال الخط استنساخ الكتاب ليقدمه إلى الخليفة العباسي.

(*) وهي بمثابة الفنادق أو النزل اليوم.

فقال الوراق: أنصحك بألا تقدم على هذا الأمر لتجنب نفسك غضب السلطان وعقابه.

فقال ابن الراوندي : لكن الذي سمعته عن الخليفة أنه رجل رحب الصدر، محب للعلم والعلماء، يهتم بالكتب والمؤلفات العلمية ويكافىء مؤلفيها بما ينفحهم من العطايا الجزيلة السخاء، وقد منيت نفسي الحصول على عطية جزيلة من الخليفة مكافأة لي على تأليف هذا الكتاب.

انتهى الحوار بينهما إلى لا شيء، ومع ذلك فقد وافق الوراق عباس الصرم على أن يقدمه إلى وراق آخر هو المطّلب البصري عساه يوافق على أداء هذه المهمة له. ولكن ابن الراوندي كان صفر اليدين عند وصوله إلى بغداد، وكان يطمع في حل مشكلاته المالية متى وجد من يقدمه إلى الخليفة أو يقدم إليه بعض مؤلفاته، فلما التقى بالمطّلب البصري، كانت طلبته الأولى منه مساعدته على الاهتداء إلى أي عمل يكفل له العيش في بغداد.

واطلع الوراق على نموذج من خط ابن الراوندي ، فألفاه رديئاً ولا يؤهله للعمل في استنساخ الكتب. ومع ذلك، وافق على أن يدفع إليه ببعض الكتب لاستنساخها وتحريرها، على أن يكافئه على عمله شيئاً فشيئاً كلّما فرغ من استنساخ فصل من الكتاب.

وكان المطلب البصري كغيره من الوراقين يشتري نسخة المؤلف، ثم يقوم باستنساخها في عشرات من النسخ، أي أن الوراقين كانوا في القرن

الثالث الهجري يقومون بالدور الذي تقوم بـه فـي يومنـا الحـاضر مؤسسـات نشر الكتب وطبعها وتوزيعها* .

ولـم يكن أمام ابن الراوندي إلا أن يقبل هذه الوظيفة الجديـدة. فقـدم إليه الوراق نسخة من الكتاب المطلـوب نسـخه وكميـة مـن الـورق للكتابـة عليها، إذ كان من عادة الوراقين أن يزودوا المحررين بالورق ليضمنوا جـودة النسخ وخروجها بالحجم المطلوب.

ويعود الفضل في نشـر الكتـب والمعـارف إلـى مـن أبـدع فـي هـذا الأسـلوب، متوافقـاً فـي ذلــك مــع تـاريخ ظهــور الـورق، حتـى كـثرت المخطوطات وازدادت نسخها المتداولـة، فحفظـت لنـا تراثـاً علميـاً هامـاً كان عرضة للضياع والفقدان، ولا ريـب فـي أن مبتدعـي هـذا الأسـلوب قـد سبقوا بقرون عدة غوتنبرج الذي اخترع المطبعة الحديثـة حتـى لا يبقـى فـي مدينة استراسبورغ أمّي واحد بعد انتشار الكتب(١٤٤) .

عكف ابن الراوندي علـى استنسـاخ الكتـاب، ولكنـه تبيـن أن فيـه مـا يستحق الردّ والنّقض، فوضع للكتاب حواشي تتضمن آراءه وتعليقاته على ما ورد في الكتاب، وصاغها بأسلوب فنّـي. ولمـا احتـاج إلـى مـال، حمـل مـا أنجزه من الكتاب إلى الوراق لكـي يـؤدي لـه ثمـن مـا أنجـزه، فقـام الـوراق

(*) (متعهدو النشر والتوزيع).

(١٤٤) مدينة استراسـبورغ Strasbourg مدينـة أوروبيـة تحتضـن جامعتهـا مركـز الدراسـات الدينيـة المتعمقة، ومنها الدراسات الإسلامية التي يضم هذا الكتاب بعضاً منها. ولقد ولد غوتنبرغ (١٤٠٠ – ١٤٦٨م) في هذه المدينة حيث اخترع المطبعة الحديثة التـي تطبـع بحـروف منفصلـة، فـأحدث ثورة في حركة نشر الكتب. واستراسبورغ هي اليوم عاصمة أوروبا الغربية. (المترجم).

بمراجعة الجزء المستنسخ بعناية ودقة للتثبت من أمانة النقل وصحة الكتابة ونظافة الورق وسلامته، ففوجىء بالتعليقات والحواشي التي انتشرت في الكتاب دون أن يكون لها وجود في النّص الأصلي.

لما استفسر الوراق من ابن الراوندي عن موضوع هذه الحواشي والتعليقات التي لم ترد في الأصل، اعترف بأنه هو الذي أضافها.

فسأله الوراق عن سبب هذا التصرف، فأجاب: لقد وجدت المؤلف على خطأ وصوبت له ما وقع فيه من أغاليط.

ألفى الوراق نفسه ولأول مرة تلقاء كاتب ومعلّق يضع الحواشي والتعليقات على الكتب على خلاف غيره من الكتّاب والنسّاخين، ولكنه طلب منه إعادة كتابة نفس الصفحات بعد استبعاد هذه التعليقات والحواشي التي كان قد أضافها، قائلا له: إنه إذا أراد أن يستمر في عمله هذا، فلابد له من الالتزام بالنص دون زيادة أو نقصان، ودون تغيير في عباراته أو إردافه بتعليقات وحواش.

وموقف المتوكل من المعتزلة والشيعة كان معارضاً ، وإزاء هذا الموقف، عمد الشيعة إلى الالتزام بالتقية (التقاة) وعدم المجاهرة بولائهم لآل علي، وزاد هذا الموقف من مخاوف عباس الصرم من رد الفعل لدى الخليفة في ما لو عرف أن ابن الراوندي من فارس وله مؤلف في الإمامة ويغلب عليه التشيع، ثم إنه كان في نفس الوقت واثقاً من أن ابن الراوندي لابد أن يلتمس سبيلاً آخر لرفع كتابه إلى الخليفة، فقرر الصرم أن يقوم بنفسه بتقديم ابن الراوندي إلى الخليفة، زاعماً أن هذا الرجل مُصاب بداء

الصرع وأنه برغم ذلك ألف كتاب "الفرند"، وكان في اعتقاده أن من شأن هذه الظروف أن تردّ عن ابن الراوندي عادية الخليفة وتحول دون تكفيره ثم إعدامه، كما أن من شأنها في الوقت نفسه أن تدفع عنه تهمة إيواء هذا الرجل المتهم بالزندقة وتقديم العون له.

والحقيقة أن ابن الراوندي ، برغم شطحاته الفكريّة، كان من العبقريات العلمية في القرن الثالث الهجري، وقد خلّف هذا الأصبهاني وراءه في عُمْرٍ لم يجاوز الأربعين عاماً آثاراً فكرية لم يترك مثلها أفذاذُ العلماء الذين عمّروا في عصره سعبين عاماً أو ثمانين.

فقد كان – كأعلام عصره – متضلعاً من جميع علوم يومه، ومنها الطب والرياضيات والفلك، وكان أول من نبّه إلى أن جسم الإنسان محاط طوال أيام حياته بأعداء تهمّ بالفتك به، ولكن الجسم نفسه يولّد ما يقيه شرها، ويحافظ على سلامته وحياته. ومع أهمية هذه النظرية العلمية، فلم يفطن إليها أحد في القديم ولا في العصر الحديث و إلى مطالع القرن العشرين عندما تبين الأطباء الباحثون أن الكريّات البيضاء في الدّم تقوم بدور الشرطي أو حرس الحدود فتحمي الجسم من هجوم الأجسام الغريبة، وبعبارة أخرى تقاوم الميكروبات والجراثيم التي تنتقل بالعدوى، وقد تحقّق هذا الكشف الهام في سنة ١٩٤٠م.

فالإتيان بهذه النظرية كان كافياً في حدّ ذاته لتكذيب ما يُقال من أن ابن الراوندي مصاب بالصرع، لأن قائل هذه النظرية لابدّ أن يكون صحيح العقل والتفكير.

وفي منتصف القرن الثالث، كانت أصول الطب السائدة سواء في الشرق أو في الغرب مستمدة من مدرسة أبقراط القائمة على أساس وجود طبائع أربع، فإن تعادلت وتوازنت في جسم الإنسان سلم وتعافى، وإن اختل التوازن في ما بينها مرض، وإن بلغ الخلل درجة حادّة ، مات.

وبالبناء على هذه النظرية، تكون أسباب الموت أسباباً داخلية، ولا يتسبب فيه عدوٌّ خارجي. ولم يسبق لأحدٍ أن قال بأن جسم الإنسان مُعرض طوال حياته لهجوم الجراثيم والميكروبات إلى أن جاء العالم الفرنسي باستور في القرن التاسع عشر واكتشف الميكروب الذي ينقل العدوى، وأقام البرهان عملياً ونظرياً على صحة هذه النظرية.

أما الكريّات البيضاء فلم تكتشف إلا في عام ١٩٤٠م، فعرف الطب الدور الهام الذي تقوم به هذه الكريات الحيوية في مقاومة الميكروبات المهاجمة.

وفي عام ١٩٥٠م، تحقق علماء الطب من أن هناك عاملاً آخر يطرد الأجسام الغريبة من الجسم ويسمّونه "الجسم المضاد"(١٤٥) ، ومهمته الأساسية هي مقاومة الخلايا الغريبة وطردها من الجسم.

ولكي نعرف مدى أهمية هذه الأجسام المضادة التي اكتشفت في عام ١٩٥٠ م يحسن بنا أن نُشير إلى تقرير للدكتور روبرت آلن جود المشهور بتخصصه في أمراض السرطان والأستاذ بجامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة، فقد أثبت الدكتور جود في تقريره هذا أن جسم الإنسان يولّد ما

---

(١٤٥) الجسم المضاد يعرف في الانجليزية باسم Antivodlers، وفي الفرنسية باسم Anticorps.

يتراوح بين عشر خلايا وعشرة آلاف خلية من خلايا السرطان منذ المهد و إلى آخر أيام العمر، ولولا الأجسام المضادة التي تطرد الخلايا الأجنبية من الجسم وتحول دون انقسام خلية(١٤٦) السرطان وانتشارها لنمت خلايا هذا الداء اللعين وغزت الجسم البشري كله. ومن رأيه أن السبب في إصابة الشيوخ بالسرطان بنسبة تفوق نسبة إصابة الشباب به هو أن جسم الشيخ يولّد من الأجسام المضادة كمية أقل ما يولده جسم الشاب، وبالتالي يتعذر على الشيوخ مقاومة هذا الداء العضال.

ومما قاله الدكتور روبرت آلن جود: إن وجود الأجسام المضادة بكميات غير كافية في جسم الإنسان يساعد على الإصابة بالسرطان، وإنه إذا أريد علاج هذا المرض فلا بد للطبيب من أن يفكر في وسيلة لتقوية جسم المصاب وتمكينه من توليد قدر أكبر من الأجسام المضادة.

أوليس ممّا يثير الدهشة أن يكون عالم من العلماء مضى عليه أحد عشر قرناً ونصف قرن قد استطاع أن يكشف سراً من أهم أسرار الصحة البدنية، دون أن ينتبه أحد إلى هذا الكشف، ودون أن يهتم به العلماء الباحثون في النصف الأول من القرن الحاضر؟

وقد لقيت نظرية ابن الراوندي التي طلع بها قبل ألف ومئة وخمسين سنة إعجاباً عاماً وقبولاً من الأوساط العلمية والطبية في جميع أنحاء العالم

---

(١٤٦) الخلية Cellule هي الوحدة الحيوية الصغرى، فإذا انقسمت، تولّدت خليتان سرعان ما تكمل كل منهما نموها، وتعاودان الانقسام وهكذا دواليك إلى أن يزداد عدد الخلايا الناشئة عن سلسلة الانقسامات هذه ملايين في فترة قصيرة. (المترجم).

بعدما تبيّنوا صوابها، لأن الثابت عند جميع الأطباء أن الإنسان هدف مستمرٌ لأعداء خطرين يسعون إلى القضاء عليه، ويتمثل هؤلاء الأعداء في الميكروبات والفيروسات والخلايا الدخيلة.

ولابن الراوندي نظرية أخرى لاتقل شأناً عن النظرية السابقة مؤداها أن الإنسان إذا ابتلي بمرض مستعص عزّ علاجه وفقد الدواء فعله تلقاءه، وجب أن يُحقن بمرض آخر ينقل إليه، وهكذا ينجو من خطر الموت، ومتى تم علاجه بهذه الكيفية من المرض الأول، قام الطبيب بعلاجه من المرض الثاني.

فإذا كانت هذه النظرية التي قال بها ابن الراوندي في القرن الثالث للهجرة من البيّنات التي أقيمت على مرضه بالصرع، فقد أصبحت في القرون اللاحقة موضوع اهتمام الأطباء، إذ ثبت لديهم من التجربة أن المصاب بمرض مستعص يمكن الاستعانة على علاجه تدريجياً بتعريضه للإصابة بمرض آخر، وقد تحققت نتائج هذه التجارب بمحض المصادفة والاتفاق، ولكن الأمر الذي عجز الأطباء قديماً عن الاهتداء إليه هو نوع المرض الثاني الذي يستعان به في العلاج، ثم القدرة على التحكم فيه بعد نقله إلى المريض.

ومنذ القرن التاسع عشر بدأ تطبيق هذا النوع من العلاج الذي دخل طوراً جديداً بعد كشف الميكروب وسموم التوكسين[١٤٧] .

---

(١٤٧) التوكسين سموم تولدها الأجسام كما تولدها المواد الغذائية الدسمة التي تولد كمية كبيرة من الطاقة دون استهلاك الجسم لها.(المترجم).

فمنذ القرن التاسع عشـر والأطبـاء يحـاولون عـلاج الأمـراض بإدخـال الميكروب أو التوكسين إلى أجسام المصابين بها.

ومن ذلك مثلاً أن الدكتور وليـم كـالي قـام فـي القـرن التاسـع عشـر بتجربة نظرية ابن الراوندي ، وبصورة خاصة في علاج السرطان، عـن طريـق إدخال التوكسين إلى جسم المريض. وقد تبيـن لـه أنـه كلمـا أخـذ المـرض الحديد في الظهور، بـدأت أنسـجة خلايـا السـرطان تتحلـل وتـزول، وبهـذه الكيفية نجح في إنقاذ حياة أكثر من مئتي مريض كان شفاؤهم ميئوساً منـه، فعاشوا بعد العلاج حياةً طبيعية. وأقلّ نتيجة حققها هذا الأسلوب في العـلاج هي إطالـة أعمـار المصـابين بالسـرطان فـي مراحلـه المتـأخرة خمـس سـنين أخرى.

والمهـم هنا أن طريقة الدكتـور كـالي برهنـت علـى صحّـة نظريـة ابـن الراوندي ، وإن كانت تجارب تطبيقها قد توقّفت لأسـباب منهـا أن المـرض الثاني (المحلوب)، إن كان مرضاً ضعيفاً ، عزّ عليه التأثير في وقـف انتشـار الخلايا السرطانية، وإن كان قوياً كان بمثابة علاج الأفسد بالفاسد فيضعـف الجسم، وربّما تعذر بعدئذٍ علاج المرض الثاني أو طال أمد علاجه.

إلا أن الدكتـور روبـرت آلـن جـود استمر فيمـا بعـد يعـالج السـرطان بطريقته المستمدة من نظرية ابن الراوندي . ويؤخـذ مـن التقـارير العلميـة أن النجاح حالفه في كثير من الحالات.

ابن الراوندي في نظر معاصريه(١٤٨)

يقول عبد الرحيم العباسي مؤلف كتاب "معاهد التنصيص" (طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ ص ١٧٦ - ١٧٧): "كان (ابن الراوندي) أحد المتكلمين المعتزلة، عاش في بغداد، ثم ألحد وارتد وانفصل عن المعتزلة". ونقل عن أبي القاسم البلخي (وهو تلميذ لأبي القاسم الخيّاط وأحد المعتزلة الذين تصدّوا لآراء ابن الراوندي ووضعوا ردّاً على كتبه) قوله في كتابه "محاسن خراسان": "كان ابن الراوندي من المعتزلة العظام. لم يواكبه أحد في سبر غور علم الكلام. ولم يكن أحد أعرف منه بمذاهب أهل الملة واختلاف آرائهم. وكان في بداية أمره على صحّة المذهب وحُسن السيرة، ثم حاد عن الطريق، وترك المنهج والسبيل الحق. وقيل إن ذلك كان لغضبه على رفاقه الذين طردوه من حلقتهم وناديهم، فأخذ يؤلف كتباً لأبي عيسى الأهوازي (اليهودي)".

وقد توفي ابن الراوندي في داره في أهواز. وأحصى البلخي خمسة فقط من كتبه، هي :(كتاب التاج) وقد دافع فيه عن أبديّة العالم، و (كتاب الزّمرد) وقد أطلق عليه هذا الاسم اعتقاداً منه بأن كتابه سيعمي أعداءه ومعارضيه كما يعمي الزمرد عيون الأفاعي، و (كتاب الفرند)، و (كتاب اللؤلؤ) و (كتاب الدامق)، وقد أودعه كلاماً عن الخالق يسوء ذكره، فاعتبر ما في الدنيا من ظلم وشر وسوء من صنع الخالق. وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم استشهاد بما ذكره ابن البلخي.

---

(١٤٨) هذا الفصل بحث قام به مترجم هذا الكتاب.

وعدّه ابن المرتضى في كتابه (طبقات المعتزلة) من الطبقة الثامنة، وأضاف أنه انحرف وأصبح زنديقاً ملحداً ، ووضع كتاب (التّاج) وكتاب (عبث الحكمة) الذي طعن فيه على مذهب التوحيد وتحدث عن الثنوية، وكتاب (الدامق) الذي عارض فيه القرآن الكريم، وكتاب (الفرند) الذي انتقد فيه بعث الرسل ورسالة الأنبياء، وكتاب (الطبائع) وكتاب (الزمرد) وكتاب (الإمامة) وقد رد عليه وعلى آرائه ومؤلفاته جماعة منهم الشيخ أبو علي (الجبّائي) والخيّاط والزبيري وأبو هاشم الذي ردّ على كتابه (الفرند).

ومن خلال عرضنا السريع لأقوال أصحاب السير والتواريخ، يتبيّن أن ابن الراوندي كان من الشخصيات العلمية البارزة، ومن أعلام المعتزلة في القرن الثالث الهجري، ويُربى عدد مؤلّفاته على مئة وثلاثين كتاباً . أيد المعتزلة، ووضع لهم الكتاب تلو الكتاب للدفاع عن آرائهم الكلاميّة والفلسفية، إلى أن انفصل عنهم، فأخذ ينتقد آراءهم ومناهجهم ويردّ عليهم، فرموه بالزندقة مرة، وبالإلحاد أخرى، وبالميل إلى الرافضة، وأخيراً بالميل إلى اليهودية.

والجميع متفقون على أن ابن الراوندي كان في مستهلّ حياته صائب الرأي، سليم العقيدة، وذلك عندما كان يلتقي مع المعتزلة في رأيهم حول الإمامة ومسائل عقائدية أخرى، وما لبث أن وضع كتابه (الإمامة).

وهذا الكتاب هو بداية انحراف ابن الراوندي إلى الزندقة والكفر، يقول الخيّاط في سياق نقده لهذا الكتاب: "كتاب (الإمامة، يطعن فيه على المهاجرين والأنصار) اختيارهم الخليفة بعد الرسول (ص) ويزعم أن النبي (ص)

استخلف عليهم رجلاً بعينه واسمه ونسبه، وأمرهم أن يقدموه، ولا يتقدموا عليه، وأن يطيعوه ولا يعصوه، فأجمعوا جميعاً إلاّ نفراً يسيراً ، خمسة أو ستة، على أن يزيلوا ذلك الرّجل عن الموضع الذي وضعه فيه رسول الله (ص) استخفافاً منهم بأمر رسول الله (ص)، وتعهّداً منهم لمعصيته".

يبدو من هذا أن السبب الرئيسي في انحراف ابن الراوندي – في نظر الخيّاط – هو ميله إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) وتفضيله إياه على غيره، وتأكيده بأن الخلافة أو الولاية قد خصّه النبي (ص) بها، فهاجم الخيّاط لذلك ابن الراوندي وعدّه فاسقاً ومنحرفاً . وبعدما انشق عن جماعة المعتزلة لهذا السبب، وضع كتابه الثاني رداً على كتاب (فضيلة المعتزلة) لعمرو بن بحر الجاحظ، وسمّاه (فضيحة المعتزلة). وأثار هذا الكتاب غضب المعتزلة جميعاً، فتصدّوا له بطرق ووسائل شتى، فهذا أبو الحسين بن عثمان الخيّاط المعتزلي يضع كتاباً عنوانه (الانتصار) في الردّ على ابن الراوندي وكتابه (فضيحة المعتزلة)، وبفضل كتاب الخيّاط هذا الذي ردّ فيه فقرةً فقرة على آراء ابن الراوندي ومؤلفاته، عرفنا شخصية ابن الراوندي وقيمته العلميّة والمؤلفات الكثيرة التي وضعها، وإن كان لم يصلنا منها إلا كتابان هما (الابتداء والإعادة) و (الفرند)، وفقرات من كتاب (فضيحة المعتزلة) كما وردت في كتاب الخيّاط.

ولم يقف المعتزلة عند هذا الحدّ في مهاجمتهم لابن الراوندي وطعنهم عليه، بل سعوا عند الخليفة لإيغار صدره عليه، فأمر بالقبض عليه، لولا أنه فرّ من بغداد ومات متخفّياً في الكوفة.

وقد قال القاضي أبو علي التنوخي إنّ أبا الحسين (ابن الراوندي) كان يعاشر الملاحدة. وعندما سُئل عن ذلك. قال إنّه يريد أن يعرف معتقداتهم وأفكارهم. وقيل إن أباه كان يهودياً فأسلم، فقال اليهود للمسلمين: إنه سيخرب عليكم دينكم كما فعل أبوه بديننا.

ويقول أبو العباس الطبري: (لم يستقم يوماً ابن الراوندي ، ولم يستقر في مذهب ولا مسلك. وكتب كتابه (البصيرة) لليهود مقابل أربعمئة درهم استلمها من يهود سامراء، ثم عكف على ردّ الكتاب بنفسه، فدفع له اليهود مئة درهم أخرى ليمتنع عن الردّ) (راجع "معاهد التنصيص").

والتقى ابن الراوندي بأبي علي الجبّائي على جسر بغداد، وسأله: (هل سمعت معارضتي للقرآن؟) فأجاب أبو علي: (إنني أعرف قدرك وعلمك ورفاقك الملحدين، ولكن إذا أشهدت قلبك وضميرك، هل تجد ما يريحك ويرضيك عن فعلك هذا؟ وهل تجد أنسق نظماً وأجمل عرضاً وأوقع في النفس من القرآن؟). فأجاب ابن الراوندي : (لا والله). فقال أبو علي: (إذن ، اذهب حيثما شئت). (راجع "معاهد التنصيص").

وكلما زادت شقّة الخلاف بين ابن الراوندي والمعتزلة كلما زادت الاتهامات الموجهة إليه، حتى قيل إنه يناصر اليهودية على الإسلام، بل قيل: إنه يهودي، وإنه يلجأ إلى اليهود ويموت في أحضانهم.

ولم يذكر المؤرّخون الذين تعرّضوا لحياة ابن الراوندي الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى إلحاده وزندقته، فمنهم من قال: إن الفقر هو الذي ورّطه في هذا، ومنهم من قال: إنّه كان خاضعاً لليهود، ومنهم من قال: إنه

كتب في الإلحاد لأن هناك من أغراه بالمال على ذلك، حتى لقد قيل: إنه تقاضى ثلاثين ديناراً عن تأليف كتاب (الإمامة).

وقد جاء في الفقرة ٦٦ من كتاب (الانتصار) ما يناقض الحقيقة من ناحية، ويوضّح مدى غضب المعتزلة وكرههم لابن الراوندي . ويقول الخيّاط: لقد هجره أكثرهم (أي المعتزلة)، فبقي طريداً وحيداً ، فحمله الغيظ الذي دخله على أن مال إلى الرافضة.. فوضع لهم كتابه (الإمامة) (الانتصار ص ٧٧).

والحقيقة أن ابن الراوندي وضع كتاب "الإمامة" قبل ظهور الخلاف بينه وبين المعتزلة، وأنه أغضب المعتزلة عندما وضع كتابه (فضيحة المعتزلة)، وأثار غيظهم وسخطهم فنسبوه إلى الإلحاد مرّةً و إلى الزندقة أو الثنوية واليهودية مرة أخرى.

ومات ابن الراوندي في أخريات القرن الثالث الهجري، وأغلب الظّن أنه عاش ما يقارب ثمانين سنة. وذكر صاحب (كشف الظنون) أنه مات في ٣٠١ للهجرة (ج٤ ص ٤٤٦ و ٥ : ٦٠). فإذا كانت ولادته كما قال أكثر المؤرخين قد حدثت في سنة ٢٠٥ أو ٢١٥ للهجرة، فوفاته حسب (معاهد التنصيص) وقعت في سنة ٢٩٨، كما أشار إلى ذلك ابن النجّار.

وقال المسعودي في ("مروج الذهب" ج٧ : ٢٣٧) بعد ذكر وفاة أبي عيسى الورّاق في سنة ٢٤٧ للهجرة: (وتوفي أبو الحسين أحمد بن يحيى إسحاق الراوندي في رحبة مالك بن طوق) وقال البعض في بغداد سنة ٢٤٥

للهجرة عن عمر يناهز ٤٠ سنة وقد ألف ١١٤ كتاباً وبهذا يكون ابن الراوندي من معاصري أبي عيسى الورّاق.

وهذه قائمة ببعض مؤلفات ابن الراوندي ، كما ذكرها الخيّاط في ثنايا ردّه على ابن الراوندي في كتابه (الانتصار) وسائر المؤرخين، ونبدأ بالكتب التي وضعها وهو مع المعتزلة، ثم الكتب التي وضعها بعد أن هجرهم واختلف معهم، أو كما يقول ابن البلخي الكتب التي وضعها وهو ملحد وزنديق:

١ - كتاب الابتداء والإعادة	(ذكره ابن البلخي)
٢ - كتاب الأسماء والأحكام	(ذكره ابن البلخي)
٣ - كتاب خلق القرآن	(ذكره ابن البلخي وابن النديم)
٤ - كتاب البقاء والفناء	(ذكره ابن البلخي)
٥ - كتاب لا شي إلاّ موجود	(ذكره ابن البلخي)
٦ - كتاب الطبائع في الكيمياء	(ذكره الانتصار وابن المرتضى)
٧ - كتاب اللؤلؤ	(ذكره ابن البلخي)

وبعد انفصاله عن المعتزلة واختلافه معهم ألّف الكتب الآتية:

٨ - كتاب الإمامة	(ذكره الانتصار وابن المرتضى)
٩ - كتاب فضيحة المعتزلة	وقد وضع الخيّاط كتاب (الانتصار) ردّاً عليه.
١٠ - كتاب القضيب: سماه ابن البلخي: كتاب القضيب الذهبي	(ذكره ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان).
١١ - كتاب التاج	(ذكره الخيّاط وابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان) وذكر ابن النديم أن أبا سهل النوبختي ردّ عليه في كتابه "السبك" (الفهرست ص ١١٧)

١٢ – كتاب التعديل والتجوير	زعم فيه أنه من أمرض عبيده، فليس بحكيم في ما فعل بهم ولا ناظر لهم ولا رحيم بهم، كذلك من أفقرهم وابتلاهم (الانتصار ص١):
١٣ – كتاب الزمرد	ذكر فيه آيات الأنبياء فطعن فيها وزعم أنها مخاريق – حسب كلام الخيّاط – (ذكره ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان والخيّاط).
١٤ – كتاب الفرند	انتقد فيه الأنبياء، وقد ردّ عليه أبو هاشم (أشار إلى ذلك ابن المرتضى، ويقول ابن البلخي: إن الخيّاط ردّ عليه) (وجاء ذكر هذا الكتاب عند ابن البلخي وابن المرتضى وابن خلكان).
١٥ – كتاب البصيرة	(ذكره أبو العباس الطبري، وقال إنه ألّف هذا الكتاب نزولاً عند رغبة اليهود وطعناً في الإسلام).
١٦ – كتاب الدامق	(ذكره ابن البلخي وابن المرتضى)، وذكر ابن البلخي بأن الخيّاط ردّ على هذا الكتاب، وقال أبو علي الجبائي إن ابن الراوندي كتب هذا الكتاب بطلب من اليهود، وأثار غضب السلطان، وقد أمر بإحضاره لكنه هرب والتجأ إلى يهودي مات عنده.
١٧ – كتاب التوحيد	(ذكره الخيّاط في الانتصار "الفقرة ٥").
١٨ – كتاب الزينة	(ذكره صاحب "كشف الظنون " ٥ : ٩)
١٩ – كتاب اجتهاد الرأي	(ذكره ابن النديم في "الفهرست" ص ١٧٧) وأضاف أن أبا سهل النوبختي ردّ على هذا الكتاب.

ويقول المستشرق الفرنسي نيبرغ (Nyberg) في تقديمه لكتاب "الانتصار" في بحث ممتع: " يجب ألا ننسى الدور الهام الذي اضطلعت به المعتزلة في هذه الفترة في ميادين العلوم والدين والسياسة. وقد توافقت بداية ظهورهم مع قيام الدولة العباسية، وازداد نشاطهم واتسع نفوذهم ولا سيّما في أيام المأمون والمعتصم والواثق الذين استعانوا بالمعتزلة وأسندوا إليهم مناصب حكومية هامة فأصبح رجالهم من أصحاب الرأي والمشورة. فهذا أحمد بن أبي دؤاد، وهو من زعماء المعتزلة، أصبح قاضي القضاة ووزيراً للخليفة العباسي بالإضافة إلى المنزلة التي كان يحتلها عند المعتزلة. وهكذا أصبح المعتزلة الحزب الذي يظفر بالتأييد الرسمي، كما كان أقوى المذاهب والطوائف آنذاك، حتى إن أصحاب الحديث والسنّة من معارضيهم واجهوا مشكلات كثيرة انتهت بمحنة، كما حدث للإمام أحمد بن حنبل إمام الحنابلة الذي سجنه المعتصم وأفرج المتوكّل عنه. واستمر نفوذهم إلى ما بعد وفاة الواثق الذي أعطاهم من الأهمية أكثر مما أعطاهم الخلفاء الذين سبقوه، فلمّا جاء المتوكل، واتخذ سبيلاً مختلفاً من أسلافه من حيث احترام أهل المذاهب والنحل، احتضن أهل السنّة وأصحاب الحديث الذين طالما ترصّدوا لهم، فهاجموهم شرّ هجوم، وانتقموا منهم أقسى انتقام. فأخذت المعتزلة تدافع عن نفسها وآرائها، وكتب الجاحظ كتابه: (فضيلة المعتزلة) في هذه الفترة.

وقد مر بنا أن ابن الراوندي وضع كتابه (فضيحة المعتزلة) في الردّ على هذا الكتاب، ثم جاء الخيّاط ووضع كتابه (الانتصار) الذي بين أيدينا ردّاً على ابن الراوندي .

وللاستزادة من البحث نحيل القارىء إلى ما كتبه نيبرغ:

H.S Nyberg. (Preface de Kitab Al Intisanr. Abu Al-Husayn B. Othman Al-Khayyat)

Editions les Lettres Orientales, Beyrouth, 1957

ابن الراوندي والكيمياء

كان ابن الراوندي ، كما أشرنا من قبل، من الأفذاذ القلائل الذين تبحّروا في العلوم المتداولة في عصرهم، ومنها الكيمياء. ولا ننسى أنه كان الطبقة الثانية من تلامذة الصادق (ع) ، إذ أخذ العلم من أمثال جابر بن حيان.

وإذا قلنا: إنه كان كيميائياً ، فإنما نقصد به أنه كان خبيراً في خواص المواد والعناصر منفردة ومركبة، شأنه في ذلك شأن علماء الكيمياء في عصرنا الحاضر، ولا نقصد أنه كان يستخرج الذهب من المعادن الخسيسة كما قد يتبادر إلى الذهن كلما جرى الحديث عن الكيمياء في القديم.

والواقع أن الكيميائيين في القديم قد فشلوا أيضاً في استخراج الذهب من العناصر الأخرى، وأنفقوا من المال والجهد في سبيل الظفر بهذا المعدن الأصفر ما يفوق بكثير قيمة الذهب نفسه. ولم يختلف الوضع في العصور المتأخرة بالنسبة للكيميائيين الذين اجتهدوا في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب.

ومن هؤلاء الكيميائيين في العصور الوسطى (نيقولا فلامل) الذي وضع كتاباً في الكيمياء، وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي،

أي بعد وفاة ابن الراوندي بستة قرون. وممّا قاله في كتابه (قانون استخراج الذهب أو تحويل العناصر الأخرى إلى ذهب ما يلي:

(في اليوم السابع عشر من يناير سنة ١٣٨٢ ، أخذت كمية من الجير الأبيض مع روح الخمر(الآكل) وتركتهما في قارورة من البلور، ووضعتهما فوق نار هادئة حتى أخذت تفور وتغيّر لونها إلى سواد، ومنه إلى بياض ناصع، ثم أخذ يشتدّ ويتحوّل إلى اصفرار، ثم وضعته في قارورة فيها زئبق، فبعد ما سخنت الزئبق واختلط بالمادة التي أضفتها إليه، تكوّنت مادّة غليظة بلون الذهب. فرفعت القارورة من النار، واندهشت إذ تبينت أن هذه المادّة بعدما مالت إلى البرودة كانت ذهباً ، ولكنّها أقل منه صلابة. فكنت أتصرف فيها وأطويها كما أشاء، وهذه حقيقة).

وليس ثمة ريب في أن (نيقولا فلامل) قام بمحاولات عدّة لتحويل العناصر المختلفة إلى ذهب، ولكنّ المؤكد أن الذي توصل إليه ليس بذهب. ولم يعد أحد يحفل بالقيام بمثل هذه التجربة لأن فشلها معروف سلفاً . وإن رغب أحد في إجراء هذه التجربة، فليدرك أن الزئبق يتحوّل بالحرارة إلى غاز سامّ.

وقد قيل إن ابن الراوندي كان كيميائياً ، أي كان على علم بطريقة تحويل المعدن الخسيس إلى ذهب.

ولو صحّ هذا القول، لما احتاج ابن الراوندي إلى القيام بعمل الورّاقين في استنساخ الكتب مقابل أجر زهيد.

وحياة ابن الراوندي الأصفهاني في منتصف القرن الثالث الهجري شبيهة إلى حد بعيد بحياة (إرازموس) المسيحي الهولندي الذي عاش في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، واشتهر بكتابيه (ثناء الجنون) و (الأمثال). وقد غلبت على (إرازموس) صفة التديّن والنسك على خلاف ما اشتهر به ابن الراوندي، ولا سيّما من خلال كتابه (الفرند). ومع ذلك، فقد جاءت نهاية إرازموس شبيهة بنهاية ابن الراوندي ، من حيث اتهام كليهما بالكفر والزندقة.

وقد ترجم (إرازموس) الكتب المسيحية المقدّسة من اللغة اليونانية، وأتاح لأتباع المسيح الملتزمين الحصول على نصٍّ دقيق للعهدين القديم والجديد اللذين يتألف منهما "الكتاب المقدس".

ولما شاعت ترجمة إرازموس للعهد الجديد الذي يضم الأناجيل الأربعة ، دهش المسيحيون إذ وجدوا أن هذا الكتاب المقدّس خلا من التناقضات، وأن شخصيات أصحاب الأناجيل الأربعة ظهرت من خلال هذه الترجمة واضحة مستقلة. وبهذا قدّم إرازموس خدمة جليلة إلى المسيحية والمسيحيين بعمله هذا، وكافأه عليه كثير من الملوك المسيحيين بما أرسلوه إليه من الهدايا التقديرية. وأنشأت جامعة (لوون) في بلجيكا كرسي أستاذية يحمل اسم (إرازموس) تقديراً واحتراماً ، كما أن له تمثالاً ينتصب في حديقة محكمة العدل الدولية في لاهاي بهولندا.

ولكن، كيف تُتّهم شخصية علمية دينية من طراز إرازموس بالكفر والإلحاد؟ إن الجواب على هذا السؤال كامن في الأسلوب الذي انتهجه

إرازمـوس ، فلـولا جهـده فـي كشـف المتناقضـات وإيضـاح المبهمـات فـي الكتب المقدسة وصياغتها في قـالب يسـهل علـى الجميـع فهمـه، لمـا ظهـر المذهب البروتستانتي الإصلاحي.

صحيـح أن إرازمـوس لـم يكـن مـن مؤسسـي هـذا المذهـب، ولكـنّ ترجمته مهّدت الطريق لظهوره. ذلك أن القس الألماني مارتن لوثر، لم يكـد يقرأ ترجمـة إرازمـوس للعهـد الجديـد، حتـى هـبّ إلـى نقـل هـذا السـفر المقدس إلـى اللغـة الألمانيـة إعجاباً بـه وتسـهيلاً لفهـم المسـيحية علـى حقيقتها من جانب الشعب الألماني. ولعلّ لوثر لم يفكّر آنئذٍ في الدعوة إلى مذهـب جديد في المسـيحية، ولكـن ترجمتـه الجديـدة كـانت حـافزاً علـى النهضة الدينية التي أطلق عليها اسم (البروتسـتانتية)، بمعنـى الاعـتراض علـى التقاليد الدينية السائدة وإصلاحها.

ولمّا انتشرت ترجمة مارتن لوثر للأنـاجيل الأربعـة نقـلاً عـن ترجمـة إرازمـوس ، وشـاعت بيـن النـاس، انـبرى بعـض المـتزمتين والمتعصبيـن مـن المسيحيين إلى اتهام (إرازموس) بأنه أدخل البدعة، ورموه بمحاولة إشاعة الفرقة بين المسيحيين من خلال ترجمته للعهدين القديم والجديـد، وحكمـوا عليه بالهرطقة والكفر.

ولكنّ جماعة أخرى من الآباء المسـيحيين المتنوريـن نفـت عنـه هـذه التهمة وأيدته، وأرسل البابا (آدرين السادس) رسالة إلى (إرازمـوس) قـال فيها إنه لا يشك في حُسن نيتـه فـي ترجمـة الكتـاب المقـدس، ولكـنّ عليـه

إظهاراً لسلامة موقفه ودفعاً للشبهات أن يوضح رأيه في الحركة البروتستانتية.

ولم يكن إرازموس يفكّر في مناصبة لوثر أو الحركة البروتستانتية الجديدة العداء، إلا أن رسالة البابا دفعته إلى نشر كتاب مفتوح نفى فيه تأييده للوثر وللحركة البروتستانتية. ومع ذلك، مازال كثيرون من المهتمين بالدراسات المسيحية في هذا القرن (العشرين) يعتبرون إرازموس من مؤسسي الحركة الإصلاحية البروتستانتية.

أوردنا ما تقدم لكي نوضّح أن أوجه الشبه بين (إرازموس) و (ابن الراوندي) في العقيدة الدينية قليلة إن لم تكن معدومة لأن الأول كان من رجال الدين الأتقياء، ولم يتَوخّ بترجمته للعهدين القديم والجديد إشاعة الفرقة بين المسيحيين، حتى وإن ظُنَّ أن هذا كان مقصده، في حين أن ابن الراوندي كان على النقيض منه تماماً من حيث الإيمان والسلوك.

والواقع أن ظهور ابن الراوندي في القرن الثالث الهجري كان من آثار حريّة الرأي والبحث التي أرست مدرسة الإمام الصادق (ع) دعائمها، وجادت بيانع الثمار في النهضة العلميّة الفريدة التي ظهرت في عصر الدولة العبّاسية. وقد حرص الشيعة على هذه الحرية، فكانت من أسباب استقرارهم وتوسّعهم وتقدّمهم، ولم نقرأ في تاريخ الشيعة أن حُكم الإعدام قد نُفّذ في أحد لمجاهرته برأي يخالف العقيدة السائدة، ولا أنّ تُهَمَ الزندقة والإلحاد قد وُجّهت إلى أحد بسبب رأي فلسفي ذهب إليه أو خلاف في أمور العقائد،

وغاية ما في الأمر أن الشيعة كانت تُسمِّي معارضيها بالمخالفين أو المعاندين وحسب.

وقد وُفّقَ ابن الراوندي إلى تقديم كتابه (الفرند) إلى الخليفة العباسي المتوكّل، الذي ألقى عليه نظرة متفحصة سريعة ولم يطالعه بتدقيق وإنعام نظر، ولكن هذه النظرة السريعة كانت كافية لإثارة غضبه وانتباهه، لأن ابن الراوندي ضمّن كتابه فصلاً عن تاريخ شجرة السرو في كاشمر، وكان المجوس ينظرون إليها نظرة تبجيل اعتقاداً منهم بأن الزردشت هم الذين غرسوها(١٤٩).

ومما رواه ابن الراوندي أيضاً أن المسلمين كانوا بدورهم يقدسون هذه الشجرة ويجلّونها، وهو قد كان يهدف من عرض القضايا التاريخية والاجتماعية إلى تعزيز رأيه الفلسفي، كما كان يقصد من عرضه لتاريخ شجرة السرو الكاشمرية أن يقول إن هذه الشجرة اكتسبت قداسة وألوهية عن الناس.

فلما قرأ المتوكل هذا الكلام، غضب غضباً شديداً ، وقال: ما كنت أعلم أن في خلافتي وفي دار الإسلام شجرة خضراء يعبدها الناس، وفي سورة غضبه، طلب قطع هذه الشجرة واقتلاعها من جذورها خشية أن تنبت

---

(١٤٩) أورد القزويني في كتابه "آثار البلاد" وصفاً لهذه الشجرة وما تحظى به من تبجيل من الناس، ولكن يؤخذ من هذا الوصف أنها ليست شجرة سرو بل شجرة (الأثل) المعروفة بضخامة جذوعها وقدرتها على التعمير قروناً طويلة، ولا سيما في منطقة خراسان، ومازال الناس يشاهدون هذه الشجرة في جنوبي خراسان ويولونها من التبجيل ما استأثرت به في أزمنة التاريخ المختلفة (المترجم).

من جديد. وبعث بأوامره إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر واليه على خراسان، طالباً منه أن يتحقق من هذا الأمر ويوافيه بتقرير عاجل.

فأوفد طاهر بن عبد الله جماعة لكي تتحرى صحة هذا الأمر، ثم كتب إلى الخليفة قائلاً : نعم، الشجرة قائمة، والناس يكنّون لها احتراماً دون أن يعبدوها. وأضاف: إنه لم يجد في خراسان أحداً يقول بألوهية هذه الشجرة.

ومما رواه القزويني أن الخليفة أمر بقطع الأشجار ونقل أغصانها وفروعها إلى بغداد، ومن غرائب المصادفات أن الأشجار المقطوعة وصلت إلى بغداد في نفس اليوم الذي قتل فيه المتوكل بيد ابنه المنتصر (٢٣٦ هـ)، وقيل وقتها: إن المنجّمين حذروا المتوكل من قطع هذه الشجرة لئلا يتعرض لحادث مؤلم.

ويقال إن مؤبد المؤبذان "الحرّاق" بخراسان دعا بالموت(١٥٠) على الخليفة عندما سمع أنه أمر بقطع هذه الشجرة.

أما النقطة الثانية التي أثارت نقمة المتوكل وحيرته في كتاب (ابن الراوندي) فهي كلامه عن آراء الناس في الله وفي التوحيد، فسأل الخليفة ابن الراوندي : هل قرأ كتابك هذا غيري؟ فأجابه:نعم، فزاد هذا في دهشته ونقمته، وقال: كيف يُترك مثلك حُرّاً بعد هذا الكفر؟

---

(١٥٠) يقول الأستاذ نوبخت "وهو من الأدباء المعاصرين، إن شجرة السرو التي أمر المتوكل بقطعها كانت في (كشم)، وهي قرية في ناحية (بست) من توابع نيسابور، وهناك كشم أخرى في سيستان، والثالثة جزيرة في الخليج الفارسي. (جريدة خاك وخون / ٢٤ بهمن ١٣٤٧) (المترجم).

ثم قال لابن الراوندي : أنت أنكرت وجود الله، وتقول إن ما تعتقده الناس في الله أسطورة من الأساطير انتقلت من جيل إلى جيل؟ كيف تقول هذا؟ ومن خلق الخلق وأوجد العالم إذا كانت هذه الحقيقة في رأيك أسطورة؟

فلزم ابن الراوندي الصمت خوفاً من غضب السلطان وتحاشياً لنقمته وعقابه. فقال له الخليفة: إنَّ من ينكر وجود الله، عليه إقامة الحجة على ذلك، ولولا هذا لأمرت بقتلك، فأجاب ابن الراوندي : يجب تصحيح قولي بأن أعظم الأساطير في حياة الإنسان هو تصوّره عن الخالق.

فسأله المتوكل: ما قصدك من هذا الكلام؟

قال: إن تصوّرات الإنسان عن الخالق والمبدأ محاطة بالأوهام والأساطير، لأن فكر الإنسان يعجز عن إدراك الخالق أو معرفة أوصافه.

فقال المتوكل: إنني أقبل منك هذا الرأي والتوضيح، لكن عليك أن تضيفه إلى كتابك وتسجله بنفسك.

واستطرد ابن الراوندي يقول: من أعظم الأساطير في حياة الإنسان تلك الصورة التي يرسمها الإنسان بوهمه عن الخالق.

قال المتوكل: إذن أنت تعترف بوجود الله، وتراه خالق كل شيء؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين. أعترف بذلك.

فأخذ المتوكل يسأله عن النقطة الثالثة في كتابه (الفرنـد)، التي تـدور حول النبوّة وإرسال الرسل، وكان بعض الشـيعة قـد تصدى لـلردّ على ابـن الراوندي حول هذا الموضوع، ولكن المتوكل كان خالي الذهن عن ذلك.

وكان ابن الراوندي قد طعن في حجة المتكلمين حيـن أقـاموا البرهـان على وجوب إيفاد الرسل لإرشاد الخلق وهدايته، قائلاً : ليـس بواجـب على الله أن يرسل الرسل أو يبعث أحداً من خلقه ليكون نبيّه ويرشد النـاس إلى الصواب والرشد، لأنّ في قدرة الله وعلمه أن يجعل الإنسـان يرقى ويمضي إلى رشده وصلاحه بطبعه، كما خلق الشجر والنبات وهي تنمو وتثمـر دون أن يجعل لها نبياً .

فقال المتوكل: أنت أنكـرت ضـرورة إرسـال ومهمـة الأنبيـاء، وأنـت بهذا تنكر أصلاً من أصول الإسلام.

وعلى الفور انتقل ابن الراوندي إلى ماكتبه بعض الشيعة في الردّ عليه، وبدأ يوضّح للخليفة أنه يقصد مـن هـذا الكـلام الـردّ على المعتزلـة، وأنـه لا يشك في أن الإنسان يختلف عن الحيوان والنبات، وأنه بحاجـة إلى رعاية وتربية منذ الولادة إلى آخر يوم من أيام حياته، وأن الإنسان خلق ليعيش مع غيره ويستأنس بمثله، يقتدي به يقلّده ويـأخذ عنـه، ومـن مُقتضى العقـل أن يكون الأخذ والتقليد من الإنسـان الكـامل، فكيـف لـو كـان نبيـاً مرسـلاً ؟ وهكذا ينتظم المجتمع الإسلامي، ويرقى الإنسان ويسير نحو الكمال.

قال الخليفة: فإذن أنت مقر برسالة الأنبياء والكتب المرسلة؟

قال ابن الراوندي : نعم.

فطلب منه الخليفة أن يسجّل هذا بخطّ يده، ففعل.

الموت في رأي ابن الراوندي

من المسائل الهامة التي تعرض لها ابن الراوندي في كتابه (الفرند) مسألة الموت، وقد استثار هذا الرأي انتباه المتوكل، فسأله: ما معنى هذا الكلام الذي تنسبه إلى الحكيم فيثاغورث حيث يقول: "مادمت موجوداً ، فلاموت، وإن جاء الموت، فلا وجود لي، فلا داعي إذن للتفكير في أمر ليس لي به شأن وأنا حيّ؟" أو ليس هذا هو كلام المشركين الذين ينكرون حقيقة الموت والبعث؟ أو ليس هذا كلام حكماء اليونان الملحدين؟

فأجاب ابن الراوندي قائلاً : ياأمير المؤمنين، لم أحاول أن أطرح هذه المسالة من الناحية الدينية، وإنما أوردت آراء الحكماء السابقين في الموت، وكيف أن سرّ الموت لا سبيل إلى معرفته، فالإنسان منذ ما خُلق وهو يبحث عن سرّ الموت لكي يحول دون وقوعه، فأخفق حتى الآن في هذا السعي، وقد لا يوفّق في الاهتداء إلى سرّه إلى الأبد.

فقال المتوكّل: إذا عرف المرء كيف يحافظ على توازن جسمه، وكيف ينهار هذا التوازن، فلعله يعرف سرّ الموت ويحول دون وقوعه.

فدهش ابن الراوندي لذكاء المتوكّل ودقّة تعبيره، وعقّب عليه قائلاً : يا أمير المؤمنين، هذه وظيفة الأطباء الحكماء والمتكلّمين.

فقال المتوكل: إن التحقق من سر الموت ومعرفة مصير الإنسان لا ينحصر في الأطباء وحدهم، لأن لعلماء الدين والتفسير دوراً أهمّ في معرفة سر الموت من خلال تفسير الآيات القرآنية، وتدبّر معانيها وما ترمز إليه.

ويُفهم من كلام المتوكّل هذا أن المسلمين كانوا في هذه الحقبة التاريخية يعتقدون بأن للآيات القرآنية معاني ظاهرة ودلالات خفيّة أو معاني باطنية، وأن استكناه المعاني غير الظاهرة ليس في مقدور أي مسلم أو أي إنسان.

ومنذ ما ظهر الاعتقاد بالوجه الظاهري والوجه الباطني للآيات القرآنية في مطلع القرن الثاني الهجري، وهذا الاعتقاد آخذ في الاتساع ولا سيّما في القرنين الثالث والرابع للهجرة، حتى لقد ظهرت فرقة إسلامية عرفت بـ"الباطنية"، لأنها كانت تفسر الآيات القرآنية وتؤولها بمعانيها غير الظاهرة.

ويتصور البعض أن الشيعة وحدهم هم الذين يعتقدون بوجود معانٍ باطنية أو غير ظاهرة للقرآن الكريم، في حين أن هذا الاعتقاد كان شائعاً لدى المسلمين منذ القرن الثاني للهجرة، وكانوا يستشهدون على وجود المعاني الظاهرة والباطنة بآية قرآنية تشير إلى هذا(١٥١).

وكانوا يعتقدون كذلك بأن لكل من يعرف المعاني الباطنية والخفيّة في القرآن الكريم مرتبة تدنو من مرتبة النبي (ص)، لأن النبي (ص) كان يعلم حقائق القرآن بالوحي، فإن عرفها غيره كانت له مرتبة رفيعة في العلم، ومن

(١٥١) الآية المقصودة هي السابعة في سورة آل عمران وقد جاء فيها: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يَذَّكّر إلاّ أُولو الألباب﴾.

رأي الشيعة أن الأئمة كانوا يعرفون حقائق القرآن بفضل اقترابهم من الرسول(ص) وتوارثهم لعلمه وفضله.

وكان لابن الراوندي آراء في الموت تسترعي الاهتمام وتثير الدهشة، منها قوله في نظرية له بأن (الناس جميعاً لا يعلمون كيف يموتون ، ولو جرّب الإنسان الموت ما أدركه أو عرفه حقّ المعرفة، وإن معاينة موت الآخرين لا تعلّم الإنسان شيئاً عن أسرار الموت).

وله نظرية ثانية تقول: (لا يسع أحداً أن يعدّ نفسه ميتاً ، لأن هذه الحالة تستحيل مع الحياة، لأن المرء إن تخيّل أو ظن بأنّه ميّت، كان هذا التخيل أو الظن في حدّ ذاته دليلاً على أنه حيّ وليس بميت، لأن التفكير والتخيّل والظن هي من خصائص الأحياء).

ومؤدّى نظريته الثالثة أنه (لايسع أحداً أن يشعر بعد موته بأنه جسد ميت، لأن هذا الشعور يتنافى مع الموت الحقيقي الذي يموت معه كل شعور أو إحساس).

ويضيف ابن الراوندي إلى ذلك قائلا (إن الميت ينسلخ من شعوره الباطني أو ضميره، لأن الضمير من خصائص الحياة، ولو أن ميتاً عرف نفسه ، وشعر بأنه في حالة معينة، لكان معنى ذلك أنه ليس بميّت، لأن الميّت لا يشعر بشيء ولا يفطن إلى مَنْ حوله، ولا يعرف أهله والمجتمعين من حوله، ولا يشعر ببكاء الغير على فقدانه، ولو حدث شيء من هذا القبيل، لكان غير ميت).

وتقول النظرية الرابعة لابن الراوندي إنه (لايسع الميت أن يتصور نفسه في العالم قبل الموت، ولو مات أبو الحسن (كنية ابن الراوندي نفسه) ووُضع في قبره، لم يتأتّ لهذه الجثة الهامدة أن تتصور نفسها في عالم ما قبل الموت، أو أن تشعر بأنها أبو الحسن).

وأما النظرية الخامسة لابن الراوندي ، فمؤدّاها (أن النظريات الأربع التي سبق إيرادها مستمدة من كون الإنسان عاجزاً عن إقناع نفسه بأنه سيموت، وبأنه سينعدم من هذا الوجود، فلدى الإنسان شعورٌ بأنه لن يموت أبداً ، وأنه حين يثوي في قبره سيعيش ويبقى حيّاً ، وإن يكن ذلك بطريقة أخرى وبنشأة تختلف عمّا كان عليه في هذه الدنيا).

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن الإنسان يرقد نائماً في كل يوم ثم يصحو من نومه، ممّا يجعله يعتقد بأن الموت شبيه بالنوم، وبأنه سينهض منه كما ينهض كل صباح من نومه، ثم إن الأحلام التي يراها النائم تعزز هذه الفكرة بدورها وتطرد من مخيلته فكرة الموت أي العدم) ويقول ابن الراوندي في كتابه (الفرند): (إن الإنسان قد يرى نفسه ميتاً في الحلم، في حين هو حي، فيزيده ذلك اعتقاداً بأن حالة النوم لا تختلف عن الموت في شيء، وبأن الموت شبيه بالنوم الطويل العميق، وبأن الإنسان الراقد في سُبات الموت يعرف نفسه ويرى ما حوله ويدرك ما يجول في خاطره).

ولكن الواقع خلاف ذلك، لأن الجسم البشري متى فارقته الروح وأدركه الموت، يفقد كل شعور وإحساس، ثم تدبُّ فيه عناصر البلى شيئاً

فشيئاً ، ويتحول إلى عناصر وأجسام أخرى، كما أن الشعور والأحلام والخواطر إن هي إلاّ من فعل الجسم البشري الحي).

وفي هذا المقام يستشهد ابن الراوندي بما درج عليه المصريون القدماء من تحنيط أجساد الموتى اعتقاداً منهم بأنهم عائدون إلى الحياة من جديد، ولهذا فإنهم كانوا يحاولون الاحتفاظ بالجسم سليماً ليتسنى للروح العودة إليه بعد ذلك متى أرادت. ولكنه يأخذ على المصريين تجريدهم أجسام الموتى المحنطة من الأمعاء والقلب، قائلاً : كيف لجسم كهذا أن تدبّ فيه الروح متى عادت إليه مرّة أخرى؟

هذه طائفة من الآراء الجريئة التي نادى بها ابن الراوندي وأحدثت ضجّة كبيرة في بغداد كادت تنتهي بقتله بتهمة الإلحاد والكفر، لولا توبته في محضر الخليفة المتوكل.

الأدب عند الإمام الصّادق «ع»

تطرّقنا في ما سبق إلى تاريخ ابن الراوندي في عاصمة الخلافة العباسية، متوخّين من ذلك تجلية معالم المدرسة التي أنشأها الإمام جعفر الصادق (ع) وأعلى فيها مكانة الحرية في التعبير عن الرأي وإجراء البحوث، حتى إن الذين عارضوا آراء هذه المدرسة لم يتعرضوا لأدنى أذى أو تهديد بسبب إتيانهم بآراء معارضة.

وها هو ذا ابن الراوندي ، كتب وألف ونشر آراءه الشّاذة في مناطق الشيعة فلم يلحقه أي أذى، وكان قُصاراه أن العلماء انبروا لنقد آرائه والردّ عليها بالأسلوب العلميّ، مع أن هذه الآراء هي عينها التي جلبت عليه المخاطر في عقر دار الخلافة العباسية مرتين، مرة من جانب الخليفة العباسي، ومرة من جانب الفرق الدينية المتزمتة، ولولا تدخّل صاحبه عباس الصرم الورّاق، لحكم عليه بالموت.

وكان من أسباب استمرار الثقافة والمعارف الجعفرية وقدرتها على تخطي المراحل الصعبة أن هذه المعارف قامت على أصول أربعة، أوّلها هو الدين أو المذهب فهو ركنها الركين، أما الأركان الأخرى فهي الأدب، والعلم، والعرفان.

ولا نعرف في تاريخ الأديان في العالم مذهباً أو ديناً اهتم إلى جانب أمور العقيدة بأمور الأدب والعلم اهتمام المذهب الجعفري بهما. بل بلغ الاهتمام بالأدب في مدرسة جعفر الصادق (ع) مبلغاً جعل الباحثين يتساءلون عن أيهما الأهم عند الإمام: الأدب أم المذهب، والعلم أم الأدب؟

وكان من رأي الإمام الصادق (ع) أن العلم والأدب يعمّقان إيمان المؤمن، وأن قيمة كل امرىء ما يُحسنه. وكان يقول إن إيمان العالم أعمق من إيمان العاميّ، وإن العاميّ لن يعرف حدود إيمانه، ومبدأه ومنتهاه، ولن يسلم من التغيير والتبديل إلا إذا تعلّم وأصبح إيمانه إيمان علم ووعي وفهم وإدراك.

وضرب الإمام للناس أمثلةً استقاها من التاريخ، فقال: إن الإسلام انتشر في ربوع الأرض انتشاراً سريعاً ودخله الناس أفواجاً ، ولكن أهل العلم والأدب في الأمم الأخرى تريثوا حتى استيقنوا من حقيقة الإسلام، وعرفوا نُظمه، واتضحت لهم مزاياه الاجتماعية والمعنوية، ثم أقبلوا عليه وسخروا ملكاتهم العلمية في استيعاب الدين وعلوم القرآن وفهمها ونشرها*.

وتعريف الأدب عند الإمام الصادق (ع) تعريف فريد ليس له مثيل. فهو يقول: إن الأدب هو لباس العلم والفكر الذي يقرّ بهما من فهم السامع والقارىء، وبهذا التعريف وضع الأدب في موضعه الحقيقي، دون أن ينتقص من منزلة العلم والفكر. فللعلم قيمته، وللأدب زينته، وهو الوسيلة التي تقرّب العلم إلى الأذهان.

(*) وهذا ما نشاهده فعلاً حتى في عصرنا الحاضر فهذا روجيه غارودي مثلاً .

وهذا أشمل تعريف للأدب منذ اثني عشر قرناً ونصف قرن، أي منذ وفاة الإمام الصادق (ع) ، فلم يأت أحدٌ بتعريفٍ أجمع منه أو أوجز.

وللإمام تعريف آخر للأدب مؤدّاه أن الأديب قد لا يكون علماً ، ولكن لا علم يخلو من أدب، وهذا بدوره تعريف جامع موجز أيضاً لعلاقة الأدب بالعلم.

وليس في وسعنا أن نجزم بأي الموضوعين كان أعزّ على الإمام وأقرب إلى قلبه: العلم أو الأدب، ولا يسعنا أن نعرف هل كان الإمام مثلاً يفضل الشعر على الفيزياء، أو نقيض ذلك.

والذي نراه في مجتمعنا الحاضر أن قلّة من الناس هي التي يتساوى عندها حبُّ العلم وحب الأدب، أما الأكثرية فينصرف اهتمامها إما إلى العلم وإما إلى الأدب. والذي ينهج نهجاً أدبياً ، يرى في غيره قوماً ماديين لا يستهدفون إلا غايات مادية*، ولكنه يرى في الأدباء قوماً رقّ ذوقهم ولطف تفكيرهم وتميزوا على غيرهم بقوة الخيال وشفافية الذوق ودقة الفهم.

أما الذي ينهج نهجاً علمياً ، فهو يرى في الأدب ملهاةً ومسلاة، ويعتقد أن الانصراف إلى الأدب ليس من دواعي العقل السليم، لأن الأدب لا يُشبع من جوع.

(*) بمعنى أنهم لا يهتمون بالقيم الجمالية التي تبثها الآداب في النفوس.

وليس يهمنا رأي شاذ تقول به فئةٌ من الناس انحازت إلى العلم، حتى قبل عصر المخترعات والصناعات، فلما تمخض العلم عن الصنعة، وجلبت الصنعة ثروات طائلة لهؤلاء القوم، استهانوا بالأدب، وفضّلوا عليه العلم.

أما الإمام الصادق (ع) فقد كان من القلائل الذين أولوا العلم والأدب اهتماماً كبيراً ، واستوى عندهم طالب العلم وطالب الأدب، وكان يقول:

ليس اليتيم الذي قد مات والده إنّ اليتيم يتيم العلم والأدب

وكان العرب قبل عصر الإمام الصادق (ع) يعنون بالأدب الشعر، وهناك آثار من الأدب المنثور نلمحها في العصر الجاهلي(١٥٢) ، ولكن الآثار الأدبية المنثورة كانت قليلة في القرن الأول من تاريخ الإسلام، باستثناء ما أبدعه المسلمون في هذه الفترة، وفي طليعتهم الإمام علي (ع) ، الذي كان من أمراء النثر، وكانت خطبه في المناسبات المختلفة ذروةً في البلاغة النثرية، وقد قام واحد من أحفاده بجمع خطبه في كتاب أسماه "نهج البلاغة"* .

---

(١٥٢) في العصر الجاهلي خطباء اشتهروا بالفصاحة والبلاغة، واحتفظ التاريخ الأدبي بمقتطفات من خطبهم وأحاديثهم، ومنهم قس بن ساعدة وقد عاصر الرسول (ص).

ولعل المؤلف يقصد أنهم لم يتركوا مؤلفات وآثاراً أدبية منثورة بالقدر الذي خلفه الشعراء.(المترجم).

(*) هو السيد الشريف الرضي الشاعر الأديب محمد بن الحسين بن موسى من أحفاد الإمام الكاظم عليه السلام توفي سنة ٤٠٦ هـ.

وبفضل الإمام الصادق (ع) وتشجيعه للأدب عند العرب، ظهرت كتابات منثورة اعتباراً من هذا العصر.

وقد قيل إن الإمام الصادق (ع) هو أوّل من رصد جائزةً أدبية في تاريخ العرب، ولكن إذا كان المقصود بالجائزة الأدبية هو إعطاء الأديب أو المؤلف مبلغاً من المال، فإن جائزة الإمام (ع) تختلف عن ذلك، لأن العرب اعتادت منح جوائز إلى الشعراء وتقريبهم من الحاكم، وهي عادة استمرّت بعد الإسلام، فكان الشعراء يمدحون الولاة تقرّباً منهم.

ولكن العرب لم تألف تقريب أصحاب الأدب المنثور أو مؤلفي الدراسات الأدبية أو التاريخية إلى الولاة، وهنا جاء صنيع الإمام الصادق (ع) صنيعاً مقدّراً .

والذي لا ريب فيه أن الإمام الصادق (ع) شجّع الأدب بنوعيه المنثور والمنظوم، وعيّن جائزة له، ولكننا لا نعلم على وجه اليقين هل كان هو البادىء بهذا أو أبوه الإمام الباقر (ع) .

وكانت هيئة التحكيم تتألف في بادىء الأمر من الإمام نفسه واثنين من تلاميذه، ثم أصبحت تتألف من خمسة أعضاء، وتعطى الجائزة باتّفاق ثلاثة منهم.

وكان من عوامل انتشار الأدب وذيوعه في أيام الإمام الصادق (ع) أن الإمام لم يكن يفرض على الناس رأياً بعينه أو اتجاهاً منصوصاً عليه في الكتابة. فكان الأديب يختار الموضوع الذي يتفق مع رغبته وذوقه، كما

كان الإمام من ناحيته يرحّب بالأثر الأدبي، منثوراً أو منظوماً ، ويتقبله برحابة صدر وإنعام نظر.

وفي رأيه أن الأديب هو الذي يُبدع أثراً في النظم أو النثر يتفق مع تعريف الإمام (ع) للأدب، وليس كل من أوتي قدرةً على ارتجال القصائد أو الخطب أو المواعظ، كما كان يرى أن الأدب ضرورة للثقافة الدينية، بل هو ضرورة لتعزيز مكارم الأخلاق في نفوس الناس وإعلاء شأنها والسموّ بها* وكان من رأي الإمام جعفر الصادق (ع) أن نشر المعارف الشيعية التي أقيمت أركانها على أربع دعائم، هي المذهب والأدب والعلم والعرفان، أهم من بناء مراكز وإقامة مؤسسات ضخمة للشيعة، كما هو الشأن عند الكاثوليك مثلاً . وكان يرى أن المجتمع الذي يتحلّى أفراده بالعلم والأدب، والذي يبرأ من الظلم والعدوان على حقوق الغير، هو المجتمع الذي تنتظم فيه العلاقات بين أفراده، وتطّرد أمورهم في سهولة ويسر.

ولهذا لم يشيّد الإمام الصادق (ع) لأتباعه مركزاً ضخماً أو صرحاً باذخاً ككنيسة القديس بطرس[١٥٣] في الفاتيكان، ولكنّ الرصيد الذي خلّفه

(*) أي أن للأدب – في رأي الإمام الصادق عليه السلام – مهمة أو دوراً في المجتمع فهو الأدب الملتزم بقضايا هذا المجتمع والساعي إلى تطبيق القيم ومكارم الأخلاق فيه لضمان سعادته.

(١٥٣) كنيسة القديس بطرس الشهيرة في الفاتيكان بروما وتُعرف في الفرنسية بسان بيير، وفي الإيطالية بسنت بطر وباللاتينية بسانكته بطروس هي أعظم كنائس العالم وأجملها، ويقع المقر البابوي بالقرب منها، ويزورها كل عام ما لا يقل عن ١٥ مليون زائر من جميع أنحاء العالم، ومنذ أربعمئة عام وهناك هيئة فنية قوامها أكثر من ٥٠ شخصاً تعمل بمعاونة نحو مئة عامل في صيانة هذا الأثر الفني العظيم وترميمه وتجديده بصورة مستمرة، وتسمى هذه الهيئة بالإيطالية "سام بيه تري"، –

من التراث الثقافي كان أدعى إلى الاستمرار والحيوية من الصروح البابوية الباذخة، فقد كان يدرك أن المشيدات من الأبنية قد تنهدم، كما كان مصير المبنى الأول لكنيسة القديس بطرس، ولكن المعارف والعلوم الشيعية التي أرسى الإمام قواعدها قويت رغم جميع المناوئين والمعارضين.

وقد شيدت كنيسة القديس بطرس للمرة الأولى بأمر من الامبراطور قسطنطين الروماني، وكان أول امبراطور مسيحي، واستغرق بناؤها عدة سنوات منذ شرع فيه عام ٣٢٦ م، ولم تلبث هذه الكنيسة أن هُدمت بأمر من البابا يوليوس الثاني، وشيّدت في مكانها الكنيسة الحالية، وهي بدورها تحمل اسم القديس بطرس.

ولو انصرف اهتمام الإمام الصادق (ع) إلى بناء العمائر أو المدارس العظيمة المشيدة، لكان من الميسور هدمها بفعل الأحداث أو المناوئين، ولاندثرت آثارها في يومنا الحاضر. ولكنه آثر أن يرسي أساس ثقافة دينية لا تزعزعها الأعاصير، فطاولت الزمن ولم يقو المناوئون على القضاء عليها. وحرص الإمام على توطيد أركان الدعائم الأربع التي سبق ذكرها، بحيث أن القرن الثاني الهجري لم يكد ينقضي حتى انتشر العلم والأدب في ربوع العالم الإسلامي، وانطلقا به إلى عصر النهضة.

- وهي تضم مجموعة من المهندسين المعماريين الإيطاليين وهذه الكنيسة التي استغرق تشييدها ١٢٠ عاماً ، تمثل الطراز المعماري لعصر النهضة في أوروبا عامة وإيطاليا خاصة، وحرصاً من الدول المحاربة على هذا الأثر الباذخ، امتنعت أمريكا وبريطانيا عن ضرب روما بالقنابل في الحرب العالمية الثانية.

فلولا مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) ولولا تشجيعه الشخصي لجميع جوانب العلم والأدب، لما ازدهرت العلوم في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وإن الذين ينسبون إلى الخلفاء العباسيين فضلاً في الازدهار الذي عرفته العلوم في العالم الإسلامي، آنذاك، يخطئون في تقديرهم وحكمهم، لأن الخلفاء العباسيين الأوائل كان همهم الشاغل توطيد أركان حكمهم والقضاء على الأمويين وخصومهم، أما الخلفاء الذين أتوا من بعدهم، فلم يعرف عنهم إلا الانغماس في الملذات والفسق والشراب ومجالس اللهو واللعب، مما استفاضت أخباره في كتب السير والتاريخ، ولئن نُسب إلى المأمون والمتوكل اهتمامهما بالعلم، فإن هذا لم يشغل من وقتهما إلا جانباً صغيراً ، وإن قلّة قليلة من مجموع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين الذين تداولوا الحكم في معظم العالم الإسلامي طوال خمسمئة عام هي التي عزفت عن الملذات وانصرفت إلى العلم والأدب. وقد اضطلعت هذه القلّة القليلة بدور كبير في تطوير العلوم والحضارة الإسلامية، بفضل ما توافر لها من الإمكانيات المادية الضخمة التي مكنتها من تقديم الهبات والعطايا السخيّة إلى العلماء والشعراء والأدباء، واجتذابهم من أقطار الأرض وتشجيعهم على التأليف والاستنساخ، فضلاً عن قيامهم بتأسيس دار الحكمة في بغداد.

وممّا يذكر أن العرب في الجاهلية(١٥٤) كانت لهم عناية فطرية وتقليدية بالشعر، أي الأدب المنظوم.

---

(١٥٤) يقول أحمد أمين في كتابه "ضّحى الإسلام" عند عرضه لخصائص الأمم الإسلامية ومميزاتها "اشتهر العرب مثلاً بالقدرة على الشعر، حتى قال أحمد بن أبي دؤاد: ليس أحد من العرب إلا وهو

يقول الفيلسوف الألماني شوبنهاور[155] إن البدويّ العربي كان يستمع إلى إنشاد المقطوعات الشعرية فراراً من الكسل وتزجية للوقت.[156] .

وهذا الرأي لا ينسحب على العرب وحدهم، وإنما ينسحب على الناس جميعاً، لأن شوبنهاور كان يقول بأننا إذا استثنينا الوقت الذي يصرفه المرء في تحصيل الكسب، فإن كل الجهد الإنساني إنما ينصرف إلى الاهتمامات الشخصية وإزجاء الوقت.

وقد علّق هذا الفيلسوف فوق مكتبه لوحةً كُتبت عليها عبارة "عدوّك من دعاك إلى غداء أو عشاء، فمنعك بذلك عن العمل". ولا يسعنا إلا أن نقول بمنطق شوبنهاور نفسه إنه اشتغل بالفلسفة فراراً من البطالة، ذلك لأنه كان يدرس الفلسفة ويرتزق منها.

- يقدر على قول الشعر طبعاً ركّب فيهم، قلّ أو كثر" (الأغاني جزء ٢٠ ص ٥١، ضحى الإسلام ج١ ص ٥/ دار الكتاب العربي بيروت).

(١٥٥) آرثر شوبنهاور Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠م) فيلسوف ألماني ولد في مدينة دانتزيغ، واشتهر بمذهبه الفلسفي المتشائم، إذ إنه قال: إن الألم رفيق دائم للإنسان في كل حياته، ما دام الإنسان عاجزاً عن تحقيق جميع رغباته، ولا خلاص للمرء من الآلام إلى آخر لحظة من عمره. وأشهر مؤلفاته كتاب عنوانه (دنيا الرغبة والتأمل) أو (عالم باعتباره إرادة وفكرة). وفي عُرفه أن قيمة الإنسان الحقيقة كامنة في الأخلاق، وما الأخلاق إلا إحساس بآلام الغير. وهو لا يرى للأدب أو للعلم قيمة، إذ يقول: إن الإنسان إذا تألم في بطالته وفراغه توسّل بالأدب والعلم ليملأ هذا الفراغ، وتوسل بهما أيضاً من قبيل التفاخر بذلك على عُقدة النقص والدونيّة فيه.

(١٥٦) لقد غاب عن ذهن هذا الفيلسوف أن الشعر عند العرب كان تعبيراً عن آمالهم وعواطفهم وعنصراً أساسياً في مختلف ظروف حياتهم (الناشر).

كان ديدن الشعراء العرب في الجاهلية وما بعدها التقرّب من رؤساء القبائل والأمراء ونظم قصائد المدح فيهم، ولكن شعراء الجاهلية كانوا يتوخّون الاعتدال في المديح ولا يذهبون في المغالاة مذهب الشعراء الذين جاؤوا بعدهم في العصر الإسلامي والعصور المتأخرة.

ويعتقد البعض بأن أسواق العرب كعكاظ وسواها كانت مقصد الشعراء طمعاً في الأموال والهبات، ولكن الواقع أن هذه الأسواق كانت منصوبةً لخدمة الأدب، وكان لها دور ثقافي واجتماعي هام في حياة العرب. وكان الشعراء يتسابقون في نظم قصائد التفاخر أو المديح أو الهجاء تحقيقاً لمآرب لا طلباً للعطايا والهبات.

ولكن هذه الأسواق لم تعرف إلا قصائد الشعراء وكلامهم المنظوم. أما الخطباء الذين ينثرون الكلام نثراً أو يجودون العبارة تجويداً ، فلم تكن أسواق عكاظ وسواها تعرفهم، لأن النثر كان أدنى منزلةً من الشعر.

فلمّا جاء القرآن الكريم في لسانه المبين، أقام البرهان للعرب على أن الأدب المنثور قد ارتقى إلى قمة فاقت الأدب المنظوم، وحاول العرب تحدي لغة القرآن، فكتبوا (مقامات) تنكّبت طريق الجدّ، ولكنهم أخفقوا في مساعيهم، وأصبحت اللغة القرآنية إعجازاً في البلاغة، ونموذجاً رفيعاً في الفصاحة، يُستشهد بآياته وتُستخرج منه الحكمة والأمثال في السياق الأدبي وفي السياق الديني في آن واحد.

ويُعدُّ القرآن الكريم أصلاً من أصول اللغة، بأسلوبه النثري الرائع، ولا غنى لأديب أو كاتب عنه لأنه أروع آيات البيان، وقد عجزت العرب عن الإتيان بمثله أو محاكاته. فلمّا جاء الإمام علي بن أبي طالب (ع) وحفيده

علي بن الحسين (ع) اجتهدا في اصطناع أسلوب قرآني بلاغيّ فريد، فترك الأول مجموعة خطبه مسجلة في كتاب "نهج البلاغة"، وهي فصول في الموعظة والحكمة والسياسة والأداب، وترك الثاني كتاب "الصحيفة السجادية" وهو يضم أروع النماذج في الدعاء والابتهال إلى الله ومناجاة الحبيب، مما يردده كل عارف بالله وزاهد وصوفي (حقيقي).

ثم جاء الإمام الصادق، حفيد علي بن أبي طالب (ع) فشجع الناس على الكتابة، ودفع تلاميذه وأصحابه إلى التأليف والتصنيف، فاستهل بذلك عهداً جديداً من عهود الأدب المنثور، ولا غرو، فقد مرّ بنا قوله:

ليس اليتيم الذي قد مات والده إنّ اليتيم يتيم العلم والأدب

نقد التاريخ عند الإمام جعفر الصادق (ع)

النصوص الأدبية هي تراث منسوب إلى ذويه يتقبله الناس جيلاً بعد جيل دون أن يحاولوا التصرّف فيه أو تغييره، لأنه أدب باقٍ له خصائصه الذاتية، ومن هذه الشاكلة شعر الشاعر الإنجليزي شكسبير الذي طاول الدهر، وهو محتفظ بجميع خصائصه.

أما التاريخ، فهو وإن كان بدوره علماً منقولاً ، إلاّ أنه لا يكتسب حصانة التراث الأدبي، ولابد للمؤرخ الناقد من إخضاعه للعقل والمنطق لمعرفة وجه الحق ووجه الزيف فيه، ومن ذلك مثلاً تاريخ موقعة واترلو* وما كُتب عنها من وجهات النظر المختلفة.

(*) واترلو Waterloo في بلجيكا، هزم عندها نابليون الأول في حربه مع الانجليز وحلفائهم سنة ١٨١٥م.

وقبل أكثر من اثني عشر قرناً أمر الإمام جعفر الصادق (ع) بتحكيم العقل في تناول القضايا التاريخية ومعرفة حظها من الصحة أو الزيف، وهو في هذا يطبق المناهج التي يطبقها المؤرخ الناقد في عصرنا الحالي.

ومما قاله المؤرخ اليوناني هيرودوت في مقدمة كتاب له (إن كل مالا يقبله العقل لا يلقى منه قبولاً) ومع ذلك أورد هيرودوت في تاريخه أساطير لا يقبلها العقل.

وفي التاريخ الإسلامي يعتبر الإمام الصادق (ع) أول من نظر في الروايات والتاريخ بعين النقد والتمحيص، فكان بذلك قدوة وإماماً ومرشداً لإمام المؤرخين ابن جرير الطبري الذي آلى على نفسه ألا يسجل إلاّ الرواية الثابتة وإلا ما يقبله العقل، وأنْ يهمل الأساطير والأسمار وما إليها.

وقبل الإمام جعفر الصادق (ع) كان علم التاريخ في المشرق خليطاً من الأحداث التاريخية الصحيحة والأساطير، وبهذا الوضع تناقلته الألسنة جيلاً بعد جيل، ومعروف أن الفترة السابقة على الإسلام انعدمت فيها الكتب المدوّنة في ما خلا ما سُجّل من نقوش حجرية في حضرموت وبلاد الشام وبابل وأرض فارس، وتناولت بالسرد وقائع وأحداثاً تاريخية، وإن كانت هذه النقوش دُونت بلغات مهجورة.

وكان تاريخ الإمام الصادق (ع) خليطاً من أخبار الأمم وأساطيرها، وكان النصف الأول من القرن الثاني الهجري أشبه بفصل الربيع للتأليف والكتابة، فظهرت طائفة كبيرة من الكتب والمؤلّفات التي تتناول جوانب العلم والأدب المختلفة، وإن لم يصلنا من كتب هذا العصر إلا القليل، وقد

عرفنا أخبار هذه الكتب من كتاب نفيس عنوانه "الفهرست" وضعه الورّاق ابن النديم، فدلّنا عليها وعلى أسماء مؤلّفيها وموضوعاتها، ومنها كتب السير والتاريخ.

وكان ديدن الإمام الصادق (ع) في الحكم على كتب التاريخ وفي التشجيع على كتابتها، اجتناب الأكاذيب والأساطير التي يرفضها العقل السليم.

ويقول شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد إن الإمام جعفراً الصادق (ع) كان أول ناقد للتاريخ، وأول من وضع هذا الاسم لهذا العلم، فلم تكن للعرب كُتب منثورة تحمل اسم التاريخ، وكانت الأحداث التاريخية تسجّل في قصائد الشعراء المنظومة لأغراض شتى، وليس من أهدافها المتوخاة تسجيل أحداث التاريخ، إذ إن وقائع التاريخ كانت ترد في القصائد عَرَضاً. وبعد مجيء الإسلام، بدأ تسجيل أحداث التاريخ ووقائعه، وكان يُطلق عليها اسم كتب السير أو السيرة أو الرواية.

وكان من رأي الإمام الصادق (ع) أن اختلاط التاريخ بالخرافة والأسطورة يُفقده أثره من حيث استمداد العبر واستخلاص الموعظة والدرس بغية اجتناب أخطاء السلف.

وهكذا أكسب التاريخ فائدةً اجتماعيةً أخلاقية تنأى به عن مقاصد التسلية وإزجاء الوقت.

وها نحن في يومنا المعاصر نقرأ التاريخ للاستفادة بدروسه وعبره واجتناب الأخطاء التي تورّط فيها السابقون.

وكان العالم النفسي النمسوي (فرويد)[١٥٧] يؤمن بأن للتاريخ فائدةً في استقاء العبرة، ولكنه كان يضيف إلى ذلك أن الغرائز البشرية تحول دون اتعاظ الإنسان بدروس التاريخ واعتباره بأحداث الماضي، لأنّ حب الذات والاستبداد بالرأي يورثان المرء اعتقاداً بأنه أسمى من أن يتورط في الأخطاء التي تورط فيها غيره، ومن أن يتعرض لأسباب الفشل والإخفاق التي تعرض لها سابقوه، بل إن المرء إذا استطاع التحلل من آثار هذه الغريزة، لم يتعظ بدروس التاريخ.

ولا ريب في أن الفضل يُعزى إلى الإمام الصادق (ع) في وضع أساس المنهج النقدي في التاريخ الإسلامي، بدعوته العلمية إلى نقد التاريخ وتخليصه من الأساطير والأباطيل.

وقد أوضحنا في ما سبق أن الإمام الصادق (ع) تلقى العلم في مدرسة أبيه الإمام الباقر (ع)، وأحاط بكثير من ميادين العلوم، فلما انتقل من صفوف الطلاب إلى مقام المدرس، لم يكتف بما تلقاه من علوم، وانبرى يستكشف كثيراً من الحقائق العلمية بنفسه، أي أنه لم يحصر نفسه في دائرة العلوم التي أخذها عن مدرسة أبيه.

ومن هذه المعارف فرضية علمية هي أن الأرض ليست عنصراً بسيطاً، ونظرية أخرى سبق أن أشرنا إليها وهي أن الهواء بدوره ليس عنصراً بسيطاً وأن فيه جزءاً يساعد على الاحتراق ويحدث الصدأ في المعادن الصلبة.

(١٥٧) سيجموند فرويد Freud : طبيب نمساوي أسس مدرسة (التحليل النفساني) ويعطي في بحوثه دوراً هاماً بل أهم الأدوار للعامل الجنسي في النفس الإنسانية – ولد ١٨٥٦ م وتوفي ١٩٣٩م.

وهذه حقائق علمية توصّل إليها الإمـام الصـادق (ع) بعقلـه الوقّـاد وذهنـه الفيّاض، فكان أوّل من أذاع هذه الحقائق العلميّـة قبـل أن تثبـت بـالتمحيص العلميّ (أي بعد اثني عشر قرناً من عصر الصادق (ع)).

وقد رأينا في الفصول السـابقة أن الإمـام جعفـراً الصـادق (ع) كـان يذهب إلى أن للإنسان علميـن، علـم يكتسـب بـالعقل، وعلـم لا يُستطاع اكتسابه بـالعقل، وكـان يقـول إن للـه خلائـق أخـرى تعيـش فـي الكواكـب والسماوات الشاهقة، وهي تسبّح الله بلغةٍ لا نعرفها*، ولعلها تكلّمنا دون أن نعرف لسانها.

فكان الإمام يعتقد اعتقاداً جازماً بوجود كائنات أخرى في الكواكب السماوية، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الوجود الغيبـي بكيفيـة أخـرى، إذ وضع في مقابل الإنسان، وهو موجود حيّ يرى ويشاهد، كائناً آخر أسـماه الجنّ وهو لا يُرى ولا يشاهد. وقد وردت آية في القـرآن تـدل علـى أن اللـه سيجمع الإنس والجنّ معاً (١٥٨)

ولكن لـم يحدث قبل الإمام الصادق (ع) أن قال أحـدٌ بـأن الكائنـات الموجودة في العوالم الأخرى التـي لاتُـرى، تحـاول الاتصـال بالبشـر ولكـن

(*) هذا صريح نص القرآن الكريم فـي قولـه تعـالى: ﴿وإنْ مـن شـيء إلا يسبح بحمـده ولكـن لا تفقهون تسبيحهم﴾ – الإسراء.

(١٥٨) في المعجم أن الجن هو ستر الشيء عن الحاسة، وكل شيء سُتر عنك فقد جنّ عليك وجَنَّ عليه، وأجنّه ستره. أما الآيات التي تشير إلى الجن والإنس فكثيرة منها ماجاء فـي سـورة الأنعـام ، الآية ١٢٨ : "ويوم يحشرهـم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس"، ومنها ماجاء فـي سـورة الأعراف، الآية ٣٨:" قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس".(المترجم).

البشر لا يدركون كلامها، ولم يتعرض أحدٌ لهذا الموضوع بعد عصر الإمام و إلى القرن التاسع عشر الميلادي عندما درس العالم الفرنسي (كاميل فلاماريون) هذه القضية وساق نظريات هامّة بشأن اتصال الإنسان بالكائنات في الكواكب الأخرى، دون أن يحقّق ذلك بالتجريب العلمي.

وفي عام ١٩٢٠ حاول العالم الإيطالي (ماركوني)* إخضاع هذه النظرية للتجريب العلمي، فأعلن في لقاءٍ له بضابط البحرية الإيطالية عقد بإشراف الميجر البحري (كنت ميلو) أنه يتلقى من على باخرته إشارات ورموزاً أثيرية، ولا يشك في أنها مرسلة من كائنات ذكية فنانة تريد الاتصال بالكائنات على الكرة الأرضية.

ولكن ماركوني لم يستطع التوسع في تجربته المحدودة لأن المراقب الحديثة لم تكن قد اخترعت بعد، كالمرقب الأثيري ومرصد (بالومر) الأمريكي الضخم الذي سعة قطره خمسة أمتار ويستطاع بفضله رصد الشهب التي تبعد عن الأرض بألفي مليون سنة ضوئية، كما أن المنظار الفلكي الضوئي لم يكن قادراً في ذلك الوقت (عام ١٩٢٠) على رصد الكواكب خارج المجموعة الشمسية.

وقد تبين بعد ذلك أن مرصد (بالومر) نفسه، برغم ضخامته وحساسيته، عاجز عن رصد تحركات الكائنات الموجوده في الكواكب الأخرى وأصواتها، على الرغم من أن هذا المرصد الضخم قد رصد شُهُباً

(*) ماركوني Marconi (١٨٧٤ – ١٩٣٧م) فيزيائي إيطالي وله في اختراع اللاسلكي دور هام.

تبعد عن الأرض بألفي مليون سنة ضوئية، وصوّرها كنقطة بيضاء دون أن يوفق إلى تحديد حجمها وأهميتها(١٥٩) .

(١٥٩) بُدىء العمل في صنع عدسة منظار مرصد بالومر في سنة ١٩٣٦ ولم يتم إلا في سنة ١٩٤١. وقد احتاج الأمر إلى انتقاء صخور من نوع خاص تم صهرها تحت درجة حرارة وصلت إلى ١٢٠٠، درجة. واقتضت أصول الصناعة تبريد هذه المادة المنصهرة بصورة تدريجية للتأكد من صفائها التام، فلا تظهر فيها أي علامات أو نقط أو خطوط، واستعين بجهاز تكثيف خاص للمحافظة على انتظام درجة الحرارة بحيث يتم إنقاصها درجةً واحدة في كل يوم. وقد استغرقت عملية التبريد هذه ثلاث سنين ومئة وخمسة أيام. وبعدها شُرع في صقل العدسة وتشذيبها باستخدام مقياس دقيق إلى درجة مئة ألف ملليمتر. وانتهى العمل في المرصد في وقت كانت الولايات المتحدة قد دخلت فيه الحرب العالمية الثانية، فانتفع به انتفاعاً كبيراً في الأغراض الحربية، وكان هو المرصد الوحيد من نوعه في العالم.

ومع أن كثيراً من الدول الصناعية صنع أنواعاً شتى من الأجهزة الحساسة للكشف والرصد والبحث، فإنّ مرصد بالومر الأمريكي بنظارته الضوئية الفريدة مازال المرصد الوحيد من نوعه في العالم.



الإنسان وخلقه في رأي الإمام الصّادق «ع»

كان من رأي الإمام جعفر الصادق (ع) كغيره من المسلمين أن الإنسان خُلق من تراب، ولكن التوضيح الذي أتى به لم يقل به غيره من المسلمين لا قبله ولا بعده في العصور المتعاقبة، ولم يقم أحدٌ بشرح أفكار الإمام الصادق (ع) بشأن الكيان البشري ومصدر كل حاسة وخواصها. فإنْ وجدنا شرحاً في العصور التالية للإمام، فهو من صُنع تلاميذه أو روّاد مدرسته.

يقول الإمام الصادق (ع) إن جسم الإنسان يتألف من نفس العناصر الموجودة في الأرض، ولكن بنسب متفاوتة، فهناك عناصر توجد في جسم الإنسان بنسبة أكبر من نسبة وجودها في الأرض، وهناك عناصر أخرى توجد بنسبة أقل منها. كما كان يقول: إن هناك أربعة أشياء توجد في جسم الإنسان بصورة أكبر من سواها، كما أن هناك ثمانية أشياء تأتي في مرحلة ثانية، وثمانية أشياء هي أقل مما في القسمين الأولين.

ولاريب في أن هذه النظرية غريبة وبعيدة عن فهم الإنسان في عصرنا الحاضر، وإن المرء ليتساءل تلقاءها: هل كان للإمام الصادق علم باطني

(غيبـيّ)* كما تقول الشيعة؟ وهل استنبط هذه النظرية بعلم الإمامة دون العلم البشري؟.

وفي رأينا أن من العسير التوصل إلى مثل هذه الحقائق العلمية دون مختبرات علمية عصرية، ولكن هذا هو ما تناهى إليه علم الصادق قبل اثني عشر قرناً . ولا غرو ، فالعباقرة أقدر من سواهم على استنباط ما تعجز عنه العقول، لأن عيونهم تخترق الظلمات وترى ما لا يراه غيرهم من المبصرين.

وثمة نظرية مؤداها أن المعارف والمعلومات كامنة في الشعور الباطني للناس جميعاً ، ولكن هناك حجاباً يحول دون إدراك الشعور الظاهري لما هو كامن في الشعور الباطني غير المحدود، فإن استعصى على الإنسان العادي أن ينتفع بهذه الذخيرة المدّخرة في باطنه فإن العباقرة قادرون على النفاذ إلى الباطن واستنباط ما هو مدّخر فيه من معلومات ومعارف كامنة.

وقد ذهب الفيلسوف هنري برجسون (١٦٠) إلى القول بأنه كما أن الذرّة وجدت من بدء الخليقة واجتمعت فيها جميع المعلومات المختلفة،

(*) أي علم لدنّي نسبة إلى "لدن" الواردة في قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾.

(١٦٠) هنري برجسون Henri Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي دافع عن نظريتين في الفلسفة ، أولاهما نظرية élan Vital أي اندفاعة الحياة، وثانيتهما أن الزمان يمكن معرفته واستنباطه من خلال توالي الأحداث، ومن مؤدى النظرية الأولى أن الإنسان يكشف كل مجهول بفهمه الخاص إذا كانت لديه اندفاعة حياة، وأن حظ العباقرة من هذه الاندفاعة أكبر من حظوظ سواهم. ومن مؤدى النظرية الثانية أن الزمان لا يدرك أو يقاس أو يُحصر إلا بتسلسل الوقائع والأحداث، ولولا هذا التسلسل لما أدركنا الزمان.

وعندما تنتهي الحياة بالموت، يفقد الإنسان قدرته على متابعة توالي الأحداث، وتتساوى عنده الثانية والملايين من السنين (هذا طبعاً إن كان ذا شعور).

فإن خلايا الجسم الموجودة في الكائن الحيّ، أحرى بها أن تنطوي على جميع المعلومات الخاصة بهذا العالم منذ بداية الخليقة و إلى يومنا هذا.

وإذا كان العلماء قد أطلقوا على الإحساس الداخلي اسم (الشعور الباطني أو الغيبي) ، فإن الفيلسوف برجسون قد سمّاه (اندفاعة الحياة)، وكان يقول إن النوابغ يتميّزون عن غيرهم بأن لهم حظاً من اندفاعة الحياة تزيد على حظوظ غيرهم وأنهم أقدر من سواهم على الاستفادة من ذاكرة خلايا أجسامهم. ففي رأي الشيعة إذن أن الإمام الصادق (ع) كان يرى بعلم الإمامة، أما القائلون بالشعور الباطني غير المحدود فيقولون إنه انتفع بهذا الشعور، في حين أن برجسون يرى أن الصادق (ع) كان يتمتع باندفاعة قويّة للحياة.

ولا ريب في أن ما قاله الإمام الصادق (ع) عن تشريح جسم الإنسان، يكتب له بين المعاصرين له من المشتغلين بعلم الأحياء منزلة النبوغ، لاسيما وقد برهن التمحيص العلمي الدقيق لنظرية الإمام الصادق

= والقول بعدم إدراك حقيقة الزمان لولا توالي الأحداث وتسلسلها قد انتهى إليه آخرون غير برجسون. فأينشتين ومينفوسكي يقولان بأنه ليست هناك حقيقة للزمان وللمكان أو حقيقة لكل منها على حدة، ولا حقيقة /بالتالي/ للوجود في الزمان والمكان كما كان يفهمه فلاسفة القرن الماضي، ومن رأي الفلاسفة أن الوجود الخارجي هو الباقي والاستمرار في الزمان والمكان، وأن كل وجود خارجي هو وجود في الزمان والمكان.

ودافع برجسون عن الروحانية ضد المذاهب الوضعية المادية، فكان بآرائه بعيد الأثر. ومن مؤلفاته: (محاولة دراسة أوضاع الوجدان) و (المادة والذاكرة) و (التطور الخلاق).

(راجع دائرة المعارف العالمية).

(ع) بعد اثني عشر قرناً ونصف قرن على أنها نظرية صحيحة، حتى وإن كان الإمام لم يعط أسماء معينة لأجزاء الجسم والموادّ التي يحتوي عليها.

وقد قال الصادق (ع) إن العناصر الموجودة في الأرض، وعددها مئة واثنان، موجودة في جسم الإنسان بدرجاتٍ متفاوتة، وإن بعضها يذهب من القلّة مذهباً يحول دون تعيين مقداره وحجمه بالدقّة المطلوبة.

ربما قيل إن الصادق (ع) لم يأتِ بإعجازٍ فكري، لأن الإسلام يقول إن الإنسان قد خُلق من تراب[١٦١] ، وقد ثبتت عقيدة المسلم على هذا منذ ما جاء القرآن، فأين هو الجديد الذي أتى به الصادق (ع) حين قال إن المواد الموجودة في التراب موجودة أيضاً في جسم الإنسان؟

نعم، ولكن نبوغ الصادق (ع) يتجلّى في أنه قسّم هذه المواد والعناصر إلى ثلاثة أقسام، يتضمن القسم الأول منها العناصر الأربعة التي توجد بوفرة، ويتضمن الثاني ثمانية عناصر توجد في جسم الإنسان بدرجة أقل، ويتضمن الثالث ثمانية عناصر أخرى هي أقلها توافراً .

والعلم الحديث في عصرنا اليوم يثبت ما قاله الإمام الصادق (ع) ، إذ إن العناصر الثمانية التي تُوجد في جسم الإنسان بمقدار ضئيل هي: (المولیبدنوم والسلنيوم والفلور والكوبلت و المنغنيز والكالسيوم والنحاس والرصاص الخالصين).

---

(١٦١) من هذه الآيات ما جاء في سورة طه، الآية ٥٥:﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ ، وما جاء في سورة نوح، الآيتين ١٧ ، ١٨ ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾.

وأما العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بكميةٍ أكبر قليلاً ، فهي (المغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والفوسفور والكلور والكبريت والحديد).

أما العناصر الأربعة التي توجد في جسم الإنسان بوفرة فهي "الأوكسجين والكربون والهيدروجين والآزوت (النتروجين)".

صحيح أن الإمام الصادق لم يُسم هذه العناصر بأسمائها العلمية المعروفة اليوم، ولكنّه استطاع تمييزها بعقله المستنير. في حين أن العلماء المحدثين لم يتسنّ لهم الاهتداء إليها إلا بعد بحث وتحقيق علميين وتجارب واسعة وعمليات تشريح دقيقة استمرت منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان لفرنسا والنمسا دور ريادي في أوروبا في علم التشريح.

وبسبب الحظر التّام الذي فرضته الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية على تشريح الجثث، وقد سايرتهما في هذا التحريم البلدان الشرقية، اقتصر هذا الكشف العلمي على فرنسا والنمسا دون الدول الأخرى.

وحتّى في هاتين الدولتين، كانت عمليات التشريح تجري خفية خوفاً من معارضة الكنيسة، حتى جاء الطبيب الفرنسي "مارا"[١٦٢] وطالب بضرورة التشريح خدمة للإنسانية ولعلم الطب، واشترك مع العلاّمة الشهير

---

(١٦٢) مارا Marrat طبيب فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في وقت معاصر للثورة الفرنسية، وكان يصدر مجلة عنوانها (صديق الأمة) طالب فيها بالسماح بتشريح جسم الإنسان خدمة للطب والإنسانية، وقد قتلته امرأة اسمها (شارلوت كورديه) بخنجر في حمام بيته.

الكيميائي لافوازييه[١٦٣] (الذي أعدم في عـام ١٧٩٤) فـي تحليـل الأنسـجة والخلايا في جسم الإنسان للوقوف على أسرارها ومكوّناتها.

وبعد وفاة مـارا، استمرت التجـارب والتحـاليل علـى جسـم الإنسـان يُجريها تلامذته والمتأثرون به، وظلـت هـذه التجـارب تجـري طـوال القـرن التاسع عشر و إلى مطالع القرن العشرين.

واليوم، أصبح التشريح أمراً مألوفاً في جميع دول أوروبا وسواها مـن دول العالم، وأصبحت التجارب والتحاليل أمراً عادياً في إطار التدريس فـي كليات الطب في العالم بأسره وفي مراكز العلوم، رغبـةً فـي اكتشـاف مزيـد من البيانات عن العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان وكمياتها وكيفياتهـا، ولئن تشابهت نتائج هذه الأبحاث فإن الأرقام قد تنطوي على تفاوت جزئي، أما العناصر الهامة في جسم الإنسان فلا خلاف عليها.

والمؤكد أن تقسـيم العنـاصر الموجـودة فـي جسـم الإنسـان والنسـب الخاصة بكل منها تتفـق فيهـا آراء الإمـام الصـادق (ع) مـع التجـارب التـي أجريت في المراكز العلمية في دول العالم كلّه.

وعلى سبيل التوضيح، نذكر أن الإنسان الذي يـزن ٤٥ كيلـو غرامـاً ، يحتوي جسمه على كيلو غرام من الكربون، وهو عنصر من العنـاصر الأربعـة التي توجد في الجسم بوفرة.

كذلك يوجد في جسم الإنسان ٤,٥ كيلو غرام من الهيدروجين، متى كان سليماً ، فإن اعتلّ، نقصت كمية الهيدروجين. وتتساوى مقادير العناصر

---

(١٦٣) سبق التعريف به.

الأربعة، وهي الأوكسجين والكربون والهيدروجين والآزوت، في أجسام الناس جميعاً ، سواء أكانوا من البيض أم السود أم من الذين اختلطت أنواعهم وجذورهم.

تلي هذه العناصر الأربعة ثمانية عناصر أخرى متوسطة المقدار، تليها العناصر الثمانية الضئيلة القدر، وتتساوى نسب هذه العناصر في جسم الإنسان، سواء أكان يعيش في القطب الشمالي أم في المنطقة الاستوائية ولا فرق بين أي اثنين في هذا إذا ما تساويا في الوزن والعمر.

وهكذا جاءت التجارب العلمية التي أجريت في فترة تربو على مئة وخمسين عاماً مؤكدة النظرية التي أتى بها الإمام الصادق (ع) .



نظرية الضوء عند الإمام الصادق «ع»

من مبتدعات الإمام جعفر الصادق (ع) نظريته الخاصّة بالضوء. فمن رأيه أن الضوء ينعكس من الأجسام على صفحة العين البشريّة، أمّا الأجسام البعيدة فلا ينعكس منها إلا جزء صغير من الضوء، ولهذا تتعذّر رؤيتها بالوضوح الكافي. أمّا إذا استعنّا بجهازٍ أو آلةٍ لتقريب الضوء إلى العين، كالجهاز الكهربي الضوئي مثلاً فعندئذ يمكننا مشاهدة الجسم البعيد بنفس حجمه الحقيقيّ وبوضوح تام، بمعنى أن الجسم الذي يبعد عنّا بثلاثة آلاف ذراع، نراه وكأنه يبعد عنا بستين ذراعاً ، فنكون بذلك قد قرّبناه أكثر من خمسين مرة.

ونتيجة للاتصال الذي تحقق بين أوروبا والشرق في أثناء الحروب الصليبية، انتقلت هذه النظرية من الشرق إلى أوروبا، ودُرست في المعاهد العلميّة والجامعات الأوروبية. وكان من جملة المهتمين بها روجر بيكون(١٦٤) الأستاذ بجامعة أكسفورد.

(١٦٤) روجر بيكون (١٢١٤ – ١٢٩٤م) عالم فرنسيسكاني بريطاني وضع دائرة معارف علمية هامة لُقب بالدكتور المدهش إعجاباً بعلمه . (المترجم).

وجاءت نظرية بيكون في الضوء مطابقة لنظرية الإمام الصادق (ع) . فلو استعنا بما يقرّب ضوء الأجسام البعيدة إلى عيوننا ، لأمكننا مشاهدتها وقد قربت إلينا خمسين مرة عن بعدها الحقيقي.

وبفضل هذه النظرية اخترع ليبرشي الفلامندي المجهر في عام ١٦٠٨م، واستعان غاليليو بهذا المجهر في اختراع المرقب الفلكي في عام ١٦١٠م، وفي ليلة السابع من يناير سنة ١٦١٠م ، بدأ غاليليو يرصد النجوم مستعيناً بمرقبه، ولا يستبعد بسبب قرب الفاصل الزمني بين الاختراعين – وهو سنتان لا غير– أن تكون الفكرة تبلورت عند هذين العالمين في وقت واحد، وإن كان غاليليو استفاد من مجهر العالم الفلامندي وحاول قدر المستطاع علاج ما فيه من قصور، مع ما كان متاحاً في ذلك الوقت من إمكانيات تقنيّة محدودة.

وكان غاليليو من خريجي جامعة (بادوا) الشهيرة في مملكة (باتاويوم) التي سميت في ما بعد (بوني تي) والتي تسمّى عاصمتها اليوم فينيسيا أو البندقية. وبعد تخرجه أصبح أستاذاً في نفس الجامعة. وعندما شرع يرصد النجوم في أوّل ليلةٍ، حيره منها أن يرى القمر شبيهاً بالأرض من حيث أن سطحه تغطّيه سلاسل من الجبال والوديان، فتحقّق من أن الكون لا ينحصر في الكرة الأرضية، وأن القمر بدوره عالم من عوالم دنيانا الكثيرة.

ولولا فرضية الضوء التي أتى بها الإمام جعفر الصادق (ع) ، لما تمكن ليبرشي الفلامندي وغاليليو من صنع المجهر الفلكي لرصد انعكاس

ضوء الشمس على الكواكب الأخرى، وبالتالي تأكيد نظرية كوبرنيكوس وكبلر القائلة إن الكرة الأرضية تدور حول الشمس وكواكب أخرىٰ.

وكان للمجهر الفلكي الذي صنعه غاليليو صدى بعيد في الأوساط العلمية المختلفة في البندقية، حتى إن رئيس الجمهورية (دوج) وعدداً من نوّاب مجلس الأعيان استبدّ بهم الشوق لرؤية الأجرام السماوية من خلال هذا المرقب، فاضطر إلى نقله من مدينة بادوا الجامعيّة إلى العاصمة (البندقية)، وأقامه على برج من أبراج الكنيسة لكي يتسنى لأعضاء مجلس الأعيان التطلّع إلى السماء في الليل ورؤية النجوم والكواكب.

ولما سُئل غاليليو عن سرّ رؤيته سطح القمر وما عليه بوضوح، ردّد نظرية الإمام الصادق (ع) ، وهي أن هذا نتيجة لانعكاس الضوء من سطح القمر ووصوله إلى العين. وقال: إن هذا المرقب يجمع أشعّة الضوء المنعكسة من سطح القمر ويقرّبها إلى العين ، فتراه قريباً منها.

وبمشاهدة غاليليو لكواكب عُطارد والزهرة والمشتري في أحوالها المختلفة من الهلال إلى المحاق، تثبت نظرية كوبرنيكوس وكبلر[١٦٥] .

ومن الحقائق العلميّة المؤسفة أن الشخصيّة الفذّة للفيلسوف الإغريقي أرسطو [١٦٦] القائل إن الأرض ثابتة ولا تتحرّك وإن الشمس والنجوم تدور

(١٦٥) لاحظ غاليليو وهو يرصد عُطارد والزهرة أنهما شبيهان بالقمر من حيث أنهما يظهران في بادىء الأمر كالهلال، ثم يستتمان استدارتهما فيصبحان كالبدر التمام، كما تبيّن أن هذين الكوكبين يدوران حول الشمس ويستضيئان بنورها.

(١٦٦) أرسطو أو أرسطاليس (نحو ٣٦٧ – ٣٢٢ ق.م) اشتهر بأنه حكيم اليونان. تلقى العلم عن أفلاطون، وقضى في ذلك عشرين سنة، وأصبح مؤدب الإسكندر المقدوني الأكبر، إليه يرجع الفضل

من حولها، والشخصية العلمية الرصينة للعالم بطليموس الذي جاء بعد أرسطو بخمسة قرون وأكّد نظريته هذه، قد حالتا دون تقدّم علم الفلك قرابة ألف وثمانمئة عام، أي من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

ولا يسع أحداً أن ينكر فضل أرسطو على العلم ، ولأهمية مؤلفاته في المنطق كـ "الأورغانون" وفي العلوم كـ "الحسّ والمحسوس" والتي تعدّ من التراث الإنساني الخالد، ولكن نظريّته الفلكية عطّلت تطوّر العلوم الفلكية طوال ثمانية عشر قرناً ، ولولا ذلك، لما كان من المستبعد أن يتقدّم بعصر النهضة فينطلق من القرن السابع الميلادي أو قبل ذلك.

وبدأ عصر النهضة بالنظرية التي طلع بها العالم البولوني كوبرنيكوس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس، وجاء بعده العالم الألماني كبلر ليدعم هذه النظرية ويميط اللثام عن قوانين حركة السيارات حول الشمس، ومنها الأرض. ثم جاء غاليليو من بعدهما، فبثّ روحاً جديدة في هذه

- في تنظيم الفلسفة اليونانية وتفريع العلوم منها وتدوين فن المنطق، وتقوم فلسفته في جملتها على "اتفاق العلل المادية في العالم الطبيعي". ومن مؤلفاته :" سمع الكيان" ويتناول المبادىء في الوجود، وهو تمهيد لدراسة الفلسفة و "السماء والعالم" و "الكون والفساد" و "الآثار العلويّة" و " كتاب الحيوان" و " كتاب النبات" و "كتاب النفس" و " الحس والمحسوس" و" مابعد الطبيعة" و "السياسة" و "الأخلاق" و " الأورغانون" في صناعة المنطق. وأرسطو هو منشىء علم المنطق حتى سمّوه المعلم الأول وصاحب المنطق. (راجع "تاريخ الفكر العربي" لعمر فروخ – ص ١٠٧ – ١٠٨).

الحركة العلميّة وأعطاها دفعةً قويّـة بإثباتـه حركـة السيارات حـول الشـمس بالرؤية والعيان.

ولولا هؤلاء الثلاثة، وما تمخضت عنه جهودهم وبحوثهم العلميّة، لما ظهر فيلسوف مثل ديكارت(١٦٧) بمنهاجـه الخـاصّ فـي التحقيـق فهـو الـذي أرسى للبحوث العلمية أساساً منهجياً سديداً في عصر النهضـة والتجديـد، ولعلّه لولا هؤلاء الفلاسفة الثلاثة العظـام، لعـاش ديكـارت بـدوره فـي نفـس الظلمات التي عاش فيها قومٌ كثيرون قبل ظهور هؤلاء في متطاول القرون.

وعندمـا صـوّب غـاليليو منظـاره الفلكـي إلـى قبّـة السـماء فـي عـام ١٦١٠م، كان ديكارت مازال في الرابعة عشرة من عمره، ولولا العلم الـذي أتى به كوبرنيكـوس وكبلر وغـاليليو، لمـا استطاع ديكـارت التخلّـص مـن مخلّفـات التفكـير السـائد فـي المجتمـع، وإرسـاء قواعـد البحـث والتحقيـق المنهجي في عصر النهضة. ومعروف أن العلوم سلسلة متصلة الحلقات، وأن كل علمٍ إنّما يعين في كشف علمٍ آخر، وهلمّ جرّاً .

ولاريب في أن جهل الإنسان بحقيقة كون الأرض والسيّارات الأخرى تدور حول الشمس، قد قعد به عن متابعة البحث والتحقيـق، وقـصّ جناحيـه حتى لا يحلّق في آفاق العالم الرحيب، وكان المسؤول الأوّل عن هذا القعود هو الرأي العلمي الخاطىء الذي قال به المعلّم الأول (أرسطو) والذي سـاعد

---

(١٦٧) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ – ١٦٥٠م) فيلسوف رياضي فرنسي اشتهر بكتابه (مقال في المنهج) الذي كان بعيد الأثر في الفكر الغربي، وقد ضمن هـذا الكتـاب نظريتـه المعروفـة "أنا أفكر، فأنا إذن موجود"، وقـد توصـل إليهـا بـالحدس والاستقراء. ولـه طائفـة مـن الاكتشـافات الهندسية والفيزيائية (دائرة المعارف).

على تعزيزه ما كان يتمتع به من نفوذٍ علميّ، كما سبق القول، فلم يجرؤ أحد على معارضة رأي أستاذ يعدّ في عصره أستاذ الأساتذة.

وجاء العالم الجغرافي المصري بطليموس بعد أرسطو بخمسة قرون، فأكد نظريته الخاصة بدوران الشمس والكواكب حول الأرض، وبأن الأرض نفسها ثابتة لا تتحرّك.

ومن العوامل الهامّة أيضاً في ترسيخ نظرية أرسطو واستمرارها موقف الكنائس المسيحية التي اعتقدت تأكيداً لهذه النظرية أن الأرض هي قاعدة العالم ومركزها الثابت، وأنه لولا ذلك لما ظهر فيها ابن الله (المسيح)، ومن هنا اعتبرت هذه النظرية عقيدة ضرورية لكل مسيحي.

وحتى ندرك أهمية الصنيع الذي قام به العلماء العظماء كوبرنيكوس وكبلر وغاليليو، نستشهد في هذا المقام بما قاله العالم الفيزيائي البريطاني (إدنجتون) المتوفى عام ١٩٤٤م من أن نظرية أرسطو بشأن ثبات الأرض ودوران الشمس والسيارات من حولها، وهي النظرية التي أيدها بطليموس من بعده، كانت كالكابوس الجاثم على الحركة العلميّة ليخنقها، ولو لم يرفع هذا الكابوس عن الحركة العلمية، لما حدث التقدّم العلميّ الذي شهدته البشرية في عصرها الأخير.

فإذا انتقلنا إلى الشرق، وجدنا العالم الهندي تشاندرا تشاترشي (١٦٨) Chaterchi يقول: لولا اهتداء الإنسان إلى أن الأرض تدور حول نفسها

---

(١٦٨) تشاندرا تشاترشي كاتب ومفكر هندي له طائفة من المؤلفات باللغة البنغالية، وله دور هام في حركة تحرير الهند واستقلالها. وعاش قبل غاندي ، وقبل تأسيس حزب المؤتمر الهندي، ومات

وحول الشمس، ولولا كشفه لهذه الحركة، لبقي سادراً في جهله، ولما استطاع التوصّل إلى ما اهتدى إليه في العصر الحديث.

وقد أقام هؤلاء العلماء العظماء الثلاثة البراهين أمام العالم على أن آراء أرسطو وغيره من الفلاسفة ليست كلّها آراء سليمة تتأبّى على الطعن أو المعارضة، وأن الكنائس المسيحية التي استندت إلى نظريّة أرسطو لتعزيز رأيها بشأن ثبات الأرض كانت مخطئة بدورها.

وظلت الكنائس المسيحية طوال هذه الفترة تستند إلى نظرية أرسطو الفلكية في دعم رأيها بشأن ثبات الأرض، دون أن تحاول تمحيصها أو نقدها، حتى جاء الكردينال نيقولا دوكوزا في عام ١٤٦٠ م فتصدى لهذا الرأي بالمعارضة الجريئة. فقد كان العرف المتّبع في ذلك الوقت هو منع صغار رجال الدين من دخول مكتبة الفاتيكان الغنية بالكتب والمراجع، في حين أن القساوسة من ذوي الرتب الدينية الرفيعة كان حقهم التردد على المكتبة والانتفاع بما فيها من ذخائر. ويعزى الفضل إلى مكتبة الفاتيكان في نقل القسم الأعظم من معارف الأمم الإغريقية والرومانية وثقافاتها إلى الأمم الأوروبية والأمريكية.

صحيح أنه كانت في أوروبا مراكز ومكتبات علميّة أخرى، ولكنّ هذه المراكز لم يكن لها أثر إيجابي في حفظ تراث الإغريق والرومان ونقله

= سنة ١٨٩٤ م عن ٥٦ عاماً. ومن آثاره الأدبية (آنان دات) كما أن النشيد الوطني الهندي مقتبس من مقطوعة أدبية له عنوانها (باندباترا).

الرعاية والوقاية من آثار الحروب والدمار التي حلّت بأوروبا، ولا عجب والجيوش والأمم المتطاحنة هي جيوش وأمم مسيحية ممن تحاذر إلحاق أي أذى بالفاتيكان الذي يضمّ المقر البابوي، أو بمكتبة الفاتيكان، تقديساً منها لبابا روما، وهكذا نجت مكتبة الفاتيكان من آثار الحروب. ويضاف إلى ذلك أن هذه المكتبة كانت على الدوام مسندة إلى عدد من القساوسة والعلماء المسيحيين يشرفون عليها ويحرصون على ذخائرها ويصونونها من أيدي العبث والتلف.

بل إن الجامعات الأوروبية القديمة، كجامعات بادوا في إيطاليا وأكسفورد في إنجلترا والسوربون في فرنسا لم يكن لها ما لمكتبة الفاتيكان من دور في حفظ التراث العلمي والأدبي لليونان والرومان ونقله، لأنها جميعاً أسست في الألف الثانية بعد الميلاد، واستفادت بعد تأسيسها من مكتبات الفاتيكان وغيرها من المراكز الدينية التي حرصت على صيانة الكتب.

أمّا ملوك أوروبا وأمراؤها وأشرافها فكانوا في غالبيتهم من الأميين الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، فكيف بعامة الناس.

ولم تعن بحفظ الكتب وصيانتها في أوروبا إلا المراكز الدينية الهامة، ولولا سعيها إلى صيانة المؤلفات المدونة باللغات اليونانية واللاتينية والسريانية، لما انتهى تراث اليونان والرومان إلى الأمم الأوروبية اليوم.

كانت مكتبة الفاتيكان، كما سلف القول، أغنى المكتبات بمقتنياتها من كتب اليونان واللاتين القديمة، ولكن الانتفاع بذخائرها كان مقتصراً

على ذوي الرتب المطرانية أو الكردينالية من رجال الدين تتألف منهم المجموعة المشرفة على الكنائس، فكان من حقّ هؤلاء فقط دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب قديمة أمّا اليوم، فقد تغير الوضع وصار مسموحاً لجميع رجال الدين التردد على المكتبة والانتفاع بكتبها بغض النظر عن رتبهم.

وهكذا نرى أن المساواة في البحث العلمي كانت مُنعدمة حتى في الكنائس الكاثوليكية، وأن النظام الطبقي الديني، كان يحول دون الانتفاع بالمكتبة بالنسبة لصغار رجال الدين، إذ كان قادة الكنيسة وأساقفتها يرفضون أن يجلسوا جنباً إلى جنب مع صغار القساوسة في قاعات المكتبة للاطلاع على نفس الكتب والمراجع.

أمّا الإعارة الخارجية للكتب من مكتبة الفاتيكان، فكانت محظورة ، ممّا ساعد على حفظ هذه الكتب من الضياع، ومازال هذا التقليد مستمراً إلى يومنا هذا، فالكتب لا تعار وإنما يجوز تصويرها.

وكما سبق القول، فقد أتيحت للكردينال نيقولا دوكوزا فرصة دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب، يُضاف إلى ذلك أنه كان يُجيد اللغة اليونانية، فاستطاع بذلك الوقوف على كتب فلاسفة الإغريق، ومنهم أرسطارخوس الذي كانت له نظرية بشأن حركة الأرض ودورانها.

ولما عاد من الفاتيكان إلى مسقط رأسه في ألمانيا، كتب رسالة علمية حول الحركة الوضعية والانتقالية للأرض، ولكن هذه الرسالة ظلت مخطوطة لانعدام وسائل الطباعة وقتذاك، ولكن استنسخت منها نسخ لفائدة

المهتمين بهذا الموضوع. وكان ذلك في عام ١٤٦٠ أي قبل ميلاد كوبرنيكوس بثلاثة عشر عاماً ، ولكن نظرية دوران الأرض حول الشمس اشتهرت باسم العالم الرياضي والمنجّم البولوني كوبرنيكوس وليس باسم نيقولا دوكوزا، لأن الثاني كان من رجال الدين المجهولين في الأوساط العلمية، ولأنه نقل نظريته عن فلاسفة اليونان. أمّا كوبرنيكوس فكان من رجال العلم، كما أنه أثبت نظريته بشأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بالمناهج العلمية، مما أثار اهتمام الأوساط العلمية بكشوفه.

وقد ظلت رسالة نيقولا دوكوزا غير معروفة أولاً لأنها كُتبت خارج دائرة الفاتيكان، وثانياً لأنه ردد آراء فلاسفة اليونان دون تجريب عملي أو تحليل علمي، فلم يأخذها الناس مأخذ الجدّ، لاسيما وهي تتعارض مع رأي الفاتيكان بشأن ثبات الأرض، وهو الرأي الذي أصبح قضية بديهية مسلّمة لدى الكنائس والمسيحيين.

وها هو ذا أبو الرياضيات الحكيم اليوناني فيثاغورث يقول في مقدمة علم الهندسة إن "القضايا البديهية لا يحتاج إثباتها إلى دليل"، وقد اشتهر هذا المبدأ في ما بعد. ودلّل على ذلك بقوله إن العشرة أكثر من خمسة، وهي قضية بديهية لا تحتاج إلى البرهان أو الدليل، وإن الخمسين رطلاً أثقل من الأربعين، وهذه بدورها من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان، وحركة الشمس والأجرام السماوية لا تحتاج إلى دليل لأن الإنسان منذ خلق وهو يرى بعينيه أنّ الشمس والنجوم تتحرك وتدور. فموضع الشمس عصراً يختلف عن موضعها صباحاً . كذلك كان ثبات الأرض وانعدام الحركة فيها من القضايا البديهية الأخرى، لأن الإنسان لم يرَ حركة الأرض

بأمّ العينين، وأن العمائر والمباني التي يشيّدها بالغاً ما بلغ ارتفاعها أو حجمها، باقية في مكانها إلى أن تزول بسبب عوامل التعرية من مطر وشمس ورياح، وأن الجبال والتلال راسخة في مكانها على مدى العمر والدهر.

فلو قيل إذن: إن الأرض تدور، وإن لها حركتين إحداهما حول نفسها والأخرى حول الشمس، لاعتبر هذا القول من قبيل الخرافات والأساطير، ولاتّهم قائله بأنه يهزل أو بأن به مساً من جنون.

وقد قلنا إن نظرية الضوء للإمام جعفر الصادق (ع) قد فتحت الطريق أما الباحثين حتى انتهت بهم إلى صنع المنظار الفلكي ورصد الأجرام السماوية، وقادتهم إلى انطلاقة عصر النهضة والتجديد.

ولولا أن الصنعة لم تكن في عصر الإمام الصادق (ع) قد بلغت مرحلة تمكن الإمام من صنع منظار أو مرقب فلكي لرصد الأجرام السماوية وتسجيل حركة السيارات، لكان قد نجح بفكره النافذ في تحقيق ما انتهى إليه العظماء الثلاثة، ولكن هذا لا يقلل من أهمية نظرية الضوء التي طلع بها الإمام قبل اثني عشر قرناً من هذا التاريخ.

وإذا كان نيوتن قد اكتشف قانون الجاذبية عندما سقطت تُفاحة من شجرة على رأسه، فهل يُعاب عليه أنه لم يقذف تفاحة لتدور حول الأرض كما هو شأن الأقمار الصناعية في عصرنا هذا؟ بالطبع لا.

وقد بات معروفاً للناس جميعاً أن الأقمار الصناعية التي تطوف حول الأرض، أو التي أُطلقت صوب القمر والمرّيخ تخضع جميعاً لقانون الجاذبية

الذي كشفه نيوتن، فإن كان نيوتن نفسه لم يُوفّق إلى الاستفادة من كشفه العلمي بالكيفية التي تأتت في عصرنا هذا، فذلك لا يُقلل من أهمية قانون الجاذبية، ولا من فضل نيوتن في تحقيق هذا الكشف العلمي. ولن يجترىء أحد فيقول إن عجز نيوتن عن إطلاق قمر صناعي إلى الفضاء دليل على أن كشفه العلمي كان بلا قيمة، فمثل هذا القول يرتد إلى صدر صاحبه ويؤكد فساد تفكيره وقلة فهمه.

وهناك نقطة بالغة الأهمّية في نظرية الإمام الصادق (ع) بشأن الضوء، هي تأكيده، بأن الضوء ينعكس من الأجسام إلى العين[١٦٩] ، وهو قول يناقض التفكير الذي كان سائداً في ذلك العصر وكان مؤداه أن الضوء ينعكس من العين على الأجسام المرئيّة. والإمام الصادق (ع) وهو أوّل عالم في تاريخ الإسلام كلّه يناقض هذا الرأي السائد. فقد قال إنّ الضوء لا ينعكس من العين على الأجسام بل الذي يحدث فعلاً هو نقيض ذلك، أي: إنّ الضوء ينعكس من الأجسام ويصل إلى العين. دليل ذلك أننا لا نرى في الظلمة شيئاً ، ولو أن العين كانت تعكس الضوء على الأجسام لشاهدنا الأجسام نهاراً وليلاً .

---

(١٦٩) جاء في "خبر الربيع": قرأ هنديّ عند المنصور كتب الطبّ، وعنده الصادق (ع) فجعل ينصت لقراءته فلما فرغ قال: يا أبا عبد الله، أتريد ممّا معي شيئاً ؟ قال: لا لأن ما معي خير ممّا هو معك، ثم ينتهي الحوار بإلقاء أسئلة علميّة وطبّية من الصادق (ع) على الطبيب الهنديّ الذي يعجز عن الردّ عليها، منها قول الصادق (ع) حول العيون وانعكاس النور إليه: وجُعل الحاجبان من فوق العينين ليردا عليهما من النور قدر الكفاية. ألا ترى ياهنديّ أن من غلبه النور جعل يده على عينيه ليردّ عليهما قدر كفايتهما منه؟ (المناقب ج٤ ص ٢٦٠).

وللإمام الصادق (ع) نظرية أخرى عن الضوء وحركته وسرعته لا تقل أهمية عن نظريّته الخاصة بالضوء وانعكاساته.

فممّا قاله: إن الضوء ينعكس من الأجسام على العين بسرعة "كلمح البصر" أي: إن الإمام الصادق (ع) عرف أن للضوء حركةً كلمح البصر، ولو أسعفته الوسائل التقنيّة الحديثة لاستطاع أن يقيس هذه السرعة بدقّة شديدة.

فهو إذن قد اكتشف نظرية الضوء، وقال: إن للضوء حركةً وإن هذه الحركة سريعة جداً ، أفلا يدلّ هذا كلّه على أنه كان سابقاً على عصور علميّة كثيرة؟

وقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) قوله في بعض دروسه إن الضوء القويّ الساطع يستطيع تحريك الأجسام الثقيلة، وإن النور الذي ظهر لموسى على جبل الطور لو كانت مشيئة الله، لحرّك الجبل.

ومن مؤدّى هذه الرواية أن الإمام الصادق (ع) تنبّأ بأساس نظرية (أشعة الليزر)، وفي رأينا أن آراء الإمام في الضوء وحركته وانعكاس أشعته من الأجسام إلى العين أهمّ من نظرية (أشعة الليزر)، لأن هذه النظريّة قد عُرفت مقدّماتها قبل الصادق (ع) وفي الأزمنة القديمة وعند مختلف الأقوام والشعوب.

ففي مصر القديمة مثلاً ، كان النّاس يعتقدون بأن الضوء ينفذ من الأجسام ويحرّكها ولا تحول دونه حتّى الجبال، وأن الضوء الضعيف لا ينفذ

في كل شيء ولا يحاوز الأجسام الصلبة أو الجبال، في حين أن الضوء القوي يفعل هذا إن شاء!!

ويبدو أن أمثال هذه النظرية كان شائعاً عند أقوام كثيرة قبل ظهور الأديان السماويّة، وكانت هذه الأقوام تعتقد أنّ القدرة التي يتمتّع بها الضوء من فعل السحرة.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن مبدأ هذه الفكرة وتاريخها، ولكنّنا لو تركنا جانباً موضوع الطاقة الكامنة في الضوء، فإن الذي قاله الإمام الصادق (ع) عن الضوء وحركته يتّفق تماماً مع ما أثبته البحث العلمي المعاصر. وغاية ما في الأمر أنّ العلم الحديث قاس سرعة الضوء وهي ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ولكنّ هذا المقياس لا يُجدي في قياس المسافات الفلكية الشاسعة في الدراسات الفضائية.

قلنا في ما تقدّم إن العلوم والمعارف في مدرسة جعفر الصادق (ع) قد أرسيت قواعدها على أربع دعائم أوردنا ذكرها، ولكنّ أهم خصائص هذه المدرسة التي ساعدت على انتشارها وذيوع علومها تأكيدها على الابتعاد عن كلّ تزمت وتعصّب وضيق صدر وأفق، ذلك أن الإمام الصادق (ع) لم يُعطِ أتباعه ذريعة واحدةً لتكفير من يخالفونهم في الرأي، أو اعتبارهم منشقّين أو مارقين، ولو حدث هذا لقُضي دون ريب على كيان الشيعة الفكري والثقافي.

وكان الصادق (ع) عند حديثه عن جدّه رسول الإسلام (ص) أو آبائه، يتحدّث عنهم باعتبارهم بشراً سويّاً، فلا وضع أحداً منهم في مقام

الله، ولا عدّهم فوق البشر أو وسطاء يشفعون للنـاس عنـد الله* ، ولـو فـاه بشيء من هذا، لأحدث انشقاقاً واسعاً بين الشيعة، كما هـو الحال عند المسيحيين.

ومع أن الصادق (ع) لم يفه مرةً واحدةً بما يجعل لجده الرسول (ص) ولآبائه الأئمة (ع) طبيعةً تختلف عن طبيعة البشر أو تسمو بأجسامهم على الطبيعة البشرية، ومع أنه لم يُغال في إيراد صفاتهم المعنوية، كل ذلك لم يحل دون ظهور فرقٍ دينية وصوفية بين الشيعة منذ القرن الثالث الهجري، وكل واحدة منها تتعصّب لرأيها وتناوىء غيرها من الفرق وكأنها تنتمي إلى مذهب مستقلّ.

ولئن كان العرفان دعامةً من الدعائم الأربع التي تقوم عليها المعارف الجعفرية، فإنَّ عرفان الصادق (ع) كان يلتزم حدود الاعتدال، يتوخّى معرفة الدين على الوجه الصحيح والمذهب النقيّ كذلك، وتبصير الناس بحدودهم ومهامهم... ولكنّ الصادق (ع) لم يكن يريد للعرفان أن يصبح مذهباً شائعاً مستقلاً عن الدين.

ومع ذلك ، أخذت المذاهب والفرق الشيعيّة تتكاثر وتتشعب منذ القرن الثالث للهجرة، وغالى بعضها غلواً شديداً حتى قال بوحدة الوجود، أي وحدة الخالق والمخلوق، وهو ما يُعتبر شِرْكاً وكُفْراً في عقيدة الشيعة.

(*) الشفاعة كمبدأ موجودة في القرآن الكريم ولكنها لاتعني - كما لا تستلزم - ضرورة كون الشفعاء من جنس آخر فوق البشر.

والذي يعنينا من هذه الظاهرة، أنَّ حُرِّية البحث والكتابة كانت منهاجاً مرعيّاً من أتباع الإمام الصادق (ع)، ولم يتعرّض أحد لإيذاء أو عقوبة لأنه أبدى رأياً خالف به أياً من الآراء والنظريات التي كانت سائدةً في هذه المدرسة، سواء أكانت دينية أم علمية أم فلسفية.

لقد كان تلامذة الصادق (ع) يطرحون عليه الأسئلة، وينتقدون هذا الرأي أو ذاك، ويعارضون ما يُساق في المدرسة من حجج، وكان يتقبل ذلك منهم برحابة صدر وبشاشة وجه، وفي كتب الحديث والسيرة سجل واف لما جرى بين الإمام الصادق (ع) وناقديه ومعارضيه من محاجّات ومناقشات ومحاضرات.

وقد توسّعت الفرق الكلامية والصوفية في الحديث عن الخالق ووحدة الوجود، وكان من رأي بعض هذه الفرق أن المخلوق لا يختلف عن خالقه في القدرات المقدرة – طبعاً بالقدرة لا بالفعل – بينما رأي بعضها الآخر بأن للرسول (ص) والأئمة مراتب تعلو على مراتب المخلوق وإن كانت دون مرتبة الخالق طبعاً .

بل إنَّ فرقاً أخرى من الصوفية وضعت المرشد والقطب في مرتبة عالية، تتّحد أحياناً مع وجود الخالق أو تكون مماثلة لهذا الوجود وللقدرة الإلهية. وكانت تعظّم هؤلاء الأقطاب وترفع من مقدارهم فوق مراتب الأئمة والأنبياء. وتراعي ذلك في سلوكها وعقائدها دون أن تصرّح به. إما استحياءً من القول بأن مقام قطبهم أعلى من مقام النبي (ص)، وإما خوفاً من أن يُرموا بتهمة التكفير.

وعقيدة هذه الفرق الصوفية شبيهة بعقائد المصريين القدامى في أوزيريس وإيزيس، ومعروف أن قدامى المصريين كانوا يؤمنون بتعدّد الآلهة مع تفضيل الإله آمون باعتباره سيد الآلهة، ولئن كانت إيزيس– وهي آلهة الموت – في مرتبة دون مرتبة آمون فإن المصريين القدامى كانوا يرون أنّ سُلطانها أكبر من سلطان آمون، لأن إيزيس كانت قادرة على إنزال الموت حتى بآمون وهو سيد الآلهة.

نسبية الزمن عند الإمام جعفر الصادق (ع)

من القضايا الهامة التي نُوقشت في مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) قضية الزمن التي تناولها الإمام ضمن ما تناول من مسائل فلسفية مختلفة، وأبدى فيها ما ارتآه من آراء، وقد عُني فلاسفة اليونان من أقدم العصور بهذه القضية الفلسفية الهامة، ومازالت تستأثر بالبحث والتحقيق إلى يومنا هذا.

وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان أن الزمن ليست له حقيقة أو وجود خارجي، في حين رأى البعض الآخر أن الزمن حقيقة ثابتة تُقام الدلائل والبراهين على تأكيدها.

والفلاسفة الذين أنكروا حقيقة الزمن قالوا إنه غير موجود، سواء بصورة ذاتية أو بصورة تبعية. وفي رأيهم أن "الزمن فاصل بين حركتين" ، وأن الإنسان أو أي كائن حي ذي شعور لا يحس بهذه الفاصلة حتى وإن تابع سير الحركة، واستناداً إلى هذا، قطعوا بأن الزمن منعدم الوجود ، سواء في صورته الذاتية أو في صورته التبعية.

وتساءل فلاسفة اليونان عمّا إذا كان الحيوان يدرك الزمن ويعرف مقاطعه. فقال بعضهم إن هناك قسماً من الحيوان يحس بالزمن ويدرك مقاطعه وفواصله، وما هذه المقاطع والفواصل إلا جوع الحيوان أو عطشه أو حلول الظلام بغروب الشمس، أو غير ذلك من الظواهر الطبيعية الأخرى.

أمّا الذين ينكرون أن للزمن وجوداً ذاتياً ، فيقيمون براهين كثيرة على ذلك، منها قولهم: إن الإنسان إن فقد وعيه، لم يعد يحسّ بالزمن أو يشعر بمروره مهما طال، ومتى عاد إلى وعيه، لم يعرف كم انقضى عليه من ساعات أو أيام. ولو كان للزمن وجود ذاتي، لأدرك الإنسان مقدار الفاصل الزمني الذي مرّ عليه. وهذا نفسه يُقال عن النائم مهما طال رقاده، إذْ يجهل الوقت الذي مرّ عليه إلا من الظواهر الشمسية أو آثار الليل.

أما الفريق الآخر الذي يقول: إن للزمن وجوداً ذاتياً ، فقد صنّف الزمن إلى نوعين، أوّلهما الزمن المتحرّك أو السائر، وهو يتألف من ذرّات متحركة تنتقل من جانب إلى جانب.

وإذا كنّا لا نشعر بمرور هذه الذرات في حد ذاتها، إلا أننا نشعر بمرورها مترائية في الإنسان نفسه، كالتغييرات المتلاحقة التي تطرأ عليه من الطفولة إلى الصبا فالشيخوخة، كما نشعر بانقضاء الزمن من خلال التغيّرات الطارئة على النباتات والأشجار من حولنا.

أما النوع الثاني، فهو الزمن الثابت الذي لا تتحرك ذرّاته وأجزاؤه لأنها كذرّات المادة من رمل وتراب، تترسب وتمكث. ومثل هذا الزمن لا ينتقل

من مكان إلى مكان، ولا يفصل بين حركة وحركة، ولهذا سُمي بالزمن الثابت غير المتحرك.

وفي رأي فلاسفة الإغريق القدامى أن الأبدية زمن الآلهة، وهو زمن ثابت، في حين أن الزمن المتحرك السائر هو زمن الكائنات الحية، ومنها الإنسان.

ولأنَّ زمن الآلهة ثابت غير متحرّك، فلا تغيير يطرأ في وجودها أو وضعها. أما الإنسان والحيوان والنبات، فلأنها تعيش في الزمن المتحرّك السائر، فهي عُرضة لتغيرات تطرأ عليها، ولا سبيل إلى وقفها أو الحيلولة دونها ما دام الزمن متحركاً سائراً يتعذّر وقفه.

ولو استطعنا وقف حركة الزمن ووقف التغيّر في شكل الكائنات الحية، لرفعناها إلى مرتبة الآلهة، لأنها تتمتع إذ ذاك بالزمن الثابت، وهو أبديّ.

أفيمكن إجراء مثل هذا التغيير، أي إدخال أنواع الحيوان والنبات في حيّز الزمن الثابت، فتغدو أبدية الوجود كالآلهة؟

أجاب فلاسفة اليونان على هذا التساؤل بنعم، فمن مؤدى هذا العرفان اليوناني الارتقاء بالإنسان إلى مرتبة الآلهة، وهو ما حاوله كثير من عرفاء الإغريق وفلاسفتهم، كلٌّ بأسلوبه الخاص.

فالفيلسوف اليوناني زينون (١٧٠) ، الذي أسس المذهب الرواقي نسبة إلى هيكل أثينا الذي كان يعلّم فيه الفلسفة، يرى أن الخير هو السعادة، وأن الإنسان يبلغ السعادة عن طريق الفضيلة، وأما الفضيلة نفسها فهي ثمرة الإرادة المعتمدة على العقل، ومن الفضيلة تحمّل المشاق في سبيل الوصول إلى الخير وتحقيقه.

ومما قاله زينون: إنه لا يسع الإنسان أن يظفر بالحرية الكاملة في الدول الديمقراطية كأثينا بالقانون وحده، وإنما الحرية تكتسب بالجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، فإذا قتلت النفس الشريرة ارتاح الناس، ولم يعتد أحد من ذوي النفوس المهذبة على حقوق الغير، والكل يتمتع بالحرية.

وكان الفيلسوف أبيقور (٣٤١ – ٢٧٠ ق.م) يرى أن الزمن الأبدي والسعادة المطلقة يتم التوصل إليهما عندما يتمتع الإنسان بكلّ ما وُهب في حدود الاعتدال. وكان من رأيه أن دراسة الفلسفة إنّما تُراد للحصول على اللذة المصاحبة لمعرفة هذا العلم.

وفي مذهب أبيقور أن النفس إذا عملت خيراً ورد عليها سرورٌ وفرح، وإذا عملت شرّاً ورد عليها حزن وترح، وإنّما يكثر سرور كل نفس بالاجتماع بالأنفس الأخرى.

---

(١٧٠) زينون القبرسي من أعلام العصر الهليني في تاريخ الفلسفة الاغريقية، وهو زعيم مذهب الرواقيين الذي كانوا يرون بماديتهم أن جميع المعارف حسيّة . توفي سنة ٢٦٣ ق.م (راجع "تاريخ الفكر العربي" لعمر فرّوخ ص ١٢٢).

وهناك فيلسوف يوناني آخر عاصر أبيقور وكان له رأي مخالف لـرأي معاصره، وهو ديوجين الفيلسوف ومن مذهبه أن التكامل البشري ووصـول الإنسان إلى الزمن الثابت الأبدي، وبالتالي إلى الآلهة، يتطلبان تـرك الدنيـا وملذّاتها والاكتفاء بالقدر الضروري القليل من وسائل العيش، وقـد رُوي أنـه شـاهد طفـلاً يشـرب المـاء بكفيه مُستغنياً عـن الكـأس الوحيـدة المتاحـة للشرب، فقال: إنّ زخارف الدنيا تحول دون الالتحاق بالآلهة.

ونلاحـظ أنّ هنـاك وجهـاً مشتركاً فـي العرفـان بيـن فلسـفة اليونـان والعرفان الشرقي، يتمثّل في أن الطريق إلى اللـه يمرّ بكبـح جمـاح النفـس والنأي عن الملذات. ولا فرق من هذه الناحية بين فكر اليونان القديـم وفكـر الشرق القديم، اللّهم إلا في حدود هذا الامتناع ومداه.

وكان مـن رأي بعـض فلاسـفة اليونـان، ومنهـم ديوجيـن، أن احتفـاظ الطالب العارف بأكثر من قميصٍ واحدٍ يستر العورة أمرٌ لا يجوز، وهو يقـف حائلاً بينه وبين الوصول إلى لآلهة. ومثل هذه الفكـرة نجدهـا فـي الشـرق، ينادي بها العرفاء والصوفية. فمن أين جاء هذا التشابه أو اللقاء بين الفكرين؟

معروفٌ أن الشرق لم يلتق باليونان قبل قيام دارا ملك الفرس الأخميني (الهخامنشي) في عام ٤٦٠ ق.م بالهجوم على اليونان. فهل حدث اللقاء بين الفكرين اليوناني والشرقي منذ هذا التاريخ؟ وهـل انتقلـت فكـرة الجهـاد مـع النفس للوصول إلى الآلهة من الشرق إلى اليونان، أو عكس ذلك؟

الواقع أننا لا نجد أثراً لهذه الفكرة لا في التعاليم الأصلية لكونفشيوس في الصين، ولا في تعاليم بوذا في الهند، ولا في تعاليم زردشـت فـي فـارس.

فلم يدع أحدٌ منهم إلى قتل النفس للوصول إلى مرتبة الآلهة. ولكن هذه الفكرة انتشرت في الشرق وفي اليونان دون أن تكون بينهما علاقات ثقافية أو روابط أخرى، فهل لنا أن نستخلص من هذا أن فكرة الجهاد مع النفس وترك الملذّات للوصول إلى الله أو السعادة الأبدية قد وُجدت وتبلورت عند الشعوب الفقيرة الكادحة التي لا تجد ما يكفيها لسدّ احتياجاتها؟ ولو أن العرفاء والمتفلسفين في مناطق العالم المختلفة كانوا من طبقة الأغنياء أو السراة، فهل كانوا يشترون طريقاً آخر للوصول إلى الله أو الآلهة؟

هذا التساؤل لا يعني طبعاً أن التاريخ قد خلا من أغنياء أو أصحاب جاه تركوا ملذّات الدنيا ونبذوا أهواء النفس لكي يصلوا إلى هذه الغاية، ولا هو يعني أن فكرة مجاهدة النفس كانت خاصّة بالفقراء والمعدمين وحدهم.

ونعود إلى فكرة الزمن، فنقول إن الدور قد جاء على حكماء أوروبا وفلاسفتها في القرون المتأخرة ليدلوا بآرائهم في هذه القضية، فمنهم من أنكر وجود الزمن إنكاراً باتاً حتى في القرن التاسع عشر الميلادي قائلين إن الموجود هو المكان. ومنهم من أنكر المكان قائلاً إنه يوجد تابعاً للمادة ولا وجود له في حدّ ذاته، وحيثما وُجدت المادة وُجد المكان، وإلا فلا.

وكان الناس في سوادهم يرون في هذا القول إنكاراً للمشاهدات المحسوسة، فهم يشاهدون في حياتهم اليوميّة الغرفة التي يعيشون فيها أو ينامون، وهي ذات عرض وطول وارتفاع. فكيف يسوغ إنكار هذه الحقيقة الماديّة الملموسة المتجلّية بأوضح صورها في المأوى اليومي؟

كما كانت في القرن الماضي مجموعة من العلماء تنكر وجود المكان، ومن مؤدى نظريتهم أن المكان بلا وجود أو حقيقة، وأن ما تحسبه العين مكاناً ذا أبعادٍ أربعة إنْ هو إلا المادة، والمادة هي التي تخلق المكان، أي بعبارة أخرى، إن المادة هي المكان، وحيثما وُجدت وُجد المكان، وإلا انعدم.

ولو سئل واحد من هؤلاء العلماء: وماذا تقول في الطائرة التي تقلع من مكان وتنتقل بسرعة فائقة إلى حيث تحطّ في مكان آخر؟ وما القول في سفينة الفضاء، وأين هي تطير؟ لجاء الجواب: إنها تطير في المادة !.

ويشك البعض في صحّة هذه النظرية، لأنّ المعروف أن الهواء ينتشر في الفضاء بأجزائه وذرّاته على امتداد مسافة معينة قد لا تتجاوز ثلاثة آلاف كيلو متر، يليها الفضاء الطلق الفسيح الذي لا تُوجد فيه إلا أمواج الأثير كأشعة الضوء أو الأمواج الكهربائية أو الجاذبية المغنطيسية، ولا أثر للمادّة في هذا الفضاء الفسيح حتى تسبح فيه سفن الفضاء.

ولكنّ المنكرين لهذه النظريّة يقولون: إن الفضاء الذي تسبح فيه سفن الفضاء هو في حقيقته الحدّ الفاصل بين نواة الذرة وإلكتروناتها، وإن الحدّ الفاصل بين نواة الذرة وأجزائها من الإلكترونات هو في حقيقته كالحدّ الفاصل بين قُرص الشمس والسيّارات. وهذه الفاصلة (سواء أكانت في الوحدة الذريّة أم وجدت بين الشمس وبين الأرض أو الزهرة وغيرها من الأجرام) هي جزءٌ من المادة، والدليل على ذلك أنّ الجاذبية تمرّ فيها، وقوة الجاذبية لا تنفصل عن المادّة، ولا تنفصل المادّة عنها.

ولسنا نرى في هذه النّظرية فرقاً بين الطاقة والمادة، وكلتاهما تعتبران أمراً واحداً ، ولكنهم كانوا يقولون إن للمادة خواصّ تختلف عن خواصّ الطاقة، والواقع المؤكد هو أن العلماء منذ القرن الثامن عشر انتهوا في أبحاثهم إلى أن المادة والطاقة وجهان لشيء واحد، في حين أن تعريف المادّة والطاقة في علم الفيزياء الحديث يتّخذ أبعاداً أخرى. و إلى بداية القرن العشرين، كان من الجائز تعريف المادّة بأنها طاقة متراكمة أو مكثّفة، وأن الطاقة مادّة مَوجيّة، ولكن هذا التعريف لكلّ من المادّة والطاقة لايفي بمطالب العلم الحديث وما انتهى إليه من نتائج.

ولو قلنا إنّ قوة الجاذبية هي المادّة، لأصبحت المادّة التي عرّفناها بأنها طاقة متراكمة، مادّةً مّواجة غير متناهية، ولاضطررنا إلى الاعتراف بأن الوجود ليس فيه سوى المادّة، ولسلمنا بالرأي القائل: إنّ الطائرات وسفن الفضاء تطير في المادة.

ومّما لا ريب فيه أن سرعة أشعّة قوة الجاذبية تجعل الجرم لا متناهياً ، وتصبح المادة بناءً على هذه النّظرية لا متناهية بدورها.

ومنذ مطلع القرن الحالي، وبعد رحلات الفضاء التي قام بها الإنسان، تجمّعت لدى علماء الفيزياء معلوماتٌ هامّة أخرى عن المادّة، منها أن جميع العناصر الموجودة في الكرة الأرضية تنبعث منها الأشعة فوق البنفسجية بصورةٍ مستمرة، وفي حين أن العلماء قبل هذه الرحلات كانوا يعتقدون أنّ الأشعة لا تنبعث إلا من الأجسام الدافئة وحدها. فإن سفن الفضاء والأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض بصورةٍ مستمرة أثبتت أن الأشعة فوق

البنفسجية لا تنبعث من الجسم الدافيء وحده، بل تنبعث حتى من الثلوج في القطبين الشمالي والجنوبي(١٧١) .

وقد أجريت تجارب دقيقة في مختبراتٍ علمية على أجسام بُردت إلى درجة متناهية في البرودة، فتبين أن الأشعة لا تنقطع بسبب البرد الشديد، وأدّت هذه التجارب إلى ظهور قانون فيزيائي هو أن الأجسام والعناصر الموجودة في الكرة الأرضية لا تكفّ عن الإشعاع إلا إذا هبطت درجة الحرارة إلى الصفر. ودرجة الصفر هي الدرجة التي عندها تتوقّف حركة الجزيء في المادة.

وبفضل هذه الأشعة يستطيع الإنسان رؤية كلّ شيء في الظلام مستعيناً بالمنظار المجهّز بالأشعة فوق البنفسجية، وهو منظار لا يحتجب عنه شيء. وقد دلّت التجارب على أن الأشعة التي تنبعث من النباتات النضرة والأجسام الحيّة للإنسان والحيوان تفوق في مقدارها الأشعة المنبعثة من النباتات أو الحيوانات الميّتة. (وممّا يُذكر أن هذا المنظار يستخدم في جبهات القتال ليلاً لمعرفة تحرّكات العدوّ وآلياته).

---

(١٧١) تبيّن للعلماء من رحلات الفضاء والتجارب العلمية أن الفضاء الخارجي مشحون بقوى وطاقات هائلة من الذرّات المؤينة (المعروفة علميا باسم البلازما) واهتدوا إلى حزام هائل من الأشعة الرهيبة يحيط بالكرة الأرضية على طبقتين، وقد عرف علمياً باسم (حزام فان آلن)، وتتألف هذه الأشعة من (إلكترونات) و (بوزيترونات) مشحونة، وهي تتحرك بسرعة هائلة بالإضافة إلى أشعة (غاما) و (الأشعة الكونية) التي تخترق الأجسام مهما يكن سمكها أو طبيعتها. (راجع "العلوم الطبيعية في القرآن" ليوسف مروة ص ١٧٠ – ١٧١).

وعند علماء الفيزياء أن المقصود بدرجة الصفر في البرودة هو هبوط درجة البرودة إلى ٢٧٣,١ درجة سنتيغراد أو ٤٥٩,٦ فهرنهيت. غير أن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا الوصول إلى هذه الدرجة من البرودة في المعامل الضخمة التي أقيمت للأغراض العلمية، وإنما استطاعوا الوصول بدرجة البرودة إلى ٢٢٠ درجة تحت الصفر مقيسةً بميزان الحرارة المئوي (سنتيغراد). وبعد وصولهم إلى هذا الحدّ الهائل من البرودة، يواجهون عقباتٍ كثيرة في سبيل الهبوط بدرجة البرودة إلى ما بعد ذلك. وصفوة القول إنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى درجة البرودة المطلقة، أي الصفر، لكي يتبينوا آثار التوقّف الكامل لحركة الجزيء في الأجسام، وهل يؤثر هذا التوقف في الذرّة أو لا.

وفي حين تتّصل التجارب العلميّة على المادّة وتستمرّ وتُميط اللثام عن كل جديد وغريب في هذا الكون ، يبدو أن النظرية القائلة بأن الوجود هو المادّة اللامتناهية، وأن ما يبدو في أعيننا كالخلاء هو مجال إشعاع المادّة، هي نظرية غير بعيدة عن الواقع، وخليقٌ بالعلماء أن يتأمّلوها ويتابعوها.

وللعالم الفيزيائي المعاصر إسحاق أزيموف (١٧٢) الذي ولد في روسيا وهاجر إلى الولايات المتحدة، نظريّة علميّة عن المكان تجدر الإشارة إليها.

يقول أزيموف إنّ "المكان هو المادة وإشعاعها"، وإن المادّة الأصلية هي نواة الذرّة أو النواة المجتمعة، وإنّ الأمواج المشعة الصادرة من هذه

---

(١٧٢) الواقع أن اسم هذا العالم اسم عربي فهو إسحق عظيم أوف وهو من المسلمين الروس (المترجم).

النواة يزيد ضغطها ووزنها باقترابها من النواة، وينقص بابتعادها عنها، دون أن يقلّل ذلك من سرعتها.

ويمكن تشبيه النواة بمصباح ينشر الضوء في ما حواليه. فإذا ابتعدنا عنه، قلّ الضوء دون أن تقلّ سرعته (وسرعة الضوء هي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة) بل إنّنا إذا ابتعدنا عن المصباح حتى لم نعد نرى ضوءه، ظلّ الضوء موجوداً ومحتفظاً بسرعته المعتادة يتحرّك وينتشر حول المصباح. وهو لايصل إلينا لأن لأعيننا وآذاننا وحاسة اللمس عند الإنسان قدرات معينة لاستقبال الموجات لاتتعدّاها، فإن ابتعدنا عن المصباح المضيء في الدار حتى غاب نوره عن أعيننا، فنوره باقٍ، وهو ينطلق بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية، كما قلنا قبلاً ، وإن كانت عيوننا لا تدركه حتى ولو انحنى في أثناء سيره.

وكان الاعتقاد السائد في الماضي أنّ موجات الضوء تسير في اتجاهٍ مستقيم، غير أن التجارب الحديثة برهنت على أنّ هذه الموجات قد تنحني إذا ما اعترضتها أجرام ذات قوة جاذبيّة شديدة، كما برهنت على أن نور المصباح متى ابتعد عن الكرة الأرضية انحنى أمامها الضوء الساطع، تجذب الضوء إليها؟ إنّ الرد في علم الفيزياء هو : لا ، وهو ردٌّ يحيّر العلماء الذين يتساءلون قائلين: كيف تعجز الشمس بقوة جاذبيتها الفائقة عن اجتذاب ضوء المصباح إليها في حين أن الضوء ينحني عندها؟

نعم، إنّ لكل نجمٍ قوة جاذبية تتناسب مع جرم هذا النجم، وأجرام الشمس هي على درجة من الكثرة تقلّ تلقاءها أجرام المنظومة الشمسية

بأسرها، إذ أن مجموع أجرام المنظومة الشمسية يعادل أربعة عشر بالمئة من واحد من المئة من جرم الشمس. أي أنّنا إذا قسّمنا أجرام الشمس إلى مئة واحدة، ثم جمعنا أجرام النجوم والسيارات الأخرى في المنظومة الشمسية، لوجدنا أنها تساوي ١٤٪ من كل وحدة من وحدات جرم الشمس المئة.

وينبغي ألا يكون هناك لَبْسٌ في فهم الجرم، إذ هو يختلف عن الحجم، فجرم الجسم يقاس بالوزن أو بالحس، وكلما ثقل وزن جسم كبر جرمه، وكلما كبر جرم جسم ما، ازدادت قوة جاذبيته، لأن أجرام الشمس كثيرة ومتكاثفة، فجاذبيتها أقوى وأشدّ.

ومع ذلك فالشمس لا تجذب موجات الضوء المنبعث من مصابيحنا، ولكنّها تجعلها تنحرف عن مسارها. وسبب ذلك أن للضوء سرعة قدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية – كما سبق أن ذكرنا – وبهذه السرعة الفائقة ينطلق الضوء قاطعاً مسافات شاسعة، ماراً من الشمس إلى كرة شمسية أخرى، حتى يصل إلى مجموعة النيازك التي يطلق عليها اسم "كوتوله".

وقد أطلق الفلكيون هذا الاسم على مجموعة من الشهب والنجوم التي تراكمت أجرامها وتزايدت قدرة جاذبيتها بحيث أن الضوء لا يستطيع تجاوزها، فيصل إليها وينجذب نحوها على الفور. والأجرام التي تضمّها مجموعة "كوتوله" متراكمة بكثرة يتعذر تصوّرها.

وسبب تراكم الأجرام في هذه المجموعات النيزكية هو أن لذرّاتها نواة، ولكن ليس لها إلكترون. ومعروف أن الذرّة هي أصغر جزء في المادة، وأنها تشبه فضاءً خالياً كالمنظومة الشمسية تماماً ، وهناك نواة، وهي الجزء

الجوهريّ في الذرّة، والباقي فضاءٌ خالٍ تـدور فيـه إلكترونـات حـول النـواة، تماماً كما تدور السيّارات حول الشمس في منظومتنا.

ولو أزيل الفاصل بين الإلكترون والنـواة بحيـث تبقـى النـواة وحدهـا، لأصبح جرم الكرة الأرضية ككرة اللعـب، أمّـا وزنهـا فيسـاوي وزن الكـرة الأرضية.

فالذرّات في المجموعات المسمّاة "كوتوله" فقـدت فضاءهـا الخـالي، وفقدت الإلكترونـات أيضـاً ، ولـم تبـق فيهـا إلا النـوى المتراكمـة المندمـج بعضها في البعض الآخر بحيث يتألف منها جرم متراكم واحـد، ولـو حـدث هذا في الكرة الأرضية مثلاً ، لكان وزنها معـادلاً لـوزن كـرة اللعـب، ولأن قوة الجاذبية تتناسب مع الجرم، فلهذه المجموعات جاذبية كبـيرة لا تسـمح لشعاع الضوء بتجاوزها، وهذا هو سرّ إظلام هذه المجموعة، ذلك أن الضوء يفقد موجاته حولها بسبب انجذابها نحوها.

ويقول إسحق أزيموف إن الطريق – أي المكان – لا وجـود لـه، وإن الضوء هو الذي يوجد المكان، وإن أشعة الضوء وموجاته هي المكان.

فمن رأي هذا العالم الفيزيائي الروسي الأصل أن المكان ليس له وجود أو حقيقة، إلى أن ينطلق فيه الضوء، وعندئذ يتسبب الضوء نفسه وبأمواجـه في إيجاد المكان، ولو سألنا عن مقدار المسافات التي يقطعها الضوء، أو عن مقدار المسافات التي يُوجدها، لأجاب علماء الفيزياء قائلين: لانهاية لذلـك. ولأضافوا أن موجات الضوء تظل تتذبذب وتقطع المسافات إلى أن تتحول إلى مادة.

وثمة سؤال آخر يعلن للباحث هو: كيف يُستطاع تحويل الضوء (ضوء المصباح مثلاً) من طاقة إلى مادة؟ إلى هذا اليوم، لم يوفق علم الفيزياء للاهتداء إلى جواب عن هذا السؤال، ولو حدث في أية لحظة أن اهتدى العلم إلى جواب عن هذا السؤال، لقطع بذلك مئة ألف سنة من التقدم في غمضة عين.

ففي هذا السؤال يتمثل سر الأسرار في الفيزياء، بل سر الخليقة وسر الوجود، فكيف السبيل إلى تحويل الطاقة إلى مادة؟

لقد نجح العلم في تحويل المادة إلى طاقة، وأصبح هذا أمراً مألوفاً ترى منه ألواناً شتى ليلاً ونهاراً في المصانع والطائرات والسفن والسيّارات والمنازل، وحتى في الجسم البشري الذي تتحول فيه المادة إلى طاقة. أما تحويل الطاقة إلى مادة، فهو أمر مازال متعذراً حتى الآن، ولا نعرف تعليلاً لحدوثه في الكون.

والشمس ظاهرة من أبرز ظواهر الخليقة الماثلة أمام أعيننا. وما يحدث في الشمس نفسها هو أن الطاقة لا تنقلب إلى مادة، وإنّما المادة تنقلب إلى مادة أخرى، ذلك بأن عنصر الهيدروجين في الشمس ينقلب إلى عنصر الهليوم، فيتسبب ذلك في توليد حرارة شديدة.

وإلى هذا اليوم لا يعرف العلماء كيف وجدت الشمس، وقصارى ما قيل في هذا الباب لا يعدو النظريات الافتراضية التي تفتقر إلى البرهان والإثبات.

وصفوة القول: إن إسحق أزيموف وهو كما قلنا عالم فيزيـائي معـاصر يعمل أستاذاً في جامعات أميركا – ينكر وجود المكان ولا يرى حقيقة لـه، ويقول: إن ما نراه ونحس به هو المادة أو أمواجها أو أشـعتها، وإن إحسـاس البشر بالمكان سببه الأشعة المنبعثة من المادة.

فإن كنت جالساً في غرفة أو في مكتـب وشـعرت بـأنك جـالس فـي مكـان، فسـبب ذلـك أن هنـاك أمواجـاً وأشـعة تُحيـط بـك وتكتنفـك، وإن انعدمت انعدم شعورك بالمكان.

ولكن، هل من المستطاع وقف هذه الأمـواج، فنفقـد بالتـالي شـعورنا بالمكان كما يقول أزيموف؟

علم الفيزياء يقول في الردّ على هذا التسـاؤل: لا ، لأن أمـواج الضـوء تحيط بنا وتكتنفنا حتى في الليالي المظلمة وإن لم نـر الضـوء، ولأن أمـواج الصوت تتحرك من حولنا حتى فـي أهـدأ الأجـواء، ولأن بعضهـا يصـل إلينـا ويعبر من أجسامنا.

ولو انقطعت الموجات جميعاً ، فموجـات الجاذبيـة لا تنقطـع فـي أي وقت حتى في المنطقـة الخارجـة عـن نطـاق جاذبيـة الأرض، وهـي جاذبيـة يتعرّض لها رواد سفن الفضاء في الجو، ولكن التوازن الذي تحدثه مع سرعة السفن المنطلقة هو الذي يحول دون سقوطها.

وليس صحيحاً الاعتقاد بأن للسفن الفضائيـة فـي الداخـل أو الخـارج مناعة من قوة الجاذبية.

ذلك لأن من حقائق علم الفيزياء أن قوة الجاذبية مرتبطة بالمادة ارتباطاً من شأنه انتفاء المادة تماماً إذا جرّدت من هذه القوة، ولو انقطعت موجات الجاذبية لما بقي على قيد الحياة كائن حيّ، ولا بقي في الدنيا جسم جامد ولو للحظة واحدة.

أوردنا في ما تقدم خلاصة للنظريات التي قال بها علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بشأن الزمان والمكان.

فإن عرفنا بعد ذلك أن رجلاً جاء قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن وتبنّى مثل هذه النظرية بشأن المكان والزمان، أفلا يستحق منا تقديراً وإجلالاً؟ أوليس هذا دليلاً على أنه ذو عقلية سبق بها عصره وعصوراً أخرى كثيرة، وأنه كان فذّاً في تفكيره الكاشف؟

إنّ هذا الرجل هو جعفر بن محمد الصادق (ع) الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وساق نظريّات حول الزمان والمكان تتفق مع نظريات العلماء المعاصرين ناهيك عن أن تعريف الزمان والمكان لدى الصادق (ع) كان خلواً من المصطلحات والمعادلات العلميّة الحديثة، وكان مصوغاً في قالب سهل المأتى، واضح المعنى.

ففي رأي الصادق (ع) أنَّ الزمان غير موجود بذاته، ولكنّه يكتسب واقعيته وأثره من شعورنا وإحساسنا، كما أن الزمان هو حدٌّ فاصلٌ بين واقعتين أو وحدتين.

وهو يرى أن الليل والنهار ليسا من أسباب تشخيص الزمان ومعرفته، وإنما هما حقيقتان مستقلتان عن الزمان، يُضاف إلى ذلك أن الليل والنهار

ليس لهما طول ثابت، فالليل يقصر في الصيف ويطول في الشتاء، والنهار على عكسه، وهما يتعادلان أحياناً .

وفي رأي الصادق (ع) أيضاً أن للمكان وجوداً تبعيّاً لا ذاتياً ، وهو يتراءى لنا بالطول والعرض والارتفاع، ولكن وجوده التبعيّ يختلف باختلاف مراحل العمر، ومن ذلك مثلاً أن الطفل الذي يعيش في بيتٍ صغيرٍ، يرى بخياله وأحلامه أن فضاء البيت ساحة كبرى. ومتى بلغ هذا الطفل العشرين من عمره، رأى هذه الدار مكاناً صغيراً جداً ، وأدهشه أنه كان يراها واسعةً رحيبةً في طفولته.

فللمكان، بناءً على ذلك، وجودٌ تبعيٌّ لا حقيقي، وفي هذا اتفقت آراء علماء الفيزياء في القرن العشرين مع رأي الإمام الصادق في القرن السابع الميلادي.



نظرية الصادق «ع» حول أسباب بعض الأمراض

ومن النّظريات التي قال بها الإمام الصادق (ع) وكشفت عن نبوغه العلميّ وإحاطته الواسعة بدقائق العلوم، نظريّته المتعلقة بانتقال بعض الأمراض عن طريق الضوء من المريض إلى السليم.

ومؤدّى هذه النظرية أنّ هناك أمراضاً ينبعث منها ضوء، فإذا أصاب الضوء أحداً، انتابته العلّة.

ولابد من ملاحظة أنّ هذا القول لا ينسحب على العدوى بطريق الهواء أو الميكروب، لأنّ هذه الحقيقة لم تكن قد كُشفت بعد أيام الصادق (ع)، وإنّما ينصب هذا القول على الضوء - وليس كل ضوء - بل الضوء الذي يشعه المريض، فإذا أصابَ سليماً أمرضه.

وقد ذهب علماء الأحياء إلى هذه النظرية ضربٌ من الخرافة، اعتقاداً منهم بأن العامل الرئيسي في انتقال المرض هو الميكروب أو الفيروس الذي ينتقل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الحشرات أو الماء أو الهواء الملوث.

وكان الاعتقاد السائد بين المطببين قبل اكتشاف الميكروب أن الرائحة هي السبب الفعّال في انتقال المرض، ولهذا صرفوا اهتمامهم إلى الحيلولة دون انتقال الرائحة من المريض إلى السليم. أمّا ما ذهب إليه

الصادق من أنّ الضوء المشعّ المنبعث من المريض هو الذي يتسبّب في نقــل العدوى، فهو نظرية لم يقل بها أحدٌ في أي مرحلة من مراحــل تـاريخ الطـب الطويل.

وظلت هذه النظرية معدودة من الخرافات في رأي العلمـاء والبـاحثين إلى أن جاءت التجارب العلمية المعاصرة معززة لها ومثبتة لصدق آراء الصــادق (ع) هذه.

ففي مدينة "نوو – وو – سيبيرسك"(١٧٣) الواقعة في الاتحاد السوفييتي مركز من أهم مراكز البحوث في العلوم الكيميائية والطبيّة. وقد استطاع هـذا المركز أن يثبت للمرّة الأولى بأن هناك مــن الأمـراض مـا يشـع ضـوءاً ، وأن هذا الضوء قادر في حد ذاته، ودون ميكروب أو فيروس، على إصابة الخلايـا السليمة وإيقاع المرض بها.

أما الأسلوب الذي اتبعه علمــاء مركـز "نـوو – وو – سيبيرسـك" فـي إجراء تجاربهم فكان على النحو التالي:

تخير العلماء مجموعتين من الخلايا الموجودة في كائن حــي، وراعـوا فيها أن تكونا من نفس العضــو، كخلايـا القلـب أو الكلـى مثـلا، ثـم أجـروا عليهما عملية تجزئة أو تحليل، وتـابعوا نتيجـة ذلـك. وقـد تبيّنـوا أن الخليّـة

(١٧٣) عرفت هذه المدينة قديماً باســم "نوو – وو – نيكله يوفنسك"، ثـم غير اسـمها فـي عـام ١٩٢٥ إلى "نوو – وو – سيبيرسك" ، وهي تعد من المراكز العلمية والصناعيـة الهامـة فـي مقاطعـة سيبيريا الروسية. ويؤخذ من آخر إحصاء ورد في دائرة المعارف الجغرافية البريطانية أن عدد سـكانها كان في عام ١٩٦٣ حوالي مليون نسمة (٩٩٠,٠٠٠ على وجه التحديد).

تشع أنواعاً من "الفوتون"، (ومعروف أن ذرة الضوء تسمى بالفوتون، وهو أصغر جزء منه) وبفضل التقدّم العلميّ استطاعت المختبرات العلمية تجزئة الفوتون وإجراء تجارب علميّة عليه.

وبعد إجراء البحوث الدقيقة على هاتين المجموعتين من الخلايا المتشابهة والمختلفة في الكائن الحيّ، أدخلوا المرض على مجموعة منها ليتابعوا تأثير إشعاعه، فوجدوا أن الفوتون يشع من الخلية المريضة أيضاً ، وأن المرض يمنع الخلية من الإشعاع.

ثم انتقل العلماء إلى المرحلة الثانية من التجارب، فوضعوا الخلايا السليمة في حافظتين إحداهما من الكوارتز(١٧٤) والأخرى من الزجاج.

ومعروف أن من خواصّ الكوارتز مقاومته للأشعة، فلا تخترقه إلا الأشعة فوق البنفسجية، في حين أن من خواص الزجاج العادي أن فوتون أنواع الأشعة يخترقه ما عدا الأشعة فوق البنفسجية.

وقد تبين العلماء بعد انقضاء ساعات على الخليات الموجودة في الحافظتين أمام الخلية المريضة أن ما كان منها في حافظة الكوارتز أصيب بالمرض، أما الخلايا التي كانت في الحافظة الزجاجية فقد بقيت سالمة.

وما دام الكوارتز يقاوم جميع أنواع الأشعة ما عدا الأشعة فوق البنفسجية، ومادام الزجاج يقاوم الأشعة فوق البنفسجية وحدها، فقد تحقق من هذه التجربة أن الخلية المريضة التي تصدر منها أشعة فوق بنفسجية

(١٧٤) الكوارتز، ويسمى أيضاً السيلكا، حجر معدني متبلور يكثر في جبال الأورال السوفيتية، ويسمى النوع الأبيض منه بالماس الأورال.

قادرة على نقل المرض إلى الخلايا السليمة من خلال هذه الأشعة. أما الخلايا السليمة الموضوعة في الحافظة الزجاجية، فلم تصل إليها الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الخلية المريضة، وبقيت محتفظةً بسلامتها، في حين أن الخلايا السليمة الموجودة في حافظة الكوارتز أصابتها العلّة لأن الكوارتز لا يقاوم الأشعة فوق البنفسجية الصادرة من الخلايا المريضة.

وقد أعيدت هذه التجارب على أمراض مختلفة وعلى خلايا متشابهة ومختلفة طوال ربع قرن، وبلغ عدد التجارب التي أجريت خمسة آلاف، وذلك للتوصل إلى رأي علمي ثابت بالبرهان العلمي المتكرر.

وقد تشابهت نتائج هذه التجارب، ودلت بصورة قاطعة على أن الخلية المريضة تنبعث منها أشعة مختلفة، منها الأشعة فوق البنفسجية، وأن الخلية السليمة إذا ما أصابتها أشعة فوق بنفسجية صادرة عن خلية مريضة، انتقلت إليها نفس علّة الخلية المريضة.

ولم يحدث في جميع التجارب التي استمرت خمساً وعشرين سنة أن تجاوزت الخلايا السليمة والخلايا المريضة بحيث يقال: إن عدوى الميكروب أو الفيروس انتقلت من هذه إلى تلك بالاحتكاك، فثبت للباحثين أن سبب انتقال العدوى هو الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلية المريضة.

وإذا منعنا هذه الأشعة من الوصول من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة، منعنا المرض من الانتقال من هذه إلى تلك.

ومن خواص المضادات الحيوية أنها تقلل من حدة هذه الأشعة، فتشل قدرتها على نقل العدوى من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة.

ويؤخذ من البحوث التي أجريت في هذا المركز العلمي السوفييتي أن خلايا جسم الإنسان تصدر عن كل منها أشعة فوق بنفسجية، كما أنها تستقبل هذه الأشعة، أي أنها ترسلها وتستقبلها وتنقل العدوى بسببها إذا ما انتقلت من خلية مريضة إلى خلية سليمة. أما إذا كانت الخلية سليمة، فلا يترتب على انتقال الأشعة ضرر أو مرض.

كذلك ثبت أن الخلايا السليمة، إذا ما مرضت بفعل التوكسين (السم)، أصبحت بدورها ناقلة للعدوى بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة منها.

والتوكسين سم تولده عناصر وخلايا موجودة في جسم الإنسان، ولكن مفعوله في الجسم يختلف عن مفعول الميكروبات والفيروسات والإكثار من الطعام هو من العوامل الهامة في توليد التوكسين بكميات زائدة في جسم الإنسان عند التقدم في العمر.

وقد ثبت من التجارب العلمية التي أجريت، وعددها خمسة آلاف تجربة، أن الخلايا المريضة تنتقل منها العدوى إلى الخلايا السليمة بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الأولى، كما ثبت أن الخلايا المريضة بالتوكسين تنقل المرض بدورها بفعل هذه الأشعة عينها، دون انتقال لأي ميكروب أو فيروس من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة.

ولا ريب في أن النتائج التي أسفرت عنهـا هـذه التجـارب قـد فتحـت أمام علماء الأحياء والطب ميداناً جديداً يطرقونه لمعالجة الأمـراض، يتمثـل في اللجوء إلى إحدى طريقتين: إمّا الاهتداء إلى وسـيلة تمنـع انتقـال الأشـعة فوق البنفسجية من الخلية المريضة إلى الخلية السليمة (كما هـو الحـال فـي انتقال الخلية المصابة بالسرطان إلى غيرهـا مـن الخلايـا السـليمة مـن طريـق الأشعة فوق البنفسجية)، وإما بإكساب الجسم مناعة، بحيث تستطيع خلاياه السليمة مقاومة هذه الأشعة الناقلة للعدوى.

وقد أنعش هذا الكشف العلمي العظيم آمالاً عريضة في إمكان التوسل بهذا الأسلوب في معالجة الأمراض المسـتعصية كالسـرطان وغـيره. ومـع أن العلماء يتفاءلون دائماً بقرب تحقيق المعجزات، إلا أننا نفضل دائماً انتظـار ما تسفر عنه التجارب العلميـة المتصلـة، فهـي وحدهـا التـي تقطـع بالنجـاح أوبالفشل.

وثمة حقيقة لا ريب فيها، عززتها طائفة كبـيرة مـن العلمـاء والبـاحثين في المراكز العلمية الأخرى، مؤداها أن الخلايا المصابة بأمراض مختلفة يشع كل مرض منها نوعاً خاصاً مـن الفوتـون يختلـف عـن غـيره مـن فوتونـات الأمراض الأخرى. والعلماء عاكفون على إعداد جـدول علمـي يضـم جميـع أنواع الفوتونات والرقم الرمزي الخاص بكل نوع منها، ولكن إعداده يحتاج إلى وقت طويـل بـالنظر إلـى كـثرة عـدد الميكروبـات والفيروسـات وأنـواع التوكسين (السم)، ومع ذلك، فقـد استطاعوا قبـل الفـراغ مـن هـذا الحصـر والإحصاء أن يشخصوا كثيراً من الأمراض والفوتونات التـي تشـعها وطـرق علاجها.

وعلى سبيل المثال نذكر أن العلماء استطاعوا بعد كشف أسباب العدوى بميكروب الانفلونزا ونوع الفوتون الذي يشعه وكذلك أشعته فوق البنفسجية، أن يحددوا العلاج الكفيل بمنع سريان هذا المرض إلى الخلايا السليمة الأخرى.

وقد أجريت تجارب علمية مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية، فجاءت نتائجها متفقة مع ما انتهى إليه مركز الأبحاث السوفيتية، كما وضع الدكتور جون أوت كتاباً في هذا الموضوع ونشرت المجلات الطبية والعلمية نتائج هذه البحوث.

سُقنا هذا العرض لندلّل على أن العلم الحديث قد جاء مؤكداً للنظرية التي دعا إليها الإمام الصادق (ع) في منتصف القرن الثاني للهجرة ومؤدّاها أن الضوء المنبعث من مرض ما يتسبب في إصابة الغير بالمرض، وهي النظرية التي اعتبرت يومها من الخرافات البعيدة عن الواقع، فقد أقام العلم الحديث البرهان على أن الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلايا المريضة تتسبب في نقل الأمراض إلى الخلايا السليمة. أما الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس فهي لا تصيب الإنسان أو الكائنات الحية بالمرض إلا إذا وصلت إلى جسم الإنسان والحيوان دون أن تمر من الهواء، أي دون أن يفصل بينها وبين الكائن الحي عائق مثل طبقة الهواء، ولولا هذه الطبقة الهوائية العازلة، لهلكت الكائنات الحية. وصفوة القول: إن التجارب العلمية قد جاءت مؤكدة لنظرية الإمام الصادق (ع) بعد ألف ومئتين وخمسين سنة.

على أن موضوع انتقال عدوى بعض الأمراض من الجسم المريض إلى الجسم السليم قد اهتدى إليه الإنسان من قديم، فقد جاء في ورقة من أوراق البردي المصرية القديمة، التي يرجع تاريخها إلى ١٥ قرناً قبل الميلاد والتي يحتفظ بها المتحف الفرنسي، أن رجال فراعنة مصر منعوا المسافرين في سفينة من النزول إلى الساحل لأنهم كانوا مرضى، وخيف من نقلهم العدوى إلى الأصحاء.

وتثبت هذه الوثيقة التاريخية حقيقتين، أولاهما أن النقل البحري كان مزدهراً في مصر القديمة بين المدن المتناثرة على ضفتي النيل والبحرين الأحمر والأبيض، وثانيتهما أن الطب كان متقدماً في مصر القديمة في هذه الفترة السحيقة التي ترجع إلى ٣٥٠٠ سنة مضت.

فقد ثبت عند الناس من قديم أن بعض الأمراض ينتقل من المعتلّ إلى السليم، أي أن هناك طائفةً من الميكروبات التي تنقل العدوى.

أما وقد نجح التجريب العلمي في إثبات نظرية الإمام الصادق (ع) من أن الأشعة فوق البنفسجية التي تنبعث من الخلية المريضة تتسبب في اعتلال الخلايا السليمة، فهل يمكن قياس فعالية هذه الأشعة؟ وهل يجوز القول بأن الأمراض التي تظهر في ناحية دون أخرى، أو الأمراض التي تقع مرة واحدة أو مصادفة، إنما هي أمراض انتقلت من خلايا مريضة بفعل الأشعة فوق البنفسجية؟ إن الرد على هذه التساؤلات، بما فيها قياس مفعول الأشعة الناقلة للعدوى، مازال أمراً غير مقطوع به.

صحيح أن العلم الحديث عرف أن الفيروس لا يكاد يتخذ مكانه في الخلية حتى يشرع في التكاثر والانتشار بسرعة فائقة، وأن المضادات الحيوية أو غيرها من العقاقير تساعد على قتل الجراثيم والفيروسات في جسم الإنسان، ولكن العلم الحديث مازال يجهل أشياء كثيرة، منها مثلاً سبب إصابة الخلايا بالشيخوخة. ولو عرفت علّة هذه الشيخوخة وعولجت في الخلايا، لانتفت الشيخوخة من حياة الإنسان.

ومن الثابت والمقطوع به لدى العلماء الأمريكيين والروس أن الفوتون الموجود في الخلية المريضة – وهو جزء صغير من الضوء – إذا انبعثت منه أشعة فوق بنفسجية ووقعت على خلية أخرى سليمة، لتسببت في إصابتها بالمرض.

وللإيضاح نقول: إنه إذا تصورنا أن الجرثومة (الميكروب) هي في حجم البالون، كان الفيروس في حجم حبة السمسم بالنسبة إليه. ولكن هذه الحبة الصغيرة بالنسبة للميكروب تحمل معها عدوى المرض إلى الخلايا السليمة.

وربّما كان تعليل ذلك أن الفوتون يحمل معه جرثومة صغيرة جداً من المرض، وأن هذه الجرثومة تتسبب في اعتلال الخلية السليمة، وربما نجح العلم في القريب في تبيان كيفية انتقال المرض من الخلية المريضة إلى الخلايا السليمة من خلال الأشعة فوق البنفسجية، والعلم الحديث كفيل بكشف الغوامض جميعاً .

ولا تقتصر النظريات العلمية الكاشفة للإمام الصادق (ع) ، ولا سيما في الفيزياء، على ما أوردناه في هذا البحث حتى الآن، بل إن له نظريات هامة أخرى أكدتها التجارب العلمية الحديثة.

ومن هذه النظريات مثلاً قوله: إن لكل كائن موجود وجوداً ذاتياً كائناً مضاداً له، ما عدا الله، ولكن الضدين لا يتصادمان ولا يجتمعان ، ولو اجتمعا أو تصادما لكانت في ذلك نهاية العالم.

وهذه النظرية هي بعينها النظرية الحديثة القائلة: إن للمادة نقيضاً أو مضاداً (anti-body) وقد قطعت هذه النظرية شوطاً بعيداً في سبيل إثباتها بالتجريب العلمي.

والعلماء في البلدان المتقدمة عاكفون اليوم على البحث في مضادات العناصر المختلفة ونقائضها رغبة في التحقق منها[١٧٥] .

والفرق بين المادة ومضاد المادة أو نقيضها يتحصل في أن المادة في العناصر المادية تتركب ذرّاتها من نواة مركزية موجبة تدور في فلكها إلكترونات سالبة، في حين أن ذرات المادة المضادة تتألف من نواة سالبة تدور في فلكها إلكترونات موجبة، أي أنها تماثلها ولكن بصورة عكسية تماماً .

---

(١٧٥) من مؤدى هذه النظرية أن لكل مادة نقيضاً أو مضاداً ، وأن المواجهة بين المادة ونقيضها تنتهي بفناء المادة. ويبدو من البحوث التي أجراها العلماء في مختبرات كالهام في إنكلترا وبروكهافن في الولايات المتحدة وكارلسروه في ألمانيا الغربية أن هذه النظرية صحيحة. وهناك اعتقاد بأن المادة ونقيضها قد خلقهما الله معاً عندما أوجد هذا الكون، وأن للاثنين أصلاً واحداً وأنهما يتطوران تطوراً واحداً راجع "العلوم الطبيعية في القرآن" ليوسف مروة ص ٢٢٢.

ولم تجر حتى الآن تجربة يراد منها تحقيق مواجهة بين ذرات المادة وذرات مضادها، ولا تعرف بالتالي نتيجة مثل هذه المواجهة، وهل يسفر التصادم بينهما عن انفجار أو عن أي عواقب أخرى مازال أمرها في طي الغيب.

والحديث عن وقوع انفجار نتيجة لهذا التصادم لا يعدو أن يكون رأياً شبيهاً إلى حد كبير بالرأي النظري الذي كان يقول به العلماء حول شطر نواة ذرة عنصر الأورانيوم قبل صيف عام ١٩٤٤ عندما فجرت أمريكا نواة الذرة للمرة الأولى، وحسمت بالقنبلة الذرية الحرب العالمية الثانية، إذ كان العلماء في ذلك الوقت يتحدثون عن إمكان حدوث سلسلة من الانفجارات المتصلة والمتعاقبة في عناصر الأرض إذا ما أمكن تفجير نواة الذرة، أي إحداث تفجير نووي، ولكن التفجير الذي أحدثته أمريكا انتهى دون أن ينتقل إلى بقية العناصر في الكرة الأرضية.

صحيح أنه قد أجريت تفجيرات أخرى كثيرة حتى الآن، سواء في الولايات المتحدة أو في غيرها، ولكن هذه التفجيرات كانت محدودة، ولم تنتقل إلى سائر العناصر في الكرة الأرضية، ولكن التفجير النووي شيء، والتفجير الذي يحتمل أن يحدث نتيجة لتصادم المادة ومضادها شيء آخر.

فالتفجير النووي أو الهيدروجيني يحوّل جزءاً صغيراً من المادة إلى طاقة، ويبقي الجزء الأكبر عاطلاً فلا يتحول إلى طاقة(١٧٦) .

ويؤخذ من معادلة أينشتين الذرّية أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع مما يؤدي إلى فناء العالم، فقد استولى القلق والخوف الكبيران على علماء الفيزياء الذين صنعوا القنبلة الذرية الأمريكية وفجروها لأول مرة في عام ١٩٤٤ خشية أن تحلّ بالعالم كارثة ماحقة.

واليوم يقول علماء الفيزياء الذين يدرسون احتمالات اصطدام المادة بمضادها: إن هذا التصادم سينتهي بتحويل الاثنين إلى طاقة خالصة. ويذهب هؤلاء العلماء إلى أن اصطدام كيلو غرام من المادة بكيلو غرام من مضادها كفيل بتوليد طاقة تفني الكرة الأرضية إفناءً تاماً وتحوّلها إلى غاز شديد الحرارة ينتشر في المنظومة الشمسية بأسرها.

---

(١٧٦) وفقاً لقانون تحويل المادة إلى طاقة، تحتسب الكتلة بالغرام، ويُقاس مربع سرعة الضوء بالسنتيمتر، أي السرعة التي بها يقطع الضوء مسافة سنتيمتر واحد. وبعد تحديد هذا القياس يُضرب في مربعه، ثم يضرب حاصل الضرب في وزن الكتلة مقيسة بالغرام، والناتج هو مقدار الطاقة.

وتقاس الطاقة بمقياس آخر يطلق عليه اسم "إيرك" ، والإيرك هو القوة التي تتحصل من كتلة غرام واحد في سنتيمتر واحد من سرعة الضوء في ثانية واحدة. ولو أردنا معرفة الطاقة التي تنبعث من كيلو غرام، أي ألف غرام من مادة معينة، لضربنا النتيجة السابقة في ألف – هذا طبعاً إذا تحول الكيلو غرام كله إلى طاقة (المترجم).

وحتى نعرف مقدار ذرّة الهيدروجين وحجمها، تكفي الاشارة إلى أن وحدات الكتلة الذرية تقاس بوحدة الهيدروجين، وتعبر ذرة الهيدروجين وحدة للقياس وزنها ١,٦٦ جزء من مليون مليار مليار جزء من الغرام، وكثافة نواة الذرة تبلغ مئة مليون طن لكل سنتيمتر مكعب.

(راجع كتاب الدكتور يوسف مروة ص ١٦٥).

ولكن البروفسور آلفون، وهو أستاذ للفيزياء بجامعة "لوند" السويدية، عارض هذه النظرية قائلاً: إن الأمر سينتهي بالإنسان إلى استغلال الطاقة المتحصلة من اصطدام المادة بمضادها وتسخيرها في أغراضه الصناعية باعتبارها طاقةً لا تنفد. في حين أن الطاقة التي يمكن توليدها من البرق ومن شطر نواة اليورانيوم ومن الهيدروجين ومن مساقط المياه وحركات البحار هي طاقة لا تحلّ مشكلة الإنسان، ويعزز هذا العالم رأيه بقوله: إن الطاقة المتولدة من اصطدام مئة كيلو غرام من المادة ومضادها، تكفي حاجات البشر من الطاقة في الكرة الأرضية بأسرها في سنة كاملة.

ولكن كان كل ما يقال عن عواقب اصطدام المادة ومضادها رجماً بالغيب، لأن هذا لم يتحقق بالتجريب العملي، فإن البروفسور آلفون يرى أن مثل هذا التصادم – إن تحقق – لن يولد إلا طاقة خالصة من جميع عناصر التلوث التي تفسد البيئة.

وقد أطلق البروفسور آلفون على الطاقة الحاصلة من اصطدام العنصرين اسم (ماترجي Materji في مقابل "إنرجي" Energy) وهي الطاقة المولدة من المادة.

ويؤخذ من الفروض النظرية لهذا العالم أنه لو حدث اصطدام بين ٥٠٠ غرام من المادة و ٥٠٠ غرام من مضاد المادة لتولّدت من ذلك حرارة قدرها مئة مليار درجة (أي مئة ألف مليون درجة)، وليس في العالم مصدر يمكنه اعطاء البشرية هذا القدر من الحرارة، علماً بأن حرارة مركز قرص الشمس لا تزيد عن عشرة ملايين درجة.

ويقول البروفسور آلفون في الرد على التساؤل: أفيستطيع الإنسان إخضاع هذا القدر الهائل من الحرارة وتسخيره في قضاء مطالبه؟ إن هذا ممكن إذا ما استطعنا إحداث تفجير جزئي في عملية تصادم العنصرين، تماماً كما أن التفجير الذي يحدث في نواة الذرّة هو تفجير جزئي أو ناقص. وقد تقدم أن جزءاً فقط من المادة هو الذي يتناوله التفجير الذّري ويحوله إلى طاقة، أما القدر الأكبر من المادة فيبقى دون تفجير ويذهب هباء.

ويذهب البروفسور آلفون إلى أن المانع من إحداث تفجير بين المادة ومضاد المادة هو مانع اقتصادي، لأن التجربة الأولى ستكلّف ما يتفاوت بين عشرة مليارات وخمسة عشر ملياراً من الدولارات، وهو مبلغ طائل تنوء به ميزانيات الحكومات والمؤسسات.

ولو تمّت هذه التجربة، لأمكن بسهولة توليد الطاقة من هذا المصدر، وإذا كان العلماء اختاروا اليورانيوم من دون العناصر الأخرى في التجارب التي قاموا بها لتفتيت نواة الذرة، فأرجح الآراء أن عنصر الهليوم هو الذي سيختار دون سائر العناصر لإجراء تجارب اصطدام المادة بمضادّها، وسبب ذلك أن علماء الفيزياء في الاتحاد السوفييتي قد اكتشفوا مضادّ الهليوم، ولعلهم يعدّون لإحداث مواجهة بين الهليوم وهذا المضاد.

نظرية الصادق (ع) بشأن أشعة النجوم

ذكرنا – في ما سبق – أنه قلّ أن يكون هناك موضوع علمي وليس للصادق (ع) رأي ذو وزن فيه.

وقد درسنا حتى الآن بعض النظريات التي طلع بها والتي تشهد له بأنه كان ذا عقلية علمية مرتبة، ولا تتوافر أمثال هذه العقليات إلا لأفذاذ العباقرة.

وللصادق كذلك نظرية تتعلق بضوء النجوم من مؤداها أن بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضخم من الشمس، وأن شمسنا تعتبر بالقياس إليها صغيرة الحجم ضئيلة الضياء.

واليوم، وبعد مضي اثني عشر قرناً ونصف قرن، أثبت العلم صحة نظرية الإمام الصادق (ع) ، إذ تبين للعلماء أن هناك مجموعات من النجوم السواطع تتضاءل تلقاء حجمها وضيائها الشمس نفسها.

ويطلق على هذه النجوم (المجرات) اسم (الكوزرز) الواحدة منها كوازر Quasars، [١٧٧] وبعضها يبعد عن الأرض بمقدار تسعة آلاف مليون (أي تسعة مليارات) سنة ضوئية. وما يصل إلى المراقب الفلكية اليوم من

---

(١٧٧) اختصرت لفظة الكوازر Quasars من عبارة إنجليزية طويلة هي Quasi Stellar redio suorces ومعناها مصادر راديوية شبيهة بالنجوم. (راجع كتاب "أوراق علمية" للدكتور فؤاد صروف ص ٣٥٩).

الأمواج الضوئية الصادرة عن هذه المجموعات يقطع المسافة الشاسعة بين هذه المجموعات وبيننا في تسعة آلاف مليون سنة ضوئية.

وهناك مراقب راديو تلسكوبية ضخمة ترصد هذه النجوم والأنوار الساطعة المنبعثة منها حتى في النهار، منها مرقب (آرسي بوئه) في جزيرة (بورتوريكو) والذي يبلغ قطره تلاثمئة متر.

ويساوي الضوء المنبعث من بعض هذه الكوازر ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة، (أي ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهو رقم ليس فيه خطأ أو شطط.

ووحدة قياس الضوء التي يستند إليها علماء الفلك في قياس ضوء النجوم هي ضوء الشمس ، وللمرء أن يتصور الضخامة المتناهية لبعض المجموعات من الكوازر إذا كان ضوؤها يعادل ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرّة، كما ذكرنا ، فينحط ضوء الشمس أمامها ويصبح كضوء شمعة صغيرة.

ورغبة في رصد هذه المجرات الضوئية الضخمة التي اكتشفت المجرة الأولى منها في سنة ١٩٦٣م (وهناك أكثر من مئتي مجرة قد اكتشفت حتى الآن) فكّر العلماء في صنع مرقب فلكي سعة دائرته ثلاثون ألف متر (ثلاثون كيلو متراً).

وبالنظر إلى استحالة صنع مرقب (راديو تلسكوب) له هذه السعة، بدأ العلماء يفكرون في صنع مرقب كهربي له هوائيات قوية ترتفع على شكل حرف y بحيث تكون المسافة بين كل رأس من رؤوس هذا الحرف واحداً

وعشرين كيلو متراً . أما الهوائي فينتقل بين المحاور الثلاثة ويتم التحكم فيه إلكترونياً ، ويبلغ طول الهوائيات الثلاثة ٢١ كيلو متراً ، ولها قدرة على الرصد كما لو كانت سعة المرصد ثلاثين ألف متر، ويتم توجيه هذا الجهاز إلى الكوازر لمشاهدتها بمزيد من الدقة.

وقد اعتاد الفلكيون منذ القرن الثامن عشر الميلادي على اكتشاف كتل ضوئية في السماء، وكانت المسافة السحيقة التي تفصل هذه الأجرام المضيئة عنّا من الأمور المألوفة التي لا تثير دهشة العلماء آنذاك.

ولكن، لمّا رأى علماء الفلك مجموعة الكوازر البعيدة في عام ١٩٦٣ م مستعينين بمرقب (راديو تلسكوب) آرسي بوئه في بورتوريكو، استولت عليهم الدهشة لأنها تبعد عنا بمقدار ٩ مليارات سنة ضوئية، في حين أن العالم أينشتين كان يعتقد بأن قطر العالم ثلاثة مليارات سنة ضوئية.

ولكي تستطيع الأذهان إدراك مدى ضخامة هذه المسافة الشاسعة، نذكر أن الضوء يحتاج إلى سنة كاملة لكي يقطع بسرعته الفائقة مسافة ٩٥٠٠ مليار كيلومتر. فإن أردنا أن نعرف مقدار المسافة الحقيقية بين مجرات الكوازر والأرض، ضربنا ٩٥٠٠ مليار سنة في ٩٥٠٠ مليار كيلو متر.

وبغض النظر عن ضخامة هذه المسافة التي يتعذّر على العقل تصورها، فإن مما يزيد في حيرة علماء الفلك أن مجرّات الكوازر تطلق ضوءاً ساطعاً يساوي ضوء الشمس ١٠ آلاف مليار مرة، وحتى الآن لم يكتشف العلماء

كنه هذه الكوازر والعناصر التي تتركّب منها والتي تمكّنها من توليد كلّ هذه الحرارة والطاقة العجيبة.

ويقول البروفسور آلفون الذي مرّ ذكره إن المصدر الوحيد في الكون الذي يمكنه توليد مثل هذه الطاقة هو المادة إذ تنفجر بعد اصطدامها بمضادها، ولو نجح علماء الذرة في الاتحاد السوفييتي مثلاً في تفجير عنصر الهليوم بعد اصطدامه بمضادّ الهليوم، لاهتدى العالم إلى مصدر للطاقة لا نفاذ له، ولهان على العلماء معرفة سرّ الحرارة والطاقة المنبعثة من مجرّات الكوازر.

ومع انقضاء ٢٩ عاماً * على التفجير النوويّ الأول الذي تم في الولايات المتحدة الأميركية، لم يستطع علماء الذّرة تفجير نُوى ذرّات العناصر والأجرام الأخرى، ما عدا اليورانيوم والبلوتونيوم (والبلوتونيوم يُستخرج من اليورانيوم) ، فهم لم يستطيعوا تفجير نواة ذرّة الهيدروجين، أما الطاقة التي أمكن توليدها من الهيدروجين، فقد ولدت لا من شطر نواة ذرّته كما هو الحال في اليورانيوم والبلوتونيوم، بل من إدغام عناصرها بعضها ببعض.

وإذا كان العلماء الذرّيون قد توصلوا إلى كشف مضاد الهليوم، فانّهم لم يوفّقوا حتى الآن إلى كشف مضادّ لعناصر أخرى كالأوكسجين أو الآزوت (النتروجين) مثلاً .

(*) عند صدور هذا الكتاب بالفرنسية.

ومعروف أن الحديد هو من العناصر المتوافرة في كل مكان، ولكن علماء الذرّة لم ينجحوا حتى الآن في إحداث تفجير نووي في ذرات الحديد، مع أن نظرية تفجير نواة الذرة التي قد طُبقت بنجاح على اليورانيوم والبلوتونيوم مفروض أنها تنطبق كذلك على الحديد والنحاس والرصاص والزّنك (الخالصين) وغيرها من العناصر، لأن تركيب ذرّات هذه العناصر شبيه من حيث قابليته للشطر بتركيب ذرّات اليورانيوم، ومع ذلك لم تستطع الدول الحائزة للطاقة الذّرية إحداث هذا التفجير حتى الآن.

ثم إن المرقب الفلكي (الراديو تلسكوب) لم يرصد أشعة النجوم وحدها، وإنما رصد كذلك الجزيئات المتناثرة في الفضاء الرحب حتى بلغت الأنواع التي كشفت منها حتى الآن أكثر من ثلاثين جزيئاً . وتتكون الأحماض الأمينية أو البروتينية من قسم من هذه الجزيئات، بمعنى أن عناصر خلايا الكائن الحيّ موجودة في الجزيئات المتناثرة في الفضاء.

ويؤخذ من وجود هذه الجزيئات في الفضاء أن وجود الإنسان على الكرة الأرضية لم يكن أمراً عارضاً ، وإنما هو مرتبط بالوجود الشامل العام.

ويسوغ لنا اليوم أن نقول باطمئنان وثقة إن الأرض كانت في بادىء الأمر عارية من كل أثر للحياة لأنها كانت جرماً منصهراً ذا حرارة شديدة تستحيل معها الحياة، فلما مالت الأرض إلى البرودة، انتقلت إليها الجراثيم الحيوية المبعثرة في الفضاء اللامتناهي، وأوجدت الخليّة الحية، وخاصة الجزيئات الخمسة التي أطلقت عليها اسماء (أوراسيل ، كوانين، أوهنين، سيتورين) وهذه بدورها أوجدت الأحماض الأمينية والبروتينية في الأرض،

ومن جملتها الخلايا الحيّة للحيوان والإنسان. ويُعزى الفضل في هذا الكشف العلمي الضخم إلى المراقب الفلكية (الراديو تلسكوب).

وإلى وقت قريب ، كانت المراقب الفلكية ترصد النجوم، وتقف من خلال طيفها على العناصر المكوّنة لها، وتستنتج درجة حرارة كل نجم، ولكنها لم تكن قادرة على رصد الجزيئات الموجودة في الفضاء، ولكن الراديو تلسكوب الفلكي قد نجح في كشف هذه الجزيئات التي فيها جرثومة الحياة، فكان هذا إنجازاً كبيراً منه.

وإذا كانت الحياة قد وُجدت على الكرة الأرضية لا بمحض الصدفة ، ولا باعتبارها أمراً عارضاً ، ففي الوسع القول بأن هناك حياة وكائنات تعيش في الكواكب الأخرى الشبيهة بالكرة الأرضية، ولعلّها سبقت الكرة الأرضية في نشأة الحياة عليها بآلاف الملايين من السنين، لأن هذه الكواكب سبقت الكرة الأرضية إلى الوجود بآلاف الملايين من السنين.

ولا يُستبعد أن تكون الكائنات الحيّة التي تعيش في هذه الكواكب قد نجحت من آلاف السنين في حل المشكلات المعقدة التي مازالت تنوء بالبشر، وإنْ كان القِدَم لا يُعدُّ في حدّ ذاته مقياساً للكفاءة والعلم. وهناك اعتقاد بأن البشر عاشوا على الكرة الأرضية قرابة مليوني سنة، ولكنهم لم ينطلقوا في النشاط العلمي إلا من عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة.

ويقول العلماء في يومنا الحاضر: إن البشر ليسوا الكائنات الوحيدة التي تعيش في هذا الكون، لأن هناك كائنات حية تعيش في ملايين من السيّارات الأخرى، وربما كانت أكبر ذكاء وأنبه عقلاً وأنشط عملاً من

الكائنات البشرية. وسيظل الأمل يداعب الإنسان في إمكان تحقيق اتصال بهذه الكائنات ذات يوم والاستفادة مما قد يكون لديها من علوم وتجارب. وخير وسيلة متاحة حتى الآن لتحقيق هذا الاتصال هي الأجهزة الراديوتلسكوبية الشديدة الحساسية.

ونعود إلى الإمام الصادق (ع) وإلى نظريته القائلة إن لبعض النجوم ضوءاً هو من الشدة بحيث يتضاءل أمامه ضوء الشمس. وها هو العلم الحديث قد برهن على صدق نظرية الإمام الصادق (ع) ، ودلّل على أن لبعض النجوم من الأشعة ما تضؤل أمامه الشمس وأشعتها، أفلا يُستخلص من ذلك أن الإمام الصادق (ع) الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني الهجري كان عبقرياً في المباحث العلمية؟

وثمة سؤال قد يعنّ للباحث هو: أين تقع مجرّات (الكوازر) التي يبعد بعضها عن الكرة الأرضية بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية؟ هل تقع في مركز الكون أو في أوله أو في نهايته؟

ثم لنتأمل في قُرص الشمس الذي يقوم كل أربع وعشرين ساعة بتحويل أربعمئة مليار طن من الهيدروجين إلى الهليوم لنشر الضياء والدفء في الكرة الأرضية والسيّارات الأخرى التي تدور حولها، والذي لن يتوقف عن نشر الضياء والدفء إلى ١٠ مليارات من السنين الأخرى، أليس عجيباً أن تكون هذه الشمس ضئيلة جداً أمام مجرّات (الكوازر) الساطعة الضوء؟

فإن كان لشمسنا هذا القدر الهائل من الطاقة والقدرة، وإن كان ينتظرها عمر ممتد هذا مقداره، فكم يكون عمر مجرّات الكوازر التي تبعد

عن الكرة الأرضية مسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية؟ أغلب الظنّ أن عمرها يزيد عن ألف مليار سنة.

ومادامت في العالم شموس أخرى كمنظومتنا الشمسية، فمن مؤدى ذلك القول عقلاً بأننا لا نعيش في عالم واحد، وإنّما هناك عوالم كثيرة يتألف من مجموعها الكون الأكبر.

وقد ثبت لعلماء الفلك أن بعض النجوم ينطفيء ضوؤه وتنتهي حياته، حتى ولو لم يستطع الفلكيون حصر هذه النجوم. وثبت لهم أيضاً أن للأجرام السماوية والمنظومات الشمسية أعماراً ، وأن عمر بعضها يزيد على ١٥ مليار سنة، وأن الشمس مثلاً مازال باقياً في عمرها ١٠ مليارات سنة، وأن مجرّات الكوازر عمرها ألف مليار سنة أو أكثر، وهذا كله يقطع بأن هناك عوالم كثيرة أخرى في هذا الكون.

وقد سبق للإمام الصادق (ع) أن قال: إن الكون لا ينحصر في عالمنا وحده، وإنّما هناك عوالم أخرى، وها قد جاء العلم الحديث مبرهناً على هذه النظرية، وأقام الأدلّة على أن هناك آلافاً من العوالم والمنظومات الشمسية الشبيهة بعالمنا ومنظومتنا الشمسية، وأنها تفنى وتزول ما عدا مجرّات الكوازر، فهي باقية على الدوام.

وقد قسم الإمام الصادق (ع) العالم إلى قسمين هما: العالم الأكبر والعالم الأصغر، ومعروف أن هناك عالماً أوسط لم يذكرها الصادق (ع) اعتقاداً منه بأن ذلك من نوافل القول. فالأمر كله نسبي، وفي الوسع اعتبار هذه العوالم الوسطى عوالم كبرى أو صغرى، وكل عالم يعتبر أكبر بالقياس

إلى العوالم الأصغر منه، أو يعتبر أصغر بالقياس إلى العوالم التي تكبره. فتقسيم الصادق هو إذن تقسيم شامل لعوالم الكون كلها.

وعندما سئل الصادق (ع) عن عدد العوالم في كل قسم، قال إنها كثيرة، ولا يعلم ذلك إلا الله، وهي حقيقة أثبتها العلم الحديث.

فالذي لا ريب فيه أن هناك أعداداً كبيرة من المنظومات الشمسية والنجوم والنيازك والمجرّات في الكون، وهي تعزّ على الحصر ولا يُعبَّر عنها بأرقام حتى ولو كانت أرقاماً فلكية.

ويقول العالم اليوناني أرشميدس الذي عاش قبل الميلاد بثلاثة قرون: إن عدد الذرّات المبعثرة في العالم هو عشرة مضروبة في نفسها ٦٣ مرة، وإن الذرّة هي أصغر أجزاء المادة ولا تقبل التجزئة، ولهذا سمّيت بالجزء الذي لا يتجزأ.

وفي مطلع القرن العشرين جاء إدنجتون (العالم الفيزيائي البريطاني المتوفى سنة ١٩٤٤م) فقال إن مجموع الذرّات في العالم ١٠ مضروبة في نفسها ٨٠ مرة.

وعندما طلع إدنجتون بهذه المعادلة الرياضية لحساب عدد الذرات، كان علماء الفلك يعتقدون أن عدد الأجرام الضوئية والنيازك والشهب في السماء يصل إلى مليون.

وعندئذٍ لم يكن مرصد (بالومر) الأمريكي قد شيّد بعد، وهو المرصد الذي قرَّب ضوء المجرات بمقدار ألفي مليون سنة ضوئية، فأصبحت رؤيتها

بـالعين البشـرية ممكنـة، ولا كـانت المراقـب الراديــو تلســكوبية الشــديدة الحساسية قد اخترعت.

ولو أن العمر امتد بإدنجتون إلى يومنا هذا، ورأى بأم عينيه المجرات الضوئية والكوازر، لأعاد النظر قطعاً في معادلته بأرقامها الشديدة التواضع.

والكون الذي عرفه علماء الفلك والفيزياء في عام ١٩٠٠ م يعتبر صغيراً، بل ضئيلاً بالنسبة للكون الذي يعرفه علماء اليوم. وليس من المبالغة في شيء القول بأن الكون في عام ١٩٠٠ كان بمثابة فنجان ماء بالنسبة لمحيطات المياه التي عرفناها عن الكون في يومنا هذا.

وبعد كشف المجرّات الضخمة المسماة بالكوازر ، ظهرت نظرية أخرى مؤدّاها أن هذه الكوازر تمثل التخوم الخارجية للكون، وأن عالمنا هذا الذي يحتاج إلى٩ آلاف مليون سنة ضوئية ليصل إلى الكوازر هو البداية لفضاء أوسع تعجز الأجهزة الراديوتلسكوبية المتاحة لنا الآن عن الوصول إليه، فلا قِبَل لها باستقبال أشعة النجوم أو العناصر الموجودة في ما وراء الكوازر. وإلى هذا اليوم، لم يتسنَّ لنا رصد المجرّات التي تلي الكوازر في موقعها منّا.

وبناءً على هذه النظرية، فهناك ما مجموعه مئة ألف مليون من الأجسام الضوئية والمجرات والشهب، ولكل منها عشرات الآلاف من ملايين الشموس، وهذه جميعاً ترسل أشعتها إلى المراقب الكهربائية ذوات العدسات الكاسرة والمرايا العاكسة.

وليست هذه الأجرام من عالمنا الحقيقي، لأن حدود عالمها يبدأ من مجرّات الكوازر وما وراءها، وطبيعي إذن أن يكون ضوء مجرّات الكوازر مساوياً لضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة.

وحتى يُستطاع توليد كمية الضوء والأشعة التي تنبعث من الشمس كل أربع وعشرين ساعة، فلابد من توافر مئة مليار طن من الهيدروجين المركّز أو المجَزّأ. فما هي ياتُرى كميّة الهيدروجين المجزّأ والمركّز التي تحتاج إليها مجرّات الكوازر كل أربع وعشرين ساعة لكي تولد هذا القدر الأسطوري من الضوء؟ وكم يكون مقدار الأشعة التي تصدر عن اصطدام النقيضين: المادة ومضاد المادة؟

ونستطيع بحسبة بسيطة أن نصل إلى الأرقام الفلكية الخيالية التالية:

فإذا ضربنا أربعمئة مليار طن في عشرة آلاف مليار، كان حاصل الضرب رقم ٤ وأمامه ٢٧ صفراً ، وهو رقم لا يمكن لفظه أو عدّه بسهولة.

فإذا كانت مجرات الكوازر تولد من الطاقة المشعة عشرة آلاف مليار ضعف لما تولده الشمس في كل أربع وعشرين ساعة، جاز إذن اعتبارها مركز العالم، وحق أن يقال إن العالم يبدأ من هذا المركز. ولكن لأن علماء الفلك والفيزياء لا يستطيعون رصد المجرات التي تقع خلف مجرات الكوازر بأجهزة الراديو – تلسكوب المتاحة حالياً ، فلا سبيل إلى إحصاء عدد المجرات أو المجموعات الشمسية الموجودة في العالم، ناهيك بالمجرات والأجسام المبعثرة في جميع العوالم المحيطة بنا. ومن هنا تتضح

صعوبة المحاولات التي قام بها العالمان أرشميدس وإدنجتون لإحصاء الأجرام، كما تتضح خطورة الاعتماد على هذه الإحصاءات.

وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق (ع) من أن العوالم الصغيرة والكبيرة لا يعرف عددها إلا الله، والفرق بين العالم الكبير والعالم الصغير عند الصادق هو (فرق في الحجم لا في الكتلة)، وهذه أيضاً نظرية أثبتها علم الفيزياء الحديث.

وقد مر بنا أننا لو ملأنا الفضاء الخالي الموجود بين الإلكترونات ونواة الذّرة، لكان حجم الكرة الأرضية مساوياً لحجم بالونة اللعب، أما وزن هذه البالونة فيساوي وزن الكرة الأرضية، وقد ضربنا المثل بالبالونة لقربها إلى الأذهان، وربما كان الحجم أصغر حتى من البالونة. ولا بد من التذكير بأن الكرة الأرضية موجودة في الفضاء في حالة عدم وزن بفعل الجاذبية، بل ليس من المبالغة في شيء القول بأن وزن الكرة الأرضية في الفضاء مماثل لوزن ريشة النعام. وهذا القول ينطبق لا على الكرة الأرضية وحدها، بل على جميع السيارات التي تدور حول الشمس، وجميع الأجرام الأخرى التي يدور بعضها حول البعض الآخر في الفضاء الفسيح، فقانون الجاذبية يجعل هذه الأجرام جميعاً في حالة عدم وزن.

وتذهب نظرية الصادق (ع) إلى أن لكل ما في العالم الأصغر شبيهاً في العالم الأكبر، ولكن على ضخامةٍ في الحجم وسعة، وأن لكل ما في العالم الأكبر شبيهاً في العالم الأصغر، ولكن على قلةٍ في الحجم. ومن هنا يُستطاع تحويل العالم الأصغر إلى عالم كبير، والعالم الأكبر إلى عالم صغير.

ونحن حين نستمع إلى هذا الكلام منقولاً من ملفات القرون الماضية، نحس وكأننا نصغي إلى حديث عالم فيزيائي في عصرنا الحاضر، أو كأننا نقرأ كتاباً في علم الفيزياء الحديث، مع أنَّ هذه النظريات سيقت قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن.

ولقد سُئل الصادق (ع) : متى خُلق العالم؟

فكان ردّه: إن العالم خلقه الله، ولا سبيل إلى تحديد زمانه أو وقته.

ولأن الشيعة تعتقد بإعجاز الأئمة، فهي تؤمن بأن إمامها الصادق (ع) لو أراد أن يميط اللثام عن هذه الحقيقة، لكشف السر بفضل علم الإمامة[١٧٨] ، وهو العلم المطلق بالمفهوم الأوسع، كما سبق أن أوضحنا.

---

(١٧٨) ذكرنا في ما مر رأي الشيعة في الأئمة ومصدر علمهم، وقد أورد الشيخ المفيد (قدس) فصلاً في كتابه "أوائل المقالات" حول هذا الموضوع سمّاه: القول في معرفة الأئمة بجميع الصنائع وسائر اللغات جاء فيه:

أقول إنه ليس يمتنع ذلك منهم، ولا واجب من جهة العقل والقياس، وقدجاءت أخبار عمن يجب تصديقه بأن أئمة آل محمد (ص) قد كانوا يعلمون ذلك، فإن ثبت وجب القطع به من جهتها أي من جهة هذه الأخبار على الثبات، ولي في القطع به منها أي من هذه الجهة نظر، والله الموفق للصواب، وعلى قولي هذا جماعة من الإمامية، وقد خالف بنو نوبخت رحمهم الله، وأوجبوا ذلك عقلاً وقياساً ، ووافقهم فيه المفوّضة* وسائر الغلاة.

(ص ٣٨ – أوائل المقالات").

(*) المفوضة فرقة من غلاة الشيعة تفردت عن الشيعة عامة بقولها في محمد (ص) والأئمة من آل بيته (ع) أن الله تفرّد بخلقهم خاصة ثم فوّض إليهم خلق العالم بما فيه ، وجعل إليهم أمر الخلق والرزق وجميع الأفعال الواقعة في الكون.

وتعلّل الشيعة امتناع الصادق (ع) عن كشف أسرار الخليقة وغيرها من الأسرار المجهولة، بأنه لم ير في ذلك مصلحة للناس، أما البعض الآخر فيقول إن الصادق (ع) لم يبخل بعلمه على الناس، ولكن هذه الموضوعات تخرج عن نطاق علم الإمام، لأنها من علم الله، وهو يستأثر بها دون العباد جميعاً ، بما فيهم الإمام الصادق نفسه.

وللإمام الصادق (ع) نظرية علمية هامة أخرى، هي نظرية (انقباض العالم وامتداده) فهو يقول إن العوالم الموجودة لا تبقى على حالٍ دائمٍ من الأحوال، فهي تتسع تارةً وتنقبض أخرى. وفي بادىء الأمر، اعتبر علماء الفلك هذه النظرية كغيرها من نظريات الصادق (ع) ، ضرباً من الخيال غير الواقعي، فلما وافى القرن الثامن عشر الميلادي، أقيمت المراصد ونصبت المراقب الفلكية الضخمة، وشاهد العلماء أجرام المنظومة الشمسية بل وسواها من الأجرام خارج المنظومة الشمسية. وجاء من بعده القرن التاسع عشر الذي تمكّن العلماء في منتصفه من رصد أشعة النجوم ومعرفة العناصر التي تتألف منها هذه الأجرام، ثم جاء القرن العشرون وتحقق في مطلعه أن الأجسام الضوئية القريبة من منظومتنا الشمسية يمكن رصدها بمزيد من الدّقة، وأنها تبتعد عنّا ثم تنتشر في الفضاء، وهو الكشف الذي توصّل إليه الأب (إيه لمتر) الأستاذ اليسوعي في جامعة بروكسل البلجيكية والعالم الفلكي الكبير، والذي ضمّنه تقريراً علمياً أرسله إلى مراكز الرصد الأخرى طالباً من الفلكيين مساعدته في تعزيز هذا الكشف أو تصحيحه، فأكّدته بعض المراصد الأوروبية والأمريكية وقالت إن بعض المجرات والأجسام الضوئية القريبة من الشمس تبتعد عنها وتنتشر في الفضاء.

ولكن قبل أن يتوصل (إيه لمتر) وزميله البريطاني (إدنجتون) إلى نظرية محققة، قامت الحرب العالمية الثانية، وتقطعت أسباب الاتصال بين المراكز العلمية وشعوب العالم، فتعثر البحث في موضوع المجرات والأجسام الضوئية إلى عام ١٩٦٠ عندما تأكد أن المجرات والأجسام الضوئية المحيطة بالمنظومة الشمسية تتحرك وتنأى عنها.

ومازال البحث جارياً لمعرفة الحال بالنسبة للمجرّات والأجسام الأخرى، كمجموعات الكوازر وهل تتحرك بدورها وتبتعد عن مدارها أم لا، وتعزى صعوبة التوصل إلى نتائج قاطعة في هذا الشأن إلى أن هناك مسافات ضوئية شاسعة تفصلنا عن هذه المجرات فأي تغيير يحدث في الكوازر من حيث انعدام أشعتها أو غيابها، إنما يصل خبره إلى الكرة الأرضية بعد ٩ آلاف مليون سنة ضوئية، وهي المسافة التي تفصل عالمنا عن هذه الكوازر، كما سبق القول.

ولكن الأمر الذي تحقق منه العلم الحديث هو أن الكتل الضوئية المحيطة بمنظومتنا الشمسية تتحرّك وتبتعد عنها، وهو ما يؤكد نظرية الإمام الصادق (ع) القائلة إن العالم المحيط بمنظومتنا الشمسية يتمدّد ويتسع، وإن كنا لا نعرف بعد منذ متى بدأ هذا التمدد والاتساع بسبب ابتعاد الأجسام الضوئية عن منظومتنا الشمسية.

وقد أكد العالم الفلكي (إيه لمتر) المذكور آنفاً من رصده للأجسام والمجرات الضوئية أكد حدوث هذا الاتساع والتمدد، كما أكدته الأبحاث التي أجريت عن مقدار ابتعاد هذه الأجسام عن منظومتنا الشمسية إلى يومنا

هـذا. وكـلّ هـذه المعلومـات تتعلـق بـالطبع بـالمجرات والأجسـام الضوئيـة المحيطة بمنظومتنا الشمسية والتي تصل أشعتها إلى أجهزة مراصدنـا، ولكـن ليس لدينا أي معلومات دقيقة عن المجرّات والأجسام الضوئية الأخرى التي تحيط بغيرها من المنظومات والتي يستعصي على أجهزتنا الحالية رصدها.

وقد سبق الحديث عن الأجسام المظلمة التي تمتص أشعة الضـوء عنـد سقوطها عليها فتنقبض وتتقلص، وهذه تؤكد بدورها نظرية الإمـام الصـادق (ع) بشأن انقباض أطراف العوالم الأخرى(١٧٩) .

---

(١٧٩) ذكرنا في ما سبق أن الضوء يتألف من فوتونات (ضوئيات) مادية ناتجة عن تفـاعل إلكـترون سالب ببوزيترون موجب، فيتأثر بالتالي بالمجال المغنطيسي وينحرف فيه، كما أنه ينكسر وينحرف إذا ما انتقل من وسط إلى آخر، وإذا ما خرج من مجال غير مغنطيسي إلى مجـال مغنطيسي. وقـد استطاع علماء الفيزياء في أوائل هذا القرن إثبـات أن للضـوء ضغطـاً ووزنـاً ، وأن لـه طبيعـة ثنائيـة (جسمية موجية) في آن واحد. وهذه حقائق علميّة أثبتتها الأرصاد الفلكيـة والتجـارب الدقيقـة التـي أجريت في المختبرات الذرية والبصرية، فضوء النجم الذي يمر بالقرب من الشمس ينحـرف بمقـدار ١,٧٤ ثانية من قوس الدائرة. وقد سبق القول بأن هناك أنجمـاً لهـا مجـال مغنطيسـي كبـير بحيـث تستطيع جعل شعاع الضوء ينحرف بمقـدار ٩٠ درجـة. فإذا مـرّ الضـوء بهـذا المجـال المغنطيسـي اختفى، أي انجذب بفعل الجاذبية ولم يستطع الإفلات أو الانعكاس، ومن ثم يتابع سيره. ومعنى هذا أن هناك أنجماً وكواكب لا قبل لنا برصدها، حتى ولو كـانت قريبـة منـا، بسـبب أن الضـوء الـذي نستطيع رؤيتها بواسطته، لا ينعكس منها متى سقط عليها، ولا ينفلت منها إذا مرّ إلى جانبها.
ويقول العلماء إن هناك أجساماً لها كثافة ضخمة تصل إلى ١٠٠ مليون طن في كل سنتيمتر مكعب – أي كثافة المادة النووية فيها – ومع ذلك تستحيل رؤيتها أو رصدها لأن هناك قوةً جاذبية شـديدة تمتص أشعة الضوء الساقطة عليها، فلا تنعكس إلى العين أو إلى أجهزة الرصد والقياس.
فمن المعقول إذن أن تكون هناك شموس وكواكب ونجوم قريبة منا وفي متنـاول مراصدنـا ومراقبنـا الفلكية، ولكننا لا نراها ولا نشعر بها، لأن حجمها وكتلتها وكثافتهـا هـي مـن النـوع الحـرج الـذي يمتص الضوء ولا يعكسه. ولو فرضنا مثلاً أن هناك نجماً حجمه .... –

ولكن الاتساع والانقباض يحدثان شيئاً فشيئاً، ويستغرقان زمناً مديداً جداً، ومعروف أن الأجسام المظلمة (كوتوله) هي أجسام تكوّنت بعد أن أخذت ذرّاتها تفقد إلكتروناتها شيئاً فشيئاً، ثم تراكمت النُّوى بكثافة وانقبضت مكونة هذه الأجسام.

ففي حين تتباعد الأجرام في جانب من العالم، تتقارب في جانب آخر مكونة هذه الكتل الكثيفة.

وتنتهي المادة إلى موت حقيقي عندما تصطدم بالأجسام المظلمة الكثيفة، وتفقد إلكتروناتها وتغدو جزءاً منها فتنتهي حركتها، أي أن المادة تنتهي من حيث الظاهر عندما يحدث التقاءٌ بينها وبين الأجسام المظلمة، وتبقى نواتها بعد اندماجها بغيرها مفتقرة إلى إلكتروناتها.

وتتراكم هذه الأجسام المظلمة وتتكاثف بدرجة تزيد بمئات آلاف المليارات عن المواد المتراكمة المعروفة لنا والموجودة في الأرض.

وصفوة القول إن علمي الفيزياء والفلك المعاصرين يؤكدان نظرية الإمام الصادق (ع) المتعلقة بانقباض العوالم واتساعها (تمدّدها).

كحجم الشمس، أي ١,٤٣٧ × ١٠ أس ١٨ كيلومتراً مكعباً، أي ١,٤٣٧ مليار كيلو متر مكعب، وله كثافة تزيد ٤٠٠,٠٠٠ مرّة عن كثافة الشمس، فإننا برغم هذا لا نستطيع رؤيته.

(راجع "العلوم الطبيعية في القرآن" ليوسف مروّة، ص ١٩٥).

التفكير الهندي:

حتى القرن الثامن عشر الميلادي، لم يكن الأوروبيون يعرفون شيئاً عن الفكر الديني والفلسفي في نصف القارة الهندية إلا ما تعلق منه بالمسلمين لاحتكاكهم بهم في الحروب الصليبية، وقبل ذلك في فتوحات المسلمين لشرقي أوروبا وغربيّها.

وشهد القرن الثامن عشر، وبعده القرن التاسع عشر، بداية حركة الترجمة في أوروبا، فنقلت إلى لغاتها الكتب الدينية والفلسفية الهندية القديمة، وبذلك عرف الأوروبيون معالم الفكر الديني والفلسفي للهند القديمة. ومن جملة أصول المعتقدات الدينية والفلسفية الهندية أن العالم يعيش مرحلة نشاطٍ ويقظة ثم ينتقل منها إلى مرحلة ركود وسُبات. وفي فترة اليقظة تتسع الدنيا إلى آفاق لا تخطر على بال إنسان ولا تُعرف لها حدود أو بداية أو نهاية، وفي هذه الفترة يعمّ العالم الرخاء فتكثر فيه جميع المواد من نباتات وأشجار وحيوانات من جميع الألوان والأنوع، وتستمر فترة الاتساع مئاتٍ من آلاف السنين، وفي أثنائها تزداد العناصر والمواد والكائنات الحيّة، من نبات وحيوان، تكاثراً وتوالداً وتضاعفاً.

وبعد انقضاء فترةٍ لا يُعرف مداها ولا يتكهن أحد بزمانها، تبدأ حركة الانبساط والتوسع في الكون في الخمود، وتكفّ المواد والنباتات والحيوانات عن التكاثر، ويبدأ ما هو موجود منها فعلاً في التناقص والفناء، وينقبض العالم حول مركزه. وتستمر هذه الفترة (أي فترة الانقباض) مئاتٍ من آلاف السنين أيضاً ، هي بدورها، فلا يُعرف مداها، ولا يرجم أحدٌ بموعد انتهائها.

وعندئذٍ، ينتهي العالم إلى فترة من الركود التـام، فيمحـى كـل أثـر مـن آثار الحياة أو المواد أو العنـاصر، ويعيـش العـالم فـي سـبات لا يعـرف أحـد مداه، فقد يمتد إلى مئات الآلاف من السنين.

وبعد انقضاء هذه الفترة، يعـاود العـالم نهوضـه مـن سُباته، ويبـدأ مـن جديد في التمـدد والاتسـاع، وتـدب فيـه الحركـة والحيـاة، وتكـثر المـواد، وتتوالد الحيوانات والنباتات، ويعود العالم إلى ما كان عليه من سعة فـي أول الأمر.

ولكن كل ما يظهر في اليقظة الثانية للعالم يختلف عمّـا كـان فيـه مـن قبل، تستوي في ذلك المواد والنباتات والحيوانات. فمن الطبيعي أن يختلـف إنسان هذه الفترة عن إنسان العالم السابق، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون أرقى منه وأفضل، لأن كل يقظةٍ تحمل معها قفزة جديدة إلى الأمام فتتحسن جميع العناصر في العالم. فاليقظة تعني التجديد والتحسين، ولولا ذلك لبقـي العـالم في انحطاطه وفساده وانتهى بفنائه، بحسب هذه العقيدة الهندية القديمة.

وهكذا يزداد الإنسان تكاملاً وسموّاً وارتقاءاً مـع كـل يقظـةٍ جديـدة وميلاد جديد للعالم، لأن الإنسان – حسب هذه العقيدة الهنديـة – لايمـوت في فترة الانقباض والركود، شأن المواد والعنـاصر الأخـرى فـي الكـون، بـل تذهب روحه في رحلة عامرة بالسعادة الأبديـة. ومتـى اسـتردّ العـالم نشـاطه ويقظته بعد فترة الركود والسبات، عاد الإنسان إلى الظهور وقد ازداد تكاملاً وارتقاء وسمواً .

ذلك بأن من أركان العقيدة الهندية القديمة أن روح الإنسان حية ولا تخضع لقانون الركود الذي يسري على العالم، فالمواد والعناصر الأخرى تموت وتنتهي متى حلت بالعالم فترة السبات، أما روح الإنسان فتبقى حية في جنة الأرواح.

ويلوح أن حُبَّ النفس أو الذات هو مصدر هذه العقيدة، ولكن لو دققنا النظر ألفينا أن القائلين بهذا الرأي قد وضعوا الروح في منزلة تختلف عن منزلة المواد والعناصر الأخرى. لأن الروح ليست مادّة من المواد في رأيهم، فهي بالتالي لا تخضع لقانون العدم والفناء، وتبقى خالدةً بعد موت الإنسان عندما ينتقل إلى العيش في ما وراء هذا العالم المنظور.

تلك كانت عقيدة الأمم القائلة بالحياة الأخرى أو القيامة، ابتداء من قبائل الزنج في قلب إفريقيا وانتهاء بالشعوب والأمم التي تعتنق الأديان السماوية، فالروح باقية لأنها شيء غير المادة والمادة تفنى، أما الروح فخالدة كونها عنصراً غير مادي.

مما تقدم، يتضح لك أن عقيدة انبساط الكون وانقباضه كانت سائدة في الهند القديمة، وهناك صور دينية هنديّة تمثّلها.

وسواء أكان الإمام الصادق (ع) هو المبدع لهذه النظرية أم أنها كانت موجودة قبله في الهند القديمة، فإن الكشوف الحديثة في علمي الفيزياء والفلك تثبتها.

وربما تعرض جزء من العالم – وليس العالم بأسره – للانقباض والتمدد، وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق (ع) من أن في الكون عوالم

كثيرة، منها ما يجنح إلى الانقباض، ومنها ما يميل إلى التمدد والانبساط، أما العالم الذي ينقبض فليس فيه للمادة أثر.

وقد عرفنا أن المادة تتكون من ذرات، ولكل ذرة فلك تدور فيه الإلكترونات حول النواة، فإن فقدت الذرة عامل الحركة داخل فلكها، لم تعد تعتبر من السواد.

إن الأجسام المظلمة (كوتوله) التي تتراكم فيها نواة الذرة قد تفسر لنا عقيدة قدماء الهنود القائلة بأن العالم تعتريه حياة ركود وسبات، فهل تدب الحياة في هذه الأجسام كما يقول الهنود؟

إن الرد على هذا التساؤل يجيء من جانب علم الفيزياء الذي يؤكد أن هناك استحالة في عودة الحياة إلى الكتل التي تراكمت فيها النوى بكثافة حتى لم يعد هناك فضاء بين ذراتها، وحتى إن الذرات قد فقدت حركتها نهائياً .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظرية الصادق «ع» بشأن البيئة

لم يعرف عصر الإمام الصادق (ع) من الصناعات إلا ما كان يدوياً تقليدياً ، ولم تكن الصناعة الحديثة قد عرفت في ذلك الحين، وكانت عملية صهر الحديد والفولاذ تتم داخل أوان كروية صغيرة على نار الحطب، وهذا لا يخلق مشكلة خاصة بتلوث البيئة.

وحتى لو استخدمت في صهر الحديد والفولاذ كميات من الفحم الحجري بدلاً من الحطب فإن حجم هذه العملية لم يكن بالقدر الذي يؤثر في تلويث البيئة.

وعندما شرعت ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا في إنتاج الحديد والفولاذ في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، ثم تلتها دول أوروبية أخرى، لم تكن هناك شكوى من تلوث البيئة بفعل هذه المصانع التي كانت تستخدم الفحم الحجري في صهر المعادن، والتي كان دخانها يتصاعد من المداخن طوال العام دون توقف.

فإذا كانت هذه الدول لم تَشْكُ من التلوث، ولديها صناعة ضخمة للحديد والفولاذ وقودها الفحم الحجري، فكيف وعصر الصادق (ع) الذي لم يعرف هذه المصانع الضخمة أصلاً ولا عرف حتى الفحم الحجري؟ ومع ذلك، فقد كان الإمام بعيد النظر نافذ الفكر، فقال – وكأنه

يرى العالم في القرن العشرين وقد ضج بالشكوى من تلوث البيئة -: إن على الإنسان ألا يلوث ما حوله لكي لا يجعل الحياة شاقة له ولغيره.

ولم يعن العالم بموضوع البيئة إلا من نحو ٣٠ سنة عندما ألقيت القنبلة الذرية الأولى على اليابان ولوث إشعاعها المنطقة المحيطة بمكان الانفجار، وصارت أرواح الناس مهددة بأشد المخاطر، ولم يكن هذا الانفجار هو الانفجار الوحيد الذي حدث في العالم، بل إن الدول الصناعية الأخرى اللاهثة وراء حيازة السلاح النووي، قامت بدورها بإجراء انفجارات ذرية في الجو والبحر والبر، ومازالت تجري التجارب على هذا السلاح وغيره من أسلحة التدمير الشاملة. ومع انتشار مصانع الطاقة الذرية، وما يتخلف عنها من نفايات سامة، تلوثت البيئة تلوثاً بعيد المخاطر بفعل المواد المصنعة.

ولعبت المصانع الضخمة في أوروبا وأمريكا دوراً كبيراً آخر في تلويث مياه الأنهار والبيئة، لأنها كانت تلقي بنفاياتها في الأنهار الجارية، مثل نهر الرون في أوروبا الغربية، فقتلت الأسماك وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في مياهه، وتعرضت بحيرات المياه العذبة في أميركا الشمالية لمصير مماثل، والمحيطات نفسها باتت متعرضة لمخاطر هذا التلوث، سواء بفعل المواد المشعة التي تدفن نفاياتها فيها، أو بفعل النفط الذي تقذفه السفن أو يتدفق من ناقلات النفط الغارقة، وصارت العوالق البحرية (البلانكتون) التي تعيش في المحيطات معرضة للفناء، لا سيما وهي تعيش قريباً من اليابسة.

ومن فوائد هذه العوالق البحرية أنها تولد حوالي ٩٠٪ من الأوكسجين المنتشر في الأرض، وإن فتك بها التلوث، هبطت نسبة الأوكسجين إلى

١٠٪، وهو ما لا يفي بحاجات التنفس للإنسان والحيوان والنبات، مما يهدد الحياة نفسها، وينذر بانقراض نسل الحيوان والنبات.

وهذه النتيجة ليست مجرد نظرية علمية تحتاج إلى الإثبات، وإنما هي واقع فعلي. فبسبب تلوث المحيطات يتناقص عدد العوالق البحرية في كل سنة، وسينخفض عددها إلى النصف بعد خمسين عاماً ، مع ما يترتب على ذلك من انخفاض الأوكسجين في الأرض بنسبة مماثلة.

ومعنى هذا، أن الطفل الذي يولد اليوم، والذي تكتب له الحياة إلى أن يبلغ الخمسين من عمره، سيتنفس وقتذاك وكأنه يتسلق جبال الهملايا دون الاستعانة بجهاز أوكسجين أو كأنه يعاني من اختناق أو ذبحة صدرية، وهذا ينطبق أيضاً على الحيوانات.

وإذا رغب امرؤ بعد خمسين سنة في إشعال عود ثقاب أو موقد الطهي، لوجد صعوبة في ذلك لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين في الهواء، هذه الحقيقة مرة وليست بخرافة.

ويقول العالم الفيزيائي إسحق أزيموف (إسحق عظيم أوف) إن أمراض الذبحة الصدرية تضاعفت في أمريكا ثلاثمائة مرة منذ عام ١٩٥٠ ، وهو يعزو ذلك إلى انخفاض كمية الأوكسجين في جو الأرض نتيجة لتناقص العوالق البحرية في المحيطات.

ويتكهن هذا العالم الفيزيائي بانقراض الأرض بعد مئة عام إذا استمر هذا الوضع، ويومئذ، تنقرض أيضاً الحيوانات التي تعيش في البحار والمحيطات، لأنها تحتاج بدورها إلى الأوكسجين ولو عاشت في عمق الأعماق.

ومما يذكر أن السفن المبحرة من غرب إفريقيا متجهة إلى أمريكا الجنوبية تمر بمنطقة واسعة تقدر بحوالي ألفي كيلومتر مربع (٢٠٠٠)، تتجمع فيها النفايات ومواد النفط، وتظل طافية، فلا يبتلعها الماء، ولا تجذبها اليابسة. وقد تكونت هذه "المزبلة" البحرية – وما هي بالوحيدة في العالم – بفعل تيارات الماء والرياح. وهناك "مزبلة" أخرى بالقرب من جزيرة غُوام في المحيط الهندي، حيث تحتفظ أمريكا بقاعدة بحرية جوية كبيرة. وتشمل هذه "المزبلة" مساحة عريضة تقدر بآلاف الكيلو مترات المربعة، وبسببها تمّ الفتك بحياة جميع العوالق البحرية (البلانكتون) في هذه المنطقة.

ومعنى هذا أن تلوث المحيطات والبحار يعرض الإنسان لخطر أشد من الخطر الناشيء عن تلوث اليابسة وعن الغبار النووي. ومعروف أن هناك ما يسمى بـ "ميزان الرعب"، وبمقتضاه ينشأ نوع من التعادل أو التوازن بين الدول الحائزة للسلاح النووي، فتمتنع دولة ما عن استخدامه خوفاً من أن تستخدمه ضدها دولة أخرى، ولكن إلى متى يستمر هذا التوازن، وهل يظل قائماً إلى قرن آخر من الزمان؟ وهناك قذائف أخرى للتدمير الشامل لم تستخدم في الحرب العالمية الثانية من جانب الدول المحاربة مثل الغازات السامة وقذائف "دمدم" التي تنفجر في جسم الإنسان وفي الهدف معاً ، وهناك غيرها من الأسلحة الكيميائية.

والمؤكد أن تلوث المحيطات بهذه السرعة يهدد حياة البشر، بل يقضي عليها وعلى حياة الكائنات البحرية الأخرى. فإن استمر هذا الوضع خمسين سنة، واجه الإنسان مشقة كبرى في استنشاق الهواء نظراً لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين، وأصبح حاله كحال من وقع في قبضة

شرير يبتغي إزهاق روحه بكلتا يديه خنقاً .

وطبيعي أن الإنسان الذي يشق عليه التنفس لن يستطيع إنجاز أي عمل أو القيام بشيء نافع، كما هو شأن إنساننا اليوم فيقل إنتاجه وتضيق دائرة معارفه، ويتصرف ببطء نتيجة للقصور الذي يعتري خلايا المخ، ولنا أن نتصور معلماً أو طالباً في قاعة الدرس يعانيان ضيقاً في التنفس، فكيف للأول أن يشرح دروسه وللثاني أن يستوعبها؟ وتتكرر هذه المشكلة عينها مع المزارع في حقله والعامل في مصنعه، وهلم جرا.

وقد أجرى علماء جامعة (هارفرد) الأمريكية تجارب على الأرانب لمعرفة التطورات التي تطرأ عليها متى قلّت كمية الأوكسجين في الجو الذي تعيش فيه، فتبينوا أن عجز الأوكسجين عن الوصول إلى خلايا المخ بالقدر الكافي يقلل من كفاءته ونشاطه الطبيعيين، ويجعله يقصر في أداء وظيفته المعتادة وهي إصدار الأوامر إلى سائر أعضاء الجسم، لتستجيب له على الفور.

ولكي ندرك إلى أي مدى يتأثر الإنسان في حياته اليومية بعدم استنشاق القدر الكافي من الأوكسجين – وهو الأمر الذي سيحدث بعد خمسين عاماً إذا ما انقرض قسم كبير من العوالق البحرية التي تعيش في المحيطات، كما قدمنا – فلنتصور حالة عامل فني في مصنع للسيارات يريد استخدام مفك، وهي عملية تتم اليوم بتلقائية سريعة لتنبه خلايا الذهن. ولكن الذي يقل حظه من الأوكسجين يصاب بخمول في الذهن، فيتأخر العقل في إصدار أوامره إلى اليد لتناول المفك، وتتأخر اليد في أداء الوظيفة المطلوبة منها، وهكذا تستغرق هذه العملية وقتاً أطول مما تستغرقه في الوقت

الحالي. فإن أراد سائق سيارة الحد من سرعتها لتلافي حادثة في الطريق، أدى بطء العقل في إصدار أوامره إلى القدم للضغط على الفرملة إلى الإجهاز على حياة الشخص الذي رغب السائق في تفادي إصابته.

ونفس الشيء ينطبق على الطيار الذي يهم بالإقلاع من مطار قاصداً مدينة بعيدة. فإذا تأخّر المخ في إصدار أوامره إلى الأعصاب لتحرك الآلات الخاصة بالإقلاع، ولو للحظات ، لأدّى ذلك إلى خلل في عملية قيادة الطائرة، ينجم عنه أوخم العواقب، كانفجار الطائرة أو ارتطامها ومقتل كل من عليها، بما فيهم قائدها.

وكذلك فإن قلّة وصول الأوكسجين إلى جسم الإنسان من شأنها التأثير لا في كفاءة خلايا المخ وحدها، بل في سائر الأعصاب أو الأعضاء أيضاً، وكلها تتلقى أوامرها من المخ، فتعجز الأذن والعين وسائر الحواس عن القيام بوظائفها بالكفاءة السابقة، كما تفقد الذاكرة قدرتها على تسجيل الأحداث واختزانها، وقل نفس الشيء عن الوظائف الحيوية جميعاً .

ومن عوامل تلوث البيئة المواد المشعة التي تتخلف عن محطات توليد الطاقة النووية، وقوامها نفايات ناتجة عن عملية شطر نوى ذرات اليورانيوم والبلوتونيوم، وعن توليد الطاقة النووية بصورة مستمرة، ناهيك عن أن هذه المحطات النووية هي في حد ذاتها خطر داهم يهدد البيئة بالتلوث.

ومع أن المتبع عادة عند بناء محطات الطاقة النووية مراعاة اتخاذ جميع التدابير الكفيلة بمنع تسرب المواد النووية الخطرة أو انفجار المستودعات التي يحتفظ فيها بهذه المواد، فإن الخطر ماثل دائماً في احتمال انفجار مستودع الركام النووي (وهو المستودع الذي يحتفظ فيه

باليورانيوم والبلوتونيوم بالإضافة إلى الجرافيت) والذي يمد محطات توليدا الطاقة والحرارة بالوقود النووي اللازم لهذه العملية.

ولو حدث مثلاً أن انفجر مستودع الركام النووي لمحطة توليد الكهرباء بالطاقة النووية الواقعة في جنوب بريطانيا، لتلوثت البيئة بالإشعاع المميت على مسافة مئة ميل (١٦٠ كيلو متراً) ، ولانعدمت الحياة تماماً في هذه المنطقة ومات كل ما فيها من البشر والحيوان والنبات، وجفت الأنهر والبحيرات، ولأدت الحرارة الشديدة الناتجة عن هذا الانفجار إلى هدم العمارات والمباني الواقعة في دائرة قطرها ٥٠ ميلاً حول المحطة.

هذا مجرد احتمال، ولم يحدث شيء منه حتى الآن في محطات توليد الكهرباء بالطاقة النووية، ولكن هذا الانفجار يصبح حتمياً إذا ما وقع خلل في "الفرامل" المتحكمة في انطلاق الطاقة النووية (وتتمثل هذه الفرامل في الوقت الحالي في مادة الجرافيت) أو إذا ما أشرفت هذه المادة على النفاذ.

والمأمول ألا تتعرض أي دولة من الدول الحائزة للطاقة النووية لمثل هذا الحادث المهلك.

وثمّة مشكلة هامة تواجهها الدول الحائزة للطاقة النووية تتمثل في كيفية التخلص من النفايات الذرية المشعة الشديدة الخطورة. وعلماء الذرة والفيزياء مشغولون بالتفكير في اختيار مناطق مأمونة يدفنون فيها هذه المواد دفعاً لشرورها وحماية للبيئة من التلوث.

وقد اتجه تفكيرهم في بادىء الأمر إلى دفن هذه النفايات في أعماق المحيطات بعد وضعها في أوان محكمة آمنة، ولكنهم تبيّنوا أن الضغط

الشديد لمياه المحيطات على النفايات المدفونة في القاع قد ينتهي بـه الأمـر إلى تحطيم هذه الأواني، فتنتشر المواد المشعة في الماء، وتهـدد كـل مظهـر من مظاهر الحياة في المحيطات، من أسماك وحيوانات أخرى وعوالق بحرية (بلانكتون).

واضطـر العلمـاء، تلقـاء هـذا الاحتمـال المنـذر بأشـد المخـاطر، إلـى البحث عن مدافن أخرى مأمونة للنفايات الذرية، واتجـه التفكير بعـد رحلـة الإنسان إلى القمر إلى دفن هذه النفايات على سـطحه، ولكـن هـذا الأمـر لـم يتحقق لاعتبارات ثلاثة هي:

أولا: أن المحيطات النووية المولدة للطاقة الكهربائية مملوكة في دول أوروبا وأمريكا لمؤسسات أهلية غير حكوميـة، وهـي مؤسسات تفتقـر إلـى الإمكانيات المالية الهائلة اللازمة لنقل هذه النفايات إلى القمر والتخلص منها بدفنها هناك، (وتستثنى مـن ذلـك المراكـز النوويـة فـي الاتحـاد السـوفييتي، والدول الشيوعية الأخرى لأنها مملوكة للدولة).

ثانياً : انه ليس ثمة سبيل للاطمئنان إلى أن الصواريخ الحاملة للنفايـات ستصل سالمة إلى سطح القمر، دون أن تتعرض لحادث يفجرها في الهواء أو يسقطها على الأرض قبل انفلاتها من نطاق الجاذبية الأرضية، وهو ما يؤدي إلى تلوث الجو والأرض بصورة مباشرة.

ثالثاً : إن من شأن هذا الأمر نقل التلوث إلـى القمـر نفسـه، ولئـن لـم تعرف عواقب هذا التلوث على سكان أرضنا، فالمؤكد أن تلويث القمـر مـن شأنه إقفال الباب أمام الإنسان في مالو حاول استثمار القمـر فـي المسـتقبل، لأن ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً فـي القمر فـي خـلال النهـار مـع

ضعف الجاذبية فيه يؤديان إلى انتشار المــواد المشـعة السـامة وتلـوث سـطح القمر بأسره فلا يغدو صالحاً لأي حياة، دع عنك أن عــدم وجـود هـواء فـي القمر يجعله غير صالح لحياة البشر عليه.

وهكذا انصرف الإنسان عـن التفكـير فـي دفـن هـذه النفايـات الذريـة الخطرة في مكان مأمون ناء عن البشر دفعاً لشرورها المؤكدة المتمثلـة فـي إشعاعاتها الخطرة.

ألم يكن الإمام الصادق (ع) بصيراً بـالعواقب عندمـا نصـح الإنسـان بعدم تلويث بيئته دفعاً للأضرار والمشكلات التي يتعرض لها؟

ولننظر إلى مثل اليابان، لنرى فيه صدق نظرية الصادق.

ومعروف أن اليابان خسرت الحرب العالمية الثانية مـع دول المحـور، وخرجت منها مهيضة الجناح كسيرة الاقتصاد حتى إن معدل دخل الفرد لـم يكن يزيد في السنة (أي في ١٢ شهراً) عـن ثلاثيـن دولاراً ، ولكـن اليابـان استطاعت بإنهاض أوضاعها الاقتصادية أن ترفع دخل الفرد حتى وصل معدله في عام ١٩٧٢ إلى خمسة آلاف وخمسمئة دولار أمريكي في السنة.

ولـم تلبـث اليابـان أن أخـذت تغزو العـالم بإنتاجهـا الصنـاعي الـذي توسعت فيه توسعاً كبيراً ، حتى استطاعت أن تنافس الصنـاعة الأميركية في عُقر دارها. ولنذكر مثالاً واحـداً ، هـو أن الولايـات المتحـدة التـي تتصـدر الدول الصناعية في إنتاج الدراجات البخارية قـد صـارت تشـتري ٩٠٪ مـن جميع عدد الدراجات المستخدمة فيها من اليابـان، فبيـن كـل عشـرين ألـف دراجة بخارية مباعة في أميركا ١٨ ألف دراجة صنعت في اليابان.

ولنذكر مثالاً ثانياً وهو أن ألمانيا الغربية التي تتقدم دول العالم الصناعي في صنع أجهزة الراديو والتلفزيون قد أصبحت بدورها هدفاً لغزو الصناعة اليابانية حتى أصبح ٩٩٪ من أجهزة الترانزستور المباعة في ألمانيا يابانية الصنع.

وها نحن نرى اليابان متقدمة في صناعات السيارات والكمبيوتر والأقمشة المصنوعة من الألياف الصناعية (السليلوز) وفي صنع السفن وأجهزة الراديو والتلفزيون وأجهزة التصوير والدراجات النارية وهلم جرا، ولعلها تحتل المنزلة الثانية بعد أميركا في هذه الصناعات.

وبرغم كل هذا، وبرغم تقدم اليابان الصناعي وارتفاع دخل الفرد فيها ارتفاعاً كبيراً ، فقد أهملت أسباب الوقاية من تلوث البيئة، وأصبحت اليوم تعاني من مشكلات التلوث ما يهدد سلامة أهلها، وما لا مثيل له في البلدان الصناعية الأخرى التي وقت نفسها من أسباب التلوث.

وأدى تلوث البيئة في اليابان إلى أمراض خطيرة لم يعرفها الطب منذ أيام أبي الطب (الحكيم أبقراط اليوناني) وإلى هذا اليوم، ومعروف أن أبقراط أعدّ إحصاءاً للأمراض والأوبئة التي تصيب البشر سمى فيه أربعين ألف مرض، وأوضح آثارها وطرق علاجها، ولكن الأمراض التي ظهرت في اليابان نتيجة لتلوث البيئة لم يرد لها ذكر ضمن الأمراض التي عرفتها البشرية من قبل.

ومن جملة هذه الأمراض النادرة مرض يسميه اليابانيون (إيتائي إيتائي)[(١٨٠)] لأن المصاب به يتألم ويئن مردداً هذه التأوهات.

ويُعزى سبب هذا المرض إلى انتقال كمية كبيرة من مادة (الكادميوم إلى الجسم البشري، وهي مادة تنتشر حول المصانع وتلوث الأرض والماء والهواء).

ومن أمارات هذا المرض الإحساس بألم شديد في جميع عظام الجسم، ومن عواقبه إصابة العظم بالضعف العام الذي يجعله هشاً قابلاً للكسر بسهولة، ولا وجود لهذا المرض النادر من أمراض العظام إلا في اليابان، صحيح أن الطب في تاريخه القديم وإلى يومنا هذا قد عرف أنواعاً من أمراض تحجر العظام في الإنسان، فتغدو هشة قابلة للكسر، إلا أن النوع الياباني الذي يسمونه "إيتائي إيتائي" هو نوع فريد من هذه المجموعة من الأمراض.

وقد ظهر مرض آخر أشد خطورة من "إيتائي إيتائي" في جزيرة كيوشو، وهي إحدى الجزر الكبيرة في اليابان (البالغ عددها ٤٠٠ جزيرة) فأودى بحياة عدد كبير من سكان هذه الجزيرة، ومازال خطره ماثلاً يهدد غيرهم من السكان.

ومن آثار هذا المرض إضعاف البصر إلى درجة العمى، وإضعاف الأعصاب والعضلات إلى درجة تحلّلها وإفقادها لكل قدرة. ويعزى السبب في ظهور هذا المرض إلى انتشار المواد الزئبقية في الماء والهواء بالقرب من

---

(١٨٠) عبارة "إيتائي إيتائي" يقابلها عندنا تأوه المريض بقوله "آه آه".

المصانع التي تستخدم عنصر الزئبق، وانتقالها إلى الإنسان عن طريق الماء والهواء.

ويعرف الطب القديم أن الزئبق يؤدي إلى العمى، وكان الأطباء في القرنين السابع عشر والثامن عشر يستخدمونه في علاج مرض الزهري، فلما تبينوا أن لاستخدامه موضعياً آثاراً جانبية أخرى، كفّوا عن التوسل به في العلاج، باستثناء بعض حالات الأمراض الجلدية أو الاحتراق، ومع مراعاة قدر كبير من الاحتياط.

وإلى جانب هذين المرضين الجديدين اللذين عرفتهما اليابان، تزايدت أمراض ضيق التنفس والاختناق نتيجة لتلوث البيئة أيضاً .

وإذا كان العالم الفيزيائي إسحق أزيموف قد عزا أسباب مرض ضيق التنفس في أمريكا إلى قلة الأوكسجين المتوافر في الهواء – كما سبق أن ذكرنا– فإن هذا المرض نفسه قد انتشر في اليابان نتيجة لتلوث الجو بفعل الغازات والأدخنة المتصاعدة من المصانع.

واليابانيون شعب معروف بحبه لجمال الطبيعة وتفننه في تنسيق الزهور والحدائق، وباعتقاده بأن المناظر الطبيعية في اليابان هي أجمل المناظر في العالم، ولكنه يعترف اليوم بأن تلوث البيئة قد أضر بالطبيعة ضرراً شديداً وأفقدها مظاهر جمالها وحسنها.

وقد أشرنا في ما سبق إلى أن الشعب الياباني قد استطاع في الثلاثين سنة الأخيرة (أي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وإلى عام ١٩٧٣) أن ينهض بحياته الصناعية والاقتصادية على الرغم من افتقاره إلى الثروات

الطبيعية ومنابع الطاقة المتوافرة في الدول الأخرى، وأنه استطاع بهذا الجهد أن يصبح ثالث شعوب العالم غنى بعد الولايات المتحدة وروسيا دون أن يعتمد في ذلك على نفط أو حديد أو فحم حجري. ولكن الصناعة اليابانية التي نجحت في غزو العالم، تسببت في اليابان نفسها في تلويث البيئة وفي قيام مشكلات كثيرة، مما جعل اليابانيين يفكرون في عزل المجمعات الصناعية عن المدن والمناطق الآهلة بالسكان، وقد وضعوا فعلاً الخطط اللازمة لتحقيق ذلك في موعد غايته عام ٢٠٠٠ م.

وتتحصل الخطة اليابانية في إنشاء مدن ومجتمعات حديثة لا يزيد عدد سكانها عن مئتي ألف نسمة، وتزويدها بجميع المرافق والتسهيلات العصرية، وتقام إلى جانب هذه المدن وحدات صناعية تتخذ فيها جميع الاحتياطات اللازمة لوقاية البيئة من آثار التلوث بالغاز أو بالنفايات المتخلفة عن المصانع، وذلك بتجهيز مداخنها ومنافذ نفاياتها بمصاف معدة خصيصاً لهذا الغرض.

لقد انتبه إنسان اليوم إلى خطورة التلوث على البيئة، سواء أكان موضعه الأرض أو الهواء أو المياه في البحار أو الأنهار، ولكن عبقرية الإمام الصادق (ع) هدته قبل ألف ومئتي عام إلى خطورة هذا التلوث، فنصح القوم بألا يعمدوا إلى تلويث الوسط الذي يعيش فيه الناس، أي تلويث البيئة بلغة هذا العصر، ومن عجب أن الآريين القدامى فطنوا إلى أهمية اجتناب تلويث الأرض والماء في وقت لم تكن لديهم فيه مصانع أو معامل، فكيف تنبهوا إلى هذا الأمر، ومن أين جاءتهم الفكرة؟

يذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الثقافة التي تحصلت للبشرية هي تراث لمدنية عظيمة قديمة كانت على وجه الأرض ثم تدهورت لأسباب شتى، وأن الإنسان قد اكتسب الشيء الكثير من هذا التراث الحضاري، ومن جملته اهتمامه بالأرض والهواء وحرصه على عدم تلويثهما.

وقد اهتمت الشعوب الآرية، التي يسميها الأوروبيون بالشعوب الهندية- الأوروبية، بالمحافظة على البيئة واجتناب كل ما يلوثها منذ زمن بعيد.

ويقول الباحث الفرنسي "ماريجان موله": إن الشعوب الهندية الأوروبية هي أول الشعوب التي قامت بمد مجاري الفضلات تحت الأرض حرصاً على عدم تلويث سطحها، وحدا بهم وسواسهم من تلويث الأرض إلى الامتناع عن دفن الموتى فيها، وإحراق جثثهم في مكان ناء عن العمران، أو وضع موتاهم في مكان مرتفع على الجبال أو التلال أو فوق جدران ينبونها، وتركها إلى أن تجف فلا يبقى منها إلا العظام التي توضع بعد ذلك في كهف أو في غرفة.

ولم يعرف دفن الموتى عند الشعوب الآرية إلا في فترات تاريخية متأخرة محاكاة لأقوام أخرى(١٨١) ، وبصورة خاصة في أزمنة الحروب أو عند ظهور الأوبئة المعدية.

---

(١٨١) يقول المستشرق الأمريكي أولم ستيد أستاذ تاريخ الشرق بجامعة شيكاغو (المتوفى عام ١٩٤٥م) إن ملوك الدولة الأكمينية في ايران دفنوا جميعاً في مقابر من الرخام والأحجار المزدانة بالنقوش، منها قبر قورش وقبر داريوش الكبير، في حين أننا لا نجد مقبرة واحدة لملوك الدولة

وعندما غزا الإسكندر المقدوني الهند، رأى أن الهنود يحرقون أجساد القتلى، فدهش من هذا التصرف واستفسر منهم عن أسبابه، ثم كتب بذلك تقريراً إلى أستاذه أرسطو، فأصبحت رسالته وثيقة تاريخية هامة تصور عادات الهند وتقاليدها في الحرص على طهارة الأرض ونقائها. ومما جاء في هذه الرسالة قوله: (سألت الهنود: لِمَ تحرقون جثث الموتى ولا تدفنوها؟

فأجابوا: إذا دفناها، تلوثت الأرض، وهو ما يتعارض مع تقاليد ديننا.

ثم سألتهم : إذا كان الموتى يلوثون الأرض ، فلم دفنتم جثث الجنود وأحرقتم جثث الضباط.

فأجابوا: إن أجساد الجنود لا تنجس الأرض، على النقيض من جثث الضباط والأمراء التي تنجسها بشدة).

وأضاف الإسكندر إلى هذا قوله في الوثيقة عينها: (أحسست بأنهم إن دفنوا الضباط والأمراء، لم يؤدوا لهم واجب التكريم والاحترام بالقدر الكافي والمناسب).

وقد اهتم أرسطو بهذه الرسالة اهتماماً جعله يدرجها في كتابه (الأورغانون)، وهو الكتاب الذي تناول فيه مسائل المنطق، والذي تساءل

= الساسانية، مع أنها أقرب إلينا من دولة الأكمينيين ذلك لأن الموتى في عهد الدولة الساسانية كانوا يوضعون على مرتفعات إلى أن تجففها الشمس.

وفي هذا المقام نذكر أن المستشرق (جورج كامرون) هو أول من كشف أبجدية الكتابات الأكمينية وترجم آلافاً منها، وبفضل الجهود التي بذلها في هذا الشأن ، أصبحنا نعرف الكثير عن تاريخ إيران القديم.

فيه في معرض الحديث عن الموت عمّا إذا كان من الأفضل إحراق جثث الموتى كما يفعل الهنود.

ولقد كان من ديدن الشعوب الهندية الأوروبية أن تحرص على عدم تلويث البيئة في وقت لم تكن قضية البيئة قد أصبحت الشغل الشاغل لدول العالم جميعاً ، ولم يكن تعداد سكان أيّ مدينة في العالم يزيد على مئة ألف نسمة. ولئن لم تتوافر لدينا معلومات وافية عن عدد سكان مدن فارس والهند في القديم، فقد سجلت لنا كتب التاريخ أن مدينة منف وهي العاصمة المصرية القديمة قبل الميلاد بألفي عام كان عدد سكانها مئة ألف، وكان عمر هذه المدينة وقتئذ ألف سنة.

ويقول الصينيون إن مدينة بكين كان يسكنها في عام (٢٠٠٠ ق.م) /ألفين قبل الميلاد/ خمسمئة ألف نسمة، ولكن هذا القول يفتقر إلى أي سند تاريخي، وليس في تاريخ الصين آثار تدل على صحته، وطبيعي أن هذا الرقم على فرض صحته لا يعد شيئاً بالقياس إلى عدد السكان في عواصم العالم ومدنه الكبيرة اليوم.

وأيّاً كان الأمر، فإن الفيلسوف الأخلاقي الصيني الشهير (كونفوشيوس) قد أمر أتباعه بالنظافة وعدم تلويث البيئة، وكونفوشيوس قد ولد في عام ٥٥١ وتوفي في عام ٤٧٩ قبل الميلاد، وكانت الشعوب الهنديّة – الأوروبيّة قد عاشت قبله بمئات من الحقب، بل بآلاف منها. وليس من المعروف على وجه اليقين متى بدأت هجرة الشعوب الآرية إلى الشرق، فمن المؤرخين من يقول إن هجرتهم بدأت قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، ومنهم

من يقول إنها بدأت قبله بألفين من السنين، ولكن هذه التقديرات هي ضرب من الحدس والتخمين، والفرق بينهما لا يتجاوز خمسين سنة أو مئة.

ومهما يكن الأمر، فعندما أسدى كونفوشيوس نصائحه ومواعظه تلك لأتباعه، كان قد مرّ على استيطان الشعوب الهندية - الأوروبية في هذه الهضبة وقت طويل، ولا يُستبعد أن يكون الزعيم الديني، الذي عاش عمره بين الشعوب الآرية، قد تعلّم منها ونقل من تقاليدها واحترامها للأرض والبيئة وحرصها على العيش في وسط طاهر غير نجس.

ولم تصبح قضية منع التلوّث - كما ذكرنا - قضية عالمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم قضية تستأثر بعناية الدول والهيئات الدولية باعتبارها قضية ملحة لا تقبل الإرجاء والتأجيل.



النية والعمل في رأي الإمام الصادق «ع»

سُقنا في ما تقدم طائفةً غير قليلة من الآراء والنظريّات العلميّة التي قال بها الإمام جعفر الصادق (ع) ودل بها على أنه كان ذا عبقرية فريدة في هذه الميادين. ولكن عبقريته لم تقتصر على هذه الميادين، بل شملت أيضاً الميادين الإنسانية والاجتماعية التي رفدها بآراء وأفكار أيديولوجية أنارت الطرق أمام البشرية. وخليق بنا أن نتأمل لنقف على أوجه التجديد والعمق فيها، ولندرك كيف سبق الكثير، من الأيديولوجيين العظام الذين عرفهم العالم منذ القرن السابع عشر الميلادي.

يقول الإمام الصادق (ع) إن عمل الإنسان ينبغي أن يجيء مطابقاً لعقيدته ومتّفقاً معها، وإن عقيدة المرء ينبغي أن ترجع إلى تفكيره الخاصّ وإرادته الخالصة.

ويقول أيضاً: إن الإنسان ولد صادقاً أميناً، ولم يخلق ليكذب أو ليأتي بعمل يخالف عقيدته، إلا أن البعض ينحرف إلى الكذب، ويعمل على خلاف عقيدته(١٨٢) .

---

(١٨٢) ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: يولد كل مولود على الفطرة إلى أن يهوده أبواه أو ينصراه. وفي رواية أخرى (إلا أن أبويه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه).

ويقول كذلك بأن الطفل لا يعرف الكذب ولا يعمل إلا ما يُمليه عليه قلبه وعقيدته، فإن أحبّ أحداً انجذب إليه، وإن كره أحداً نأى عنه، وإذا أحبّ شيئاً مدّ يده إليه، وإن كره شيئاً لم تقو يده على حمله. وهذا كلّه دليل على أن المرء صادق بطبيعته، وأنّ عمله يتفق أصلاً مع تفكيره.

ولكن الملاحظ أنّ المرء إذا بلغ مبلغ الرشد، اختلفت أعماله عن عقيدته ورأيه، وحلّ الكذب محلّ الصدق ، ولو عند البعض من الناس.

ويقول المشتغلون بعلوم الأحياء إن الإنسان الأول لم يكن قادراً على الكلام، ولم يكن بالتالي قادراً على الكذب أو على إتيان عمل يخالف رأيه ومعتقده، وما مكّنه من الكذب ومخالفة الضمير إلا اعتياده الكلام بعد ذلك.

ولم يكن هناك خلاف بين الوضع الاجتماعي للإنسان الأول والوضع الاجتماعي للحيوان، فإن أحبّ أحدهما نظيره عايشه وأتلف معه، وإن كرهه دبّ بينهما النزاع والقتال.

وكان الإنسان الأول شبيهاً بالحيوان من حيث أنه لم يكن يستطيع الظهور بمظهر يخالف ما يُبطن، فلمّا نطق وتكلّم، عرف الكذب، وعرف كيف يُظهر خلاف ما يبطن، وينطق بما لا يعتقد.

صحيح أن ارتقاء البشرية وحضارتها بدءا مع الكلام وقدرة الإنسان على نقل أفكاره ومشاعره إلى الغير والإصغاء إلى تجارب الآخرين وأفكارهم للاستزادة من المعلومات والتجارب، ولكن المؤكد كذلك أن الكلام والنطق كانا أداةً للكذب والرياء.

ويقول الكاتب الدنمركي المعاصر (بالو وان مولر): إن الإنسان لم

يعرف في بدء نشأته أمرين يتعلقان بحياته، هما الكذب والموت. ولهذا الكاتب رواية عنوانها "موت هابيل" تعد عند الأدباء من الآثار النفيسة المعاصرة. وقد صوّر فيها بخياله البارع مأساة موت هابيل، وكيف أن آدم وحوّاء كانا يعتقدان في بادىء الأمر بأن ابنهما هابيل نائم، فلما طال نومه أكثر من يومين، ودبّ البلى في جسده، واجتمعت الطيور لنهش جثته، تنبّها إلى موته على الرغم من أنّهما جرّبا من قبل موت الحيوانات عند صيدها.

وكان الفيلسوف البلجيكي العالم (مترلينك) المعروف بآرائه الماديّة يقول إن الصورة التي يطبعها نجم وقع شعاعه على لجة ماء قبل مئات الملايين من السنين لا تفنى، فكيف بالإنسان؟ وكان مترلينك يحضر بنفسه جلسات تحضير الأرواح ويردد قائلاً : ما دام الإنسان لا يعرف الفناء، فلعل ما يبقى منه بعد موته يظلّ مرتبطاً بأهله وعشيرته الأحياء على الأرض.

وإلى ما قبل القرن الماضي، كان الفقراء في دول أوروبا كإسبانيا وإيطاليا وفرنسا، يطوفون في الشوارع والأزقة في ظلام الليل مردّدين بصوت مرتفع (أيها الناس، إن موتاكم في انتظاركم، وهم بحاجة إلى طعام وشراب، فارحموا موتاكم). فكان الناس يتصدّقون عليهم بالطعام والشراب، وكان النساء الطيبات المؤمنات يعطين الفقراء كأساً من الشراب ظناً منهنّ بأن ذلك يروي غليل المتوفى.

ومازالت عادة التصدّق على أرواح الموتى سائدةً في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، مما يدلّ على أن القوم في هذه البلاد يعتقدون بالحياة بعد الموت، ولولا ذلك لما تصدّقوا.

وهناك اعتقاد شائع في بعض الدول المتقدّمة بأن إطعام الفقراء والمساكين كفيل بتخفيف حدة العطش والجوع عند الموتى من أقرباء المتصدقين.

وذكرنا في ما سبق أن الإمام الصادق (ع) يرى أن الإنسان يولد مفطوراً على الصدق والأمانة، ويتصرف وفقاً لما يعتقده، كما قلنا إن الإنسان الأول لم يعرف الكذب، وإن اختلف العلماء في تاريخ نشأة الإنسان الأول اختلافاً شاسعاً ، ففي رأي بعض العلماء أن الإنسان كان موجوداً على الأرض من ستين مليون سنة، وفي رأي غيرهم أن عمر الإنسان على الأرض أقصر من ذلك بكثير، وأنه وجد منذ أربعة ملايين أو خمسة ملايين سنة فقط كما يقول بعض آخر: إن الإنسان وجد في الدهر الثالث من عمر الكرة الأرضية، أي في الفترة التي انقرضت فيها الديناصورات (الحيوانات الضخمة) التي أدى تحلل أجسامها تحت الأرض إلى تكوين بحيرات النفط الشاسعة في أنحاء شتى من العالم.

وقد عُثر في الصين على هيكل عظمي بشري موغل في القدم، والعلماء عاكفون على دراسته لمعرفة عمره، وبالتالي تحديد عمر الإنسان على الأرض، فإن ثبت أن عمر هذا الهيكل العظمي ستون مليون سنة، جاء ذلك معززاً لرأي العلماء القائلين: إن الإنسان الأول نشأ على الأرض في الدهر الثالث من عمرها، وهي الفترة التي اتخذت فيها الأرض شكلها الحالي، بعد ما انقطعت منها السيول الهائلة المستمرة والأمطار الغزيرة والأنهار العاتية ، وانتظمت فيها سلاسل الجبال والسهول والوديان الحالية.

فالإنسان قد استقر على الأرض بعد اجتيازه مرحلة الحلقة المفقودة(١٨٣)، وكان يمشي على أربع دون أن ينطق أو يتكلّم، باستثناء أصوات تصدر منه هي أقرب إلى الصراخ والصياح، وكان الإنسان الأول بطيء الحركة فصار لقمة سائغة للحيوانات الضارية تفتك به قبل أن يتمكن من الإفلات منها.

وكان جسمه مغطّى بشعر كثيف يشمله من هامة الرأس إلى أخمص القدم ليقيه وقدة الحر وشدة البرد، ولكن هذا الشعر كان مرعى للحشرات من قمل وبراغيث، مما كان يضطره إلى حك جلده طوال الوقت وتفلية شعره من هذه الحشرات.

أما الهمّ الآخر الذي كان يشغل الإنسان الأول، فهو الأكل والشرب. وكان طعامه الوحيد هو الحشائش والنباتات الخضراء، دون اللحم، ولقلة السعرات الحرارية (الكالوري) في النباتات، كان الإنسان الأول لا يكف عن الأكل لإحساسه الدائم بالجوع. ولأنه كان يمشي على أربع، فقد كانت يداه من الضعف بحيث لا تقويان على الإمساك بالأشياء كما هو حالهما

---

(١٨٣) يقول العالم البريطاني دارون إن هناك حلقةً مفقودةً بين القرد والإنسان وقد مضت عليها دهور سحيقة. ولكن العلماء لم يكتشفوا حتى الآن الهيكل العظمي لهذه الحلقة المفقودة بما يثبت صحة ما ذهب إليه دارون ويجعله منه حقيقة مقبولة، ومن أسباب الشك في نظرية دارون أن شكل الإنسان كثير التنوع في السحنة واللون والعنصر.

ولم يتأت للعلم الحديث حتى اليوم أن يقف على سر التغييرات التي طرأت على "جرثومة" الإنسان في حياته الأولى، وأدت إلى مانراه اليوم من اختلاف في اللون والمعالم الخارجية. وهذا هو الذي دعا بعض العلماء إلى القول بأن الإنسان الأبيض والأسود قد جاء كل منهما إلى الأرض من عالم مختلف عن الآخر.

اليوم. وكان يقطف الثمار بفمه، شأنه شأن البهائم، وقد ظل الإنسان الأول على هذا الحال ملايين من السنين حتى تطورت أعضاؤه واتخذت شكلها الحالي.

ويقول المفكّر المعاصر (مارشال مكلوهان) إنّ أسباب رقي الإنسان وانتقاله إلى مرحلة الحضارة أنه مشى على أربع في بداية نشأته، فأدى المشي على الرجلين واليدين إلى تقسيم المخ إلى نصفي كرة وتقوية خلاياه وتنشيط الذاكرة والقدرة على الحفظ، وهي العوامل التي كانت سبباً رئيسياً في انتقال الإنسان إلى مرتبة التمدن.

ويقول هذا المفكر: لو حدثت كارثة طبيعية أو حروب عالمية وأطاحت بكل مظاهر التراث العلمي والثقافي الذي توارثناه جيلاً بعد جيل، ولم يبق أحدٌ على قيد الحياة من حفظة التراث وذاكريه، وبقي الأطفال الصغار وحدهم في هذا العالم، فالمؤكد أن هؤلاء الأطفال سيتحوّلون إلى الهمجية والتوحش وحياة الغابات التي كان يحياها إنسان ما قبل الحضارة، ماداموا يعيشون منقطعين عن أي حضارة يسلكون بموجبها في الحياة.

أما عالم الاجتماع الكندي المعاصر (شواليه) فمن رأيه أن الإنسان الأول كان يمشي على أربع فأدى هذا إلى جعل شطري المخّ يمارسان مهمة القادة، وبفضل نشاط المخ بكامله أي بشطريه انتقل الإنسان إلى مرحلة الحضارة، وفي هذه المرحلة بدأ الإنسان يستعين بإحدى يديه اليمنى أو اليسرى بصورة مستمرة، مُهملاً اليد الأخرى التي باتت عاجزةً عن النهوض بما تنهض به اليد النشطة، وكان إنسان ما قبل التاريخ يتميّز بجهله للكذب وعجزه عن إظهار ما يخالف رأيه ورغبته.

فكأن الكذب كان من نتائج الحضارة. والغريب أن الإنسان المتحضر يكذب، ثم يسن القوانين الأخلاقية التي تسفّه الكذب والرياء وتستهجنهما، ولكن قوانين السلوك شيء واحترامها شيء آخر.

والملاحظ في عالمنا اليوم، أن المجتمعات البشرية في قلب القارّة الإفريقية أو في جزر إقيانوسية وهي التي لم تصل بعد إلى مرتبة الحضارة العصرية تقول الصدق ولا تعرف الكذب والرياء. بل إن دافيد ليفنجستون الذي اكتشف منابع النيل في إفريقيا ورسم الخريطة الجغرافية للقارّة الإفريقية، والذي كان يوافي الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بمذكراته وخرائطه، قد كتب يقول: (إن الإفريقيين السود لم يعرفوا الكذب، ولا هم قادرون عليه إن طلب منهم ذلك) إلا أن ذلك كان حتى منتصف القرن التاسع عشر، أي قبل أن تقع هذه القارة السوداء تحت سيطرة الاستعمار الغربي.

وقد أبدى الدكتور ليفنجستون معارضةً شديدةً لتجارة الرقيق، وبذل كلّ جهدٍ ممكن للحيلولة دون قيام التجّار العرب من الأفارقة بتصيّد أبناء السود في القارّة وبيعهم في أوروبا وأمريكا، وقد أقدم ليفنجستون على رفع العلم البريطاني في تنجانيقا، وطلب من السود أن يقولوا لآسريهم من البيض إنهم من رعايا بريطانيا لينجوا من البيع في سوق النخاسة، ولكنّهم أبوا أن يكذبوا، ولم يستطيعوا حمل أنفسهم على قول ما ليس بصحيح.

وكان مناوئو الدكتور ليفنجستون يقولون في الطعن عليه: إنه لم يقصد برفعه العلم البريطاني على تنجانيقا تحرير السود، بل قصد تمكين البريطانيين من استعمار هذا الجزء وأجزاء أخرى من القارّة الإفريقية.

وممّا يذكر أن أخبار الدكتور ليفنجستون انقطعت بعد وصوله إلى قلب إفريقيا ولمدّة عشر سنوات، ممّا حدا بجريدة (نيويورك هيرلد تريبيون) إلى إيفاد الصحفي المغامر ستانلي لتقصّي آثاره[184]، فذهب ستانلي إلى إفريقيا مرّتينْ، في المرة الأولى للبحث عن الدكتور ليفنجستون، وفي المرّة الثانية استصحب معه قافلةً كان هو مرشدها وقاضيها. وممّا رواه ستانلي في مذكراته أن واحداً من السود قتل زميلاً له، فمثل أمامه للمحاكمة، وقضى عليه بالموت، ولكنّه قال للقاتل إنه على استعداد لتخفيف الحكم عنه إذا ما تعهّد بمسالمة الناس وعدم العودة إلى القتل، فكان ردّ الزنجي: (ولو أطلقتم سراحي فلن أكفّ عن قتل زملائي الآخرين)، ويعلّق ستانلي على هذا بقوله إن هذا الزنجي لم يعرف الكذب ولم يستطع أن يخفي نيّة القتل حتى ولو كان ذلك طلباً للنجاة.

ولكن، ما إن دخلت هذه القبائل الإفريقية وبلادها حظيرة الحضارة المعاصرة، حتى عرفت الكذب والنفاق وصارت تتوسل بهما.

أمّا الإمام الصادق (ع) فكان يبغض الكذب والنفاق، ويوصي تلاميذه بأن تكون أقوالهم مطابقةً لنيّاتهم، وأن تكون عقيدة المسلم عقيدة يرفدها العقل والخيال، فيؤمن الإنسان بعقله وقلبه وخياله ظاهراً وباطناً دون كذب أو نفاق. وكان يحضّ أصحابه على اجتناب النفاق والرياء في

---

(١٨٤) ستانلي هو الذي كشف شلال فيكتوريا الذي يقوم على نهر النيجر، وله كتاب هامّ عن رحلته الإفريقية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية وطبع بالحجر في بداية عصر الدستور في إيران، وهو كتاب جغرافي كبير الفائدة. (المترجم).

جميع أعمالهم وفي كل الظروف، ضارباً المثل بآبائه الكرام الذين استشهدوا في سبيل الذياد عن العقيدة، ولم يضعفوا أو يتخاذلوا تلقاء أي ضغط أو تهديد.



الفلسفة والحكمة والفرق بينهما في رأي الإمام الصّادق «ع»

كان الإمام جعفر الصادق (ع) إماماً في المذهب وحكيماً وفيلسوفاً وأديباً في عصره، وكانت علوم الدين والحكمة والفلسفة والأدب تدرّس في مدرسته.

وللإمام نظريّة في الفرق بين الفلسفة والحكمة، مرّ عليها حتى الآن ما يزيد على ألف ومئتي سنة ظهر في أثنائها عشرات من الفلاسفة والحكماء في الشرق والغرب، ولكنّ أحداً منهم لم يضع تعريفاً لكلّ من الحكمة والفلسفة أجمع من التعريف الذي وضعه الإمام الصادق (ع).

ففي رأي فلاسفة الإغريق القدماء أنّ كلّ معرفةٍ تدخل في نطاق الفلسفة.

وفي رأي رجال مدرسة الإسكندرية، التي كان لها شأن عظيم في تقدّم العلوم والفلسفة، أن الحكمة والعلم شيء واحد، بدليل أنهم كانوا يُطلقون اسم الحكمة على كل علمٍ وفنّ، بما في ذلك الطب الذي كان يُعدُّ باباً من أبواب الحكمة(١٨٥).

---

(١٨٥) وإلى وقت قريب كان الطبيب عندنا يدعى بـ(الحكيم)، فإن كان أجنبياً وُصف بأنه "حكيم صاحب".

وعندالقدماء أن الفلسفة هي ينبوع تتفرّع منه جميع العلوم، ولهذا سمّوها بعلم العلوم، لأنّ الفيلسوف كان متضلّعاً من جميع علوم زمانه، في حين أن الطبيب مثلاً لم يكن يدّع الإلمام بالفلسفة.

ويقول الأديب الفيلسوف الفرنسي المعاصر (جان دولا كروا) إن اليونان كانت في القديم تعدّ الأدب والفنّ من أبواب الفلسفة، وإنّ الشعر والموسيقى والرسم والنحت وصنع التماثيل تستلهم صورها وزبدتها من الفلسفة. وفي عهدٍ متأخّر، فُصل الأدب والفنّ عن الفلسفة.

ولأن العلوم الأساسية جميعاً كانت داخلة في نطاق الفلسفة ومتفرّعة منها، فلم تكن ثمة ضرورة للتفريق بين العلم والحكمة.

ساد هذا التفكير إلى عصر الإمام الصادق (ع) الذي وجده تفكيراً قاصراً، فوضع تعريفاً من شأنه تحديد إطارٍ مستقلّ لكلّ من العلم والفلسفة ، فيتميّز أحدهما عن الآخر.

صحيحٌ أن للعلم في يومنا الحاضر تعريفاً جامعاً يحدد وظائفه ومجالاته، ويقرّر له الاستقلال عن الحكمة، ولكنّ مناداة الصادق (ع) في عصره باستقلال العلم عن الحكمة كانت دعوةً ثوريةً بمعنى الكلمة بمقاييس تلك الأيام.

وقد قسّم الصادق (ع) نظريّته بشأن تعريف العلم والفلسفة إلى شقّين، فقال في الشق الأوّل إن العلم يوصّل المرء إلى نتيجةٍ واقعيةٍ حتى ولو كانت صغيرةً ومحدودة ولكنّها نتيجة حقيقية فعلاً ، أما الفلسفة فلا توصّله إلى نتيجة ما.

وبهذا التعريف أصدر الصادق (ع) حكماً قاطعاً واضح السمات على حقيقة الفلسفة وحصيلة من يشتغلون بها على مدى العمر.

وبعبارة أخرى إن الصادق (ع) استدار وكأنّه يخاطب المشتغلين بالفلسفة في العالم وقال لهم: إنّ أبحاثكم ومجادلاتكم بعيدة عن الحقيقة والواقع، فلا أنتم بها تنتفعون، ولا تنفعون بها غيركم، ولا فائدة من تحصيلها سواء لكم أو لغيركم.

والمعروف في تاريخ الفلسفة أن الذين أنكروا نظريات الفلاسفة أو شكّكوا فيها عرّضوا أنفسهم لعداوة أولئك الفلاسفة وأتباعهم، ولو استخفّ أحدٌ بصاحب أرضٍ أو ضيعة ما لجلب على نفسه عداء هذا السيّد، تماماً كما لو استخفّ بثقافة مثقف أو رأي مفكّر، لأن كل صاحب فكر أو ثقافة أو علم فخور بما عنده، ولا يرتضي أن تلقى بضاعته استخفافاً من الغير وفي التاريخ رجالٌ وصفوا بالعدل والحقّ، ولكنهم ضاقوا بكلّ من حاول الاستخفاف بقدرهم العلميّ.

مثال ذلك أنّ مالكاً بن أنس، مؤسّس المذهب المالكي من مذاهب السنّة، وأحد الأئمة الأربعة في الدين الإسلامي مع الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل كان معروفاً بزُهده وعلمه وتقواه في المدينة، فلمّا شاعت نظريّة الصادق (ع) بشأن الفلسفة وعدم جدواها، قصده واحد من تلاميذه وأصحابه الأقربين، وهو إبراهيم الغزي، وقال للإمام مالك: إن ما يدرسه من الحكمة والفلسفة عديم الجدوى، فتألم مالك - وهو من هو ثقةً وعلماً وفضلاً - من تجريح الغزّي له واستخفافه بعلمه وفضله، وامتنع - كما

تقول الرواية – عن مقابلته إلى يوم وفاته. وقد وقعت وفاة مالك بن أنس في سنة ١٧٩ للهجرة عن عمر ناهز ٨٦ عاماً .

فإذا كان الإمام التقيّ (مالك بن أنس) قد ساءه أن يستخفّ أحدٌ بفضله أو يقلل من أهمية علمه، فكيف بسائر الناس؟

وقد اعترض الفيلسوف الفرنسي المعاصر (جان دولا كروا) على نظريّة الصادق (ع) ، وقال: إن نظريّة الصادق (ع) كانت تسوغ في الأذن لو أنّه قال إن الفلسفة لا جدوى منها اللّهم إلا إذا وطأت للعلم وكانت تمهيداً له ومقدّمة، ومتى أفضت الفلسفة إلى العلم، كانت جدواها كبيرة ونفعها جزيلاً.

فمن رأي هذا الباحث الفرنسي أن الفلسفة بمفردها عديمة الفائدة، لأنها كالنظرية المجردة التي لا تفضي إلى شيء، أمّا إذا أفضت إلى العلم حيث التجربة والتطبيق فعندئذ تثبت جدواها العملية ويؤكد التطبيق صدقها.

وهناك معادلات وقوانين علمية طلع بها علماء بارزون، ولكنها بقيت معادلات وقوانين مجردة لا نفع منها إلى أن دخلت مرحلة التطبيق العلمي.

وها قد انقضى حوالي أربعمئة سنة على القوانين الفلكية التي انتهى إليها العالم الألماني (كبلر) بشأن حركة السيّارات حول الشمس، وانقضى ما يقرب من ثلاثمئة سنة على قانون الجاذبية الذي اكتشفه (نيوتن) ولكن أحداً من علماء الفيزياء والفلك لم يحاول أن يشكك في صحة هذه القوانين الثابتة، إلى أن أطلق الروس أول سفينة فضائية في عام ١٩٥٧، فتحقّقت بفضلها قوانين كبلر ونيوتن التي استعين بها في تنظيم هذه الرحلة الفضائية،

وازداد انتفاع الإنسان بها في إطلاق المحطّات الفضائيـة والأقمـار الصناعيـة وتثبيتها في الجو، للاستعانة بها في الاتصالات اللاسـلكية والبثّ التلفزيونـي في أنحاء العالـم، ولمتابعة التغييرات الطارئـة فـي الجـوّ مـن حـرارة وبـرودةٍ، ومعرفة اتجاهات الرياح والأعاصير والأمطار والثلوج، والتقاط صور جغرافيـة للكرة الأرضية.

وكانت الحكمة من جملة الدروس التي يعلّمهـا الإمـام الصـادق (ع) في مدرسته، ممّا أثار فـي الخـاطر سؤالاً هـو: كيـف يقـوم الصـادق (ع) بتدريس الحكمة في مدرسته فـي حيـن أنـه يقـول بعـدم جدواهـا وفائدتهـا؟ وكيف يحمل طلابه – وهو الإمام والقائد الديني المترفّع عن الزلـل – علـى دراسة مادّةٍ يرى فيها أنها مادة لاتفيد في الحياة العملية؟

ولابد للردّ على هذا التساؤل من النظر إلى الشق الثاني مـن نظريّة الإمـام (ع) بشأن العلم والحكمة، كما لابد أن آراء الصادق (ع) بشأن الحكمة والعلـم لا تنصرف إلى الدين أو المذهب، فالذي لا شك فيه أن الحقيقة في نظر الإمـام (ع) هي الله وحده، وهي حقيقة ينبغي تنزيهها عن كل نقاش.

يقوم الشق الثاني من نظرية الإمام الصادق (ع) علـى محـور الحكمـة والعلم، وفيه يقول: إن العلم لا ينظر إلى حقيقة مطلقة، ولكن الفلسـفة قـادرة على ذلك.

جاء في الشق الأول مـن نظريـة الإمـام الصـادق (ع) أن العلـم يُميـط اللثام عن الحقائق حتى ولو كـانت صغيرة، فكيـف يقـول الشـقّ الثـاني مـن

نظريته بأن العلم لا ينظر إلى حقيقة مطلقة، بينما الفلسفة قادرة على ذلك؟ أليس هناك تعارض بين هاتين النظريّتين؟

يقول الصادق (ع) إنّ العلم يكشف الحقيقة، ولكنّه إنْ عجز عن كشف الحقائق الكبرى فلا يُعجزه أن يدرك الحقائق الصغيرة المحدودة. ومع ذلك، يحدث أحياناً أن يعجز العلم عن إدراك كُنه الحقيقة بسبب وجود تلك الحقيقة وجوداً مادياً .

وللتمثيل على ذلك نقول: إن العين ترى كل شيء، ولكنها مع ذلك لاترى نفسها مع أنها موجودة وتؤدي وظيفتها دون أن تدرك ما هو الهدف من مشاهدتها للأشياء وما هي الفائدة من ذلك.

أمّا الفلسفة، فإنّها وإنْ لم تصل إلى حقيقةٍ قاطعةٍ، فهي تتطلع إلى معرفة الحقيقة المطلقة، وبالتالي معرفة سبب خلق العالم والبشر، وكُنه الخالق، ومصير الإنسان، ونهاية العالم.

وقد مرّ على هذا القول اثنا عشر قرناً ، ومازال إلى يومنا الحاضر قولاً سديداً في التفرقة بين العلم والفلسفة، فالعلم عاجز إلى يومنا الحاضر عن معرفة الحقيقة المطلقة وتبيّن نهاية المطاف، وهو لا يعرف من أين تجيء الحقيقة ولا إلى أين تذهب. صحيح أن العلم ميزان دقيق يزن كل شيء، ولكن حيلته بعد كل الجد والبحث تقف عاجزة أمام الحقيقة المطلقة. أمّا الفلسفة فقادرة على الردّ على هذه التساؤلات وتوضيح العلل والأهداف، والبحث في خاتمة المطاف، على الرغم من أن الفلسفة لم تصل إلى حقيقةٍ واحدةٍ في كل تاريخها الطويل.

يلوح من هذا التعريف أن الإمام جعفراً الصادق (ع) يضع الحكمة في منزلة مقدمة على العلم، لأن العلم لا يستهدف الوصول إلى الحقيقة المطلقة، في حين أن الحكمة تهدف إلى ذلك وتجتهد في بلوغه، وما الحقيقة المطلقة إلا الله جل جلاله.

فبعد ما تفرغ الفلسفة من تناول القضايا الهامّة، تصل إلى السؤال الجوهريّ، وهو: ما هي حقيقة الله؟ وما هو الهدف الحقيقي من الخليقة؟ وما هو مصير هذا العالم؟

ويتحصّل من هذا أنّ الصادق (ع) كان يرى أن للحكمة فضلاً في هداية الإنسان إلى معرفة الله، بينما العلم قاصر عن القيام بهذا الدور، اللهم إلا إذا قادنا العلم إلى المعرفة الشاملة التي تدخل الحكمة بدورها في إطارها. هذا مع أن الصادق (ع) كان إماماً في الدين، وكان يرى أن الدين هو أفضل السبل للتوجّه إلى الله ومعرفته، لا الحكمة ولا الفلسفة.

ومعروف أن المسلمين في القرن الأول الهجري لم يُعنوا بالحكمة ضمن المعارف الإسلامية، ولا كانت الحكمة أصلاً أو فرعاً من الدين الإسلامي طوال القرون المتعاقبة، إلا أن علماء المسلمين انتفعوا بالحكمة في إثبات الآراء الدينية في قضايا الألوهية وما وراء الطبيعة، واستشهدوا بها في مباحثهم اعتباراً من القرن الثاني الهجري، ممّا يصحّ معه القول بأن النهضة العلميّة والعمرانية للمسلمين وتقدمهم المادي قد بدأت كلها من هذا القرن.

وممّا ساعد على قيام الوسط العلمي وامتداد الحركة الثقافية، اختلاط العرب بشعوب غير عربية، ووقوفهم على ثقافات الشعوب والأمم الأخرى.

وعلماء المسلمين الذين حاولوا التوسّل بالفلسفة في بحث أصول التفكير الإسلامي، أو بالأحرى الاستفادة من قوانين المنطق ومسائل الفلسفة في إثبات الآراء الدينية ودعمها، هم واضعو علم الكلام في الإسلام، وعلم الكلام معناه الفلسفة الإسلامية، أو التوسّل بالفلسفة في فهم الدين الإسلامي.

وقد حدا هذا بالمسيحيين إلى تقليد المسلمين من حيث التوسّل بالفلسفة في شرح الدين المسيحي، وذلك عندما احتكّوا بالمسلمين في الحروب الصليبية التي استمرّت طوال قرنين، وعندما نُقلت مؤلفات المسلمين إلى اللغة اللاتينية (وهي اللغة العلمية التي كانت سائدة في أوروبا) وعندما وقف المسيحيون على أركان الفلسفة الإسلامية، أي علم الكلام.

ولولا الحروب الصليبية التي هيّأت لأوروبا أن تحتكّ بالشرق، لبقيت سادرةً في جهلها للعلوم والثقافات الإسلامية إلى القرن السابع عشر، وهو القرن الذي بدأ فيه غرس كثير من أشجار الفاكهة الشرقية في أوروبا، وكان من المنطقي أن تنتقل ثقافة الشرق إلى أوروبا مع انتقال هذه المزروعات.

وعندما نُقلت آثار العلماء المسلمين إلى أوروبا، وقف بعض علماء الغرب المسيحيّ على الفلسفة الإسلامية، وحاولوا من خلالها ربط الفلسفة بالمسيحية، ومن هنا جاء استلهامهم لمبدأ ثنائية الجسم والروح من علماء المسلمين.

ومن أكثر فلاسفة الغرب تأثراً بالفلسفة الإسلامية، الفيلسوف الفرنسي ماليبْرانش[١٨٦] (١٦٣٨ - ١٧١٥م) الذي كان من أتباع مدرسة ديكارت المعروفة باسم (كارتيزيان).

وكانت فلسفة ديكارت قد انتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً، واكتسبت احترام المثقّفين في كلّ قطر، وأصبحت مذهباً فلسفياً شهيراً قبل وفاته عام ١٦٥٠م.

وتنهض فلسفة ديكارت على أساس الشكّ في كلّ شيء، ومن أقواله المأثورة: إن كل شيء قابل للشكّ إلا نفسه.

وما دام ديكارت كان يشك في كل شيء، فمن الطبيعي أن يشك حتى في الدين المسيحي وحتّى في وجود الله.

كان هذا التوضيح ضرورياً ليعرف القارىء مدى تأثير الفكر الإسلامي في أوروبا الغربيّة، حتى إن ماليبرانش الديكارتي تحول من المذهب (الكارتيزي) إلى التأثر بالفلسفة الإسلامية.

أمّا ديكارت [١٨٧] فحسبنا في الإشارة إلى أثره في توجيه الفكر الأوروبي أن نذكر أن الناس أصبحت تعرفه فيلسوفاً، ونسيت أنه كان أستاذاً

---

(١٨٦) ماليبرانش Malebranche (١٦٣٨ - ١٧١٥ م) فيلسوف فرنسي أنكر إمكان اتصال العقل بالمادة، وقال: إن الحس والخيال في الإنسان ليسا منه وإنّما من الله، واعتبر فكرة النظام أساساً للأخلاق، له كتاب اسمه (طلب الحقيقة).

(١٨٧) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) فيلسوف رياضي فرنسي ورد التعريف به في هامش سابق، وتقوم فلسفته على الوصول إلى الحقيقة عن طريق الشك استناداً إلى الحدس والاستقراء، بادئاً بالصغريات ومنتهياً بالكبريات، وقد ترك آثاراً بعيدة في الفكر الغربي بنظريّاته -

للرياضيات، وضابطاً في الجيش وله طائفة من القوانين التي وضعها في الرياضيات والضوء اشتهرت باسم (القوانين الكارتيزيانية)، ولا يعرف خبرها إلا المشتغلون بالرياضيات والفيزياء، إذ أن شهرة ديكارت في الفلسفة قد غطت على شهرته في المجالات العلمية الأخرى.

وقد انجذب ماليبرانش إلى أسلوب ديكارت وتفكيره، واستهوته فلسفته منذ الصغر، فوضع كتاباً أسماه (طلب الحقيقة) نسج فيه على منوال أسلوب ديكارت الفلسفي. وكان قصده من وضع هذا الكتاب التوسل بالفلسفة في شرح التفكيرالمسيحي بأسلوب ديكارتي، ولكن القارىء المتمعن لهذا الكتاب يلاحظ بوضوح أن مالبرانش كان في منهاجه وأسلوبه متأثراً بالفلسفة الإسلامية والمتكلمين المسلمين أكثر من تأثره بمنهاج ديكارت.

فالمتكلمون الإسلاميون يرون في محاراتهم للتفكير الإسلامي أن الإنسان مركب من مادّة وروح، وأن المادة – وهي الجسم – تفنى وأمّا الروح فباقية إلى الأبد، وأنّ الروح تحلّ في جسم الإنسان وتصبح جزءاً مندمجاً فيه مدى أيام حياته على الأرض، فلما تدركه منيته تغادره الروح إلى حيث تبقى حيّةً إلى الأبد، وفي رأيهم أن خصائص الروح بعد الممات لا تتغير، فتظل محتفظةً بجميع ما كانت عليه من صفات في حياة الجسم، كما

- الهندسيّة والفيزيائية فضلاً عن الفلسفية. وله كتاب مشهور عنوانه (مقال في المنهج) من أقواله المشهورة: (أنا أفكر إذن موجود)، وهي باللاتينية: (Cogito , ergo sum) (المترجم).

تحتفظ بالشعور والإدراك اللذين كانا لها في الحياة البشرية، دون أن تحتاج إلى غذاء أو كساء.

وخليق بالذكر أن المتكلمين المسلمين يختلفون كذلك في كُنْهِ الروح وفي بقائها على قيد الحياة، فمنهم من يقول: إنها باقية إلى الأبد مع فقدان لخصائص الشعور والإدراك التي كانت لها في الجسم الحي، ومنهم من يقول: إن الروح تحافظ على الشعور والإدراك، وتعليل هؤلاء لهذا القول أن روح الإنسان مسؤولة عند ربه وعليها تقديم الحساب في يوم القيامة، فإن فقدت إدراكها وشعورها لم تستطع النهوض بهذه المهمة في اليوم الآخر.

وثمة حقيقة لا ريب فيها هي أن جميع المتكلمين والفلاسفة من المسلمين الذين اجتهدوا في التوسل بالآراء الفلسفية لشرح الدين، قد حرصوا على اجتناب كل ما يتنافى مع أصول الدين الإسلامي، ومن هنا اعترفوا ببقاء الروح، لأن يوم المعاد الذي تقام فيه دينونة البشر هو من أصول الدين، ولا تعارض من وجهة النظر الفلسفية بين قبول يوم المعاد وبقاء الروح خالدة.

وكل من يؤمن بالإسلام يؤمن بيوم المعاد باعتباره أصلاً من أصول الدين، ويؤمن ببعث الجسم والروح مرةً أخرى لتقديم الحساب ، فإن كانت الأجساد تعرضتْ للفناء والعدم، فالله قادر على إعادتها إلى ما كانت عليه.

ولكن ليس هناك إجماع بين الفلاسفة على الاعتقاد بعودة الجسد إلى هيئته الأولى يوم القيامة، ولا عجب أن يقول بعض الفلاسفة بأن الجسد ينحل وينعدم، وأن العظام بصلابتها تغدو رميماً بفعل الأيام، وأن ذرّات

التراب المتخلفة عن الجسد المنحل تتناثر في الجو ومياه الأنهار وتصبح جزءاً من كائنات وعناصر أخرى في العالم، وهكذا تتواصل عمليّة التحلّل والاستحالة، إلى أن يفقد جسد الإنسان جميع خصائصه، ويتغيّر تغيّراً تاماً بمرور القرون والأزمنة(١٨٨)، ولكن الفلسفة ترتضي الحجج القائلة ببقاء الروح، لأنها تدرك أن المواد والكائنات لا تنعدم، وأن المادة لا تفنى، وأن روح الإنسان خالدة بعد الموت، وهي التي تُهيىء للإنسان عودةً في يوم المعاد.

فلمّا جاء المتكلمون المسلمون، أكّدوا أن الروح باقية، ووفقوا في هذا بين الفلسفة والدين متوسّلين إلى إثبات أصول الدين لابالقواعد الدينيّة نفسها بل بالقواعد الفلسفيّة، على أن هناك متكلمين وفلاسفة آخرين من المسلمين تنكّبوا السبيل إلى التوفيق بين النظريتين الدينية والفلسفية، فاتهموا بالإلحاد والزندقة.

وصفوة القول: إن الفلاسفة المسلمين (المتكلمين) يؤكدون أن الإنسان يتألف من جسد وروح، وأن قوام حياته رهن بالتجانس والاتحاد بين هذين العنصرين، وطالما ظل هذا الاتحاد قائماً ظلّ الإنسان متمتعاً بالحياة، فإن انقطع انقطعت معه الحياة وحلّ به الموت، وبحلول الموت يستقل كل من الجسد والروح بمصيره، فيبلى الجسد ويدب فيه دبيب الفناء، أما الروح فتبقى خالدة.

---

(١٨٨) يردّ القرآن الكريم على هذه الأقاويل في الآية ٧٨ و ٧٩ من سورة يس حيث يقول:﴿قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة، وهو بكل خلق عليم﴾.

وفلاسفة الكلام عند المسلمين لا يحاولون إقامة البراهين على أن الروح باقية خالدة، ولا يبحثون في أصلها وعنصرها، وقصاراهم أن يقولوا: إن الروح من أمر الرّبْ* ، وهو الذي يكتب لها البقاء والخلود كما أنه جل وعلا خالد.

فإذا عدنا إلى (ماليبرانش) الذي استهواه المنهج الديكارتي في التفكير بادىء ذي بدء، وجدنا أنه يسلك مسلك فلاسفة المسلمين ويتبنّى آراءهم، فيقول: إن الإنسان يتألف من جسد وروح، وإن حياة الإنسان رهن باجتماع الروح والجسد واتحادهما معاً ، وإن هذا الاتحاد هو السبب الرئيسي للحياة والحركة، وإن انفصام الوحدة بين الروح والجسد يفضي إلى الموت وإلى فناء الجسد، وينصرف كل من العنصرين إلى حيث يستقل عن الآخر.

وعندما حاول ماليبرانش أن يتوسل بالفلسفة في فهم الدين المسيحي، كما فعل علماء المسلمين، درس آراءهم الفلسفية والعقائدية ووقف على سلامتها، وحذا حذوها.

(*) كما جاء في القرآن الكريم الآية ٨٥ من سورة الإسراء : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.



الشكّ واليقين عند الإمام الصّادق "ع"

منذ أن عُني فلاسفة الإغريق في أقدم العصور بمسائل الفلسفة، وإلى يومنا هذا، وهناك قضية شاغلة لاهتمام الفلاسفة والمفكرين هي قضية الشك واليقين وماهيتها، وهل ثمة أمل في أن يرتقي الإنسان إلى مرتبة تنفي منه الشك، وهل الفرق بين الشك واليقين هو مجرد خلاف ظاهري؟

يقول الإمام جعفر الصادق (ع) وقوله صحيح: إن الشك مصدره الجهل. فإن كنّا على يقين من نتيجة معادلة رياضية ما، لم يخامرنا شك من حولها، أمّا إن افتقرنا إلى هذا اليقين بالنسبة لقاعدة في علم النفس مثلاً ، لم يكن هناك مفر من الشك فيها، فمسائل النفس شيء، والقواعد الرياضية مثل ٢×٢=٤ شيء آخر. فالأولى تفتح الباب أمام الاستثناءات والحالات الشاذة والقوانين غير الثابتة فيرتاب المرء في نتائجها، أما الثانية فلا خلاف عليها ولا هي تحتمل شكاً ، ومعروف أن الأفراد يتباينون ويختلفون، ويستقل كلّ منهم بصفات وخصائص خلقية ونفسية تغاير ما لدى الغير منها، فيؤدي هذا الوضع إلى استحالة التّوصل إلى قواعد نفسية عامة تنطبق على الناس جميعاً مهما اختلفت مشاربهم وأمزجتهم ونشأتهم وصفاتهم.

والمتأمل لأوضاع الجنس البشري، يرى أن الناس تختلف من حيث اللون والعنصر والعرق والأصل والمنبت والقومية، وتختلف إلى جانب ذلك

من حيث الاتجاهات الفكرية والسياسية والخصائص النفسية، فإن تحقق الوفاق والوئام في مجتمع ما بين جميع أفراده برغم اختلافهم، فما ذلك إلا لأنّ أفراد المجتمع، ولا سيما الضعاف منهم، قد أحسّوا بضرورة التكيّف في سلوكهم وتصرّفاتهم مع السلطة القائمة التي تملك القدرة على الوفاء بمطالب هؤلاء الأفراد والمحافظة على حقوقهم.

ولو نظرنا إلى الأسرة الواحدة باعتبارها وحدة المجتمع، لوجدناها تفتقر إلى التطابق التام في الآراء والسلوك بين أفرادها، وهم أقرب الأقرباء، لأنّ لكلّ من الأب والابن، والأم والبنت، والزوج والزوجة شخصيته الخاصة التي تستقل بميولها وآرائها ومزاجها ورغباتها وما إلى ذلك.

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى العالم النفسي الفرنسي (هنري برجسون) الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين، واكتسب شهرة عالمية بسبب تجاربه العلمية، وفي رأي هذا العالم أن نظريات علم النفس تصدق على القبائل التي تعيش على الفطرة والبداوة أو التي هي في طريقها إلى التمدن، أكثر من انطباقها على غيرها من الأقوام.

يقول برجسون: إن تفكير أفراد القبيلة البدائية في أي موضوع يتشابه بل يتطابق، لأن معلوماتها محدودة وحاجاتها محدودة أيضاً. ومتى ارتقى الإنسان واتسعت دائرة ثقافته ومعلوماته، اتسعت أيضاً دائرة احتياجاته ومطالبه.

وقواعد علم النفس الموضوعة على أساس المقومات النفسية لقبيلة بدائية يمكن باطمئنان تطبيقها على كل فرد من أفراد هذه القبيلة، ولكن هذه القواعد لا تصلح لأفراد القبائل الأخرى.

ومع ذلك ، فلا سبيل إلى إنكار القواعد العامة لعلم النفس، ولا إلى القول بانطباق هذه القواعد انطباقاً عاماً على كل حالة وفي كلّ موقف.

واليقين عند الإمام الصادق (ع) هو علم ما لا يتطرّق إليه الشك أو الريبة، وهو أصل من أصول الدين الإسلامي لأن مصدره هو الله جل وعلا. يقول الإمام (ع): إن الله واحد، وهو خالق كل شيء، وهو مدبر العالم ومسيره وفقاً لإرادته. ومن يُنكر وجود الله، برهن على جهله المركّب، وكان كالأصم الأبكم الذي لا يسمع ولا ينطق ولا يستطيع استخدام قدراته الفكريّة للوصول إلى معرفة الله، ولا هو بقادر على أن ينتفع بتجارب الغير في معرفة الخالق، وحياته لا تخرج عن حدود الأكل والشرب والنوم وإشباع الغرائز دون التطلّع إلى أي هدف سام وهؤلاء لا يسعون لفهم شيء، وينطبق عليهم حُكم القرآن الكريم ﴿**إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً**﴾(١٨٩).

فقد خلق الله الكائنات الحية ومنها الإنسان وخصّ كلاً منهما بما يختلف فيه عن سواه، وهيّأ له أسباب البقاء والتناسل إبقاءً عليه من الانقراض، وخلق بعلمه وقدرته حيوانات تطيق الحرّ الشديد في البراري والصحارى، وأخرى تتحمل البرد القارص مهما اشتدّ، ومن الحيوانات ما ينام بقدرة الله وحكمته طوال أشهر الصيف في المناطق المتجمّدة دون أن

---

(١٨٩) سورة الفرقان الآية ٤٤.

يحسّ جوعاً أو عطشاً ودون أن يتأثر وزنها أو صحتها بهذا البيات، والغريب في أمر هذه الحيوانات أن قلبها ينبض عادةً خمسة آلاف مرّة في الساعة، ولكنه ينبض في فترة البيات التي تمتد إلى ستة أشهر أو سبعة، ستين أو سبعين نبضة في الساعة، نراه ينخفض عدد أنفاسه في فترة البيات الشتوي إلى ٢٥ مرة في الساعة.

فإنْ أنت دنوت من هذه الحيوانات في نومها ولمست أجسامها، لوجدتها باردة كالثلج، في حين أن الحياة سارية فيها، وأنها لن تلبث أن تستيقظ من بياتها عند مجيء الربيع.

أمّا الإنسان، فلو هبطت درجة حرارته إلى نصف درجة الحرارة الطبيعية لأدركه الموت، ولكنْ من حكم الله في خلقه أنه يُبقي الحيوانات على قيد الحياة ستة أشهر أو سبعة وأجسامها باردة كالثلج في فترة البيات(١٩٠) .

ولكن الجاهل الذي عميت بصيرته وبصره لا يرى هذه الآيات الماثلة أمامه من صُنع ربّه.

وكما خلق الله حيواناتٍ تعيش في الأجواء الباردة، خلق حيوانات أخرى تعيش في الأجواء الحارة كالجمل مثلاً الذي يقطع الصحراء والفيافي

---

(١٩٠) درجة حرارة الإنسان الطبيعية هي ٣٧ درجة بمقياس سنتيغراد، فإن هبطت إلى ٢٤ أو دون ذلك مات.

أما حيوانات المنطقة المتجمدة التي تنام طوال الصيف فتصل درجة حرارتها إلى ثلاث درجات فوق الصفر بمقياس سنتيغراد ، وهذا لا يختلف كثيراً عما قاله الإمام الصادق عليه السلام(المترجم).

آكلاً العشب اليابس والشوك، متحملاً العطش وقلة الماء، ويحمل راكبه ليلاً نهاراً إلى أن يقع على مورد ماء. وهناك من الأنعام ما لو أكلت العشب الحاف لاحتاج إلى شرب كميات كبيرة من الماء، وإن لم تجد الماء لهلكت.

هذه هي قدرة اللّه الذي منح الجمل طبيعة تجعله يتحمل الحر والعطش في جوٍ لا يطيقه لا إنسان ولا غيره من الحيوانات.

ولو ضل الإنسان طريقه في الصحراء وترك لناقته اللجام، لقادته إلى نقطة الماء، لأن الناقة تُحس برطوبة الماء من مسافات بعيدة، وتهتدي إليه بهذه الحاسة الرهيفة التي هي من تدبير الله لكي يكفل لـ (سفينة الصحراء) العيش في القفار. وفي استطاعة الجمل ادخار الماء ثلاثة أيام وأكثر، وخاصة إذا أدرك أنه سيجتاز الصحراء المقفرة.

فالإمام الصادق (ع) كان على حق عندما قال: إن وجود الله لا يُنكره إلا مَنْ كان ذا جهل مُركب. أمّا من تسلح بسلاح العقل والفهم، ولو في حدود معينة ، فلا يشك في وجود الله.

وللإمام (ع) نظرية حول العالم ونظامه لا تختلف عن نظريّات علماء الفيزياء في هذا العصر، مع أنه قال بها قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن.

يقول الصادق (ع) في عرض نظريته: إنك إذا شاهدت حوادث طارئة كالطوفان والسيل والزلازل وما إلى ذلك من الظواهر الطبيعية في العالم، فاعرف أنها ليست دليلاً على أن العالم فقد نظامه، لأن هذه

الحوادث تتبع قواعد ثابتة، ولا تقع حادثة صغيرة أو كبيرة إلا وهي في حساب عند الله.

وعلماء اليوم الذين يخضعون للقواعد الرياضية والفيزيائية دون سواها من الغيبيّات، يقولون بهذه النظرية عينها. أفلا يستحق الإمام جعفر الصادق (ع) إكباراً لعلمه وفضله، وهو قد نادى بهذه النظرية قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن؟

فالزلازل والطوفانات وهياج البراكين وما إليها هي في رأي علماء الفيزياء والجيولوجيا ظواهر طبيعية تخضع لقوانين تنظيم الكون، ومن يعتبر الزلازل حادثاً غير عاديّ يجهل قوانين الجيولوجيا التي تحدد أسباب حدوث الزلازل.

وقبل وقوف العلماء على القوانين الفيزيائية والجيولوجية التي تتحكم في الظواهر الطبيعية، كان الاعتقاد السائد طوال آلاف من السنين أن التغيير المفاجىء في الجو أو وقوع هذه الظواهر دليل على أن خللاً قد أصاب نظام الكون، إذ ليس من المعقول مثلاً أن تهبط درجة الحرارة في الصيف بصورة مفاجئة أو أن ترتفع في الشتاء بغتة.

أمّا اليوم، فقد أصبح في وسع العلماء أن يتغلّبوا على عامل المفاجأة في الظواهر الطبيعية، لقدرتهم على التكهن بالأحوال الجوية قبل أسابيع وشهور.

ولا تختلف الزلازل في طبيعتها عن سائر التغييرات الجوية المفاجئة، ولو عرف الإنسان القانون الذي يحكم حدوث الزلازل، عليه التكهّن بوقوعها زماناً ومكاناً.

وكان الصادق (ع) يقول لتلاميذه: إن الذي يراه الناس ويحسبون أنه دليل على خللٍ في نظام الكون، إنما يخضع لقوانين ثابتة لا تقبل التغيير.

ويؤكد جميع الفلاسفة أن للكون قواعد وأوضاعاً لا تقبل التغيير، وأن ما يحسبه الإنسان تغييراً أدى إلى زلزال أو طوفان هو ناموس طبيعي من وضع الله، فالله قد خلق الكون بجميع أوضاعه ونظمه وحركاته وحوادثه، ووضع نواميس ضابطة لذلك، فكل حركات الكون خاضعة لهذه النواميس التي هي في سابق علم الله.

ويقول هؤلاء الفلاسفة إن التغييرات التي تطرأ على القوانين البشرية ناتجة عن جهل الإنسان وضعفه، وما دام الإنسان عاجزاً عن التكهّن بما ستكون عليه أوضاعه الاجتماعية أو الفردية، فهو يضع القانون ليومه، ويغيّره متى قضت مصلحته بذلك.

ولئن كان الله قد وضع للكون قوانينه في لحظة واحدة، فهي بفضل علم الله وقدرته قوانين أبدية سرمدية، وهذا ينطبق أيضاً على القوانين التي أتى بها الأنبياء والمرسلون من عند الله بوحي من الله وإلهام من عنده تعالى.

وجميع الفلاسفة، مَنْ كانوا يؤمنون بالله منهم ومن كانوا ماديّين، يقولون بثبات القوانين التي تتحكم في الكون وعدم قابليّتها للتغيير.

فهناك الفيلسوف الملحد (مترلينك) الذي يؤكّد بدوره ثبات هذه القوانين، فيقول: لو انهدم العالم فجأة، وسقطت الشمس والنجوم وآلاف المجرّات والنيازك والمجموعات الضوئية وغيرها، فهذا الخراب ليس حادثاً

مفاجئاً أو غير متوقّع، وإنما قد حدث طبقاً لنظام كوني معيّن، ومن وقف على هذا القانون استطاع أن يحدد زمان وقوع هذا الخراب.

والوحيد بين المفكرين في القديم الذي تنبّه إلى ثبات قواعد الكون ونُظمه هو الإمام جعفر الصادق (ع) ، بل إن الاعتقاد السائد عند القدامى هو أن كل قاعدة في الكون قابلة للتغيير، وأرسطو نفسه اعتبر الاعتقاد بتغيير الكون نظمه وقواعده جزءاً من أساس تفكيره الفلسفي، ممّا أكسب هذا الاعتقاد تقبّلاً وشيوعاً باعتباره أمراً لا يقبل المناقشة أو الجدل.

يقول أرسطو: إن العالم مُركّب من جزأين، هما المادة والصورة، وهما غير قابلتين للتجزئة أو الحلّ، ولا بدّ لكي تنطبق الصورة مع المادّة من وجود حركة وتغيير، ولولا الحركة لما اتخذت المادة شكلها الحقيقي، فالحركة تلازم التغيير وتستلزمه، والتغيير يلازم قوانين الكون.

وظلت هذه النظرية إلى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي أساساً من أسس التفكير الفلسفي الأرسطي، ولم يحاول أحد من الفلاسفة التشكيك فيها، إلى أن جاء الفيلسوف ديكارت (١٦٥٠م) فأقام الدلائل على بطلان جوانب منها.

كان أرسطو تلميذاً لأفلاطون، ولكنّنا لا نعرف على وجه اليقين آراء أستاذه أفلاطون في إمكان تغيير قوانين الكون، والمعروف أن أفلاطون بث آراءه على هيئة محاورات بقيت للأجيال المتعاقبة، ولكنّنا لم نعثر فيها على شيء عن إمكان تغيّر قوانين العالم، وهذا طبعاً لا يقلّل من أهمية آرائه

وسيظل هو على الدوام مـن أعظـم مفكّري العـالم القديـم، وسـيظل أسـلوبه الخطابي الفني الرائع مستأثراً بإعجاب الدّارسين جيلاً بعد جيل.

وإلى عصر ديكارت، كان الفلاسفة يعتقدون أنّ قوانين الكون غير ثابتة وأنها عُرضة للتغيير.

ومنـذ مطلـع القـرن الثـامن عشـر الميـلادي، وعلمـاء الفيزيـاء والفلـك عاكفون على اكتشاف كل مجهول من أمر هذا الكون، وقد برز فـي طليعـة العلمـاء والبـاحثين فـي هـذه الفـترة (كوبرنيكـوس) و (كبـلر) و (غـاليليو) و (نيوتـن). وباتسـاع نطـاق الحركـة العلميـة وأبحـاث هـؤلاء العلمـاء، أدرك الجميع أن الكون أكبر بكثير مما يتوهمه القدماء في القرون السابقة.

وفي القرن التاسع عشر، اكتشفت مجرات أخـرى خارجـة عـن نطـاق المنظومات والكتل الضوئية في عالمنا هذا، وتبين أن كلاً من هذه المجرات يحتوي علـى منظومـات شمسـية أخـرى. ورصـد العلمـاء حركـات الشـهب والنجـوم، واعـترفوا بـأن العـالم يخضـع لنظـام علمـي دقيـق لا تتـأثر حركتـه بانفجار يقع في شمس، أو شهاب يسقط في طرف من أطـراف هـذا الكـون العظيم، أي أن حدوث انفجار أو تلاش في بعض الشموس إنما يخضع بدوره لقوانين الكون الثابتة، ولا يؤدي بالتالي إلـى إحـداث اضطـراب أو خلـل فـي حركة المنظومات الكونية الأخرى.

واعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وإلـى النصـف الأول من القرن العشرين، أفضت البحوث العلمية المتصلة إلى اهتـداء الإنسـان إلـى العالم الأصغر وهو عالم الذرّة، فعرف أن هناك قوانين أخرى ثابتة تخضع لها

الذرة، وهي قوانين لا تتعطل ولا تتوقف ولو للحظة واحدة، ففي الذرة نـواة، ولها إلكترون يدور حول فلكهـا ثلاثـة كـاتريليون مـرة كـل ثانيـة[191] ، ولا يحول حادث أو طارىء دون استمرار هذه الحركة.

ففي ذرة الحديد مثلاً ، يدور الإلكـترون ثلاثـة كـاتريليون مـرة في كـل ثانية حـول نواتهـا المركزيـة، وإذا وضـع الحديـد في بوتقـة حاميـة لصهـره، لم تتوقف حركة الإلكترون في الـدوران حـول نـواة الـذرة حتـى ولـو ارتفعـت درجة الحرارة إلى درجة يتحول معها الحديد إلى غاز سائل. والسبيل الوحيد للحيلولة دون دوران الإلكترون حول نواة الذرة هو السعي لتفجير نواة الـذرة وطرد الإلكترون منها، فيبحث عن نواة مركزية أخرى يدور في فلكها.

والقـانون الـذي يُنظـم دوران الإلكـترون حـول نـواة الـذرة هـو نفـس القـانون الـذي يجعـل الأرض تـدور حـول الشـمس، والشـمس تـدور حـول المجموعة التي تعرف علمياً باسم (الجاثي على ركبتيه)[192] ، والتـي تـدور بدورها حول المجرة، وتدور المجـرة حـول مركـز آخـر غـير معـروف لنـا، ولكن حركتها مؤكدة، وإن كان عُمر الشمس كله لا يكفي لحساب حركـة هذه الأجسام والمـدّة التي تسـتغرقها مجموعـة (الجـاثي علـى ركبتيـه) فـي الدوران حول المجرة.

وفي هذا يقال: إنه ليست هناك أدلة على وجود اللـه أقـوى مـن الأدلـة المستمدة من علم الفلك بكل أرقامه اللانهائية وقواه اللامحدودة، ومن شـأن

---

(١٩١) يكتب هذا الرقم الفلكي بوضع خمسة عشر صفراً إلى يمين الرقم ٣ (المترجم).

(١٩٢) تُسمى هذه المجموعة الكوكبية في اللغات الأوروبية بكم هيركوليس Hercules (المترجم).

إدراك القوانيـن الحقيقيـة الكونيـة الثابتـة أن يتحـدث العلمـاء بقـدرة الخـالق وعظمة وجوده وصنيعه.

ولا يسع المرء إلا أن يدهش لما يقولـه العلمـاء تخمينـاً مـن أن عمـر الأرض هو خمسة مليارات من السنين، ومع ذلك فالمدة التي يقدرها العلماء لدوران المجرة حول مركزها مرة واحدة هي ٢٥ ألف مليار سنة.

بل أين هذه الأرقام من الذين يقولون: إن عُمر العالم عشرة آلاف سنة، وإن عمر الإنسان على الأرض ستة آلاف سنة؟ لا ريب في أن الحقيقـة التـي تتضح من طول المدة التي تستغرقها المجرة في الدوران حـول مركزهـا هـي أن عمر المنظومة الشمسية والكـرة الأرضيـة أكـبر بكثـير ممـا كـان العلمـاء يتصورونه حتى مطلع هذا القرن. ذلك لأن التفكـير الـذي كـان سـائداً إلـى مطلع القرن العشرين هو أن المجرات المتناثرة في الفضاء هي أجرام ثابتـة لا تتحرك، في حين أنه قد ثبت من الناحية العلمية أنها تتحرك وتـدور، وأن لهـا حركة وضعية كذلك (الحركة الانتقالية مع الحركة الوضعية).

والرّقم الذي ذكر لدوران المجرّة حول مركزهـا هـو رقـم افـتراضي لا علمي، ولا بد لاحتساب مدة دوران المجرة حول مركزها من معرفة مسـيرة المجرة وحدود الدائرة التي تدور حولها.

ولقياس مدى اتساع هذه الدائرة، لابد مـن معرفـة طـول قـوس الدائـرة لإمكان الاستعانة بالقواعد الهندسية في استخراج محيط الدائـرة، ولـو عـاش المرء خمسمئة مليون سنة أخرى لعجـز عـن أن يحـدد مـدى امتـداد القـوس

الواحد من أقواس محيط الدائرة التي تدور حولها المجرة، ليستطيع بعد ذلك احتساب الدائرة كلها.

وحتى الآن لم تستطع الأجهزة الحديثة للرصد تعيين عدد المجموعات الضوئية ومجرات الكون، ولكن يقال بالتخمين: إن عددها مئة مجرة، وهو رقم لا يثق فيه أحد من علماء الفلك.

والسبب الرئيسي في إيراد أرقام غير مؤكدة هو ضعف أجهزة الرصد الكهرضوئية المستخدمة في رصد جميع السيارات والمجرات في الكون، فإن أعظم أجهزة التلسكوب الموجودة اليوم في العالم لا تستطيع رصد الأجرام السماوية إلى مسافة ٩ ملايين سنة ضوئية، ولكن أغلب الظن أن يتمكن الإنسان من رصدها هي وأجرام ومجرات مجهولة أخرى إذا ما وفق لصنع جهاز للرصد أقوى منه وأدق مئات المرات.

والسبب الآخر هو أن المجرات التي اكتشفها الإنسان حتى الآن إنما تقف في طريق المجرات الواقعة وراءها، فتحول دون رؤيتها ورصدها.

ومنذ أن اكتشف الإنسان مضاد المادة ظهرت نظرية تقول بوجود كون آخر له من السّعة مثل كوننا هذا، أو لعله أوسع منه، وهو كون لا يحس الإنسان بوجوده، وقد ذهب القدماء كذلك إلى أن لكل إنسان توأماً ولكنه لا يراه.

وعالم مضاد المادة عالم لا شك في وجوده، ولكن الإنسان عاجز حتى الآن عن رصده ومشاهدته بالاستعانة بالأجهزة المتاحة، وما دام الإنسان عاجزاً عن رؤية هذا العالم، فهو بالتالي عاجز عن توضيح صورته

واستخلاص القوانين الفيزيائية أو الكيميائية المتعلقة به (أي بهذا العالم المضاد للمادة)، وما إذا كان يشبه كوننا أو يختلف عنه . إلا أن هناك فروضاً لا تعدو أن تكون نظريات وتكهنات تخمينية، وهي في حقيقتها ضرب من الأساطير التي لا تعززها البراهين، كأسطورة حروب السفن الفضائية والحروب التي تشنها الكائنات التي تعيش في الأجرام السماوية على سكان كوكبنا هذا من بني آدم، وإن كنا لا ننكر أن بعضاً من هذه الأساطير قد تحقق نظيرها في ما بعد.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الكاتب الإنجليزي (روبرت كلارك) (المتخصص في كتابة القصص العلمية) نشر عام ١٩٤٨ م كتاباً تحدث فيه عن قمر صناعي استقر في سماء لندن بارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلو متر، ولأن دورته حول الأرض كانت تستغرق أربعاً وعشرين ساعة، أي نفس المدة التي تستغرقها الأرض في الدوران حول نفسها، فقد استقر في سماء لندن بصورة دائمة.

فإذا عرفنا أن الأقمار الصناعية لم تطلق في الجو إلا في عام ١٩٥٧ م، فمعنى ذلك أن الخيال الروائي لروبرت كلارك قد سبق الواقع العلمي، أي أن أساطير كلارك وخيالاته الرومانتيكية قد تحولت إلى حقيقة علمية بعد ذلك بقليل.

ففي مناسبة احتفال العالم بالسنة الجيوفيزيائية الدولية، قام الاتحاد السوفييتي في الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٧م بإطلاق أول قمر صناعي إلى الفضاء، واسمه (سبوتنيك) ، وكان يزن ٨٣,٦٠٠ كيلو غرام.

ولكن لم يفكر الروس ولا سواهم في صنع أقمار وسفن فضائية عملاقة، ولا فكروا في إطلاق قمر صناعي يصل إلى ارتفاع ٣٦ ألف كيلو متر ثم يدور حول الأرض ويستقر في نقطة معينة في الفضاء إلا في عام ١٩٦٩ عندما أطلق الروس هذا القمر إلى تلك المسافة بعينها واستقر فعلاً في نقطة معينة.

واليوم (أي في عام ١٩٧٢ الذي أعد فيه هذا الكتاب في أصله الفرنسي) توجد ثلاثة من الأقمار الصناعية المستقرة (Sattlite) في مراكز ثابتة في الجو وهي تستقبل البرامج التلفزيونية والمكالمات الهاتفية من جميع أنحاء العالم وتنقلها إلى جميع أنحاء العالم.

ومما يذكر أن الكاتب الإنجليزي روبرت كلارك، الذي هداه تفكيره الروائي إلى حقيقة الأقمار الصناعية، وهي الحقيقة التي تأكدت علمياً بعد ذلك بواحد وعشرين عاماً، لم يدرس علوم الفضاء في أي جامعة، ولا كانت له دراسات جامعية، لأنه توقف عند المرحلة الثانوية، كما أن من غير المتصور أنه كتب روايته الموسومة "٣٦ ألف كيلو متر" من قبيل التخيل المجرد، وأن هذا الخيال قد تحول بمحض المصادفة إلى حقيقة علمية تتمثل في "تلستار" (١٩٣) وهو القمر الصناعي الذي يدور مع دورة الأرض ويستقر في الجو على بعد ٣٦ ألف كيلو متر من الأرض.

---

(١٩٣) تلتستار لفظة ذات مقطعين، يعني مقطعها الأول الاتصال عن بعد Tele ويقصد به الاتصالات التلفونية والتلغرافية والتلفزيونية واللاسلكية، ويعني المقطع الثاني القمر. والمقصود بها أنها تمثل قمراً يتوسل به في تحقيق هذه الاتصالات من على مسافات بعيدة.

ومن هنا اهتم العلماء الروس بما كتبه روبرت كلارك، وأبدوا اهتماماً مماثلاً بكتابات العلماء في الغرب، وكذلك بالروايات والقصص التي تصدر في العالم الغربي، إذ ثبت من التجربة أن كثيراً من النظريات التي سيقت في قالب روائي خيالي قد تحولت في ما بعد إلى اكتشاف علمي أو اختراع علمي.

وهذا يدعونا إلى شيء من الاطمئنان في كتابات الروائيين التي تدور حول مضاد المادة، فليس من المستبعد أيضاً أن تتحول تلك النظريات إلى حقائق علمية إما باكتشاف العالم المسمى بمضاد المادة، وإما باكتشاف عالم مشابه له.

ومن مقتضى العقل والمنطق - والعقل نعم الحاكم - أن هذا الكون بكل أبعاده وآماده إنما يخضع لقوانين ثابتة لا تتغير، ولولا ذلك لتغير العالم أو تبدد، ولانقرض كل ما عليه. فلابد من التسليم بصحة ما ذهب إليه الإمام جعفر الصادق (ع) من أن هذا العالم خاضع لنظام ثابت من لدن عليم حكيم، ونرى أن علمي الفلك والفيزياء يؤكدان هذه النظرية أكثر من أي علم آخر.

ومن أبرز علماء الفيزياء في النصف الأول من القرن العشرين (الأمير دوبروي)(١٩٤) الفرنسي الذي ظفر بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢٩،

---

(١٩٤) يكتب اسم هذا العالم باللغة الفرنسية (دوبروكلي) ويحذف حرفا الكاف واللام عند النطق (المترجم).

والذي أخرج طائفة من الأعمال العلمية الرصينة، وهو أول من أثبت أن الإلكترون هو من الأمواج.

إن عالم الفيزياء يختلف عن الفيلسوف، فالأول يدقق في نظرياته ويقيم عليها البراهين بتجاربه العلمية، أما الثاني فيسوق ما يتراءى له من آراء وأفكار مجردة.

والطبيعة عند عالم الفيزياء هي الموجودات والكائنات، وفي مذهب (دوبروي) أن في الطبيعة أمراً واحداً لايتغير ولا يتبدّل، هو القانون (الناموس) ولو أتيح للبشر ذات يوم أن يصنعوا أجهزة تلسكوبية أدق من الأجهزة الحالية، لاستطاعوا رصد الأجرام السماوية التي تبعد عنا مسافة مئة مليار سنة ضوئية والتي تعتبر جزءاً من هذه الطبيعة.

يقول علماء الطبيعة إن الشيء الذي لايوجد في الطبيعة لا يوجد أصلاً، ولا يقول العقلاء بوجوده، لأن العقل لا يقول بوجود مالا وجود له، فإن قبل العقل وجود شيء ما، كان دليلاً على وجوده وبقائه.

والأمير دوبروي يقول بأن كل من في الطبيعة يتغيّر إلا القانون، فهو وحده الثابت.

وثمة يعرض للذهن سؤال هو: ماذا لو فني العالم، هل تبقى القوانين والنظم المتحكمة فيه آخذة مجراها؟

وفي الرد على هذا نقول: إن من الأصول المقطوع بها في الفيزياء أن المادة لا تزول ولا تفنى، ولكنها تتغاير وتتخذ أشكالاً متباينة وتصير من هيئة إلى أخرى.

فالتساؤل حول إمكان فناء العالم لا يستقيم من ناحية الفيزياء، لاستحالة انعدام المادة وفنائها، فالصحيح أن يقال: إن العالم يتغير من صورة إلى أخرى، وهو حتى في هذا التغير يخضع لقوانين ثابتة لا تقبل التغيير.

ومن هنا يمكن القول بأن هذا العالم الفيزيائي الكبير والحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء قد أكد نظرية الإمام الصادق (ع) التي ساقها قبل ألف ومئتين وخمسين سنة والتي يقول فيها: إن قوانين الكون ونظمه ثابتة لا تتغير.



في رأي الصّادق "ع" أنّ الإنسان يعمل على تقصير عمره

من النظريات البارعة الكبيرة الأهمية التي ساقها الإمام جعفر الصادق (ع) نظرية تدور حول عمر الإنسان. فمن رأيه أن الإنسان خلق لكي يعمر طويلاً، ولكنه يتسبب في تقصير عمره بنفسه، ولو أن كل إنسان اتّقى ربه وأدّى الفرائض وعفّ عن المحرّمات ولم يسرف في المأكل والمشرب وذلك كما أمر به القرآن الكريم، لاستمتع بحياة أطول.

ولا ريب في أن عمر الإنسان يتوقف ، بعد مشيئة الله، على أمرين، هما: العناية بالصحة والاعتدال في الطعام.

وفي القرن الأول الميلادي، كان معدل عمر الإنسان في روما ٢٢ سنة لا غير، وذلك بسبب نقص أسباب الرعاية الصحية(١٩٥) ، ولأن طبقة

---

(١٩٥) صور المؤرخ الفرنسي المعاصر "جيروم دو كاركوبي تو" المتخصص في تاريخ روما القديمة عاصمة الروم وشوارعها الممتدة وعماراتها الفخمة وأقواس النصر فيها (وعددها ٣٧) وحماماتها العامة، وما فيها من دور للعرض والمسرح والخمارات والفنادق، وقال إن المراحيض والمباول لم تكن تقام في هذه المدينة العظيمة.

ولم تكن المدن الأوروبية الأخرى أحسن حالاً من روما، ولا أنظف منها، فإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، لم تكن تجد في بيوت باريس مراحيض، وكانت النفايات تنقل في أوعية إلى خارج الدار. وقصر فرساي العظيم، الذي كان يعيش فيه إلى جانب الأسرة المالكة الفرنسية، عشرة آلاف -

الأشراف وسراة القوم كانوا يفرطون في المأكل إلى درجة التقيؤ، وكان عامة الناس يقلدون الأشراف في ذلك.

وكانت تُلحق بقاعات الطعام قاعة خاصة بالتقيؤ يُطلق عليها اسم (ووميتوريو) ليستطيع الآكلون في قصور الأشراف إفراغ ما أكلوه فيها، سواء بوضع الأصابع في الفم أو بتناول دواء مسهّل، وذلك لإفراطهم في تناول الطعام إلى حد قاتل.

وفي أوائل القرن العشرين الميلادي، كان معدل العُمْر في بريطانيا وفرنسا خمسين سنة، لأن الأوضاع الصحية وأساليب التغذية تحسنت تحسناً كبيراً عما كانت عليه. أمّا اليوم، فقد أصبح معدّل العُمر في أوروبا ثمانياً وستين سنة للذكور وثمانياً وسبعين للإناث.

والسؤال الذي يفرض نفسه اليوم هو: لو استطاع الإنسان التغلّب على مرض السرطان والسكتة القلبية والجلطة والأمراض الأخرى التي تنتاب القلب، فهل يرتفع معدّل عمره فوق المعدّل الحالي؟

ممّا يؤسف له أن الرد على هذا السؤال ليس بالإيجاب، لأن من أهمّ أسباب إطالة العمر مراعاة القواعد الصحية في كل شيء، ولاسيما في

= من الموظفين والخدم، لا يحتوي على مراحيض أو دورات مياه. ولكن بلدية باريس أرغمت السكان بعد الحرب العالمية الثانية على بناء مراحيض ودورات مياه في المنازل، ومدت شبكة المجاري المعروفة باسم "باجو".

راجع مجلة "مرآة التاريخ" الفرنسية Miroire de L'Histiore ,, tome 101, Année 25.

المأكل والمشرب، في حين أن التغلب على هذه الأمراض المستعصية لن يزيد المعدل الحالي لعمر الإنسان بأكثر من سنتين. ولو استطاع الإنسان أن يتغلب على هذه الأمراض جميعاً ، لبقيت له أمراض الشيخوخة والهرم التي عز على الإنسان حتى اليوم أن يعالجها على بساطتها. فإن أصيب الشيخ بمرض بسيط كالبرد والالتهاب الداخلي والحصبة وأمراض الرئة، لكانت كفيلة بالقضاء عليه.

وتلوث البيئة هو من العوامل التي تؤيد نظرية الإمام الصادق (ع) ، وهو ظاهرة خطيرة في بعض المناطق، قليلة الشأن في مناطق أخرى. وقد قامت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة بدراسة أوضاع بعض المدن الأمريكية والمكسيكية من حيث التلوث، وانتهت في تقريرها إلى أن التلوث في بعض هذه المدن يفسد الهواء بحيث أن سكان هذه المدن إذ يتنفسون هواءها، فكأن الواحد منهم قد دخن كمية من السجاير تملأ علبتين في كل منهما ٢٠ سيجارة، ولم يكفوا عن التدخين ليلاً أو نهاراً ، وكما أن لتدخين أربعين سيجارة في اليوم أثراً غير صحي في جسم الإنسان، فكذلك استنشاقه للهواء الملوث يفسد صحته بنفس القدر.

ومن العوامل التي تضر بالصحة الضوضاء والأصوات المزعجة، وقد ثبت من الناحية العلمية بأن للصوت المزعج أو الضوضاء أثراً سيئاً في سلامة الإنسان وهدوء أعصابه.

ومنذ فترة والمهندس الفرنسي (كامي روجرون) الذي صمم بناء السفينتين الفرنسيتين البحريتين "ريشيليو" و "جان بار" قبل الحرب العالمية

الثانية، عاكف على دراسة آثار الأصوات المزعجة والضوضاء في صحة الإنسان، وفي رأيه أن لهذه الأصوات تأثيراً في جسم الإنسان يُساوي تأثير الأكسجين في الحديد، فكما أن الأكسجين يصيب الحديد بالصدأ والتآكل، فكذلك الضوضاء تصيب الجسم بالعلّة والمرض ممّا يختزل من عُمر الإنسان، وهو يرى أن أفضل البيوت التي تُقام في المدن، هي البيوت التي تركّب فيها عوازل تحول دون وصول الضوضاء إلى داخلها ، مع مراعاة خفض أصوات الراديو والتلفزيون داخل البيوت منعاً لإزعاج السكان.

ويُضيف (كامي روجرون) إلى ذلك أنه بالنظر إلى أن الضوضاء في المدن آخذة في التزايد، ولا سبيل يحول دون تزايدها، فلابد من إنشاء منازل من الأبرق (الخرسانة المسلحة) تحتوي على عوازل تمنع نفاذ الصوت إلى داخلها، وقد توافرت هذه الخرسانة العازلة في أسواق الولايات المتحدة، وفي رأي هذا الخبير أنّنا إذا ما استطعنا بناء البيوت بكاملها من هذه المواد، فلابد من إنشاء غرفة واحدة أو اثنتين بعد تجهيزهما بالعوازل ليستطيع المرء الإخلاد إلى الراحة فيهما والبعد بأعصابه عن كل ضجيج وعجيج.

ومرض العصاب – وهو ضَرْبٌ من الجنون – يُعزَى في بعض أسبابه إلى الآثار السيئة للضوضاء، فمن خصائص الضوضاء أن تُتلف الأعصاب وتتسبب في انهيار عصبي أو جنون مفاجيء حتى لمن رأينا فيه بشاشة وجه وهدوء أعصاب.

ومن الآثار السيئة للضوضاء إحساس المرء بالتعب والإرهاق، ثم جنوحه إلى الكسل، والعزوف عن العمل دون أن تكون هناك أسباب عضوية

أخرى أدت إلى هذه الظواهر، والمصاب بالملل والإرهاق لا يدري لهما سبباً، ويعجز الطبيب عن تشخيص أي علة عضوية أدت إليهما.

وفي رأي روجرون أن الضوضاء تؤدي، فضلاً عن الإجهاد والإرهاق العصبي، إلى تقصير العُمر ما بين خمس سنين وعشر.

كما ومن المؤكد أيضاً أن للتغذية السليمة دوراً فعّالاً في إطالة العمر، في حين أن سوء التغذية أو الأنيميا يتسبّب في تقصير عُمر الإنسان، والأنيميا هي عارض من عوارض الحياة الميكانيكية العصرية.

ننتهي من كل ما تقدم إلى أن العلماء المعاصرين قد أثبتوا بصورة علمية صدق نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) القائلة بأن في وسع الإنسان أن يعمر طويلاً لولا أنه يعمل بنفسه على تقصير عُمره، ففي ظل الحياة الميكانيكية العصرية التي تفشت في أوروبا وأمريكا ، حلت المواد الصناعية محل المواد الغذائية الطبيعية، وأصبح الإنسان يتناول أطعمة مجهزة من مواد كيميائية مركبة، مما أضر بالصحة، وأدى إلى تقصير العمر.

فرعاة البقر والفلاحون في أميركا كانوا يعيشون في الماضي على تناول الطعام الطازج كاللبن ومنتجاته واللحوم، آخذين هذه المواد الغذائية مباشرة من الماشية التي يرعونها، فاشتهروا بأعلى معدّل للعُمْر، حتى لقد كانوا يعيشون في المعدل إلى ثمانين عاماً أو خمسة وثمانين، ولكن المعلبات والمياه الغازية والمشروبات المصنوعة التي تتألف من الحلوى والمواد الكيميائية، أصبح رعاة البقر والفلاحون ومربّو المواشي يتناولون هذه الأطعمة والمشروبات كغيرهم في الولايات المتحدة.

وبعد ما كان رعاة البقر يصارعون الثيران ويقومون على رعي الماشية وهم على ظهور الخيل ساعات طويلة مهما طعنوا في السن، أصبحوا اليوم بل اعتباراً من الخمسينات من العمر، يشكون من سوء التغذية وأمراض المعدة والقلب وترسّب حامض اليوريا وآلام المفاصل والعضلات وما إلى ذلك من الأمراض المُقعدة عن العمل والمبدّدة للحياة السعيدة، في حين أن راعي البقر البالغ من العمر خمسين عاماً كان يعتبر في مطلع هذا القرن من الشباب ويزاول حياة كلها نشاط وحيوية وحركة، وإلى أوائل هذا القرن لم يكن يعرف سكان ولاية آلاسكا في شمال أمريكا الأمراض والأوبئة التي كانت فاشية في مناطق أخرى وكان أهل آلاسكا يحتفظون بأسنانهم كاملة إلى أن يبلغوا السبعين أو الثمانين من العمر، لأنّهم كانوا يتناولون الغذاء الطبيعي ويؤدون عملهم اليومي بكل نشاط دون اعتماد على الآلة.

وكان الطعام المألوف في آلاسكا اللبن والحليب ولحم الوعل[١٩٦] وكميات كبيرة من السمك الذي يصيده السكان في الأنهر وعند السواحل، وكان منهم مَنْ يقوم برعي حيوان الوعل مع غيره من الحيوانات.

وهناك كتابٌ عن تربية الوعل القطبي وضعه المؤلف الأمريكي آلن رويس أوتس (الذي تخصص في حياة شعوب آلاسكا وتاريخها وتوفي في عام ١٩٦٠ م) وقد قال في كتابه هذا: إنه رأى بنفسه في خريف عام ١٩٣٥م قُطعاناً من الوعل تهاجر من المناطق الشمالية، واستمرّت هذه الهجرة خمسة أيام، وكان اصطكاك قرون القطيع بعضها بالبعض الآخر

---

(١٩٦) الوعل: تيس الجبال، وله قرنان مُحدّبان كالسيف.

يُحدث صوتاً كهزيم الرعد، ومع ذلك فإنَّ الإنسان القطبي كان قادراً على استئناس هذا الحيوان القويّ البنية وتربيته والاستفادة بلبنه ولحمه.

ويقول هذا الكاتب إنه ليس في منطقة آلاسكا طبيب، ولو أمَّ الأطباء هذه الولاية لما وجدوا فيها عملاً مربحاً لأن الناس عموماً أقوياء قليلو المرض، وعُمر الرجل والمرأة يصل في المعدّل إلى تسعين سنة للرجل ومائة للمرأة.

وقد نُشر هذا الكتاب في عام ١٩٣٥.



الرّضاعـــة السليمة في رأي الإمـــام الصّادق "ع"

من مظاهر عبقرية الإمام الصادق (ع) رأيه في الرضاعة السليمة، وتوجيهه الأمهات إلى إرضاع الطفل وهو راقد إلى الناحية اليسرى من أمه. وطوال قرون ممتدة ظلت الحكمة من هذه النصيحة خافية على الكثيرين، الذين كانوا يعتبرونها تدخّلاً في م لا يعنيه، وتزيّداً لا لزوم له.

وعندما سئل الإمام محمد بن إدريس الشافعي، الذي ولد بعد وفاة الصادق (ع) بعامين (أي في سنة ١٥٠ للهجرة في مدينة غزة وتوفي في القاهرة في عام ١٩٩ هـ) عن رضاعة الطفل، وهل الأسلم أن يرضع الطفل وهو راقد إلى الجانب الأيمن من أمه أو إلى جانبها الأيسر، ردّ قائلا: لا فرق بين الأيمن والأيسر، ولـلأم أن ترضع طفلها كما تشاء وبالأسلوب الذي يُشعره بالراحة.

ورأى البعض أن الإمام جعفراً (ع) قد خالف ما جرت عليه الأمهات من وضع الطفل في الناحية اليمنى عند إرضاعه، وأن من الأكرم للأم وللطفل أن يكون في ناحية الميمنة عند الرضاع.

وهكذا خفيت الحكمة من هذه النظرية في الشرق وفي الغرب، حتى في عصر النهضة والتجديد، ولم يقع أحدٌ على الفوائد المرتجاة من تطبيقها عملياً عند الرضاعة.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وهو عصر النهضة والتجديد، أنشئت جامعة كورنيل[197] في ولاية نيويورك (والتي يُعزى الفضل في تأسيسها إلى عزرا كورنيل الذي عانى في صغره عناء شديداً من مشكلات الرضاعة ومتاعبها) ومن هنا اعتزم أن يُلحق بالجامعة مستشفى، وأن يُلحق بالمستشفى معهداً لدراسة مشكلات الرضاعة والطفولة.

ولمّا استكملت الجامعة مرافقها، بدأ هذا المعهد في دراسة كلّ ما يتعلق بالطفولة والرضاعة، حتّى أصبح من أهمّ المؤسّسات العلميّة المتخصصة في شؤون الطفل في العالم.

وقلّ أن تجد موضوعاً يتعلّق بالطفل أو بالرضاعة إلا وقد وَفّاهُ هذا المعهد دراسةً وبحثاً وخرج فيه بأسلم النتائج العلمية. وقد يندهش المرء إذا عرف أن هذا المعهد عُني كذلك بدراسة اللوحات الزيتية التي رسمها كبار الفنانين للأطفال والتي تقتنيها المتاحف الرئيسية، ولوحظ أن معظم هذه الصور كانت تمثّل الأمّ حاملةً طفلها من الناحية اليسرى. ذلك أنّ عدد الصور التي دُرست كان ٤٦٦ صورة، تبيّن أن ٣٧٣ صورة منها تمثّل أمّهات يحضنّ أطفالهن إلى الناحية اليسرى، في حين أن ٩٣ صورة كان الطفل فيها محمولاً من الناحية اليُمنى، أي أن ٨٠٪ من الصور الموجودة في المتاحف ، والتي تمثّل الأمومة، قد أظهرت الطفل محمولاً من الناحية اليسرى.

---

(١٩٧) تأسست جامعة كورنيل المشهورة في ولاية نيويورك في عام ١٨٦٥ م بفضل أريحية المثري عزرا كورنيل الذي وقف جميع ممتلكاته وثرواته على هذه الجامعة، ومات معدماً .

وفي ولاية نيويورك عدد من مراكز الولادة ورعاية الطفل التابعة لمؤسسة كورنيل الجامعية للأطفال، وكلّها توافي المعهد العلميّ للجامعة بالتقارير والملفّات الطبية الخاصّة بالأطفال والأمهات لدراستها.

ويُؤخذ من التقارير التي أرسلت إلى هذا المعهد العلميّ في فترة غير قصيرة أن الطفل في أيّامه الأولى يكون أهدأ وأقل بكاءً لو نام إلى الجانب الأيسر لأمه، أما إنْ نام إلى الناحية اليمنى، فهو يستيقظ في فتراتٍ قصيرة متقطعة وينخرط في البكاء.

ويُلاحظ أنّ هذه الدراسة تتناول الأطفال البيض والسود دون تفرقة، وقد برهنت في جميع الحالات على أنّ الطفل، سواء أكان أبيض أو أسود أو هندياً أحمر، يجد مزيداً من الراحة والهدوء إذا رقد إلى الجانب الأيسر لأمّه.

وقد أنفقت جامعة كورنيل وقتاً طويلاً في بحث هذا الموضوع إلى أن تم اكتشاف الأشعة التي يسرت على الأطبّاء رؤية الجنين في رحم أمّه وتصويره، وتعرف باسم (هولو جرافي) وقد تبين من استخدام جهاز (هولو جرافي) أنّ ضربات قلب الأم تُحدث أمواجاً تنتشر في جسمها وتصل إلى سمع الطفل. وبعد أن عرف الأطبّاء هذه الحقيقة، رغبوا في معرفة الآثار التي تظهر في الطفل عند توقّف ضربات قلب الأمّ، ولا سيّما لأن توقف نبض قلب الأم كان معناه الموت للأم وللطفل معاً ، ومن ثَمَّ أجرى الأطباء تجارب على الحيوانات المُرضعة، فتبين لهم أن إيقاف نبضات قلب الحيوان الحامل ينعكس على جنينه على الفور، وهي نتيجة تحقّقت من التجارب التي

أجريت على فصائل شتّى من الحيوانات، وقطع الأطبّاء بأن توقّف قلب الأم يؤثّر تأثيراً مباشراً في الجنين، وبوفاة الأمّ، يموت الجنين بدوره، لأنّ الجنين يتغذّى من الشريان الأورطي المتّصل بقلب الأم ويتأثر بنبضات قلبها، ولو توقّف هذا النبض لانقطع الغذاء عن الجنين ولمات في بطن أمّه.

وقد استنتج الأطباء من هذه التجارب أن الجنين لا يعتاد سماع ضربات قلب أمّه وحسب، بل إن حياته ترتبط أيضاً بهذه الضربات وبالدفء الذي تُشيعه، فإن توقفت الضربات انقطع الغذاء عن الجنين ومات.

ولأن الطفل قد اعتاد على سماع ضربات قلب أمّه منذ ما كان جنيناً في الرحم، فهو يرتبط بأمّه ويتعلق بها ويشعر بهدوء وراحة بالقرب من نبضات قلبها، وهذا هو السرّ في أن حمل الطفل من ناحية الأم اليسرى يجعله أكثر اطمئناناً وهدوءاً، وهو ما يفتقر إليه الجانب الأيمن للأمّ.

ولولا جهود المعهد العلمي الجامعي الذي أسّسته جامعة كورنيل في دراسة أوضاع الطفل ومشكلاته الصحيّة والنفسيّة وأسباب الرعاية السليمة التي تُتاح له في أيّامه الأولى، لما عرفنا أهميّة النظريّة التي ساقها الإمام جعفر الصادق (ع) في هذا المقام، ومؤدّاها أن الرضاعة السليمة تقتضي من الأم توسيد طفلها إلى جانبها الأيسر لا الأيمن.

وقد ارتأى مركز الولادة ورعاية الطفل التابع لجامعة كورنيل تجهيز جميع فروعه ووحداته بجهازٍ يُوضع في غرفة الأطفال الحديثي العهد بالولادة، ومهمّته بث صوتٍ شبيهٍ بنبضات قلب الأم، وزوّدت أسرّة الأطفال بجهاز مهمّته نقل صوت هذه الضربات إليهم.

ومعروف أن قلب الشخص البالغ السليم يدق عادة ٧٢ مرة في الدقيقة، ومن التجارب التي أجريت على الأطفال زيادة عدد نبضات القلب إلى ١٢٠ نبضة في الدقيقة، فكان من أثر ذلك انزعاج الأطفال وارتفاع عقائرهم بالبكاء، فإن أعيدت النبضات إلى وضعها الطبيعي، وهو ٧٢ دقة في الدقيقة، كفّ الأطفال عن البكاء. وقد جُرّبت هذه التجربة وأعيدت في مراكز الرضاعة مرّات كثيرة، فكانت نتيجتها واحدة.

وهناك تجربة أخرى أجريت على الأطفال الرضّع، فقد وضعت مجموعة منهم في غرفة بها جهاز يقلّد ضربات قلب الأم بحيث يسمعه الأطفال، ووُضعت مجموعةٌ أخرى في غرفةٍ يخيم عليها الهدوء، وليس فيها جهاز كهذا. فاتّضح للأطباء أن الأطفال الذين تضمّهم المجموعة الأولى، وهم الذين يسمعون صوت النبضات، يزيد وزنهم بسرعة تفوق سرعة الوزن لدى أطفال المجموعة الثانية.

وقد قام الدكتور (لي سولك) وهو طبيب متخصص في طبّ الأطفال في معهد كورنيل الجامعي بجولةٍ حول العالم لدراسة التقاليد التي تجري عليها الشعوب والأمم في إرضاع الطفل ورعاية الطفولة، وكتب في تقريره يقول: إنه رأى في مناطق شتى من العالم أمهات يحتضن أطفالهن في الجانب الأيسر، وذلك أثناء نهوضهن بأعمالهن أو عند عبور الطرق.

كما لاحظ أن معظم الأمهات اللائي يحضن أطفالهن من الناحية اليمنى هن عسراءات (أي يستخدمن أيديهن اليُسرى)

وما قاله الدكتور (لي سولك) في تقريره أنه سأل عدداً من الأمّهات عن سبب حملهن لأطفالهن من الناحية اليسرى وإرضاعهن لهم في هذا الوضع، فلم تستطع الأمّهات تعليل ذلك ولا خطر ببال إحداهن أن تقول للدكتور سولك بأن الطفل يأنس بسماع صوت القلب عندما تحمله أمه من الناحية اليسرى، وهو الصوت الذي ألفه منذ أن كان جنيناً في الرحم.

وروى الدكتور (سولك) أن بعضاً من الأمّهات قُلنَ له: إنّ أطفالهن يستيقظون في جُنح الليل ويبكون طلباً للطعام، ولا يجدون مشقة في الاهتداء في الظلام إلى الثدي الأيسر دون مساعدة من الأم، ولم تستطع الأمّهات تعليل هذه الظاهرة، فقام الدكتور سولك من ناحيته بتعليلها، قائلاً لهن إنّ الطفل يهتدي إلى الثدي الأيسر بسماعه ضربات قلب الأم، ولا تعليل سوى ذلك لهذه الظاهرة.

حركة الموجودات في رأي الصادق (ع)

للإمام جعفر الصادق (ع) نظرية باهرة أخرى تتعلق بحركة الأجسام، مؤدّاها أنّ لكل شيء حركة، وإن كان من الجماد، ولكنّ أعيننا لاترى هذه الحركة.

وإذا كان هذا الرأي قد بدا غير معقول في أيّام الصادق (ع) فهو قد أصبح اليوم حقيقةً علميّةً مقرّرة لا سبيل إلى الشك فيها، إذ قد ثبت علميّاً بأنه لا يُوجد جسم أو عنصر في العالم إلا وله حركة، وإن من المستحيل تصوّر جسم معدوم الحركة.

وهذا الرأي الذي ساقه الإمام الصادق (ع) قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن، هو من مبتدعاته التي سبق بها عصره، وقد أضاف إليه قوله إن توقّف الحركة معناه موت بني البشر، وقال أيضاً: إن الحركة تستمر حتى بعد الموت، ولكنها تتخذ شكلاً آخر. ولولا الحركة، لما بليت الأجسام وصارت رميماً.

ولا يُحسُّ الإنسان بمرور الزمن ولا يدرك كنهه إلا من خلال الحركة، فإن توقفت الحركة في الكون فقدنا الإحساس بمرور الزمن.

ومن هذا القبيل عينه إحساسنا بالمكان، إذ أننا نستمد هذا الإحساس من الحركة، ولولاها لما استطعنا معرفة الأبعاد الثلاثة وتعيين المكان. وهناك

نوعان من الحركة المستمرة داخل كلّ جسم جامد، هما الحركة داخل الذرّة، وقد سبق الحديث عنها في الفصول المتقدمة حيث أوضحنا أن الإلكترون يدور في فلك نواة الذرّة ثلاثة كاتربليون مرة في كل ثانية، والحركة المتعلقة بذبذبات واهتزازات الجزيئات، فالجزيء في كل مادة يهتز اهتزازات يتفاوت عددها بين الصفر وعشرة تريليون مرة في كل ثانية تبعاً للبرودة أو الحرارة أو عند انتقال من حالة إلى أخرى(١٩٨) يصف الكاتب المسرحي الفرنسي مولر الذي أسس "الكوميدي فرانسيز" بطل إحدى مسرحيّاته بقوله "إنه بلا حركة، ولكنّه حي" ، أي أن الدهشة عرته إذ وجد شخصاً حيّاً ولكنه منعدم الحركة، ولكن هذه الملاحظة الساخرة من جانب مولر لا تثير السخرية في يومنا هذا، لأن الحركة موجودة ومستمرة في الإنسان وفي الأشياء حتى بعد الموت، كما أثبت ذلك العلم الحديث ، وهو هو نفسه الذي قال به الإمام جعفر الصادق (ع) عندما أكّد أن الحركة باقية وأن الإنسان وكل الأشياء سائرة إلى الخالق الفاطر وأن الإنسان باق ما بقي الدهر، وإن كانت ذرّات جسمه تتغير وتتحول إلى طاقة دون أن تفقد الحركة التي تلازمها وتتحرك معها. ويقول الإمام الصادق (ع) إن كل شيء يرجع إلى الله وينجذب إلى خالقه.

---

(١٩٨) ينبغي عدم الخلط بين الجزيء والذرة، فالجزيء هو أصغر جزء في المادة، وله جميع خواصها الفيزيائية والكيميائية، بحيث أن تقسم الجزيء يفقده هذه الخواص، ويتألف الجزيء من عدد من الذرات، وعند اهتزاز الجزيئات يتحول جامدها إلى سائل ثم إلى غاز، وكلما زيدت الأجسام دفئاً أو حرارة زاد عدد اهتزازات الجزيئات في الجسم (المترجم).

كانت هذه النظرية تُعتبر إلى عهد قريب فكرة عرفانيّةً ونظريةً فلسفيةً لا نظرية علمية، فقد فسر العرفاء المسلمون الغاية من مصير الإنسان بأنها الرجوع إلى الله.

وبمرور الزمن، ووقوف العرفاء المسلمين على آراء الملل الأخرى، طرأت لهم فكرة جريئة أخرى بشأن يوم المعاد أو الرجوع إلى الله مؤداها – كما سبق أن أوضحنا – أن المخلوق يرجع إلى الخالق ويتحد به، وقد عُرفت هذه الفكرة باسم "وحدة الوجود" وشاعت لدى العرفاء في الشرق والغرب، فلمّا جاء الفيلسوف الهولندي البرتغالي الأصل اسبينوز(١٩٩) ، أرسى نظريته الفلسفية على أساس وحدة الوجود.

ومحصل فكرة وحدة الوجود أن جميع ما في الكون من عناصر وكائنات، ومنها الإنسان، إنما هي مظهر من مظاهر وجود الله. وبانتشار مؤلفات اسبينوزا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، انتشرت هذه الفكرة في الغرب بعدما كانت منتشرة كفكرة عرفانيّة في الشرق. وقد تعرض اسبينوزا للتكفير واتّهامه بالهرطقة، فجمعت كتبه من المكتبات والمطابع، وانصرفت عنها دور الطباعة خوفاً من سطوة السلطات الدينية وبطشها.

---

(١٩٩) اسبينوزا Spinoza فيلسوف يهودي هولندي من أصل برتغالي ولد عام ١٦٢٣ م وتوفي عن أربعة وخمسين عاماً سنة ١٦٧٧ م . ولما شاعت نظريته حول وحدة الوجود، فهجرته أسرته، وأصبح وحيداً وهو في حوالي الأربعين من عمره، فاضطر إلى الاشتغال ببيع الخضر والفاكهة ليقيم أوده، وقد نصح بالتوبة والرجوع عن عقيدته الفلسفية لكي يعود إلى منصبه العلمي في الجامعة فرفض وعاش في خصاصة إلى أن مات.

ومع أن حرّية الرأي والبحث التي دعت إليها مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع) قد أخذت تنتشر في ربوع الشرق، فإن دُعاة نظرية وحدة الوجود لم يجرؤوا على المجاهرة برأيهم السافر، لأن الخلفاء والحكام كانوا في بعض الأحيان يوقعون عقوبات صارمة على الداعين إلى هذه الفكرة، فمن نجا منهم من مصير القتل لم ينج من تكفير العلماء ورجال الدين، وصار شأنه كالمصاب بالجذام الذي يفر منه الناس، بل شرّاً من ذلك، لأن المصابين بالجذام كانوا يودعون في دار للرعاية خارج المدينة بعيداً عن المجتمع، وكانت تخصّص لهم في بعض الأحيان مزارع يعيشون فيها بمنأى عن الناس، حيث يزاولون حياتهم الطبيعية.

أمّا الذين يُحكم عليهم بالتكفير، فهؤلاء لم يكونوا يجدون شفقةً من أحد، ولا كانوا يُؤتمنون على عمل يرتزقون منه، فإن كان الكافر تاجراً قاطعه الناس، وإنْ كان ذا حرفة لم يجد من يستعين به في أي مهمّة، فإنْ خرج من بيته ضايقه الناس حتى يضطر في آخر الأمر إلى الاعتزال أو ترك الدار أو الهجرة إلى حيث لا يعرفه أحد.

وتلقاء ذلك، كان من الطبيعي لدعاة فكرة وحدة الوجود أن يتحدّثوا عنها لا تصريحاً بل تلميحاً وبرموز وإشارات وعبارات ملتوية لئلا يُفتضح أمرهم ويكون جزاؤهم التكفير على أيدي رجال الدّين. ومن هنا توسّلوا إلى التعبير عن المعاني العرفانيّة والصوفيّة باستخدام مصطلحات ماديّة مثل الخمر والخمّار والساقي والكأس والحبيب والمُدامة والشراب وما إلى ذلك، وانتقلت هذه المصطلحات إلى الشعر الذي نظمه الصوفيّون، فأصبح لهذا الشعر من المعاني الظاهرة ما يختلف عن معانيه الباطنة التي يدركها

الصوفيّون والعرفاء وحدهم، وبهذه الكيفيّة استطاعوا أن يجتنبوا توجيه تهمة الكفر إليهم، وأن ينجوا من عقاب الحكّام.

والمعروف أن التفكير الصوفي أخذ ينمو وينتشر في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث للهجرة، وكان الصوفيون والعرفاء في هذه الفترة يؤولون كلام الصادق (ع) ومؤداه أن كل شيء منجذب إلى ربه وخالقه، بأن المقصود منه هو اندماج الوجودين في وحدة واحدة، في حين أن جعفراً الصادق (ع) لم يؤمن بوحدة الوجود، ولا قال بها، وكان من رأيه أن الإنسان هو صنيع الخالق ومخلوقه طبقاً للعقيدة الإسلامية، لأن الله هو خالق كل شيء، وكل شيء راجع إليه.

وعندما وُضعت للعلوم تعريفات خاصة بكل منها في عصور متأخرة، اعتبرت الفلسفة والعرفان من جملة هذه العلوم، وعدت نظرية الإمام الصادق (ع) القائلة بأن كل شيء منجذب إلى ربه بأنها نظرية عرفانية لا علمية.

وقد أثبتت العلوم في يومنا هذا أن نظرية الصادق (ع) قريبة من الحقيقة العلمية الملموسة، وإن كان من السابق لأوانه أن نقطع بأن جميع الأشياء منجذبة إلى شيء واحد (أو بعبارة الصادق: كل الأشياء منجذبة إلى الله). ومن الثابت أن الموجات التي تنطلق من الإلكترون تتجه إلى ناحية واحدة، ولا تتبعثرُ في كل اتجاه إلا إذا كانت للموجات خاصية مغناطيسية فعندئذ تكون الموجات كهرطيسية وتنتشر في كل اتجاه وهذه الموجات الكهرطيسية هي التي تستخدم في البث الإذاعي والتلفزيوني. والمثال الحي

على أن الإلكترون ينطلق في اتجاه واحد، هو عقرب البوصلة الذي لا نراه إلا متجهاً ناحية الشمال حيث يوجد المجال المغنطيسي للقطب الشمالي.

والبوصلة اختراع اهتدى إليه المسلمون (٢٠٠) وانتفع به في الرحلات البحريّة انتفاعاً عظيماً ، ولولاه لما استطاع البحار البرتغالي فاسكودوجاما أن يتجه من رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا إلى الهند، ولما استطاع كريستوف كولمبوس الإيطالي أن يكتشف أمريكا في هذه الفترة عينها، ولَمَا استطاع ماجلان البرتغالي أن يطوف بسفينته حول العالم ويثبت كرويّة الأرض بطريقة علميّة.

وما زالت البوصلة إلى هذا اليوم جهازاً من أهم الأجهزة في السفن والطائرات والنفاثات الجويّة، صحيح أن الطائرات تظل على اتصال دائم بأبراج المراقبة في المطارات، ولكنها مع ذلك لا تستطيع الاستغناء عن البوصلة. والبروفسور (داش) الأستاذ بجامعة واشنطن الأمريكية وهو من أبرز علماء الفيزياء والفلك في الولايات المتحدة الأمريكية، قد وضع نظرية عمليّة بشأن الكون لو أقيمت عليها البراهين التجريبية لجاءت معززة لنظرية الصادق (ع) بشأن انجذاب الأشياء أو رجوعها إلى الخالق.

---

(٢٠٠) يُعزى اختراع البوصلة إلى الصينيين في عام ٢٦٣٦ ق.م.، ولكن المسلمين نقلوها من الصين وأدخلوا عليها تحسينات واستخدموها، ثم أخذها الأوروبيون من البحارة المسلمين، ولهذا اشتهر هذا الجهاز في أوروبا بأنه من صنع المسلمين. (دائرة المعارف البريطانية).

ومعروف أن شغل العلماء الشاغل منذ القرن التاسع عشر منصرف إلى محاولة تحديد معالم الكون وتحديد الحركة التي تجري فيه، ولكن الأمر حتى الآن لا يعدو كونه نظريّات مجرّدة.

وقد استطاع العلم أن يُثبت صحّة بعض النظريّات المتعلقة بالكون والكائنات، مثل قانون دوران السيارات حول كرة الشمس وما إلى ذلك، واكتشفت هذه القوانين في معظمها قبل القرن التاسع عشر الميلادي.

ولكن كل ما قيل حتى اليوم عن هيئة الكون وحركاته (باستثناء ما تم رصده بالمراقب الفلكية) لا يخرج عن نطاق النظريات المجردة.

ومن ذلك مثلاً أن نظرية النسبية لأنشتين لم تثبت بالتجريب العملي إلا ما يتعلق بانحراف شعاع الضوء عند اقترابه من كتل الجاذبية أو اصطدامه بها.

ويذهب مؤيّدو نظريّة النسبيّة لأنشتين إلى أن هذه النظرية إنما تستند إلى معادلة رياضية، وأن المعادلات الرياضية لا سبيل إلى الشك فيها (كالقول مثلاً بأن حاصل ضرب ٢×٢ هو ٤ ، أو أن حاصل قسمة ٢٠ على ٥ هو ٤) ، ولكن المعادلات الرياضية شبيهة إلى حد كبير بميزان القباني، فإذا تعادلت كفتا الميزان، ثبت الشاهين في وضع عمودي عند خط الوسط، لايميل يمنة ولا يسرة، دليلاً على أن الكفتين متساويتان، ولكن وقوف هذا المؤشر عند خط الوسط، وإن دل على تساوي الكفتين، لا يدل على الوزن الذي تحمله كل كفة منهما، ولا على السلعة الموضوعة في هذه الكفة أو تلك، وهل هي من الفحم أم من الذهب.

وقد عاشت النظريات الرياضية وهي تتمتع بتصديق الناس وثقتها، واعتبرت نظرية أنشتين حقيقة ثابتة لا تقبل الشك. ومع ذلك ، فقد تبين بعد اختراع أجهزة الرصد الكهرضوئية أن هناك أجراماً سماويّة تبعد عن الكرة الأرضية بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية في حين أن أنشتين حسب قطر العالم بثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية.

وكما سبق أن ذكرنا، فإن علماء الفلك الأمريكيين عاكفون على صُنع جهازٍ راديو تلسكوبي جديد قوامه ٢٧ هوائياً راديو تلسكوبيّاً ، على هيئة حرف Y في اللغة الإنجليزية، وبين كل طرف من أطراف هذا الحرف مسافة ٢١ كيلو متراً ، ولهذا الجهاز مجال تعمل فيه الهوائيّات الراديو تلسكوبية قطره ٣٠ كيلو متراً .

وعند استكمال هذا الجهاز لا يستبعد أن تتغير جميع النظريّات الخاصة بالكون، إذ سيكون في مقدوره رصد عوالم أوسع ممّا أمكن رصده حتى اليوم.

والأمر الذي لا شك فيه، هو أن ما ذهب إليه أنشتين من تحديد قطر الكون ليس صحيحاً ، إذْ أن العلم قد أثبت خلاف ذلك.

ومحصّل نظرية البروفوسور (داش) أستاذ الفيزياء والفلك المذكور بجامعة واشنطن، أن أجهزة الرصد الراديوتلسكوبية قد غيرت المعارف البشرية بشأن النجوم، إذ تبين للعلماء أن هناك أجراماً سماوية من نوع

المجرة تتحرك في اتجاه نقطة ما بسرعة تفوق سرعة الضوء، وأن منها ما تفوق سرعته سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرّة(٢٠١) .

وتتحرك هذه الأجرام كيفما اتفق، ممّا يؤكد أنها لابد أن تلتقي في نقطة الهدف، ويصطدم بعضها بالبعض الآخر، وليس من سبيل للتكهّن بما يمكن أن يؤدي إليه هذا التصادم، وهل يولّد طاقة أو طوفاناً من الأمواج يضطرد ويمضي إلى نهاية الكون، وهل تنشأ عن هذا التصادم عوالم أخرى تخضع لقوانين خاصّة بها.

و لم يحدد البروفوسور (داش) لا زمان تصادم هذه الأجرام التي تنطلق بهذه السرعة الفائقة ولا مكانه، ولا استطاع أن يبين خط سير هذه الأجرام لسبب بسيط هو أنّها تنحرف أمام الكتل ذات الجاذبيّة الشديدة التي تجذبها إليها. ولكنه قال: إن المدارات التي تسير فيها هذه الكتل تتسع بحيث يصعب على أجهزة الكمبيوتر تحديد اتجاهها أو مقارنة بعضها بالبعض الآخر أو تحديد نقطة التقائها.

فإن صحّت هذه النظريّة، وكانت هناك فعلاً كتل لها قوة جاذبية شديدة تعترض سير المجرّات، فمعنى ذلك أن هذه الكتل تتكون من مادة لتستطيع التمتع بهذه القدرة الفائقة على الجاذبية.

---

(٢٠١) إن السرعة التي تفوق سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرة تساوي ٢٨٥ ألف كيلو متر في الثانية، وهي سرعة لا يسع مادة أو جسماً أن ينطلق بها إلا اذا كان ضرباً من ضروب الموجات. (المترجم).

بقيت مشكلة في هذه النظرية، وهي أن المجرات أجرام وعناصر مادّية، فكيف يتأتى للمادة أن تتحرك بهذه السرعة؟

يقول (داش) إنّ الأجرام السماويّة التي تنطلق بهذه السرعة هي من الحالة الرابعة للمادة التي تعرف باسم (البلازما)، أما الحالات الثلاثة الأخرى التي كانت معروفة من مدة غير قصيرة فهي الحالات الجامدة والسائلة والغازية، وقد أضيفت إليها هذه الحالة الرابعة وهي (البلازما).

ومع ذلك ، يقول علماء الفيزياء إن البلازما لا تستطيع بدورها أن تنطلق بهذه السرعة، وإلا فقدت كيانها، وتحولت إلى موجات.

يؤُخذ ممّا تقدم وفقاً لنظرية البروفيسور (داش) أن الأجرام السماويّة الشديدة البُعد عن منظومتنا تسير بسرعة فائقة نحو نقطة غير معلومة لنا، وهذا يدل على أن المجرّة أو المجموعة التي تضمّها منظومتنا الشمسيّة والمجرّات الأخرى تسير بدورها في اتجاه تلك النقطة عينها.

فإن أمكن تأكيد هذه النظرية، برهنت بطريقة علميّة على صدق نظرية الإمام جعفر الصادق (ع) القائلة إن كل شيء منجذب إليه، وكل شيء يرجع إلى الله. بينما البروفوسور (داش) يقول: إن كل شيء منجذب إلى نقطة واحدة أو مركز واحد.

فلا فرق بين نظرية داش لو ثبتت علمياً ونظرية الصادق (ع) إلا في العبارات والألفاظ، فالانجذاب في رأي الصادق (ع) هو انجذاب إلى الله، وهو في رأي داش انجذاب إلى مركز واحد.*

وتختلف نظرية (داش) عن نظرية (آبه لمتر)[٢٠٢] الأستاذ بجامعة لوون ببلجيكا التي تتعلّق بسعة الكون، وقد سبق عرضها في الفصول المتقدّمة، ومؤدّاها أنّ الأجرام والمجرات السماوية تنطلق في اتجاه السعة الكونية. ومعروف أن الفترة التي عاش فيها (آبه لمتر) قبيل الحرب العالمية الثانية كان حظّها من المراصد الفلكية، الأجهزة الاعتياديّة التقليديّة، إذْ أنَّ المراقب الراديوتلسكوبيّة وأجهزة الكمبيوتر لم تكن قد لعبت بعد دورها الضخم في عصر الفضاء، وفي رصد الأجرام البعيدة، وحساب سرعة حركتها، وحلّ المعادلات الرياضية المعقّدة بدقّة وسرعة. وكان علماء الفلك والرياضيّات في ذلك الوقت يستخدمون عقولهم في إجراء العمليّات الحسابيّة المتعلّقة بالفضاء وبسرعة السيارات التي تدور فيه.

ومع أنه قد أصبح من الميسور الآن متابعة حركة الأجرام السماويّة وحساب سرعتها بالأجهزة العصرية المتقدمة، ومع أن بين أيدي العلماء فعلاً نظرية (داش) المتعلقة بحركة العالم صوب مركز معيّن، إلا أننا لا نستطيع إنكار نظرية (آبه لمتر) ، كما أن نظرية (داش) لم تتحقق علمياً حتى الآن.

(*) الله سبحانه وتعالى في رأي الصادق – عليه السلام – ليس له مكان محدد فهو في كل مكان ولا يحده حد ولا يوجد في مكان فما من مركز لله سبحانه.

(٢٠٢) آبه لمتر عمل قبل الحرب العالميّة الثانية أستاذاً للرياضيات والفلك بجامعة لوفان في بلجيكا. (المترجم).

وتشتمل نظرية (داش) هذه على نقطتين غامضتين، هما:

أولاً: كيف يتأتى للمادة أن تتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء ٩٥ مرة؟ فالرد أن المجرّات التي تسير بهذه السرعة ليست مادة، وإنما هي بلازما كما يقول علماء الفيزياء.

وثانياً: ما هو المركز الذي تتجه صوبه هذه السيارات في سيرها السريع؟ إن البروفوسور (داش) لم يورد شيئاً يوضّح به هذه النقطة الغامضة.

فإن كانت الجاذبية التي تتحكم في منظومتنا الشمسية تتحكم في العالم الخارجي عن هذه المنظومة، فالذي لا ريب فيه أن المركز الذي تتجه جميع الأجرام والمجرات صوبه هو مركز مادي له جاذبية عظيمة قادرة على اجتذاب المجرات والأجرام السماوية إليه. وإلى يومنا هذا، لم يتسنّ لأجهزة الرصد الدقيقة اكتشاف هذا المركز المادي الذي تتناهى قوّة جاذبيته عن التصور. ومما يزيد الأمر صعوبة أن صاحب النظرية لم يعين هذا المركز الجاذب الذي تتجه إليه الأجرام والمجرّات.

الإمام جعفر الصادق (ع)
في دروسه

كان الإمام جعفر الصادق (ع) من أكثر الأساتذة حلماً وصبراً في إلقاء دروسه على طلابه والإصغاء إلى تعليقاتهم واستيضاحاتهم، والرد على استفساراتهم ومناقشتهم. وإلى جانب دروسه اليومية التي كان يُلقيها في

مسجد النبي (ص) ولا تنقطع حلقاتهـا المنتظمـة، فقـد درج بعـد كـل درس على أن يفسح صدره لطلابه من سائل أو ناقد أو مسـتوضح، وكـان لا يترك سؤالاً بعد أن يستوفيه جواباً ، مهما استغرق ذلك من وقت، ولو كان ذلـك على حساب وقت الراحة أو وقت تناول الطعام في داره، فإن طالت الجلسة، بعث بمن يجيء إليه ببعض الطعام من بيته ليتناوله بزهده وبساطته.

ولأنه كان يفسـح للأسئلة وقتـاً كافيـاً ، فقـد كـان يرجـو طلابـه ألا يقاطعوه في أثناء إلقاء دروسه، وأن يرجئوا كل ما يعن لهم إلى ما بعد الفراغ من الدرس.

وكان من عادة الإمام الصادق (ع) أن ينتهي من دروسـه عنـد حلـول موعد صلاة الظهر، فيؤم الناس للصلاة ثم ينصرف إلى داره.

وما أكثر المناقشات التي دارت في مسجد النبي (ص) بين الإمام وبين طلابه أو مخالفيه في الرأي، أو بين فريق من الطلاب وبين فريق آخر منهم.

ومن ذلـك مثـلاً مـا رواه صـاحب (أصـول الكـافي)(٢٠٣) نقـلاً عـن محمد بن إسحاق، قال:

سأل عبد الله الديصاني هشاماً بن الحكم قائلاً :

- أَلَكَ رَبٌّ؟

فقال : بلى.

(٢٠٣) أورد صاحب (أصول الكافي) في باب التوحيد صورة من مناظرات الإمام مع أحد الملحدين سمّاه (أبا شاكر)، وهو عبدالله أبو شاكر الديصاني الملحد وقد نقلنا الحـوار بنصّـه وفصّـه مـن هـذا الكتاب، فضلاً عن أنه ورد في غيره من كتب الحديث (المترجم).

قال : أقادر هو؟

قال : نعم قادر، قاهر.

قال: أيقدر أن يُدخل الدنيـا كلّهـا فـي البيضـة، فـلا تكـبر البيضـة ولا تصغر الدنيا؟

قال هشام: النظرة. (أي أعطني مهلة).

فقال له: قد أنظرتك حولاً . ثم خرج عنه.

فركب هشام إلى أبي عبد الله (ع)، فاستأذن عليه، فأذن له. فقال لـه: يابن رسول الله، أتاني عبد الله الديصاني بمسألةٍ ليس المعوّل فيها إلاّ على الله وعليك.

فقال له أبو عبد الله (ع): عمّاذا سألك؟

فقال: قال لي كيت وكيت.

فقال أبو عبدالله (ع): ياهشام كم حواسّك؟

قال: خمس.

قال: أيهما أصغر؟

قال: الناظر.

قال : وكم قدر الناظر؟

قال : مثل العدسة أو أقلّ منها.

فقال له: ياهشام فانظر أمامك وفوقك، وأخبرني بما ترى.

فقال: أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وجبالاً وأنهاراً .

فقال له أبو عبد الله (ع) : إنّ الذي قدر أن يُدخل الذي تراه العدسة أو أقلّ منها قادر أن يُدخل الدنيا كلّها البيضة، لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة.

فأكبّ هشام عليه، وقبّل يديه، ورأسه، قال: حسبي يا ابن رسول الله، وانصرف إلى منزله، وغدا عليه الديصاني فقال له: يا هشام، إني جئتك مسلّماً ولم أجئك متقاضياً للجواب.

فقال له هشام: إن كنت جئت متقاضياً فهاك الجواب. فخرج الديصاني عنه حتى أتى باب أبي عبد الله (أي الصادق (ع))، فاستأذن عليه، فأذن له، فلمّا قعد قال له: يا جعفر بن محمد، دلّني على معبودي.

فقال له أبو عبد الله (ع) : ما اسمك؟

فخرج عنه ولم يخبره باسمه. فقال له أصحابه: كيف لم تخبره باسمك؟

قال: لو كنت قلت له (عبد الله) لكان يقول من هذا الذي أنت له عبد.

فقالوا له: عُد إليه، وقُل له يدللك على معبودك ولا يسألك عن اسمك، فرجع إليه قائلاً :

ياجعفر بن محمد، دلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي.

فقال له أبوعبد الله (ع) : اجلس، وإذا غلامٌ له صغير في كفّه بيضة يلعب بها.

فقال له أبو عبد الله (ع) : ناولني يا غلام البيضة، فناوله إيّاها.

فقال له أبو عبد الله (ع) : ياديصاني، هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، وفضّة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة، ولا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلحٌ فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدرى للذكر خُلقت أو للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى لها مُدبِّراً ؟

قال: فأطرق الديصاني مليّاً ، ثم رفع رأسه فقال: أشهد لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنّك إمام وحجّة من الله على خلقه، وأنا تائب ممّا كنت فيه.

مناظرات الإمام الصادق (ع)
مع الملحدين

مناظرات الإمام (ع) مع الملحدين:

وللإمام الصادق (ع) مناظرات علميّة كثيرة مع الملحدين والزنادقة، منهم من كان يأتيه ويسأله سؤال استفهام واسترشاد، ومنهم من كان على عناده وسابق رأيه. وفي كلتا الحالتين، كان الصادق (ع) يستقبلهم بصدرٍ رحب وحلم عظيم ووجه باشّ، فكم من مُعارض ومُلحد جاءه وخرج من عنده مقتنعاً مسترشداً ، وكم غيرهم خرج من مجلسه وهو متمادٍ في غيّه وجهله، ولكنّ الكلّ يكنّ له الاحترام والتبجيل.

رُوي أنّ ثلاثةً من الدهريّة اتّفقوا على أن يعارض كلّ واحدٍ منهم ربع القرآن، وكانوا بمكّة، وتعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل(٢٠٤)

وكان من هؤلاء الثلاثة عبد الكريم بن أبي العوجاء، وهو من الملاحدة المشهورين الذي اعترف بدسّه الأحاديث الكاذبة على أحاديث النبي (ص).

وكان ابن أبي العوجاء في بداية أمره موحّداً مؤمناً حسن السيرة والسلوك يتردّد على مدرسة الحسن البصري، فلمّا انحرف عن التوحيد، اعتزل حوزة الحسن البصري.

وانتهى أمره بالقتل لأنه ملحد، قتله محمد بن سليمان عامل الكوفة من قبل المنصور العباسي.

كان ابن أبي العوجاء يوماً هو وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق، وأومأ بيده إلى موضع الطواف. ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس، يعني أبا عبدالله جعفراً بن محمد (ع) ، أمّا الباقون فرعاع وبهائم.

فقال ابن أبي العوجاء: وكيف أوجب هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟.

فقال: لأنّي رأيت عنده ما لم أره عندهم.

فقال ابن أبي العوجاء: لابدّ من اختبار ما قُلت فيه منه.

---

(٢٠٤) المناقب لابن شهر آشوب.

فقال له ابن المقفّع: لا تفعل، فإنّي أخاف أن يُفسد عليك ما في يدك.

فقال : ليس ذا رأيك، لكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه هذا المحلّ الذي وصفت.

فقال ابن المقفع: أمّا إذا توسّمت عليّ، فقم إليه وتحفّظ من الزلل، ولا تثن عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقال.

فقام ابن أبي العوجاء إلى الصادق (ع) ، فلما رجع منه قال: ويلك يا ابن المقفع، ما هذا ببشر، وإنْ كان في الدنيا روحانيّ يتجسّد إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً ، فهو هذا.

فقال له: كيف ذلك؟

فقال: جلست إليه، فلمّا لم يبق عنده أحدٌ غيري، ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون – يعني أهل الطواف – فقد سلموا وعطبتم، وإنْ يكن الأمر كما تقولون وليس هو كما تقولون، فقد استويتم وهم.

فقلت: يرحمك الله، وأيّ شيء نقول، وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلا واحد.

فقال: وكيف يكون قولك وقولهم واحداً ، وهم يقولون إنَّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأن للسماء إلهاً وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنَّ السماء خراب ليس فيها أحد.

قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه يدعوهم إلى عبادته حتّى لا يختلف فيه اثنان.

ولم يحتجب عنهم، ويرسل إليهم الرسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟

فقال لي: ويلك كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك، نشّوك(٢٠٥) بعد أن لم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحّتك، وصحتك بعدسقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد إنابتك(٢٠٦) ، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك لما لم يكن في وهمك وغروب ما أنت معتقده عن ذهنك.

ومازال يعدّ عليّ قدرته التي هي في التي لا أدفعها، حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه(٢٠٧) .

ودخل ابن أبي العوجاء على الصادق (ع) يوماً فقال: أليس تزعم أنّ الله تعالى خالق كل شيء؟

فقال أبو عبد الله (ع) : بلى.

فقال: أنا أخلق.

فقال له: كيف تخلق؟

---

(٢٠٥) نشأت في نسخة أخرى.

(٢٠٦) الإنابة: الرجوع. وفي نسخة أخرى أبانك، وفي نسخة أناءتك وهي الإبطاء.

(٢٠٧) "الكافي" كتاب التوحيد، منه باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

فقال: أحدث في الموضوع، ثم ألبث عنه، فيصير دواب، فكنت أنا الذي خلقتها.

فقال أبو عبدالله (ع) : أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه؟

قال: بلى.

قال: أفتعرف الذكر من الأنثى وتعرف عمرها؟ فسكت ابن أبي العوجاء.

ثم إنه عاد في اليوم الثاني إلى الصادق (ع) فجلس وهو ساكت لا ينطق.

فقال له أبو عبد الله (ع) : كأنك جئت تُعيد بعض ما كنّا فيه.

فقال: أردت ذلك ياابن رسول الله(ص).

فقال أبو عبدا لله (ع) : ما أعجب هذا ، تنكر الله وتشهد أنّي ابن رسول الله (ص):

فقال: العادة تحملني على ذلك.

فقال له الصادق (ع): فما يمنعك من الكلام؟

قال: إجلال لك ومهابة، ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فما تُداخلني هيبة قط مثلما تُداخلني من هيبتك.

فقال الصادق (ع) : يكون ذلك، ولكن أفتح عليك سؤالاً ، ثم أقبل عليه فقال له:

أمصنوع أنت أم غير مصنوع؟

فقال له ابن أبي العوجاء: أنا غير مصنوع.

فقال له الصادق (ع) : فَصِف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي عبد الكريم مليّاً لا يحير جواباً ، وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول:

طويل عريض، عميق قصير، متحرك ساكن، كلّ ذلك من صفة خلقه.

فقال له الصادق (ع) : فإنْ كنت لم تعلم صفة الصنعة من غيرها، فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور.

فقال له عبد الكريم: سألتني عن مسألة لم يسألني أحدٌ عنها قبلك، ولا يسألني أحدٌ بعدك عن مثلها.

فقال له أبو عبد الله (ع): هَبْكَ علمتَ أنّك لم تُسأل في ما مضى، فما علمك أنك لم تُسأل في ما بعد؟ على أنّك يا عبد الكريم نقضت قولك، لأنّك تزعم أنّ الأشياء من الأول سواء، فكيف قدّمت وأخّرت؟

ثم قال: ياعبد الكريم أنزيدك وضوحاً؟ أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل: هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينار في الكيس، فقال لك قائل: صف لي الدينار، وكنت غير عالم بصفته، هل لك أن تنفي كون الدينار في الكيس وأنت لا تعلم، قال: لا.

فقال أبو عبد الله (ع): فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس، فلعلّ في العالم صنعة من حيث لا تعلم، لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة.

فانقطع عبد الكريم، وأجاب بعض أصحابه، وبقي معه بعض.
فعاد في اليوم الثالث فقال: اقلب السؤال، فقال أبو عبد الله (ع): سَلْ عمّا شئت.

فقال: ما الدليل على حدوث الأجسام؟
فقال (ع): أنّي ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلاّ وإذا ضم إليه مثله صار أكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يُوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأولى دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد.
فقال عبد الكريم: هَبْك علمت بجري الحالين والزمانين على ما ذكرته ، واستدللت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها، من أين لك أن تستدلّ على حدوثها؟
فقال الصادق (ع) : إنّما نتكلّم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر، كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إيّاه ووضعنا غيره، ولكن أجبت من حيث قدّرت إنك تلزمنا وتقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ما ضُمّ شيء منه إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروج من القدم، كما

بان في تغيير دخوله في الحدث أن ليس وراءه يا عبد الكريم، فانقطع ابن أبي العوجاء.

ولما كان في العام القابل، التقى الإمام في الحرم، فقال له بعض شيعته إن أبي العوجاء قد أسلم.

فقال الصادق (ع) : هو أعمى من ذلك، لا يسلم، فلمّا بصر بالصادق (ع) قال: سيّدي ومولاي.

فقال له الإمام (ع) ما جاء بك إلى هذا الموضع؟

فقال: عادة الجسد وسُنّة البلد ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة.

فقال له الصادق (ع) : أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم.

فذهب يتكلم، فقال له الإمام (ع) : لا جدال في الحج، ونفض رداءه من يده، وقال:

إن يكن الأمر كما تقول، وليس كما تقول، وهو كما نقول، نجونا وهلكت(٢٠٨) .

وسأل ابن أبي العوجاء الصادق (ع) يوماً في تبديل الجلود في النار.

فقال: ما تقول في هذه الآية: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها**﴾(٢٠٩) ؟

هَبْ هذه الجلود عصت فعُذّبت فما بال الغير يُعذب؟

---

(٢٠٨) توحيد الصدوق، باب حدوث العالم.

(٢٠٩) الآية ٥٦ في سورة النساء.

قال أبو عبد الله (ع): ويحك هي هي، وهي غيرها، قال: أعقلني هذا القول، فقال له الصادق (ع) أرأيت أنّ رجلاً عهد إلى لبنة فكسرها ثم صبّ عليها الماء وجبلها[٢١٠] ثم ردّها إلى هيئتها الأولى، ألم تكن هي هي وهي غيرها، فقال: بلى أمتع الله بك[٢١١] .

الموت والفناء في نظر الصادق (ع)

يعتقد سواد الناس، ولو من الناحية السطحيّة ، أنّ الموت حقيقة تدلّ على أنّ الحياة عبث، ولا طائل من ورائها، وأنه دليل على بطلان كلّ شيء، كما أنّ هناك من يعتقد أنّ الموت عقوبة ظالمة للعباد.

ولكنّ الواقع أنّ الموت يؤدي وظيفةً هامة بالنسبة للإنسان والحيوان والكائنات الحيّة، ولولاه لانقرض نسل الإنسان ولضاقت الأرض بسكّانها، ولاعتدى القوي على الضعيف.

إلى هذا ألمح الإمام الصادق (ع) في الدروس التي كان يُلقيها على بعض طلابه.

وقد ذكرنا ذلك بالعالم الشهير (ألكسيس كاريل) مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) الذي بذل جهداً كبيراً لاستقصاء أسرار الموت وأسبابه عساه يحول دون وقوع هذه الأسباب، ولكنّه انتهى بأن ندم على هذا الجهد، وانصرف إلى أعمال علميّة أخرى.

---

(٢١٠) أي طبعها وليّنها.

(٢١١) البحار (٤ : ١٤١).

وقد جاء في دائرة معارف (كولومبيا) الأمريكية في ترجمة (ألكسيس كاريل) بأنه كان ذا شخصيتين، لكلّ واحدة منهما اتجاهها الخاص، وكأن بينهما صراعاً أمّا الشخصية الأولى فهي شخصية العالم المفكر الذي وكده وضع حد للموت، وأمّا الشخصية الثانية فشخصية مفكر فيلسوف هاله ما رآه من العالم المفكّر فحثّه على أن ينصرف عن البحوث التي يُجريها للتخلّص من الموت، وفي هذا الصدد، توجه شخصيّة الفيلسوف حديثها إلى شخصية العالم قائلة: لِمَ كلّ هذا السعي في سبيل إطالة أعمار مجموعة من الناس، دأبها الأنانية وحبّ الذات وإنزال الظلم بالآخرين وتكديس الثروات، ولو كان سبيلها إلى ذلك إراقة دماء أقوام آخرين؟ أفلا يدرك العالم المفكر أن قيمة الإنسان تُقاس لا بطول العمر بل بنوعيته وبما يُنتجه من فكر، وأن رجلاً واحداً يتحلى بالقيم الإنسانية ويقدم العون للآخرين، خير من مئات وآلاف جافتهم الإنسانية وتجردوا من القيم.

وقد كتب الفوز في هذا الجدال بين قوة العلم وقوة الفيلسوف (ألكسيس كاريل) الفيلسوف الحكيم، ومن هنا انصرف كاريل عن مباحثه الدائرة حول إطالة عمر الإنسان.

ومع ذلك ، خلّف كاريل بعض النظريات، منها نظرية تقول إن حقن الشيوخ بدم الشباب من نفس الفصيلة كفيل بإطالة أعمارهم وتبديد آثار الشيخوخة، ولهذه النظريّة قيمتها ووزنها لدى علماء الأحياء حتّى الآن.

وجديرٌ بالذكر أن ألكسيس كاريل كان أوّل طبيب جرّاح نجح في إجراء عملية فتح شريان القلب وترقيعه في ثلاث دقائق، فلا غَرْوَ أن يفوز بجائزة نوبل في الطبّ، هذا وقد توفي كاريل عام ١٩٤٤م.

وقد دار حديث عن الموت بين الإمام جعفر الصادق (ع) وواحد من تلاميذه، واستصوبت أن أورده بنصه كما رواه المفضّل بن عمر، وهو من أخلص تلاميذ الصادق (ع).

المجلس الرابع:

قال المفضل[٢١٢] : فلما كان اليوم الرابع، بكرت إلى مولاي، فاستؤذن لي، فأمرني بالجلوس، فجلست، فقال عليه السلام: منّا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس، للاسم الأقدم والنور الأعظم العلي العلام ذي الجلال والإكرام، ومُنشيء الأنام، ومُفني العوالم والدهور، وصاحب السرّ المستور، والغيب المحظور، والاسم المخزون والعلم المكنون.

وصلواته وبركاته على مُبلغ وحيه، مؤدي رسالته، الذي بعثه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ليهلك من هلك عن بيّنة،

---

(٢١٢) أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي، وُلد في أواخر القرن الأول الهجري في الكوفة، وعاصر الإمام الباقر (ع)، ثم اتصل بالإمام الصادق (ع) ، وبعده بالإمام موسى الكاظم (ع)، وأخذ عنهما الحديث والرواية، واستقى الكثير من الأحاديث والعلوم من مدرسة الصادق (ع) ، ونظم وألف عدداً من الكتب ممّا أخذه عن الإمام وهي:

١ – كتاب الإهليلجة، وهو من إملاء الإمام الصادق (ع) على المفضل (وقد ذكرها المجلسي في المجلد الثاني من كتابه "بحار الأنوار" في باب التوحيد مع الشرح والبيان)

٢ – كتاب كنز الحقائق والمعارف، ويسمى أيضاً كتاب التوحيد. طبع مستقلاً عدة مرات.

٣ – الوصية.

٤ – كتاب ما افترض الله على الجوارح من الايمان.

٥ – كتاب الإيمان والإسلام.

٦ – كتاب علل الشرائع: وقد ذكر النجاشي في رجاله كتابين آخرين، وهما كتاب (أعمال اليوم والليلة)، وكتاب (بدء الخلق والحث على الاعتبار)، وأغلب الظن أن هذا هو نفس كتاب التوحيد.

وكان المفضل بالإضافة إلى مكانته العلمية موضع ثقة الإمام والجميع، وكان وكيلاً للإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وتوفي سنة ١٨٣هـ قال الكاظم (ع) فيه: أما إنَّ المفضل كان أنسي ومستراحي. (المترجم).

ويحيى من حيٍّ عن بيّنة، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيّبات، والتحيّات الزّاكيات الناميات، وعليه وعليهم السلام.

الموت والفناء وانتقاد الجهّال وجواب ذلك:

وقد شرحت لك يامفضّل من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمدفي الإنسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك، ما فيه عبرة لمن اعتبر. وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخلق والخالق، والعمد والتدبير، وما أنكرت المعطّلة والمنافية من المكاره والمصائب ، وما أنكروه من الموت والفناء.

وممّا ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير للموت والفناء، فإنّهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الناس مخلّدين في هذه الدنيا، مبرّئين من هذه الآفات، فينبغي أن يُساق هذا الأمر إلى غايته، فينظر ما محصوله.

أفرأيت ، لو كان كل من دخل العالم ويدخله يبقون، لا يموت أحدٌ منهم ، ألم تكن الأرض تضيق بهم، حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعائش، فإنّهم والموت يُفنيهم أولاً فأولاً ، يتنافسون في المساكن والمزارع، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتُسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم الحرص والشره وقساوة القلوب، فلو وثقوا بأنهم يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله، ولا أفرج لأحد عن شيء من أمور الدنيا، كما قد يملّ الحياة من طال عمره، حتى يتمنّى الموت والراحة من الدنيا..

فإن قالوا: إنه ينبغي أنه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتى لا يتمنّوا الموت ولا يشتاقوا إليه، فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليهم من العتو والأشر، الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين.

وإن قالوا: إنّه كان ينبغي أن لا يتوالدوا لكيلا تضيق عنهم المساكن والمعائش.

قيل لهم: إذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً ، إذن لم يدخل العالم إلا قرن واحد، لا يتوالدون ولا يتناسلون..

فإن قالوا: إنه ينبغي أن يُخلق في ذلك القرن الواحد من النّاس مثل ماخُلق ويُخلق إلى انقضاء العالم.

يُقال لهم: رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعائش عنهم، ثم لو كانوا لايتوالدون ولا يتناسلون، لذهب الأنس بالقرابات وذوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد، وموضع تربية الأولاد والسرور بهم، نفي هذا دليل على أن كل ما تذهب إليه الأوهام - سوى ماجرى به التدبير - خطأ وسفه من الرأي والقول.

ولعلّ طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول: كيف يكون هاهنا تدبير، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا أن القوي يظلم ويغضب، والضعيف يظلم ويُسام الخسف، والصالح فقير مبتلى، والفاسق مُعافى موسع عليه، ومن ركب فاحشةً أو انتهك محرماً لم يعالج بالعقوبة.

فلو كان في العالم تدبير، لجرت الأمور على القياس القائم، فكان الصالح هو المرزوق، والطالح هو المحروم، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف، والمنتهك للمحارم يُعالج بالعقوبة.

فيقال في جواب ذلك: إن هذا لوكان هكذا لذهب موضع الإحسان الذي فضل به الإنسان على غيره من الخلق، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقةً بما وعد الله عنه، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمح لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أوعقاب، حتى كان هذا يُخرجهم عن حد الإنسية إلى حد البهائم، ثم لا يعرف ما غاب، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل للرزق والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنما يكفّ عن ذلك لترقّب عقوبة تنزل به من ساعته، حتى تكون أفعال الناس كلّها تجري على الحاضر، لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها، مع أن هذه الأمور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه، بل قد تجري على ذلك أحياناً .

فقد ترى كثيراً من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير، ولكيلا يسبق إلى قلوب النّاس أن الكفّار هم المرزوقون، والأبرار هم المحرومون، فيؤثرون الفسق على الصلاح، وترى كثيراً من الفُساق

يعالجون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى أنفسهم، كما عولج فرعون بالغرق وبختنصر (نبوخذ نصّر)(٢١٣) بالتيه وبلبيس بالقتل.

وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة وأخّر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد، لم يكن هذا ممّا يبطل التدبير، فإنّ مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم، بل يكون تأخيرهم ما أخّروه وتعجيلهم ما عجّلوه داخلاً في صواب الرأي والتدبير، وإذا كانت الشواهد تشهد وقياسهم يوجب أن للأشياء خالقاً حكيماً قادراً ، فما يمنعه أن يدبر خلقه، فإنه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا بإحدى ثلاث خلال؛ إمّا عجز وإما جهل وإما شرارة، وكل هذا محال في صنعته عزَّ وجلَّ وتعالى ذكره. وذكر أن العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة، الشرّير لا يتطاول لخلقها وإنشائها. وإذا كان هذا هكذا، وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبّرها لا محالة، وإن كان لا يُدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه، فإنّ كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامّة ولا تعرف أسبابه، لأنّها لا تعرف دخيلة الملوك وأسرارهم، فإذا عرف سببه وجد قائماً على الصواب والشاهد المحنة(٢١٤).

---

(٢١٣) كان بختنصر أعظم ملوك الكلدانيين، امتد ملكه في بابل من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١ ق.م وقد وصف بالقوة والبأس وجاء ذكره في التوراة كثيراً لأنه هاجم اليهود سكان مملكة يهوذا الصغيرة هجوماً ساحقاً وأنزل بهم عقاباً شديداً وأجلى أكثرهم إلى بابل ودمّر عاصمتهم أورشليم تدميراً كاملاً .

(٢١٤) توحيد المفضل ص ١٦٦ – ١٧٥ ، طبع النجف المكتبة الحيدرية ١٩٦٩م.

تلك كانت نظرية الصادق (ع) بشأن الموت وحكمته، وكانت له نظريات أخرى في الحركة والوجود أوردناها في ما سبق، وكلها تشهد له بنفاذ النظرة ، وصفاء المذهب، وسلامة المنطق، وجلاء البصر والبصيرة، والقدرة على استكناه حقائق الأشياء، والاستعداد التلقائي لاستيعاب فلسفة الحياة والكون واستنباط ما استسرّ من خفاياها وما غفلت عنه كبار العقول المفكّرة.

حقاً ، لقد كان الإمام جعفر الصادق (ع) واحد عصره، وقمّة القمم في عُلوم الدين والدنيا في عصور كثيرة ممتدة.

المراجع

ثبت المراجع العربيّة

- أسد الغابة – لعلي بن محمد بن الأثير – دمشق ١٩٣٨م.
- الإصابة – لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني – مصر ١٩٥٨م.
- أصول الكافي – لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني (المتوفى سنة ٣٢٨هـ) – ٤ أجزاء – المطبعة الحيدرية – طهران.
- الأغاني – لأبي الفرج الأصبهاني – مطبعة بولاق – القاهرة.
- الإمام جعفر الصادق (ع) – جواد مُغنية – بيروت – دار الأندلس – بيروت – سنة ١٩٥٦م.
- الإمام جعفر الصادق (ع) – لعبد الحليم الجندي – دار المعارف – القاهرة.
- الإمام الصادق (ع) والمذاهب الأربعة – لأسد حيدر – طبع النجف الأشرف – ٤ أجزاء – ١٣٧٧ هـ.
- الإمام الصادق (ع) – لمحمد الحسين المظفر في مجلّدين – طبع النجف الأشرف.
- الإمام الصادق (ع) ملهم الكيمياء – للدكتور محمد يحيى الهاشمي – بغداد – مطبعة النجاح – ١٩٥٠.
- الإنتصار – لعبد الرحيم بن محمد الخيّاط – القاهرة – ١٣٤٤ هـ.
- أنساب الأشراف – لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري – مؤسسة الأعلمي – بيروت ١٩٧٤م.

_ أوائل المقالات في المذاهب والمختارات – لأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد العكبري البغدادي (المتوفى سنة ٤١٣هـ) – تبريز – ١٣٧١م.

– أوراق علمية – للدكتور فؤاد صروف – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ١٩٧٢م.

– تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام – للسيد حسن الصدر – طبع بغداد.

– تاريخ الفكر العربي – للدكتور عمر فرّوخ – دار العلم للملايين – بيروت.

– تاريخ المذاهب الإسلامية – للشيخ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة.

– تاريخ اليعقوبي – لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري (المتوفي سنة ٢٩٢هـ)– تحقيق السيّد محمد صادق بحر العلوم – المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف ١٩٧٤م.

– تذكرة الأولياء – لفريد الدين محمد العطّار النيسابوري (المتوفي سنة ٦١٨هـ) – تحقيق العلاّمة القزويني – الطبعة الثالثة – طهران ١٣٣٦هـ.ش.

– تذكرة الخواصّ – لبسط ابن الجوزي (المتوفي سنة ٦٥٤هـ) – المطبعة العلمية – النجف الأشرف – ١٣٦٩هـ.

– تهذيب التهذيب – لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني – طبع حيدر اباد – ١٣٢٥هـ.

– جعفر بن محمد (ع) – لعبد العزيز سيّد الأهل – دار الشرق الجديد – بيروت – ١٩٥٤م.

– الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجريّ – لآدم ميتز – ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة في مجلّدين – الطبعة الثالثة – مصر.

- الحكم الجعفرية - جمع عارف تامر - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٥٧م.
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة - للشيخ آغا بزرك الطهراني - طبع النجف الأشرف.
- شرح نهج البلاغة - لعبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي - طبع مصر - ١٣٢٩هـ.
- شيخ المضيرة أبو هريرة - للشيخ محمود أبو ريّة - دار المعارف - القاهرة ١٣٢٩هـ.
- الصحيفة السجادية - بمقدمة للإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر - طبع النجف الأشرف.
- طبقات ابن سعد - طبع بيروت - ١٩٥٧م.
- عقيدة الشيعة - لدونالدسن - طبع القاهرة - ١٩٤٦م.
- عقيدة الشيعة في الإمام الصادق وسائر الأئمة عليهم السلام - لحسين يوسف مكّي - دار الأندلس - بيروت - ١٩٦٣م.
- علل الشرائع - للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابوية (المتوفي سنة ٣٨١هـ) - المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف - ١٣٨٥هـ.
- العلوم الطبيعية في القرآن - للدكتور يوسف مروّة - بيروت.
- عيون أخبار الرضا (ع) لابن بابوية - تحقيق مهدي الحسيني اللاجوردي - قم المشرفة - ١٣٧٧ هـ.

- فرق الشيعة لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي (المتوفي سنة ٣١٧هـ) - طبع جمعية المستشرقين الألمانية - استانبول - ١٩٣١م.
- الفِصَل في الملل والنحل - لعليّ بن أحمد بن حزم - طبع مصر - ١٣٢١هـ.
- فلاسفة الشيعة - لعبد الله نعمة - دار مكتبة الحياة - بيروت.
- الفهرست - لابن النديم - تحقيق رضا تجدد - طهران - مطبعة دانشكاه طهران - ١٩٧١م (ويلاحظ أن رضا تجدد ضبط اسم مؤلف "الفهرست" بالنديم لا ابن النديم).
- مروج الذهب - لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (المتوفي سنة ٣٤٦هـ) - دار الأندلس - بيروت - ١٩٧٣.
- مُسند جعفر الصادق (ع) - دار الفكر - بيروت - ١٩٥٠م.
- المقالات والفرق - لسعد بن عبد الله الأشعري - طبع طهران - ١٩٦٣م.
- مقدّمة ابن خلدون - لعبد الرحمن ابن خلدون - بيروت - ١٩٥٦م.
- الملل والنحل - للشهرستاني - طبع القاهرة - ١٣٢١هـ.
- مناقب آل أبي طالب - لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب (المتوفي سنة ٥٨٨ هـ) - قم المشرفة - إيران.
- وسائل الشيعة - لمحمد بن الحسن الحر العاملي - ٩ أجزاء - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩١هـ.
- وفيات الأعيان - لابن خلّكان شمس الدين أبي العباس - طبع مصر - ١٩٤٩م.

ثبت المراجع الأجنبية

- P. Kraus, Jabir Ibn Hayan, contribution à l'histoire des Idées Scientifiques dans l'Islam - Le Caireo, 1943.
- H. Laoust; les Schismes dans l'Islam, Paris, Payot.
- Julius Ruska: Ga'far Alsadiq der seckeste Imam, Heidelberg, 1924.
- AL - Khayyat, K' al - intisar, ed. H. S. Nyberg, Cairo, 1925.
- H. Corbin et S. H. Nasr et O. Yahia, Histoire de la Philosophie islamique, vol II, Paris, Gallimard, 1964.
- H. Corbin. de la situation philasophique du Shi' isme (Le Monde non - chrétien), avril 1964.
- La Revue des Etudes Islamiques, Paris.
- Encyclopedie de l'Islam, Paris.
- Encyclopedia of Philosophy, New York.
- T. B. Taylor, Ga'far Al-Sadiq Spiritual Forebear of the sufis, (Islamic Culture, vol XL, n.2), April 1966.
- T. Fahd: Ga'far As-sdiq et la tradition scientifique arabe, (Le Chiisme Imamite), Travaux du Centre d'études superieures spécialisées d'histoire des religions.



فهرس

خاتمة الكتاب

صدر عن دار الفاضل

١ – **المحاكمات الكبرى في التاريخ**

تأليف فريدريك بوتشر – ترجمة: د. نور الدين حاطوم.

٢ – **مذاهب السعادة**: تأليف : د. عادل العوا.

٣ – **قراءة خطوط اليدين**: تأليف غريغوار شكريان – ترجمة لجنة الترجمة في دار الفاضل.

٤ – **الألعاب والناس (سيكولوجية العلاقات الإنسانية)**: تأليف إيريك برن – ترجمة وجيه الأسعد.

٥ – **إرادة الحضارة** : تأليف : تيسير شيخ الأرض.

٦ – **المغناطيسية** : تأليف: جاك مندور – ترجمة لجنة الترجمة في دار الفاضل.

٧ – **أنا بخير.. أنت بخير** : تأليف: أمي وتوماس هاريس – ترجمة لجنة الترجمة في دار الفاضل.

٨ – **تحديث الأسرة والزواج**: تأليف : د. عادل العوا.

٩ – **الذهب** : تأليف : أ. س . مارفونين – ترجمة: ميشيل خوري.

١٠ – **الدليل الجديد للصحة باستخدام النباتات**: تأليف : كلود غارده –

ترجمة لجنة الترجمة في دار الفاضل.

١١ – **بلقنة العالم (النظام الجديد وتقسيم الكون)** : تأليف : إيف ماري لولان –

ترجمة لجنة الترجمة في دار الفاضل.

١٢ – **العدالة للجميع** : تأليف : كازا مايور – ترجمة : د. عادل العوا.

١٣ – **حب شديد اللهجة (نصوص في العشق) – الجزء الأول**: تأليف : ياسين رفاعية.

١٤ – **كل لقاءٍ بك وداع (نصوص في العشق) – الجزء الثاني**: تأليف : ياسين رفاعية.

١٥ – **أحبك وبالعكس أحبك (نصوص في العشق) – الجزء الثالث**: تأليف : ياسين رفاعية.

١٦ – **محبة ووفاء** : ذكرى مرور عام على وفاة الأديب عبد الرحيم آل شلبي .

١٧ – **علم الدلالة** : تأليف : كلود جرمان وريمون لوبلان – ترجمة د. نور الهدى لوشن.

١٨ – **من أعلام الأدب العربي الحديث** : تأليف: عيسى فتّوح.

١٩ – **المحاكمات الكبرى في التاريخ (طبعة ثانية مُنَقّحة)** تأليف فريدريك بوتشر –

ترجمة : د. نور الدين حاطوم.

٢٠ – **حقوق الإنسان (الجزء الأول)** – تأليف: عبد الهادي عباس.

٢١ – **حقوق الإنسان (الجزء الثاني)** – تأليف: عبد الهادي عباس.

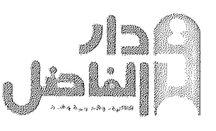
٢٢ – **حقوق الإنسان (الجزء الثالث)** – تأليف: عبد الهادي عباس.

٢٣ – **الإمام الصادق في نظر علماء الغرب** – نقله إلى العربية نور الدين آل علي.









دمشق - شارع شحماء - دخلة شعلواني - بناء الطيبي - ص.ب 3860
هاتف 2221657 تلكس فاديب 411201 برقياً : فاضلدار - دمشق